

وصف موجز لرحلة الراهب فيليكس فابري الأولى إلى الأرض المقدسة

في أيام الاحتفال بعيد الفصح، في سنة ١٤٨٠ لتجسيد ربنا، وفي اليوم التاسع من شهر نيسان، الذي كان يوم أحد، وهو اليوم الثامن بعد عيد الفصح، وهو الذي فيه يغنى « Quasi modo » الخ في الكنائس، والذي يحتفل فيه أيضاً بعيد تكريس كنيسة الدومينيكان في أولم، في ذلك اليوم نفسه، بعد الغداء، وحسبما جرت العادة، صعدت المنبر، ووعظت الناس الذين كانوا موجودين بأعداد كبيرة، لسماع القداس وللحصول على الغفران، وبعدما أنهيت قداسي، وقبل الاعتراف العام الذي يقوم به الناس في مثل هذه المناسبات، أخبرتهم جميعاً عن الحج الذي كنت على وشك الشروع به، وسألتهم جميعاً، والتمست أن يطلبوا من الرب في صلواتهم لي عوداً سليماً، وأن يغنوا معي في ذلك الوقت بسرور مزمور قيامة الرب، الذي اعتاد الناس على غنائه مع بعضهم، مع مزمور الحجاج بالبحر، وبعدما قلت هذا، شرعت أنشد بصوت مرتفع «قام المسيح» الخ، وعندما انتهت هذه التريمة، غنيت مجدداً:

، In gottes Nahmen Fahren wir, Seiner gnaden
وغنى جميع الناس التريمة ورائي، وهي التي شرعت بها، غنوها بأصوات مرتفعة وجميلة، وكرروا ما غنوه مراراً وتكراراً، كما أنهم لم يضبطوا أنفسهم عن البكاء، وانفجر بعضهم بالبكاء بصوت مرتفع بدلاً من الغناء، لأنه كان هناك عدد كبير من الأشخاص من كلا الجنسين قلقين ومتوترين، وخائفين، مثلما كنت أنا نفسي خائفاً من الهلاك وسط هذا القدر من المخاطر المرعبة، وعندما انتهى الغناء أودعتهم لعناية

الرب، بأن أضيفت عليهم غفراناً عاماً، وقويت عزائمهم بشارة الصليب، وودعتهم، ونزلت من على المنبر.

وبعدما تلقيت في الصباح الباكر من اليوم الرابع عشر من نيسان المباركة التي تعطى إلى الذين على نية السفر، وبعدما قبلت إخواني وعانقتهم، ركبنا على خيولنا، أنا والمقدم المحترم لودويغ، مع خادم من مدينة أولم، حيث التقيت وفقاً لموعدي مع السيد أبولينارس فون ستين، وبصحبه ابنه جورج، وعدداً كبيراً من الجنود المسلحين، وعلى الفور أجرينا في اليوم التالي الاستعدادات للمغادرة، وودع الشاب النبيل أباه، وجميع أقربائه وحاشيته، وركب فرسه دونما وجل أو أسى، واندفعت أنا أيضاً إلى بين ذراعي أبي الروحي اللطيف جداً والمحبوب، أطلب منه الوداع، والمباركة الأبدية، إنما ليس من دون حزن وأسى، ظهر منا كلانا بوساطة كثير من الدموع والتهنيدات، ولم يكن هناك شيئاً عجيباً حول هذا، لأن الفراق الاجباري للابن عن أبيه وللرجل الصادق عن أصدقائه المخلصين، من الطبيعي هو محزن.

وفي أثناء عناقي وتنهداقي سمعت آخر كلمات أبي المحبوب جداً ونصائحه، بأن لا أنساه في الأرض المقدسة، وأنه إذا ما توفر رسول، بأن أرسل له رسالة من البحر، أخبره فيها عن أحوالي، لكي يتأكد من عودتي سريعاً، وهكذا تركني وهو أسف جداً، وعاد مع خادمه إلى أولم، إلى أبنائه الذين هم إخواني، وبعد مغادرة أبي، استولى عليّ إغواء لا يمكن مقاومته، بدلاً عن رغبتني الجائعة لرؤية القدس، والأماكن المقدسة، التي كانت تتوهج في داخلي حتى ذلك الحين، فقد ماتت كلياً في داخلي، وشعرت بأنني أكره السفر والترحال، والحج، فالذي بدا لي حلواً وفضيلاً، ظهر الآن أنه مرهق، ومؤلم، وبلا فائدة، وفارغ وأثيم، وكنت غاضباً من نفسي لإقدامي على الترحال، ونظرت إلى جميع الذين حاولوا ثنيي عن القيام بالرحلة، بأنهم أحكم المستشارين، وأوثق

الأصدقاء، وفي الوقت نفسه عدت الذين شجعوني أعداء حياتي، وصرت أرى أنني سأتمتع أكثر برؤية سوايبا من رؤية بلاد كنعان، وبدأت أولم إلي أكثر جمالاً من القدس، فضلاً عن هذا ازداد الخوف من البحر في داخلي وتضاعف، وشعرت بكثير من مشاعر المعارضة والرفض لذلك الحج، إلى حد أنه لولا الخجل، لركضت خلف المقدم لودويغ، وعاددت الدخول إلى أولم معه، وكنت سأشعر بالسرور الأعظم لفعل ذلك.

وبقي هذا الاغواء اللعين معي موجوداً طوال الرحلة كلها، وكان مزعجاً جداً لي، لأنه ذهب بكل السرور، والمتعة، والرغبة، فبذلك يدعم الحاج جهوده، وذلك يحثه على الاستمرار بعمله، وقد جعلني باهتاً وبليداً في كل من مشاهدة الأماكن الجديرة بالاهتمام في البحر والبر، وفي كتابة رواية عنهم، وكان الذي كتبته هو ضد مزاجي، لكن نجحت أحياناً في التغلب على سئمي بالعمل المرهق.

وعلى هذا انطلقت أنا والشاب السيد جورج، وخادم اختاره من حاشية أبيه، وأقلعنا من ميمنجن، وفي خلال عدة ساعات بدأ يصبح صديقاً لي، وعارفاً بي، وصرت أيضاً أنا صديقاً وعارفاً به، وقد توافقنا بطباعنا المتنوعة معاً بشكل جيد، وهذا أمر مريح جداً للذين يقومون بالحج مع بعضهم، لأنه إذا ما كان مع الانسان رفيق على غير وفاق معه، سيلفهما الأسى والويل طوال حجتهما.

وهكذا دخلنا إلى الألب مبتهجين حتى انسبروك Innsbruck ، وبعد مغادرتنا لذلك المكان، ركبنا وتقدمنا مسرعين، من أجل أن نصل في أقرب وقت إلى البندقية، وعندما كنا في الجبال، حدث حادث معنا أرغب في إخباركم عنه، فعندما وصلنا إلى قرية اسمها أدسكالام Ad Scalum ، شردنا هناك وابتعدنا عن طريقنا الصحيح، الذي هو الطريق الملكي العام، لأنه كان من المتوجب علينا تسلق الجبل، والعبور

من قرب القلعة القائمة على قمته، وعلى كل حال نحن لم نفعل ذلك، بل خلفنا الجبل والقلعة على جانبنا الأيسر، ونزلنا إلى وادي، من خلال طريق طويل، وممهّد بشكل جيد، وعندما تملكنا أخيراً إمكانية رؤية السهل القائم تحت الجبل، رأينا أمامنا بلدة ذات حجم جيد، الأمر الذي أدهشنا، لأننا لم نكن نعلم بأننا سنصل إلى أي بلدة في ذلك اليوم، وعندما وصلنا إلى تلك البلدة وجدنا أنها كانت باسانو Bassano ، وأدركنا بأننا شردنا عن طريقنا، وبقينا على كل حال هناك لمدة ليلة، وشربنا نبيذاً أحمر، هو الانتاج الخاص لذلك المكان، وظللنا نفعل ذلك حتى غلبنا النعاس، وكنا على كل حال غير مرتاحين مطلقاً، لأنه لم يكن هناك في النزول أحداً يمكنه التحدث بالألمانية معنا، وبما أننا كنا نجهل الإيطالية، توجب علينا أن نسأل عن كل شيء بالإشارة.

وركبنا في اليوم التالي إلى قلعة فرانكو، ومن هناك مررنا خلال تريفيسو Treviso ، حيث بعنا خيولنا، وتابعنا السفر على البغال إلى مرغيروم Margerum ، وفي مرغيروم قلنا لليابسة وداعاً، وسافرنا بالبحر في بارجة، حيث أبحرنا حتى البندقية ثم إلى فونداكو دي تديتشي Fondaco de Tedeschi ، وسألنا في فونداكو عن نزل للفرسان والحجاج، وأخذنا من قبل واحد من الألمان إلى نزل القديس جورج، الذي كان نزلاً واسعاً ومحترماً، ووجدنا هناك عدداً كبيراً من النبلاء من مختلف البلدان، كلهم قد ربطوا أنفسهم بالتعهدات نفسها مثلما فعلنا نحن شخصياً، وكانوا ينوون عبور البحر، وزيارة ضريح الرب يسوع الذي هو أعظم الأضرحة قداسة، وكان هناك أيضاً بالنزل الأخرى كثير من الحجاج من كل من الكهنة والرهبان والرجال العلمانيين، والأعيان والعاديين، من ألمانيا، وغاليا وفرنسا، وكان هناك بشكل خاص أسقفان، وهما مولاي أسقف أورلين، ومولاي أسقف لى — مانس، مع حاشية كبيرة من التابعين والخدم، ولقد كانوا هناك

ينتظرون إبحار إحدى السفن، وفضلاً عن هذا كان هناك معنا بعض النسوة المتقدمات بالسن، وكن عقيلات ثريات، عددتهن ست، يرغبن بعبور البحر إلى الأماكن المقدسة، وكنت مندهشاً تجاه شجاعة تلك النساء العجائز، اللائي كن بسبب تقدمهن بالسن بالكاد قادرات على القيام بأود أنفسهن ومع ذلك نسين ضعفهن، والتحقن من خلال حبهن للأرض المقدسة بفرسان شباب، وتحملن أعباء ومتاعب الرجال الأقوياء.

وعلى كل حال لم يكن النبلاء المتكبرين راضين عن هذا، ورأوا عدم النزول في السفينة التي سوف تسافر بها هؤلاء السيدات، عادين أنها إهانة بالنسبة لهم السفر وتلقي شارة شرف الفروسية برفقة نساء عجائز، وحاول أصحاب هذه الأرواح المتشاخنة إقناعنا بعدم العبور في السفينة التي عزمت النساء العجائز على الإبحار فيها، لكن الفرسان الآخرين من ذوي الضمائر عارضوا هؤلاء الرجال المتشاخين، وكانوا سعيدين بحضور أولئك النسوة الصبوريات، وكانوا يأملون أن قداستهن سوف تجعل رحلتنا آمنة أكثر، وعلى هذا الأساس تفجر نزاع لا يمكن فضه بين هؤلاء النبلاء، وقد استمر حتى نقل الرب أولئك الرجال المتشاخين من بيننا، وعلى كل حال هؤلاء النسوة التقيات بقين برفقتنا في كل من أثناء الذهاب إلى هناك، ثم في أثناء العودة.

وكان الآن السيد أوغسطين كونتاريني Contarini ، الذي معنى اسمه هو «كونت الراين»، وهو نبيل بندقي، كان ذاهباً ليأخذ شحنة من الحجاج، واتفقنا معه حول الإيجار، واكترينا غليونيه، وتسلمنا منه قمرات وأغطية، أي أماكن لكل واحد منا للنوم في الغليون، وأملنا بعبور سريع، ذلك أننا انتظرنا أياماً كثيرة، كان الغليون خلالها يعدّ من أجل البحر، لكن عندما كان كل شيء جاهزاً، ولم يبق شيء لعمله سوى الإقلاع، الذي تشوقنا كثيراً إليه وللقيام به، وصلت سفينة، حملت

أخباراً سيئة، بأن امبراطور الأتراك محمداً الكبير كان يتولى حصار جزيرة رودس بحراً، بأسطول كبير في البحر، وبجيش شاكى السلاح من الفرسان والرجالة برأ، وأن بحار: الإيجي، والكارباثيان Carpath-ian ، والماليان Malean كانت تعج بالأتراك، وأنه على ذلك من غير الممكن القيام خلال هذا العام بعبور الحجاج إلى الأرض المقدسة، ولن يكون سهلاً بالنسبة لي الحديث بأي أسف تلقى الحجاج هذا الخبر وسمعه، وسيكون مرهقاً بالنسبة لي الحديث عن الفوضى، والخلافات والنزاعات التي تفجرت بين صفوف الحجاج، وقمت على كل حال في عمل آخر، بوصف جميع المصاعب التي كابدناها في البندقية، وكيف انفصل الفرنسيون عنا، مع أنهم كانوا ينتمون إلى غليوننا، واجتمعنا الآن نحن الحجاج الألمان، مع بعضنا، وقابلنا رئيس مجلس شيوخ البندقية، مع التماس بأن يتكرم اللوردات هناك بحماية غليوننا مع إعطائه أماناً بالمرور، حتى لا يؤخذ من قبل الأتراك، ونؤخذ نحن معه أسرى، وتلقينا لالتماسنا جواباً، بأن الغليون بذاته يمتلك الحرية بالجواز بين الأسطول التركي، ويمكنه القيام بذلك، دون أن يتعرض للاستيلاء عليه بفضل المعاهدة بين الأتراك والبنادقة، غير أن اللوردات كانوا على غير استعداد لإعطائنا أية ضمانات، فيما يتعلق بحرية الحجاج، ولم ينصحوا بمحاولة العبور هذا العام، لكن إذا كنا جميعاً مصريين على الذهاب، يمكننا الابحار حتى جزيرة كورفو، حيث يرسو قائد البحر مع أسطول البنادقة، ويمكننا هناك أن نتبع بأمان نصيحته، لأنه يعرف جميع أعمال الأتراك، وعندما وافقنا على فعل هذا، أعطونا رسائل توصية إلى القائد المتقدم الذكر، وأذنوا لنا بالذهاب، وزودوا قبطان سفيتتنا بإذن لأن يأخذنا إلى البحر، مع أنهم من قبل كانوا قد منعه من أخذنا إلى أي مكان.

وبناء عليه صعدنا جميعاً من حجاج وسواهم على ظهر الغليون،

وكان عدد الحجاج مائة وعشرة، وكان تعداد الناس جميعاً الذين أقبلوا بالغليون ثلاثمائة وثلاثين، ورفعنا مراسينا، ونشرنا أشرعتنا، وأقلعنا باسم الرب، وأبحرنا أمام الريح، التي كانت لطيفة بما فيه الكفاية، وهكذا سرنا في خلال ساعتين مسافة جيدة حيث ابتعدنا عن اليابسة، وصرنا في أعالي البحار، وعلى كل حال لم تستمر ريحنا الطيبة طويلاً، ورسونا في اليوم الثالث في بارنشيا (Parenzo) Parentia

الموجودة في منطقة استريا Istyria التي هي جزء من مملكة دلماشيا.

وأخافنا الناس هناك. بإخبارنا حكايات مرعبة عن الأتراك، ولهذا مكثنا هناك لعدة أيام، لأنهم أخبرونا أننا لن نستطيع الوصول إلى جزيرة كورفو دون التعرض للأذى، لأن الأتراك قد نشروا أسطولهم فوق جميع البحر الأدرياتيكي، واصطادوا واستلبوا جميع الذين قابلوهم، وعلى كل حال غادرنا ذلك الميناء، ووصلنا بعد إبحار بطيء لعدة أيام إلى زارا، ورسونا فيها، وهي مدينة في دلماشيا، إنما لدى سماعنا بأن الطاعون كان متفشياً هناك، ابتعدنا بسرعة عن تلك المدينة، وبعد رحلة بطيئة ومملة وصلنا إلى مدينة ليسينا Lesina ، وعندما كنا على وشك الدخول إلى الميناء، هبت ريح طيبة، لها نشرنا أشرعتنا، وغادرنا ليسينا، وتابعتنا الأبحار بشجاعة لمدة عدة ساعات، وهبت بعد ذلك ريح هادئة، كانت غير مفيدة بالنسبة لنا، فأردنا التوقف، فأتينا إلى جزء وعر ومهجور من شاطئ كراوشيا Croatia ، وأرغمنا على التوجه نحو ميناء مهجور، ولأن نطوي أشرعتنا في وسط جبال وعرة عالية، ولكي نبذل الأجواء على أنفسنا، ذهبنا إلى الشاطئ بقوارب صغيرة، وفوجئنا بأن رأينا هناك فوق الرمال جسداً قد قذف به البحر، وهو مشوه ومتعفن، وبما أن البحارة كانوا من ذوي الوهم، فقد خافوا إلى حد الموت من هذا الاكتشاف، وبدأوا يتوقعون وقوع الشرور بالنسبة لنا، وأبعدونا عن

الجسد، ولذلك لم يكن هناك أي واحد بيننا من امتلك شفقه نحوه أو تولى دفنه.

* * * * *

هذا وتهب رياح هذه البلاد أعلى فأعلى، ولقد بقينا لمدة ثلاثة أيام وثلاث ليالي واقفين راقدين بين هذه الصخور، وكنا كلما حاولنا الانطلاق، كنا نساق إلى الوراء عائدين بقوة الريح، مما كان يسبب إزعاجاً عظيماً لنا جميعاً، وعلى كل حال لقد أنقذنا هذا الازعاج، لأنه بعد ثلاثة أيام هبت رياح لطيفة خارج ذلك المكان، وأخذنا طريقنا إلى أعالي البحار، حيث التقينا بغليون حربي بندي، وعندما مررنا بهذا الغليون، سأل قادتنا عما إذا «حدث لنا أي شيء في البحر البارحة أو قبل البارحة»، وعندما أجبناهم: «لا شيء سوى رياح خبيثة أرغمتنا على اتخاذ ملجأ تحت الجبال» فأجابونا: «بوركت هذه الرياح التي دفعتكم إلى أماكن للاختباء، لأنكم لو كنتم البارحة في عرض البحر المفتوح، لوقعتم في أيدي الاسطول المسلح للأتراك، الذي كان مبحراً نحو أبوليا لينهب المسيحيين هناك»، ولدى سماعنا بهذا حمدنا الرب الذي أنقذنا حتى الآن من أيدي الأتراك.

ومضينا على طريقنا، ووصلنا بعد عدة أيام إلى كورزولا Cur-zola في إيليريا Illyria ودخلنا إلى ميناء مدينة كورزولا في الصباح الباكر، وسمعنا قداساً هناك، وكورزولا التي هي مدينة في إيليريا لها اسم آخر هو «بريبو في ألتو Prepo in alto»، وهي مبنية فوق جبل مرتفع، وهي صغيرة، ومع ذلك مكتظة بالسكان، وهي تحت حكم البندقية، كما أنها جيدة التحصين بالأسوار والأبراج، وهي مقر أسقف.

وكان السكان جميعاً في حالة رعب عظيمة، من الأتراك الذين رأوهم

يوميّاً يجوبون البحر بحثاً عما يمكن نهبه، فهم قد ينقضون عليهم، وتساءلوا مندهشين كيف يمكن لنا أن نغامر بالإبحار فوق بحر مرعب وخطير إلى هذا الحد، ونصحنا الأكثر حكمة بينهم بالعودة، غير أننا لم نصنع إليهم، وعاولدنا الاقلاع، بعدما اشترينا من هذه المدينة الخمرة، والخبز، وأشياء ضرورية أخرى، وحدث أنهم عندما كانوا يحركون قلع السارية ويرفعونه بدون انتباه من قبل واحد من البحارة، سقط ثانية، فأصاب بحاراً آخر، فقتله في مكانه، وكان مولاي أسقف مانس واقفاً إلى جانب هذا القلع الخطير الذي سقط هناك، وكنت أنا إلى جانبه مع آخرين كثر، وكنا جميعاً على وشك أن نصاب به وأن نقتل، وأما بالنسبة للرجل القليل فقد لفوه بكفن، وربطوا حقيبة مليئة بالحجارة إلى قدميه، ورموه إلى البحر.

وأبحرنا مسرعين من كورزولا، ووصلنا في حوالي منتصف الليل إلى إبيداوروس Epidaurus ، التي اسمها الحديث هو راغوثا Ra-gusa، وتوقفنا في راغوثا، وألقينا بمراسينا، وأوقفنا سفيتنا ونمنا حتى شروق الشمس، ودخلنا المدينة بعد ذلك، غير أننا لم نجد فيها نزلاً مثلما الحال في بلادنا، وبناء عليه ذهبت أنا مع السيد جورج ستين، وبعض النبلاء الآخرين إلى دير تابع لطائفة الدومينيكان، وسألناهم إعطاءنا شيئاً لنأكله مقابل مال ندفعه، وقد جلبوا لنا ميرة جيدة مع دن خمرة سكلافونية Sclavonian كبير، وعاملونا بشكل لطيف.

وجاء رئيس الدير على الفور، جالِباً معه اثنين من الرهبان، هما الراهب فرانسيس دي كاتورو Gatoro، والراهب دومونيك، وقد عهد بهما إليّ، وأعطاني إياها ليكونا رفيقي في رحلتي، وذلك لأنها رغبا بالذهاب إلى القدس برفقتنا، ولقد سررت نحو هذا بشكل خاص، لأنني حتى ذلك الوقت كنت بلا واحد من رهبان طائفتنا، وكانت رفتنهما بالنسبة لي مرغوبة أكثر من الذهب الجيد، وبعدما فرغنا من

تناول طعامنا، ورأينا الدير، تمشيينا في أرجاء المدينة ورأيناها، ومثل هذا فعل بقية الحجاج، ولقد رأينا بأن تلك المدينة كانت محصنة بشكل رائع بأبراج وبخنادق عميقة جداً، كان الناس يحفرونها آنذاك، وعجبنا لهذا، وسألناهم عما إذا كانوا هم أيضاً يخشون من التركي، مع أنهم يدفعون الجزية إليه، فأجابوني قائلين: «نحن نخاف منه دوماً، ونقوم بتحسين أنفسنا ضده، لأنه وإن كان صديقنا اليوم، سوف يكون عدونا غداً»، وقد وجهوا اللوم إلى تشوقنا للمغامرة فوق البحر في مثل ذلك الوقت المرعب، وذلك في وقت لم يتجرأوا فيه على اظهار أنفسهم في البحر، وحاولوا إقناعنا بالبقاء هناك حتى تأتي أخبار أفضل، ولسوف أصف هذه المدينة والأماكن الأخرى في روايتي لدى عودتي من حجي الثاني.

وعلى كل حال عندما تأخر النهار، صعدنا إلى ظهر غليوننا، وشرعنا منطلقين من ميناء راغوثة في ذلك المساء مع ريح طيبة، وقطعنا مسافة طويلة تلك الليلة، وعند بزوغ الفجر هبت ريح معاكسة قوية، أخرجتنا عن مسارنا الصحيح، ودفعتنا نحو أبوليا، التي رأيناها أمامنا، ولم يستطع بحارتنا ببراعة ضبط مسار سفيتنا لكي نصل إلى الشاطئ عليها، وهكذا وصلنا بعد إبحار طويل إلى جزر نموزا بولس - Gqzap- olis، وهناك لم يكن لدينا ريح، كما أننا لم نتحرك، إلا بواسطة العمل الكسول للمجاذيف بواسطة البحارة، والمهم أننا تابعنا الزحف ببطء والتقدم نحو الأمام.

وهكذا وصلنا إلى مكان حيث توجد مدينة فوق جبل، وهي مشرفة على البحر، وكانت مسورة بشكل جيد، لكنها كانت مهجورة تماماً بسبب تنفس تين، وذلك حسبما سأصف ذلك فيما بعد، ووصلنا بعد هذا، بعد رحلة مربكة بين جبال عالية، إلى جزء من البحر، بقي الغليون فيه مثبتاً فوق سطح الماء، ولم يكن بالإمكان تحريكه بالمجاذيف لا إلى اليمين ولا إلى الشمال، بل بقي — كما قلت — ساكناً بلا حراك، لأنه

كان تحته وهدة، يسمونها «متاهة»، أو فتحه في الأرض، كانت تبتلع شطراً كبيراً من البحر، وحيث كان الماء يجري نحو الأسفل في داخل هذه المتاهة، لهذا وقف الماء فوقها، منتظراً سقوطه إلى داخل المتاهة، وعندما لا يكون في ذلك البحر ماءً كثيراً، يدور الماء، وكل من يحاول السباحة فوقه هو معرض لخطر الغرق، وفي الحقيقة كانت السفن معرضة للابتلاع هناك، لولا أن الذين يركونها تجنبوا ذلك، وهكذا وقفنا بلا حراك في ذلك المكان، وبذل بحارتنا جهودهم بأصوات مرتفعة مع كثير من العمل لإخراج الغليون من هذه الوهدة، غير أن جهودهم تبددت عبثاً.

وعلى كل حال، عندما رأى أهل كوركيرا Corcyra هذا— حيث كنا في مدى الرؤية لجزيرة ومدينة كوركيرا— قدموا لمساعدتنا من كوركيرا، أو كورفو بجليونين صغيرين، وقد ربطوا حبالاً إلى غليوننا، ومدوهم إلى غليونيهما، وتمكنوا بالتجديف بجليونيهما، وبقوة عظيمة من سحب غليوننا من بين فكي الوهدة، وذلك خشية أن تبتلعنا الأعماق، وبعدما جرى انقاذنا على هذه الصورة، تابعنا سيرنا إلى جزيرة كوركيرا، ودخلنا إلى ميناء المدينة بعد غياب الشمس، الذي كان مليئاً بالسفن الحربية، لأن— كما تقدم للوردات مجلس شيوخ البندقية أن أخبرونا— قائد البحر كان هناك، مع اسطول مسلح للحفاظ على السلام في البحر، وهكذا نمنا حتى الصباح، وعند ظهور الصباح ذهبنا إلى الشاطئ ومن ثم إلى المدينة في قوارب صغيرة، ووجدنا المدينة تعج بالناس، حيث كان بينهم كثير من الأتراك يسرون هناك بين المسيحيين، وبعد سماعنا لقداس هناك، قمنا نحن الحجاج السوايون والبافاريون باستئجار بيت صغير في الضاحية وهناك طبخنا، وأكلنا، وشربنا، ونمنا. وكان ذلك البيت صغيراً، مبني من جذوع أشجار قديمة جداً، وجافة كثيراً، وهكذا حدث أنه نتيجة للنار العظيمة التي أوقدناها من

أجل الطبخ هناك، أن المكان التهب مرة تلو أخرى، ولقد استطعنا دوما اطفاء تلك النار، ولذلك لم نواجه أية اضطرابات بشأنها، ولكن لدى حدوث ذلك للمرة الثانية، شاهد الجيران النار وقد أمسكت بالسقف، فركضوا وهم يصرخون ويندبون، وفي الوقت نفسه صعدنا فوق السقف، بواسطة سلام، وانتزعنا الأطعمة من وسط اللهب.

وكنا في تلك المناسبة في خطر عظيم، لأن النار لو جمعت قوتها لكان المكان كله قد احترق، ووقتها كان السكان الإغريق في كوركيلا قد ضحوا بحياتنا انتقاماً لأنفسهم لفقدانهم بيوتهم، وخسارتهم لها، ذلك أنهم كانوا في الحقيقة عدوانيين جداً نحو الألمان، ومن السهل كثيراً إثارتهم لمقاتلتهم.

وبعدما تناولنا الطعام، قدمنا باحترام الرسالة التي تسلمناها من شيوخ البندقية، إلى قائد البحر، ورجوناه أن يقدم لنا نصيحته ومساعدته للاستمرار برحلة حجننا، ونصحنا، بعدما قرأ الرسالة، بالعودة إلى البندقية، ولكنه عندما أدرك أن هذه النصيحة كانت مفاجئة بالنسبة لنا، قال وهو مغضب: «أية حماقة تملكتمكم، حتى أنكم تريدون تعريض أنفسكم لمثل هذه المخاطر، تعريض كل من أجسادكم وأرواحكم، وتعريض حياتكم وممتلكاتكم؟، انظروا إلى البحر، إنه مغطى بالأتراك المتوحشين، حيث لا توجد فرصة لنجاتكم من بين أيديهم، عودوا إلى البندقية، أو أقيموا في واحد من المراسي البحرية حتى تأتي أخباراً أفضل، وإذا ما كنتم مصرين تمام الإصرار على الذهاب إلى الشرق، عليكم أن تدبروا بأنفسكم عبوراً لأنفسكم، ذلك أنني لن أسمح للغليون الذي قدمتم به بالابحار إلى هناك، لأنه من ممتلكات القديس مرقس».

وعندما سمعنا منه هذا كنا منزعين جداً، وانصرفنا من حضرته، وطلبنا منه منحنا بعض الوقت للتشاور، وبناء عليه انعقدت عقول

كثيرين، ولا سيما الأسقفين، وأخذوا بكلام القائد، وهكذا قررا العودة إلى البندقية مع جميع حاشيتهم، وكان حتى بعض من فرساننا مرعوبين، وكانوا جاهزين للعودة، لكن آخرين كانوا شجعانا فلم يتزحزحوا، والتحقت شخصياً بالمجموعة الأخيرة، وعملت بقدر ما أستطيع على تشجيع وتحسيس الأفراد المترددين، بوعظهم وباقتباس بعض النصوص من الكتابات المقدسة بهدف بعث الأمل فيهم بنيل الحماية الربانية.

وحدث في بعض الأيام، عندما كنت غائباً، أن قام السادة الفرسان في جماعاتنا وأخذوا يتحدثون عن مخاوف حجننا، وكان بعضهم ماضياً بالحديث، بينما كان آخرون مترددون ووقفوا صامتين، وقد قال أحدهم: «عليكم عدم الاصغاء مطلقاً إلى كلمات التشجيع التي يقولها الراهب فيلكس لكم، فما الحياة أو الموت بالنسبة له؟ فهو راهب محترف، ليس لديه ممتلكات، ولا أصدقاء، ولا مركز في الحياة، ولا شيء آخر في العالم، مثلما حالنا نحن، وأسهل بالنسبة له أن يموت سريعاً بسيف الأتراك أو المسلمين، من أن يصبح مسناً في دير، حيث يموت يومياً»، وقد قال أكثر من هذا بكثير محاولة لمنع السادة من الاصغاء لي.

وقد أخبرت بهذا كله، فقامت بعد ذلك بتحويل مجرى الحديث، في أن أضع بعض الشجاعة في الفارس نفسه لكي لا يمكن اقناعه بالعودة، وأبقانا القائد في كوركيرا لمدة ثمانية أيام، وقد أخبرنا في كل يوم أخباراً أكثر إرعاباً، وكنا نحن الألمان قد اتفقنا جميعاً بوجوب عدم العودة، بل أن نذهب باسم الرب إلى القدس، وأخيراً عندما رأى القائد أننا كنا قد عقدنا العزم على الذهاب وعلى تنفيذ نوايانا، عندها أفلع عن التدخل بحجننا، وبتنا جاهزين للانطلاق، حيث نقلنا أنفسنا إلى غليون آخر، كنا قد قمنا بشرائه.

وعندما بات جميع الذين رغبوا بالقيام بالرحلة مع بعضهم على ظهر

هذا الغليون، وفي أثناء تحدث أحدنا إلى الآخر بسرور وبهجة، ونحن واقفون على الدكة إلى جانب السارية، طلب واحد من الشيوخ منا الصمت، وشرع يخاطبنا قائلاً: «سادتي وأخواني الحجاج، نحن نقوم بعمل عظيم، وصعب، ومرهق، بتنفيذ هذا الحج بوساطة البحر، وأقول لكم الصدق، وأتحدث من الجانب الانساني باننا نعمل بشكل أحق بتعريض أنفسنا لخطر عظيم، ضد نصيحة وقناعة قائد البحر، وضد كل واحد آخر، ولهذا رأينا السيدين الأسقفين، وغالبية النبلاء، والأقوياء، والأعيان، وربما الأكثر حكمة في جماعتنا، قد تخلوا عن الرحلة، وهم الآن على طريق العودة إلى بلادهم، آخذين بالنصيحة، التي أعطيت لهم، في حين نقف في الاتجاه المعاكس، والآن، ولكي لا تكون رحلتنا مجرد حماقة آثمة، لابد أننا نحتاج إلى إصلاح حياتنا على ظهر هذا الغليون، وعلينا دوماً أن نطلب حماية الرب القدير وقديسيه، حتى نكون قادرين على أخذ طريقنا بين أعدائنا وبين أسطولهم».

ولدى سماعنا لهذه الكلمات قررنا بالاجماع التوقف عن اللعب بالورق أو بالنرد، على ظهر الغليون، وعن الخصومات، وعن الأيمان، وعن التقاذف بكلمات التكفير، وعدم السماح بذلك كله، وأن يضيف رجال الدين والكهنة صلوات ليلية لصلواتهم النهارية المعتادة، وفي الحقيقة، نشبت خلافات عظيمة حول هذه المسائل، قبل اتخاذ هذا القرار، لأن الناس كانوا يقامرون صباحاً، وظهراً، وليلاً، وبشكل خاص أسقف أورلين مع حاشيته، وفي أثناء ممارسة ذلك كانوا يقسمون ويجدفون بشكل مرعب، ويتخاصمون يومياً، لأن الفرنسيين والألمان كانوا دوماً على خلاف وشجار.

وهكذا حدث أن واحداً من أتباع أسقف أورلين ضرب كاهناً تقياً من جماعتنا، فاستحق على ذلك الحرمان الكنسي، وبما أن الفرنسيين قوماً متشائخين، ورجالاً انفعاليين، لهذا اعتقدوا أنه كان عملاً مصدره الهام

رباني وحكمة، أن انفصلوا عنا، وتخلصت عيوننا منهم، لأنه كان من شبه المستحيل الوصول إلى القدس برفقتهم من دون إراقة للدماء ومقتل لبعضنا.

وقد أمضينا ليلة واحدة في كوركيرا، ونمنا على ظهر السفينة، وفي تلك الليلة أصابنا رعب عظيم، لأنه في آخر النهار، وعندما أخذت الدنيا تزداد إظلاماً، وفي الوقت الذي كنا ما نزال فيه واقفين حول السارية نتبادل الأحاديث، اكتشفنا وجود قارب غريب، واقفاً إلى جانبنا، والذين كانوا فيه هم أتراك، وجواسيس، كانوا يحاولون الاصغاء إلى ما كنا نقوله، وعلى الفور فزعنا بأنفسنا إلى الحجارة، وقمنا برميها عليهم، وخلفهم عندما شرعوا يجذفون مبتعدين عنا، وتمكن على كل حال، القارب من الإفلات نحو البحر، والنجاة .

وفي الصباح التالي زعقت الأبواق لدينا، للإعلان أننا كنا على وشك الاقلاع، ورمينا بأربطة الغليون، وأدركنا ظهورنا للميناء ونحن نغني بهجة، أما الحجاج الذين بقيوا بعدنا، فقد وقفوا على الرصيف يضحكون علينا، وقالوا بأننا كنا رجالاً يائسين — Waghels ، وكانوا يتحدثون بشكل عام في كوركيرا، أننا لا بد من أن نقع بالأسر قبل أن نصل إلى مودون Modon ، وهكذا ابتعدنا عن كوركيرا ومضينا نتابع سفرنا بمزيج من البهجة والخوف.

وعاد الأربعون حاجاً الذين خلفناهم في كوركيرا في سفينة مستأجرة إلى البندقية، وعندما وصلوا إلى هناك، قالوا إنه لمن المؤكد أننا اعتقلنا من قبل الأتراك، وتحدثوا بالقصة نفسها في مدن أخرى في إيطاليا، وفرنسا، وألمانيا، وفعلوا هذا رغبة منهم لتسويغ جبنهم، وذلك بالاشارة إلى سوء حظنا، ونتيجة لهذا، عقدت قداسات كثيرة لفائدة روجي في عدة أماكن من سوابيا، لأن الحجاج نشروا هذه الأكاذيب في جميع

أرجاء سوايا وبافاريا.

وتقدمنا بالوقت نفسه تقدماً حثيثاً، وعبرنا بشكل مريح إلى مودون، ولم نشهد خلال الطريق ولا حتى قارباً فوق سطح البحر، الأمر الذي اندهش نحوه أهل مودون، لأن جميع العاملين بالبحر كانوا خائفين كثيراً، وحاول الألمان الذين كانوا يسكنون هناك، بإخلاص عظيم، ثنيًا عن محاولة الذهاب مسافة أبعد، وحدثونا بحكايات كثيرة مرعبة، لكن بالنسبة إلينا، كنا كما كنا من قبل، فنحن الآن غير خائفين من الاقدام على إنجاز رحلتنا، ومتابعة السير على طريقنا، وبتوجيه من الرب وإرشاد، وصلنا إلى كريت بسلام، ودخلنا بسرور إلى مرسى مدينة الخندق.

ولدى وصولنا إلى هناك يمكن للانسان أن يقول بأن أهل المدينة كلها قد خرجوا لاستقبالنا، لأنه كان أمراً عجباً، لابل إعجازاً، أن يتمكن غليون مسيحي من النجاة من الأتراك المتوحشين، الذين رأوهم يومياً يتجولون في البحر في غلايين مسلحة ذوات ثلاثة صفوف من المجذفين، وذلك بحثاً عما ينهبوه، ولقد دخلنا إلى بيت واحد من الألمان، الذي كان لديه بيت سيء السمعة، ومع هذا عندما وصلنا قام بتنظيف مسكنه، وأبعد العاهرات اللاتي كن لديه، ذلك أنه لم يكن هناك نزل آخر للحجاج، وفي مقابل هذا البيت كان هناك بيت آخر، كان نزلاً لتجار أترك، وكان به بالفعل كثير من التجار الأتراك الأثرياء، من القسطنطينية، وقد قال هؤلاء — كما أخبرنا — لنا: «هؤلاء الرجال سيضيعون إذا ما حاولوا المضي أبعد»، وأكثر من هذا جاء بعض هؤلاء الأتراك إلى بيتنا، ونصحونا بعدم الابحار في الوقت الحاضر، لأننا من المؤكد سنقع بالأسر، فضلاً عن هذا حاول دوق الخندق ومستشاروه أن يصنعوا معنا معروفاً، فأرسلوا بخطيب من عندهم لنا، حاول بكلام لاتيني منمق، أن يوجه حجاجنا، وأن يحثهم بكثير من الحجج، على أن

يكونوا ضد متابعة السفر، وأوضح أن المخاطر خلف هذا المكان سوف تكون أعظم من المخاطر التي واجهناها خلال سفرنا إلى ها هنا، لأنه يوجد ما بين كريت وقبرص، جزيرة رودس، التي كانت في تلك الآونة محاصرة من قبل الأتراك، ولا يمكننا في أثناء عبورنا أن نتجنب مواجهة القرصان الأتراك.

وقد بقينا هناك لمدة خمسة أيام، وسمعنا أخباراً أسوأ كل يوم، وعلى الرغم من هذا علونا ظهر غليوننا، وعملنا الاستعدادات للشروع، وأقلعنا مبحرين ونحن خائفين من أن تشور زوبعة، وتحمل الغليون وتضعه بين الأسطول والجيش التركي الذي كان يقوم بأعمال الحصار، وعلى كل حال، ما أن غادرنا الميناء حتى كنا في البحر المفتوح، ورأينا ريحاً قوية جداً قد هبت، إنما موافقة جداً لنا، حملتنا بعيداً عن الجزيرة التي اسمها سيكلادس Cyclades، حيث ابتعدنا أولاً عن رودس، ودفعنا على المتابعة بقوة مع ربح طيبة، التي ازدادت بشكل مستمر، وزجر البحر، وهاجت الأمواج، وتبع ذلك عاصفة هوجاء، وغطت المياه جميع الجزء الأعلى من السفينة، ومع ذلك كانت هذه العاصفة مفيدة جداً لنا، لأنها حملتنا نحو الميناء الذي نريد، ولأنها جعلتنا ناجين من المهاجمة من قبل الأتراك، ذلك أنه بات من غير الممكن بالنسبة لسفينتنا أن تقع بالأسر، وهي مبحرة بهذه الدرجة من السرعة.

وقمنا بإزاحة جميع مظاهر الحرب لدينا، من مدافع، ورماح، وحراب، وترسة، وواقيات، وقسي عادية، وقسي زيارة، وحجارة، وسهام، التي كنا قد جهزنا بها أنفسنا في كيركورا، من أجل صد هجمات الأتراك، لأننا رأينا أننا الآن قد نجونا من أعداء صليب المسيح هؤلاء، ووصلنا في اليوم التالي إلى قبرص، ودخلنا إلى ميناء ليماسول، لأن ريحاً مضادة أرغمتنا على التوجه نحو الميناء، وعندما همدت الريح، أبحرنا من هناك إلى ميناء لارنكا، عازمين على البقاء هناك لعدة أيام،

لأن قبطان سفينتنا كان له أخ في نيقوسيا في خدمة ملكة قبرص، وكان لديه بعض الأعمال ليجعلها معه، وطلب منا الانتظار حتى تنتهي هذه الأعمال.

وعندما انتهت أعماله وسويت، رفعنا مراسينا، وبتنا راغبين ومتشوقين للوصول إلى الميناء الآخر، لأنه لم يكن هناك مكان للوقوف فيه، ونحن على مسافة قصيرة من الأرض المقدسة، وأبحرنا بشكل مستقيم، فرأينا الأرض المقدسة في اليوم الثالث، وصدوراً عن البهجة في قلوبنا غنيا: « Tedeum Laudamus » بأصوات مرتفعة، ووجهنا سفينتنا نحو جوبا Joppa ، التي تعرف بشكل عام باسم يافا، وألقينا مراسينا إلى جوار صخرة أندروميذا Andromeda ، ومن هنا بعث قبطان السفينة واحداً من العبيد إلى القدس ليعلن إلى الأب مدير دير جبل صهيون، لكي يقدم مع رهبانه ومع حميره وسائقيهم لحملنا إلى القدس، وبناء على ذلك مكثنا في غليوننا لمدة سبعة أيام ننتظر وصول أدلائنا، ونزلنا بعد هذا في قوارب صغيرة، وأقمنا في غرف مقببة قديمة جداً، وكانت مدمرة وذوات روائح نتنه، حيث مكثنا هناك لمدة ليلة واحدة فقط، وركبنا بعد هذا الحمير التي أحضرت من أجلنا، وعلى هذا جرت مرافقتنا وحراستنا من قبل مسلمين، وغادرنا البحر وقدمنا إلى بلدة الرملة، حيث أقمنا لبضعة أيام، ثم دخلنا إلى القدس، حيث لم نؤخذ إلى مشفى (نزل ضيافة) بل إلى بيت في ميلو Millo حيث أكلنا، ونمنا وهكذا.

ولم نمض أكثر من تسعة أيام في الأرض المقدسة، حيث قمنا بجولة على الأماكن المقدسة المعهودة، بسرعة عظيمة، وكنا نعمل ليلاً ونهاراً لإنجاز حجتنا، وهكذا نادراً ما أعطينا وقتاً للراحة، وبعدما أكملنا بسرعة زيارة الأماكن المقدسة، وبعدما تسلم مولاي جورج فون ستين مع النبلاء الآخرين الفروسية في كنيسة الضريح المقدس، أخذنا أدلائنا

من المدينة المقدسة عبر الطريق حيث نزلنا إلى البحر، إلى المكان الذي كان غليوننا راسياً فيه.

ولم يبق أحد من الحجاج في القدس، إلا اثنان من الانكليز، اللذان رغبا في عبور الصحراء إلى القديسة كاترين (دير جبل سيناء)، وكنت راغبا بالبقاء معهما، لو أنها عرفا اللغة الألمانية أو اللاتينية، وبما أنني كنت غير قادر على الحديث معهما، وكنت سأتحمل الحاجة إلى لغة عامة مع الصبر، ولولا أنني عازمت على العودة ثانية إلى القدس، لأنه منذ حلول ساعة مغادرتنا للمدينة المقدسة، قررت، وقطعت عهداً على نفسي بأنني سوف أعود بأسرع ما يمكن، وعددت هذا الحج مجرد توطئة للحج الذي أنوي القيام به.

وكان حالي هنا حال تلميذ أراد حفظ بعض النصوص وخزنها بالذاكرة، حيث كان يقوم أولاً بالقراءة دونها عناية، ثم يقوم ثانية بالقراءة ببطء وتؤدة، ويأخذ من الوقت ما فيه الكفاية لإبقاء النص وحفظه بالذاكرة، وهكذا كنت بالنسبة لما قررته، ذلك أنني لم أكن مقتنعاً بما شاهدته، ثم أنني لم أودع ما رأيته في الذاكرة، بل تركت ذلك لحج مستقبلي.

وعندما وصلنا إلى البحر، كنا جميعاً ضعفاء بسبب ما بذلناه من جهد، وكنا قد أصبنا بالإرهاك بسبب الحرارة، وسهر الليالي، والمصاعب التي تحملناها، وكما كنا مرضى وضعنا على ظهر غليوننا، الذي صار مليئاً إلى حد بعيد بأفراد تعساء، وبعد مضي كثير من الأيام عدنا إلى قبرص، وإثر رحلة طيبة وصلنا إلى ميناء اسمه سالينا Salina، وقمنا من هنا برحلة حج اسبوعية إلى قرية مجاورة ولكن الأثرياء منا قاموا باكتراء خيول وركبوا مع بعضهم برفقة قبطان السفينة إلى نيقوسيا، التي هي حاضرة قبرص والمقر الملكي، وهي تبعد ستة أميال ألمانية عن البحر.

وهناك عادة قديمة قضت بأن الذين عملوا فرسانا في الضريح المقدس، عليهم أن يقدموا أنفسهم إلى ملك قبرص، وعقد نوع من أنواع معاهدات الولاء معه، وهو سيدعوهم باسم إخوانه وسيدرج أسماءهم في كتابه، ويعطي كل واحد منهم خنجراً فضياً وغمده مع حزام، ويكون معلقاً في نهاية الخنجر وردة مصنوعة من الفضة، تمثل اللون الأرجواني الذي هو شعار الطائفة.

وبناء على هذا ركب مولاي جورج فون ستين، الذي لم أفارقه أبداً، في نيقوسيا معي، ومع النبلاء الآخرين، ذلك أننا مكثنا هناك لمدة ثلاثة أيام، وبما أنه لم يكن هناك ملك في قبرص، سأل النبلاء الملكة بأن تسمح لهم بالانتماء إلى طائفة ملوك قبرص، وقد دعتهم للحضور إلى القاعة الكبرى، وهناك صفتهم أمامها، وأوصلت إليهم من خلال مترجم قوانين هذه الطائفة، التي قضت أنه يتوجب عليهم في وقت الحاجة النضال للدفاع عن مملكة قبرص، مقدرين ومدركين أنها واقعة بين المسلمين، والترك، والتتار، وبعدها أقسموا يمين الولاء إلى الملكة بأيديهم، أعطتهم خناجرهم، وسمحت لهم بالمغادرة.

وركبنا بعد هذا عائدتين ثانية إلى البحر، ولدى مرورنا بسفح جبل مرتفع جداً، توجد على قمته بيعة، أخبرونا أن فيها صليب اللص الجيد معلق بشكل رائع، وكنت أتمنى رؤيته، لكن لم يتوفر لدي الوقت، ولذلك أجلت هذا إلى حجي الثاني، وعندما وصلنا إلى البحر وإلى غليوننا، وجدنا أن اثنين من الحجاج قد ماتا، وكان واحد منهما راهب من طائفة الفرنسيكان، وكان رجلاً شجاعاً ومثقفاً، وكان الآخر خياطاً من بيكاردي picardy ، وكان رجلاً أميناً وجيداً، وكان عدد آخر في سكرات الموت، ونحن أيضاً الذين قدمنا من نيقوسيا، رمينا أنفسنا على فرشنا مرضى كثيراً، وصار رقم المرضى كبيراً جداً، إلى حد أنه لم يعد هناك من يتولى خدمتهم وتزويدهم بالضروريات وعلى

كل حال نظرت العقائل المسنات إلينا وإلى تعاستنا، فتحركن بعاطفة ورحمة، وتولين العناية بنا، لأنه لم يكن بيننا من ليس مريضاً، وهنا قام الرب، بوساطة قوة هؤلاء العجائز، بالتقليل من شأن شجاعة أولئك الفرسان الذين عاملوهن باستخفاف، وكانوا لا يرغبون بالابحار معهن، فقد تنقلن من مكان إلى آخر في جميع أرجاء الغليون، أي بين رجل مريض وآخر، وخدمن الذين سخرروا منهن واستخفوا بهن، وهم ممددون فوق فرشهم لا يملكون حراكاً، فضلاً عن هذا استولى علينا، بالاضافة الى مرضنا وعذابنا، الخوف مجدداً من الأتراك، وبدأنا الآن نخاف حتى منهم أكثر مما فعلنا من قبل، وفي الوقت نفسه رفع رجال الغليون أربطة الغليون ومكنوه من الابحار، وعندما صرنا في البحر لم نجد ريحاً تساعدنا، بل بقينا نسير ببطء شديد أمام سواحل قبرص، ولهذا عدنا ثانية إلى قبرص، ورسينا في ميناء ليماسول غير المسكون، حيث انتظرنا بفارغ الصبر هبوب ريح طيبة، وبعد انتظار يومين انطلقنا مجدداً نحو البحر، إنما هبت الآن ريح قذرة، حيث جرفتنا إلى داخل البحر، بعيداً عن اليابسة، وخارج مسارنا، وبقينا ندور لعدة أيام كثيرة، حتى بدأنا نعاني من نقص في الميرة وفي الحاجات الضرورية، وفي تلك الأثناء أنهى واحد من الفرسان أيامه بشكل مؤلم جداً، فلففناه بقطعة من القماش، وربطنا جسده بأحجار، ورميناه بالبحر ونحن نبكي عليه.

وفي اليوم الثالث بعد هذا، مات فارس آخر، بعد ما فقد عقله، وعانى من الالم عظيمة، وكان يصرخ بشكل مخيف، وقد حملناه إلى الشاطئ في قاربنا الصغير للدفن هناك، لأننا كنا آنذاك على مقربة من شواطئ قبرص قرب بافوس، وكنا في تلك الأثناء غير قادرين على التحرك بأي اتجاه، وكنا بحاجة إلى الماء والخبز، وأشياء أخرى، وحملتنا الريح الخبيثة بعيداً عن قبرص، ولمدة ثلاثة أيام وثلاث ليال لم نر اليابسة، ثم كان بعد هذا أن حملنا عائدين إلى ميناء بافوس، الذي

جرت الإشارة إليه في الاصحاح الثالث عشر من أعمال الرسل، واشترينا في ذلك الميناء ما نحتاجه من مؤن، وغادرناه مسرعين، وأبحرنا مسافرين شواطئ قبرص دون أن نحرز أي تقدم في سفرنا، وإلى جانب هذه التعاسات نزلت تعاسة أخرى عظيمة، في تلك الليلة نفسها، ففي الوقت الذي كان فيه ملاحو الغليون يتعاملون مع الأشربة، ويحاولون تحريك الغليون، حدثت مفاجأة، فقد سقطت قطعة كبيرة من رأس السارية بشكل مفاجيء، وأصابنا وقتلت أفضل الملاحين لدينا، وكان رجلاً يطيعه البحارة بأبسط إشارة تصدر عنه، فقد كان مطاعاً من قبل جميع الملاحين ومن قبل عبيد الغليون.

وقد كان هناك حزن عظيم ونحيب في الغليون بسبب موت هذا الرجل، حيث لم يكن هناك على ظهر الغليون من يئائله ليحل محله، وأبحرنا بشكل بطيء لمدة أيام كثيرة، وكنا حذرين، نأمل بالوصول إلى واحد من الموانئ في كريت، وأن نمر دوننا إعاقه من أمام رودس، لكننا كنا غير قادرين على فعل ذلك، ورأينا في أحد الأيام، على مسافة بعيدة عنا غليوناً حربياً، قادماً بسرعة خلفنا، فكنا خائفين بشكل مرعب جداً، لأننا اعتقدنا أنه كان تركياً، وأن الأتراك كانوا قادمين فيه، لكنه عندما اقترب منا عرفنا بأنه كان غليوناً بندقياً، وكنا وقتها قابعين إلى جانب أسلحتنا، التي أمر قبطاننا بإخراجها للدفاع عن أنفسنا ضد الأتراك، وانتظرنا وصول الغليون حتى يمكن أن نسمع أخباره، وعندما اقترب هذا الغليون منا علمنا بأن الأتراك قد هزموا، وأنهم رفعوا الحصار عن رودس، وأنهم تراجعوا باضطراب وفوضى، ولدى سماعنا هذه الأخبار امتلأنا بغبطة لا يمكن التعبير عنها، وغيرنا اتجاه غليوننا وتركنا مسارنا المتقدم، واتجهنا نحو جزيرة رودس، وعلى كل حال لم نتمكن من الوصول إليها خلال كثير من الأيام، ذلك أننا أعقنا وتأخرنا بسبب رياح معاكسة، فضلاً عن هذا كنا قد حملنا إلى بلاد الأتراك،

وعبرنا من خلال قناة حيث كانت هناك أراضي تركية وجبال على طرفينا، وهنا تجددت مخاوفنا، وكنا نخشى إذا ما رأنا الأتراك، سوف ينزلون انتقامهم بنا، بسبب هزيمتهم في رودس، ولم نمتلك ريحاً أيضاً، وعبرنا البلاد التركية بطريقة بطيئة جداً، بوساطة العمل البطيء للمجاذيف، وأخيراً هبت ريح حملتنا بلا معيقات من هذه الأرض، وجلبت الغليون بشكل مفاجيء إلى جزيرة رودس، غير أننا وصلنا إلى محاذة ساحل جبلي بعيداً جداً عن مدينة كولوسا Colossae، ووصلنا على كل حال إلى نبع ماء للحياة يتدفق عند سفح أحد الجبال، إليه ذهب البحارة في قارب وجذفوا ومعهم براميل، وجلبوا مياه جديدة إلى ظهر غليوننا، وعندما عادوا إلى ظهر الغليون، خرج جميع الركاب يركضون من حجرهم وفرشهم، يحملون الصحنون، والجرار، والأحواض الصغيرة، والأباريق، والكؤوس، والزجاجات، يلتمسون الماء من البحارة ومن رجال القارب.

وكان هناك صراع وتدافع للحصول على الماء أكثر مما شهدته قط، من أجل الخمرة أو الخبز، وعن رغبة وطواعية وسرور ناول أحدهم بعض الماء إلى الآخر، ويتذوق ذلك الماء الجديد انتعشنا مجدداً، وبدا وكأننا قد عدنا للحياة من جديد، مثل المزروعات والأشجار التي عطشت وجفت بسبب حرارة الشمس، فعادت خضراء من جديد عندما تبللت بقطرات المطر أو الندى، وانتعش الغليون كله بتذوق هذا الماء، والذين كانوا من قبل غير قادرين على التنفس إلا بصعوبة بالغة، بدأوا الآن بالغناء، لأن شرب الماء بعد عطش طويل يجعل الإنسان مسروراً ولطيفاً مثل المتناول لقطرات من الخمرة.

فأية تعاسات ومصاعب قد عانينا منها منذ أن غادرنا ميناء يافا في الأرض المقدسة حتى وصلنا إلى هذا المكان، هذا ما أنا عاجز عن التحدث عنه، وكنت خلال أيام المعاناة هذه غالباً ما أتساءل، كيف

يمكن لأي إنسان يتساهل بازعاج نفسه بالقيام بالتفكير بصوم أربعين يوماً خلال السنة، وهي أيام الصوم الكبير، وأن لا يصوم عن الخبز والماء في يوم الجمع الحزينة للرب، لو أنه عانى مثلنا يوماً واحداً من الأيام التي عانينا منها، وأنا لأقول بأن أجر الصوم الكبير كبير، لابل ليس مثل الأجر المعطى يوم صوم الجمعة الحزينة وزناً وحجماً، ولهذا علينا عن طواعية أن نصوم يوم الجمعة الحزينة، لأن الذين يصومون يوم الجمعة الحزينة يتلقون خبزاً جيداً وجديداً، وماء نقياً، وبارداً، وعذباً، وطيب المذاق، وإذا ما حصلنا على مثل هذا، لابد من أن نشعر بأنفسنا بأننا سعداء، متذكرين أن الذي نلناه على ظهر الغليون، كان ماء قدراً، وأسناً، ولو أن أياً من البحارة كانت لديه مياه غير آسنة، لأقدم الحجاج على شرائها بأسعار أعلى من أسعار الخمرة، وعلى كل حال لقد كان ماءً مليئاً بالديدان، وأبيض ومتغير اللون.

وفوق هذا كله، وما قد يكون غريباً إلى الذين لم يعانون من مثل هذه الرحلة، ومؤلماً أكثر للذين عانوها، هو أننا كنا في حالة من الحاجة والتعاسة، حتى أن ما كان لدينا من مياه عفنة آسنة عدت ثمينة إلى حد أن قبطان السفينة وملاحها كانوا في قلق عظيم خشية أن نخسر حتى هذه المياه، ولهذا أعطى القبطان أوامر إلى ساسة الخيول بعدم إعطاء ماء من هذا النوع إلى الحيوانات التي جرى الاحتفاظ بها على ظهر الغليون من أجل ذبحها للأكل، بل ينبغي الاحتفاظ بها من أجل الاستعمالات الانسانية لأنه كان أكثر وحشية أن نموت نحن من العطش وليس البهائم، وعلى هذا بقيت هناك الأغنام والماعز والبغال والخنازير لمدة عدة أيام بلا ماء، وكانت تعاني من الهلاك من العطش، وغالباً ما رأيت في هذه الأيام هذه المخلوقات وهي تلحس ألواح الخشب والجبال، وتمتص ما تجمع عليها من ندى في أثناء الليل.

ومع أنه توفرت لدينا مياه لحدود لها من حولنا، إن مياه البحر غير

قابلة للشرب بالنسبة للانسان والحيوان سواء، وكان معنى شرب تلك المياه قتل الانسان أو الحيوان بدلاً من إنعاشه، هذا ولم أحدثكم عن الخبز الفاسد، وعن البقسماط المليء بالديدان، وعن اللحوم المتتنة، والطبخ المقيت، وهو ما توجب علينا القبول به، لو أننا امتلكناء ماء نقياً بكميات جيدة كافية، إن لم يكن للناس الأصحاء، فعلى الأقل للمرضى التعساء.

وعانيت في غالب الأحيان من عطش مرعب، وكان بي شوق لا يوصف إلى ماء بارد، حتى أنني قلت في نفسي إنني عندما أعود إلى أولم سوف أذهب مباشرة إلى بلوبيرن **Blauburen** ، وأجلس إلى جانب البحيرة التي تنبع هناك من الأعماق حتى أشبع رغباتي، هذا ولم يكن هناك نقص بالخمرة في الغليون — وفي الحقيقة كان بإمكان الانسان بسهولة الحصول عليها بكميات كبيرة وجيدة — غير أننا لم نتمتع بها من دون مزجها مع الماء، وذلك بسبب قوتها وحرارتها، وهذا يكفي بالنسبة لهذه القضية.

وحدث الآن أن حملتنا بشكل مفاجئ ريح طيبة من المكان الذي شربنا فيه الماء إلى ميناء كلوسوس **Clossus** ، القائم أمام مدينة رودس، وكان الوقت ليلاً، وكانت الساعة تقارب الساعة التاسعة في المساء، وكنا لانستطيع أن نرى إلى أين نحن ذاهبون بشكل واضح، لولا فضل نور القمر، وعندما كنا نحاول الدخول إلى الميناء، وكان بحارتنا — حسب ما اعتادوا عليه — يعملون بصوت مرتفع لانزال الأشرعة، أشعل الناس الذين كانوا على الشاطئ المشاعل فوق أبراجهم، وأحدثوا ضجة عظيمة، وأخذوا يركضون ذهاباً وإياباً فوق الأسوار، حيث خيل إليهم أننا أعداءهم الأتراك، وأنذرونا بإطلاق نيران مدفع كبير نحونا، وقمنا نحن وسط رعب عظيم بإضاءة عدد كبير من المصابيح، ووقفنا على ظهر الغليون نرجوهم عدم إيذائنا، حيث كنا

نحمل علامات الصليب، كما كنا أصدقاء للذي صلب، ونعرف جيداً بأن أعداءه قد تعرضوا قبل وقت قليل للمهانة والمذلة في هذا المكان نفسه.

وعندما سمع حراس الميناء هذا، أبعادوا مجانيقهم التي كانوا قد أعدوها لرمي حجارة ضخمة علينا، وحلوا أوتار قسيهم، وأعقب هذا سعي الناس مع بعضهم من جميع أجزاء المدينة إلى أعلى السور وهم يحملون المصابيح والمشاعل، متشوقين لرؤية غرباء مسيحيين، لأنهم منذ أن صدوا الأسطول التركي لم يروا مسيحياً.

وقام الآن حارس من على أحد الأبراج بالترحيب بنا، سائلاً من نحن، ومن أين جئنا، وقام أحد البحارة بإجابته دونما تفكير: «نحن بنادقة، والغليون ملك للقديس مرقص»، لكن القبطان أمر بصفعه على فمه، وأمر بحاراً آخر بأن يصرخ قائلاً: «جاء هذا الغليون من يافا، وفيه فرسان وحجاج من القدس، ونحن عازمون على الإبحار إلى إيطاليا»، ذلك أن القبطان كان يخشى أن يكون البنادقة غير مرحب بهم كضيوف، بما أن أهل رودس لا يحبون البنادقة، بسبب تحالفهم مع الأتراك.

وعندما أخبر الحراس الذين كانوا فوق الأبراج الشعب بأننا كنا حجاجاً، رحبوا بنا بمثابة أصدقاء، وسمحوا لنا بإرساء سفيتنا خارج الميناء، غير أنهم لم يأذنوا لنا بالدخول إلى الميناء خوفاً من خيانة ما، وبناءً عليه عندما ألقت السفينة مراسيها، نزلنا إلى أماكن نومنا، ونمنا حتى الصباح.

وفي اليوم التالي، وقبل استيقاظنا، قدم بعض السادة من رودس إلينا ليقوموا بفحص الغليون وليروا الحجاج، وقد جذفنا داخلين إلى المدينة معهم، وقد مررنا من بين أجساد الموتى الأتراك الذين كانوا مرميين على جانب البحر، حيث كان الشاطئ مغطى بهم، وعندما دخلنا إلى المدينة

وجدناها مهدامة بشكل مريع، مليئة بطلقات المدافع الصخرية من كبيرة وصغيرة، وهي التي أطلقها الأتراك عليها، حيث كان هناك منها ثمانية آلاف طلقة وطلقة موزعة على الشوارع والأزقة، وكانت الأسوار والأبراج مهدامة بشكل محزن، وقد رأينا أشياء أخرى عنها سأحدثكم عندما أجيء إلى هذا المكان ثانية في حجي الثاني.

ولقد مكثنا في رودوس لمدة أربعة أيام، وأنفقنا كميات كبيرة من المال، لأن كل شيء كان باهظ الثمن لأن الأتراك نهبوا البلاد وهدموها، وقد شريت طائرين لمولاي جورج للعلاج، لأنه كان بحالة صحية سيئة، وكنت أنا مثله، ذلك أنني كنت آنذاك أعاني من إسهال، وكنت تقريباً يائساً من حياتي.

وعندما حان الموعد الذي كان علينا به مغادرة رودوس، سافر معنا على ظهر غليوننا عدد من فرسان القديس يوحنا، وبعض ممن كانوا أسرى لزمّن طويل بين الأتراك، وكانوا ممن بعث بهم إلى رودوس مع الجيش التركي، وقد تخلوا عنه وهربوا إلى تلك المدينة في أثناء الحصار، وحملنا معنا بعضاً من اليهود الذين قاتلوا بشجاعة في أثناء الحصار، وكان من بين الذين نجو من الأسر من بين الأتراك نبيل نمساوي، وكان في حالة بائسة، وقد أخذه مولاي جورج ووضعه تحت حمايته، وأعادته إلى ألمانيا.

وبصعود هذه الأعداد الكبيرة على ظهر غليوننا، غدا هذا الغليون مزدحماً وغير مريح، وفي أثناء الرحلة جرفنا إلى هنا وهناك من قبل الرياح المعاكسة، وعانينا كثيراً من النقص بالحاجيات حتى دخلنا مدينة الخندق، حاضرة كريت، ومكثنا هناك لعدة أيام، صعدنا بعدها إلى ظهر الغليون في أحد الأيام في آخر النهار عند حلول المساء، وجلبنا مشترياتنا معنا، وكنا عازمين على الإبحار في الليلة نفسها، لكن عندما جاء الصباح، وأطلق الغليون مما كان مربوطاً به، أخذنا بعنف نوجه رأسه

نحو الرياح، وأنذاك اصطدمت عصا التوجيه بالصخور، وتحطمت تحت الماء، وكانت السفينة على وشك أن يصطدم رأسها فوق الصخور الناتئة خارج الشاطئ، وفي تلك الحالة كان الغليون سيتحطم كلياً، وكنا سنغرق، ولهذا صدر صوت مرتفع، وتراكم الناس من المدينة لمساعدتنا، وبما أن عصا التوجيه قد تحطمت، لم يعد بإمكاننا الإبحار، وأرجعنا غليوننا إلى الميناء، إلى المكان الذي كان راسياً به من قبل.

وهنا جاء عامل بحري وقام بالإعداد لإصلاح عصاتنا، وقد نفذ ذلك كما يلي ونحن واقفون ننظر إليه: فقد تعرى حتى سراويله، ثم أخذ معه مطرقة ومسامير، وكماشة، ثم ألقي بنفسه ونزل في البحر، وغطس إلى حيث كانت العصا مكسورة، وعمل تحت الماء، فاقطع مسامير، وثبت آخرين، وبعد وقت طويل، عندما أصلح كل شيء، ظهر مجدداً من تحت الأعماق، وتسلق صاعداً إلى طرف الغليون إلى حيث وقفنا، ولقد رأينا هذا، إنها كيف كان بإمكان هذا العامل أن يتنفس تحت الماء، وكيف كان يمكنه أن يضرب بمطرقة هناك، وكيف استطاع البقاء مثل هذه المدة الطويلة في الماء المالح، هذا ما لم أستطع فهمه، والذي أعرفه هو أن العقل البشري له سلطة على النار وعلى الماء، حتى مثلما للنجوم سلطة على العقل الإنساني.

وعندما اكتمل إصلاح العصا، وفكرنا بالإنطلاق والسفر، هبت ريح معاكسة، ولذلك لم يستطع الغليون الابتعاد عن الميناء، وقد عدنا إلى مكان رسونا ومن ثم إلى إقامتنا في المدينة، نأكل ونشرب هناك.

وهذا الميناء من أفضل موانئ البحر وأغناها، ومليء بجميع أنواع الأشياء الجيدة، خاصة الأشياء المحلية، لاسيما الخمرة، التي ندعوها باسم مالفويسى Malvoisie ، وهي خمرة مشهورة في جميع أنحاء العالم، هذا وكل شيء رخيص هناك، ولذلك لم نبال بمدة إقامتنا، بل تمتعنا بها، وفي حوالي وقت العشاء استدعينا جميعاً إلى ظهر الغليون،

وجاء بعضهم على الفور، وجاء بعضهم الآخر متأخراً، وكنت أنا شخصياً واحداً ممن صعد أولاً إلى السطح، ووقفت على مدخل الغليون لأنظر فيما إذا كان قد قدم غرباء، إلى جانب الذين التحقوا بنا في قبرص أو رودس، ويريدون الصعود إلى ظهر الغليون، وقد جاء أسقفان إغريقيان، مع آخرين كثير، وبالنسبة لأشياء أخرى أنا رأيتها، أنا لن أقوم بتدوينها، إذا ما أردت أن لا تكون «الرحلات والجولات» قصة مأساوية، لكنني كما وعدت إخواني في تمهيدي التكريسي غالباً ما قمت بمزج الأمور المضحكة والمسلية مع المسائل الجدية، وعلى هذا عندما كنت واقفاً هناك أراقب أولئك القوم الذين صعدوا إلى ظهر الغليون، رأيت كثيراً من حجاجنا واقفين على جانب البحر، فوق حافة الرصيف وهم سكارى يخشون من النزول إلى القوارب، لأن الخمرة الكريتيّة التي هي حلوة وممتع شربها، تجعل الإنسان فاقداً للوعي عندما يشرب منها كميات كبيرة.

وكانت هناك درجات حجرية على الشاطئ تقود إلى سور المدينة، وينزل على هذه الدرجات من يريد الصعود على ظهر الغليون ويماشيهما قليلاً، ومن ثم يحصل في داخل قارب صغير، يحمله إلى الغليون، وبعد ذلك يغادر الإنسان القارب، ويتسلق بعض الدرجات ليدخل إلى الغليون، وفي ذلك المساء وجد عدد كبير منهم أنه من الصعب كثيراً عليهم القيام بذلك، أي أنه توجب حملهم من الدرجات الموجودة تحت سور المدينة إلى القارب، ومن القارب إلى الغليون، ومن ثم مباشرة إلى حجر نومهم، وجاء بين البقية حاج كان خادماً لواحد من سادة المدينة، وكان هذا الرجل يحمل حقائب سيده، مع بعض دنان الخمر وحقيرة مليئة بالخبز الجديد، وقد كان منحنيّاً نحو الأسفل بسبب الوزن الذي كان يحمله، يضاف إلى هذا كان مغموراً تماماً، وعندما صار فوق الدرجات، وبدأ يمشي نازلاً عليهم نحو طرف الماء حتى يصل إلى

القارب هناك، وقع فجأة في داخل البحر العميق، مع كل ما كان يحمله، ولدى صدور صوت عن الواقفين هناك، جذب البحارة مباشرة، وساقوا قاربهم إلى المكان الذي سقط فيه، ولدى خروجه من الماء، سحبوه منه، وطافت أرغفة الخبز وكل ما كان يحمله فوقه، وقد تلفوا جميعاً.

وكان هناك حاج آخر، كان كاهناً دلاشياً، وكنت أعرفه معرفة جيدة، وكان قد شرب كثيراً من الخمرة الحلوة، ولذلك عانى من اضطرابات كثيرة حتى يصعد على ظهر الغليون، ويصل إلى موضع السارية، حيث وقف هناك يتحدث مع دلاشي آخر حتى حلول الظلام، وقد وقف على مقربة من البويب الجانبي الذي لا يذهب الناس إلى تحته أثناء الليل، بل يفعلون ذلك فقط أثناء النهار، وذلك من أجل أنه عندما يحل الظلام ينزل على السلم الذي يأخذه نحو الأسفل، وبذلك لن ينزعج الذين كانوا نائمين على ذلك الجانب من السفينة بقدوم الناس وذهابهم، وهكذا عندما أكمل هذا الحاج كلامه، وكنا وقتها فوق سطح الغليون الأسفل، متمددين جميعاً في فرشنا ونحن نتبادل الأحاديث، وقد أراد الذهاب إلى مكان نومه من خلال أقرب بويب جانبي، وبما أنه لم يكن متوازناً على رجليه، فقد سقط نحو الأسفل من خلال البويب الجانبي إلى السطح الأسفل محدثاً صدمة كبيرة إلى حد أن الغليون كله قد اهتز، لأنه كان رجلاً كبيراً وسميناً، وتمددنا جميعاً صامتين وخائفين، وانتظرنا لنسمع من الذي كان قد وقع، وقد قام على الفور دون أن يصاب بأذى، وشرع يصرخ مزجراً قائلاً: «انظروا الآن، لقد وضعت السلم تحت قدمي، ونزلت ثلاث درجات، عندما قام أحدهم بسحبه من تحت قدمي، فسقطت»، وقد أجابه أحدهم قائلاً بأن السلم قد أنزل من قبل منذ ساعة مضت، غير أنه أجاب «هذا غير صحيح، لأنني نزلت ثلاث درجات، وعندما كنت واقفاً على الدرجة الثالثة سحب من تحتي»،

ولدى سماعنا هذا انفجرنا ضاحكين لمعرفتنا بأن السلم قد أنزل من قبل منذ مضي ساعة، وكنت مسروراً بأن رفيقي لم يتعرض للأذى بسبب هذا السقوط الخطير من مكان مرتفع، وضحكت بشكل غير معقول، وعندما رأني أضحك غضب غضباً شديداً مني، وقال: «على هذا إنني أرى بوضوح ياراهب فيلكس من الذي سحب السلم من تحتي، ومن المؤكد أنك لن تغادر هذا الغليون قبل أن أنتقم منك»، وعندما حاولت أن أبرئ نفسي، أصبح أكثر غضباً فأكثر، ولعني، وأقسم أنه في اليوم التالي سوف ينتقم مني، وعلى كل حال شفا النوم جميع هؤلاء المرضى والرجال السكارى، الذين كانوا هم الأسوأ بسبب الخمرة الكريمية، وقد نسوا في اليوم التالي كل ماتعلق بهذا الموضوع، لكن لو أن ذلك الحاج قد سقط غير سكران، بل صاحبياً تماماً، لكان من المتوقع انكسار رجله، أو اندقاق رقبته، لأنه غالباً ما يحدث بشكل عام أنه في الحالات الخطرة يكون السكارى من الناس أحسن — بدون تعليل من الآخرين....

وبعد الليلة التي حدث هذا فيها، أطلقنا غليوننا من الأربطة، وحملتنا الريح إلى خارج الميناء، إنما بعدما مضينا قليلاً في طريقنا هبت ريح معاكسة، وبقينا تتأرجح فوق الأمواج دون أن نتمكن من التقدم، ولهذا حاول البحارة العودة إلى ميناء كريت، ولكن بما أن الريح كانت قدرة، لم يستطيعوا ذلك، فضلاً عن هذا صار البحر فيما بيننا وبين مدينة الخندق هائجاً، وغدت الأمواج عالية، ورأى الملاحون، أنه سيكون تهوراً تعريض سفينة محملة بهذا القدر إلى قوة الرياح الكاملة والأمواج، ولذلك سعوا جاهدين للوصول إلى اليابسة، بالابحار خلف الريح، وهكذا وصلنا بعد بذل جهود عظيمة إلى الجزء الجبلي من كريت، وكان ذلك على بعد حوالي الميلين عن البلدة، وهناك ألقينا مراسينا في منطقة جرداء مهجورة، وقمنا في الليلة التالية برفع أشرعتنا والانطلاق، فوجدنا أماناً ريحاً قوية في البحر، وكانت ريحاً قدرة، وواجهنا في تلك

الليلة وفي اليوم التالي عاصفة ثقيلة، وكانت الرياح في الليلة التالية هائجة بشكل مخيف، وقد وافقت تلك الليلة عيد القديس ميكائيل، وكان هيجان البحر أعظم مما شهدناه خلال رحلتنا كلها، وتعهد أثناء هذه العاصفة كثيرون أمام الرب بأمور كثيرة، من ذلك على سبيل المثال، تعهد الذين أمضوا أمسية قداس عيد القديس ميكائيل وهم يعانون من آلام معوية، بأنهم سوف يصومون بقية أيام حياتهم، وانصبت مياه الأمواج على السفينة وفوقنا، وسببت لنا كثيراً من الازعاج، وكنا جميعاً مرضى، وعانينا من الصداع ومن الغثيان، أثناء تحرك السفينة وبسبب ذلك.

وفي أثناء العاصفة، غدت الرياح التي كانت قذرة، رياحاً لطيفة بالنسبة لنا، ولذلك أبحرنا بسرعة كبيرة، واجتزنا أماكن كثيرة، ووصلنا إلى مقربة من مودون، غير أننا لم نتمكن من الدخول إلى الميناء هناك، وخوفاً من أن نساق إلى الخلف ثانية بقوة الرياح، دخلنا إلى ميناء مهجور بين جدران من الصخر، وكنا في هذا المكان على بعد قرابة ميل ألماني عن مودون، وحملنا نحن الحجاج حقائبنا إلى الشاطئ، وأخذنا طريقاً إلى مودون براً، وهناك انتظرنا وصول الغليون، وغادرنا من هناك مودون، فوصلنا إلى كوركيرا، بعد عبور سريع، أي إلى المكان الذي تركنا فيه الحجاج الآخرين، وأبحرنا في مساء اليوم نفسه من كوركيرا إلى جزر غوزابولس Gozapolis.

وبينما نحن لانزال في الظلام، وما من نجم من النجوم يمكن رؤيته، وفيما نحن نتجه مع الرياح، هبت هناك عاصفة مرعبة جداً، وحدث هياج مخيف في البحر وفي الهواء، وكانت الرياح عاصفة دفعت بنا نحو الأعلى، وكان هناك برق، ورعد يزجر بشكل مخيف، زيادة على هذا كان هناك من حولنا سقوط لبروق وصواعق مخيفة، حتى ظهرت أماكن كثيرة من البحر، وكأنها اشتعلت بالنيران، وتساقطت الأمطار بشكل

خفيف، وصار الحال كأن مطر الغيوم قد تجمع كله، وتدفق علينا، واستمرت التيارات العنيفة تضرب الغليون، حيث غطته بالمياه، وكانت تدق على الجوانب بشدة مثل حجارة أرسلت من فوق جبال عالية حيث كانت تتطاير على الجنبات.

وغالباً ماتساءلت عندما كنت في البحر في أوقات العواصف، كيف يمكن للماء، الذي هو رقيق وناعم، وضعيف البنية، أن يسدد مثل هذه الضربات ضد كل ما يواجهه، لأنه تصدر عنه زججة عندما يسعى ضد السفينة، وكأن أحجار طاحون قد تطايرت ضدها، ولا يمكن للانسان أن يعجب لتحطيمها السفينة حتى وإن كانت قد بنيت من حديد، وأمواج البحر هي أكثر ارهاقاً، وأكثر ضججة، وأكثر إثارة من أمواج المياه الأخرى، وكنت أتمتع كثيراً بالجلوس فوق الطابق العلوي أثناء العاصفة، وأراقب الأمواج المتوالية من الضيوف المرعبين من الريح، والإندفاع المخيف للمياه، ومن الممكن تحمل العواصف أثناء النهار، لكنهم في الليل أدوات رعب، لاسيما عندما تكون هذه العواصف عنيفة، مثل العاصفة التي أتحدث الآن عنها، ذلك أن العاصفة كانت عاصفة عنيفة جداً، وكان الظلام كثيفاً، ولم يكن هناك أي ضوء، سوى الضوء المتتابع الذي ينبعث من البرق.

واستمرت هذه الريح العنيفة في هز الغليون ونقله صعوداً وهبوطاً، وإدارته من الجانب إلى الجانب، وهزه حول نفسه خلال ذلك، إلى درجة أن مامن انسان استطاع أن يتمدد في مخدعه، لابل لم يستطع الجلوس، ومطلقاً لم يستطع الوقوف، وكنا مرغمين على التعلق بالأعمدة التي وقفت في وسط القمرة، وكانت تدعم الأعمال الموجودة فوق، أو أن نستند على ركبنا المنحنية إلى جانب الصناديق، حيث احتضناهم بأيدينا وبأذرعنا، وبذلك حافظنا على ثباتنا، وكان يحدث أحياناً انقلاب لبعض من الصناديق الثقيلة والكبيرة مع الرجال الذين كانوا متعلقين بهم،

ذلك أن الغليون كان يتحرك بعنف وباتجاهات مختلفة مما كان يؤدي إلى قلب كل شيء واقف عليه، والشيء الذي بدا اعجازياً، لكنه صحيح تماماً، هو أنه حتى الأشياء التي كانت معلقة بكلايب في مقابل الرؤوس الكتلوية، كانت تخرج من أماكن تعليقها وتسقط نحو الأسفل، ومع أن السفينة كانت مغطاة من كل جانب بالزفت وبأشياء أخرى تستخدم لمنع تسرب المياه، وحفظ الداخل من المياه، مع هذا دخلت المياه خلال هذه العاصفة من خلال أماكن غير متوقعة في كل مكان، ولهذا لم يكن هناك شيء في السفينة كلها لم يكن مبللاً، فقد كانت فرشنا غارقة، وتلف خبزنا وبقسماتنا بمياه البحر، وكان في الطابق السفلي رعب وضجيج، وكان على الطابق العلوي تعب واضطراب، ومزقت الريح شراعنا الرئيسي إلى مزق، ولذلك أنزل البحارة نحو الأسفل العارضة التي استند عليها، وربطوه بشراع آخر لاستخدامه في العواصف التي يسمونها Papafigo إنها بعد مارتع البحارة العارضة وأداروها لفوا الشراع معها، وعندما كان البحارة يمدّون العارضة لوحدها ويدعون الأربطة تذهب، نزل الشراع نحو الأسفل، وكان البحارة ممسكين بأيديهم بالحبل الذي ربطت به الزوايا السفلى من الشراع، وقتها اندفعت الريح نحو الشراع، وملاّته بقوة عظيمة جعلت قماشه يتمزق بين أيدي الملاحين، وأطاحت به وبالشراع نفسه فوق رأس السارية وفوق القبة Keba أو الرأس، عالياً بالهواء، ورمت به بقوة وعنف في الريح حتى أن العارضة انحنت مثل قوس، والسارية نفسها، مع أنها كانت ضخمة وقوية مصنوعة من عدد من جذوع الأشجار المحزومة مع بعضها، صدر عنها صوت مرتفع وكأنها قد تمزقت وتحطمت.

وكنا في ذلك الوقت في أعظم المخاطر، لأنه لو تحطمت السارية في مثل هذه العاصفة، لتغلب علينا البحر وقهرنا نحن والغليون جميعاً،

فكما أن الطير لا يستطيع الطيران من دون ريشه وجناحيه، كذلك السفينة من ذوات الحمل الثقيل، لا يمكنها التحرك من دون أشعة، التي هي بمثابة أجنحتها وريشها، ولهذا عندما تحدث الشعراء عن الخيول المجنحة، كان الذي عنوه هو السفن فقط، من ذلك على سبيل المثال جاء بيرسوس Perseus من بلاد الإغريق على فرس مجنح وأنقذ أندروميذا Andromeda من الصخور عند يافا، الخ، وبناء عليه عملت ساريتنا كثيراً من الأصوات العالية المرعبة، وفعلت العارضة مثل ذلك، وبدا كل شيء في الغليون كله آيل لأن يصبح قطعاً، وما من شيء أزعجني قط في العواصف بقدر الأنين المرتفع للسفينة، الذي كان كثيفاً جداً إلى حد يدفع الإنسان إلى الاعتقاد بأن السفينة لا بد أنها محطمة في واحد من الجوانب، كما لا يمكن للإنسان أن يتمتع من الصراخ بصوت مرتفع بسبب أصوات الأنين هذه المرعبة المفاجئة، وهكذا وقفنا ننظر إلى مشهد مخزن، وفي وضع خطير كثيراً.

ولدى تطاير الشراع في الهواء على هذه الصورة، ركض عبيد الغليون والبحارة إلى الأمام وإلى الخلف، وهم يصرخون بقدر ما استطاعوا، وبذلك كانت الضجة عظيمة، وكانوا كمن يركضون بين السيوف، وتسلق بعضهم فوق الغطاء الموجود على العارضة، وحاولوا سحب الشراع نحوهم، وكان بعضهم الآخر على سطح الغليون في الأسفل، يركضون هناك وهم يحاولون الإمساك بقيماش القلع ثانية، وقام بعضهم بإدخال حبال من خلال بعض الأثقال، ووضعوا أربطة حول الشراع، وفي الوقت نفسه قام الحجاج والذين كانوا بلافايدة في هذا العمل بالصلاة إلى الرب، وتوجهوا بالدعاء إلى القديسين، وعمل بعضهم اعترافاتهم وكأنهم باتوا على حافة الموت نفسها، وعمل بعضهم تعهدات عظيمة بأنهم سوف يسافرون من هنا إلى روما، وإلى القديس جيمس (في كومبوستالا)، أو إلى بيت العذراء المباركة (في لوريتو Loretto)،

لو أنهم فقط نجو من هذا الموت، لأنه فقط عندما يكون الموت حاضراً أمام أعيننا نخاف منه، ولقد تذكرت الأقوال المأثورة للفيلسوف أنا كاريسيس Anacharsis الذي قال بأن الذين يكونون في البحر، لا يمكن عدّهم لابين الأحياء ولا بين الأموات، فضلاً عن هذا لقد قال بأنهم أبعدوا عن الموت بمساحة أربعة أصابع، والأربعة أصابع هي سماكة جوانب السفينة، وأيضاً عندما سئل: أي السفن هي الأسلم؟ أجاب: «السفن الموضوعة فوق أرض يابسة، وليست في البحر»، وبهذا أعلن أنه لا يوجد أمن في البحر، بسبب مخاوفه الكثيرة والمفاجئة، وحدث أثناء هذه العاصفة المخيفة مفاجأة، فبدون توقع جاءت استجابة للمساعدة من السماء، ففي وسط أضواء البرق ظهر ضوء مثبت في الأعلى في الهواء فوق قوس السفينة لبعض الوقت، ومن ثم تحرك ببطء خلال الغليون بطوله حتى مقدمته ثم اختفى، وكان هذا الضوء هو شعاع نار عرضها حوالي الغلوة، وحالما رأى قباطنة الغليون وعبيده، والملاحون الآخرون، وكذلك بعض الحجاج الذين كانوا فوق ظهر الغليون، حالما رأى هؤلاء هذا الضوء حتى توقفوا عن العمل، وأوقفوا صراخهم وضجيجهم وركعوا نحو الأسفل رافعين أيديهم نحو السماء، ورددوا بصوت منخفض لشيء سوى «قدوس، قدوس، قدوس»، ولم نعرف نحن الذين كنا بالأسفل مالذي كان يحدث، فارتعنا لدى هذا الهدوء المفاجيء والصمت، والصلاة غير المعتادة، وتصورنا أنهم تخلوا عن العمل بعدما قنطوا، ولهذا كانوا يصرخون «قدوس»، لأنهم كانوا على حافة الموت، ووقفنا مندهشين ننتظر ما الذي سوف تكون عليه نهاية هذا، وهكذا فتح أحدهم الباب الذي يغطي البويب الرئيسي للغليون، الذي من خلاله يأتي الناس من ظهر الغليون إلى القمرة، وكلمنا بالإيطالية بما معناه: «أيها الحجاج، سادتي، لا تخافوا لأننا في هذه الليلة وفي هذه العاصفة لن نعاني من الشر، لأننا تلقينا عوناً من السماء»، وبعد هذا وبما أن العاصفة استمرت، عاد عبيد الغليون إلى أعمالهم

المعتادة، ولم يعودوا الآن يصرخون كما كانوا من قبل، بل عملوا
بصرخات بهيجة، لأنهم لا يعملون قط بدون صراخ.

وينبغي ألا يفترض أي إنسان أن الذي تحدثت عنه بشأن الضوء هو
مزيف، لأنه صادق بقدر كل ما هو ممكن، ويمكنني أن أبرهن عليه
بأيمان أكثر من مائتي شاهد، هم أحياء في هذه الأيام، لأن ذراع الرب
ليست قصيرة حتى تكون غير قادرة على إنقاذ، أولئك الذين كانوا في
وضع بائس.

وفي أثناء هذه العاصفة قطعنا مسافة جيدة على مسارنا الصحيح،
وأخيراً رأينا الريح قد قذفت بنا نحو الميناء الذي تشوقنا للوصول إليه،
واقضى ذلك جميع تلك الليلة واليوم التالي، وعندما أشرق اليوم التالي،
وبما أن العاصفة كانت مستمرة، بقينا هادئين، وتحملنا أحوالنا بصبر،
ذلك أننا كنا بلا ماء ولا طعام، ذلك أنه لم تكن هناك نار في الغليون،
وكان المطبخ على السطح ملىء بالماء، بالإضافة إلى ذلك كنا جميعاً
مصابين بدوار البحر، وأنفسنا عائرة لجميع الأطعمة والأشربة، لأن
معدة كل واحد منا كانت مضطربة غير مستقرة، وفي الحقيقة ما من أحد
منا أكل شيئاً في أثناء استمرار تلك العاصفة، وتمكن من إبقاء الطعام في
جوفه، بل تقيأه ورماه ثانية، وما من شيء أفضل من إبقاء المعدة خاوية
أثناء العواصف، فضلاً عن هذا كان الخبز كله قد فسد، ولم يكن قابلاً
للأكل بالماء المالح، ولهذا كنا مرغمين على الصيام.

وتابعنا الإبحار في اليوم التالي، وقد خلفنا مدينة راغوسا - Ra-
gusa على يميننا، وكورزولا على يسارنا، ووصلنا إلى مدينة ليسينا،
حيث نزلناها، فأنعشنا أنفسنا، وتخلصنا مما كنا نعانيه من دوار البحر،
وقد بقينا في ليسينا لمدة ثلاثة أيام، لأن الرياح في البحر كانت قوية جداً،
مع أنه كان هواءً لطيفاً بالنسبة لنا، وانتظرنا أيضاً حتى تسترد السيدة
الحامل قواها، ذلك أنها عانت كثيراً، وغدت ضعيفة جداً في أثناء

العاصفة، وفي الحقيقة كان أمراً عجباً أنها لم تهلك مع حملها أثناء ذلك الوقت العصيب، وبعد هذا أبحرنا من ليسينا بريح طيبة.

لكن مع حلول المساء ازدادت الرياح قوة، ورمت بنا جانباً بين أماكن وعرة، مليئة بالعشب والصخور، حيث كان من غير الممكن الابحار أثناء الليل، والتجأنا إلى سفح جبل وعرة، وألقينا بالدليل، محاولين العثور على قعر يمكن أن نلقي المرساة فوقه، لأن الظلام حلّ علينا بشكل مفاجئ، حتى أننا لم نستطع الوصول إلى ميناء، كما لم يعد بإمكاننا متابعة السير، وفي هذه الأثناء، عندما كنا قريبين من الجبل وكنا نحاول إدارة رأس الغليون نحو الريح، تعرض لضربة قاسية من الريح والأمواج، وكانت من العنف بمكان أنه لم يعد من الممكن التحكم به، وبات مهدداً بأن يمضي قوسه نحو الشاطئ فوق الصخور الحادة، وكان معنى ذلك تحطم الغليون، وعندما رأى رقيق الغليون أن المركب يتأرجح، وصل صراخهم نحو السماء، وبدأوا يركضون إلى هذا الاتجاه وذلك، واستعدوا للقيام بالنجاة بأنفسهم.

وفي تلك الأثناء كنا نحن مع الأسقفين جميعاً في الأسفل، عندما ركض خدم الأسقفين نحو البويب الذي كان فوقنا، وصرخوا بصوت مخيف ومرعب قائلين: «سادتنا تعالوا إلى الظهر، المركب قد تحطم وهو يغرق»، ولدى سماع هذا الصراخ قفز الأسقفان وأتباعهما، وركضوا نحو ظهر المركب في فوضى عظيمة، وذلك مثلما فعل الآخرون، وكان هناك تصادم على السلالم المرافقة، واندفاع سريع نحو مؤخرة المركب، للحصول في داخل القوارب التي كانت قد أقلعت، فقد كان ملاحوا السفينة مع عبيدها قد استلوا سيوفهم وقطعوا بها الحبال التي أمسكت القوارب، وهكذا سقطت القوارب في البحر في سبيل أن يتمكن القبطان نفسه مع أخيه وزوجة أخيه وأتباعه، من النجاة أولاً.

وعلى كل حال لم ينزل أحد إلى القوارب، ولو أن رجلاً واحداً نزل

إليها لكان هناك مشهداً مربعاً من الفوضى، حيث كان هناك عدداً كبيراً من سيحاول القفز إلى القوارب، وبذلك يؤذي الآخرين الذين على ظهر القوارب، وسيقوم هؤلاء برميهم في البحر، وسيستل الذين يكونون في القوارب سيوفهم وخناجرهم ويمنعون الآخرين من الدخول عليهم، لأنه في مثل هذه الأوقات من الرعب، غالباً ماتحمل القوارب أكثر من وزنها وتغرق، ويقوم الرجال الفقراء بمحاولة إنقاذ حياتهم، فيندفعون قبل الآخرين، وبذلك يتعرضون للقتل بسيوف النبلاء وسيوف خدمهم، فضلاً عن هذا فإن الذين يرون المخاطر التي يحياها الذين هم في القوارب، يقومون بسيوفهم فيقطعون أصابع وأيدي الرجال المتعلقين بالمجاديف وبجانب السفينة لدى عملهم للحصول بالقوارب، وبذلك يسقطون في البحر، ولقد سمعت حكايات مرعبة عن جنوح سفن وتعرضها للغرق، من الذين كانوا في مثل هذه المخاطر، التي بدا أننا كنا على وشك المعاناة منها.

وحدث أيضاً على كل حال أن الرب أنقذنا، فقد هدأت الفوضى، وربطت السفينة إلى الصخور، وطويت الأشرعة، وألقيت المراسي، وبناء عليه، بما أن عبيد الغليون، وصلنا بسبب إهمالهم وعدم اكتراثهم إلى هذه الحالة من الخوف، فقد جرت عقوبتهم بضربهم بشدة، غير أننا نحن الحجاج توسطنا من أجلهم، بعد ماتلقينا الرحمة الربانية التي أنقذتنا، وذلك احتذاء بمثلها، مع أننا لم نكن جديرين بالإنقاذ من الموت، وتابعنا في اليوم التالي السفر على طريقنا، وغادرنا يادرا ladera، وهي إحدى مدن دالماشيا، وقد خلفناها على يسارنا (كذا)، وتابعنا جرينا أمام الريح، لكن مع حلول المساء، شرعت ريح قوية جداً بالهبوب، ومع ازديادها فيما بعد، أصبح البحر هائجاً، وقد دفعنا إلى خارج مسارنا إلى أماكن جبلية، ومع ذلك لم نتجراً على الإقتراب من الشاطئ، خشية من أن نصطدم بصخرة سيلا Scylla أو كاريبيدس Charybdis،

ووصلنا إلى مجرى هوائي، حيث كانت الرياح فيه ثقيلة جداً، ومع هذا حاولنا أن نلقي مراسينا في وسط هذا المجرى، وبناء عليه رمينا بدليلنا، فوجدنا العمق كان هائلاً، ولهذا أبحرنا لمسافة أوسع، ولكن لدى غياب الشمس وحلول الظلام، لم يعد بإمكاننا المسير مسافة أبعد من دون مخاطر عظيمة، وأجرينا عملية القياس مجدداً، ووجدنا القعر، لكنه كان عميقاً جداً، ومع هذا رمينا مرساتنا الكبيرة، لإمساك الغليون، لكن عندما وصلت المرساة إلى القعر لم تجد لاصخور ولا حجارة ولا رمال يمكن أن تلتصق بها شعابها، بل جرت وراء الغليون فوق قعر الماء، وذلك أثناء متابعة الغليون لإبحاره، مما أقلقنا كثيراً، وبعد هذا، وإثر بذل جهد عظيم انتشلت المرساة، وألقي بها في مكان آخر، ومجدداً جرت المرساة وراء الغليون، مثلما يجري المحراث وراء الحصان، ثم رفعت مجدداً، ورمينا بها في مكان ثالث، حيث أمسكت بصخرة، ولكن عندما توقف الغليون، كانت عصا التوجيه تتحرك من مكان إلى آخر، مما أدى إلى انزلاق شعبة المرساة من على هذه الصخرة، وبدأ الغليون بجبر المرساة مجدداً، لكن حدث فجأة أن وصلت المرساة إلى صخرة أخرى، حيث التصقت بها بشدة، وهكذا بقينا واقفين طوال الليل.

وحملنا نحن الحجاج أنفسنا إلى فرشنا، لكن القبطان بقي مع جميع الملاحين وعبيد الغليون بدون نوم طوال الليل، متوقعين موتهم وموتنا في كل لحظة، لأن الرياح هبت بشكل عنيف، وتأرجح الغليون كثيراً، لأننا رسونا خارج ميناء، يحميننا من قوة الرياح، وكان الملاحون— لهذا السبب— يخشون انزلاق المرساة وخروجها من الصخرة، أو أن ينقطع الحبل، ففي حال حدوث أي من الأمرين سوف نهلك بدون شك، ذلك أننا كنا في قوارنيرو Quarnero ، الذي كان أخطر خليج في البحر ، وذلك في مقابل ميناء أنكونا Ancona ، حيث كان البحر عالياً جداً وقوياً في سرعته.

ولهذا، وتقديراً من القبطان للمخاطر التي كنا فيها، نذر أنه ما أن يصل إلى ميناء بارنزو Parenzo سوف يبحر مع جميع الحجاج مباشرة إلى جزيرة القديس نيقولا، ليستمع هناك لقداسات تقال وتنشد للشكر على خلاصنا، وهذا ما فعلناه، لأننا قمنا بالصباح برفع المرساة، وأبحرنا مروراً بعدد من مدن دالماشيا، ووصلنا إلى بارونزو في استريا، وذهبنا في اليوم التالي مع القبطان، ونفذنا نذرنا، ومكثنا في بارنزو لمدة خمسة أيام، ثم وصلنا إلى ميناء البندقية بعد إبحار يوم واحد، وأخيراً وصلنا إلى البندقية، وتفرق جمعنا، ومضى كل رجل منا إلى موطنه.

وأصبحت في الوقت نفسه مريضاً، لكن ليس إلى حد أن أكون طريق الفراش، ومع ذلك كنت مريضاً جداً إلى حد منعي من المشي، أو ركوب حصان، حتى استردت عافيتي، ولذلك ذهب مولاي جورج مع النبلاء الآخرين إلى الوطن، غير أنني بقيت في البندقية بين أيدي الأطباء لمدة حوالي خمسة عشر يوماً، حيث عوفيت بعدها واستردت صحتي، فانطلقت من البندقية برفقة تاجر، واشترت حصاناً من تريفيسو Treviso وسافرت مع رفيقي حتى ترنت Trent ، وسافرت من ترنت وحيداً حتى وصلت إلى الناصرية Nassereit ، وقد وصلت هناك بعد الظهر، فوجدت بالنزل، أربعة من أخواني الحجاج من الأرض المقدسة، وكانوا من الإنكليز، وقد حيننا بعضنا بعضاً بسرور وبهجة، وكانوا يقومون بالإستعداد للسفر، ويأملون بعبور الجبل الذي اسمه سيريسيوس Sericius في ذلك اليوم نفسه، غير أنني رجوتهم الانتظار حتى الغد، حتى يمكننا السفر إلى أولم مع بعضنا، وقد طلبوا مني أن أركب معهم، لكنني رجوتهم بالبقاء معي باسم حق الرفقة والصداقة، ولكنهم رفضوا، لأنهم — كما أخبروني — قد سمعوا بشكل مؤكد، أنه سوف تصل في ذلك اليوم بالذات مجموعة كبيرة من الفرسان المسلحين، التابعين لبلاط دوق النمسا، إلى تلك القرية والنزل،

وهم يرغبون بتجنبهم، لأنه لم يكن سليماً العيش بين رجال مسلحين. وهكذا افترقنا، وابتعدنا عن بعضنا بعضاً ثانية، فقد ذهبوا، وبقيت أنا خلفهم، وجاء في المساء إلى النزل عدد كبير من النبلاء المسلحين مع أتباعهم، وكانوا مرسلين من قبل دوق النمسا للدفاع عن قلعة كريجين Kregen التي كان إيرهارد Eberhard الأكبر صاحب وورتمبرغ Wurtemberg محاصراً لها، ويحاول تدميرها، وعلى هذا كان النزل مليئاً برجال مسلحين أشداء، لكنهم عندما عرفوا بأنني قادم من الأرض المقدسة عاملوني باحترام ككاهن وراهب، وكذلك كجندي من جنود الأرض المقدسة والضريح المقدس، ودعوني لعمل قداس لهم في اليوم التالي، ومن ثم بالسفر معهم، وقمت في اليوم التالي بعمل قداس لهم، وتناولت طعام الإفطار معهم، وعندما انطلقنا لنسافر سددوا الحساب عني، وأخذوني معهم وسط قوتهم بسرور ومتعة وراحة، وعندما وصلنا إلى كمبتن Kempten ، وجدت هناك في نزل التاج الملكي، الحجاج الانكليز الأربعة المتقدمي الذكر، وقد جرحوا، وضربوا وسلبوا كل مقتنياتهم، وكانوا في حالة محزنة جداً، ومخجلة وتعيسة.

فقد انقض عليهم في الغابة على مقربة من كمبتن لصوص، أنزلوهم من على خيولهم مرغمين بالسيوف، وعندما حاولوا صد القوة بالقوة، والدفاع عن أنفسهم، أصابتهم الجراحات بضربات سيوفهم، وقاموا بشد وثاقهم، وجروهم بعيداً عن الطريق العام إلى داخل الجزء الداخلي من الغابة، إلى حقل معزول منفرد، وقاموا هناك بسلبهم وسط إهانات كثيرة، وفتشوا في جيوبهم، وأفرغوا محافظ نقودهم وجعبهم، وعروهم من ملابسهم تماماً، وبحثوا في ملابسهم بكل عناية ليعرفوا فيما إذا كانوا قد خاطوا على شيء من المال فيهم، وأعطوهم أخيراً بعضاً من الملابس السيئة بدلاً عن ملابسهم، وأرغموهم على أن يقسموا يميناً أنهم في

مجال ثلاثة أيام لن يخبروا أحداً بما حدث لهم.

ولقد أسفت كثيراً من أجل إخواني، إنها هنأت نفسي لأنني لم أبق بصحبتهم، لأنني لو بقيت لوقعت مثلهم في أيدي هؤلاء اللصوص، ووصلت في اليوم التالي إلى ميمينجن مع هؤلاء الفرسان، وأمضيت ذلك النهار معهم، وفي اليوم التالي الذي كان يوم عيد القديس أو ثمار -Oth mar [٢٥— تشرين أول]، سافرت من ميمينجن إلى أولم بصحبة كاهن.

ولدى دخولي إلى ديري، استقبلت بسرور ولطف، ومن ثم ذهبت إلى قلايتي وإلى عملي المعتاد فيها، ويمكنني القول صادقاً، إن هذا الحج الأول الذي قمت به، يعادل مائة ضعف من حيث المتاعب والمآسي، أو أكثر، من حجي الثاني، وهو أعظم خطراً في كل من البحر والبر، وكانت جماعتنا في الحج أثناء حجي الأول أكثر فوضوية، لأنه كان فيها كثيراً من الرجال الانفعاليين، ولهذا كانت هناك خصومات يومية، كما كان هناك بعض السرقات الخاصة، وكان بعضهم دوماً مريضاً، وفي الحقيقة، كانت رحلتي الأولى هذه في كثير من الجوانب أكثر حزناً وتعاسة، في حين كانت رحلتي الثانية أكثر اتعاباً، وأبعد مسافة، وأعظم انفاقاً، وأشد خطراً، ومع ذلك تحملت أكثر فأكثر المخاطر اليومية في رحلتي الثانية.

وبهذا يمكن لجميع الناس أن يروا بوضوح، كيف أنه غير صحيح، ماهو رائج بين الناس في قولهم بأن الحج بالبحر من البندقية إلى الأرض المقدسة، هو مجرد رحلة ممتعة مع مخاطر قليلة، أو بدون مخاطر على الإطلاق، فيا إلهي أية رحلة متعبة وصعبة كانت رحلتنا، وكم كانت المعاناة التي كابدناها كبيرة ومزعجة، فلقد رأيت خلال هذه الرحلة كثيراً من الشباب النبلاء النشطاء يهلكون، من الذين تصوروا في أذهانهم أن بإمكانهم أن يتحكموا بأمواج البحر، وأن يرفعوا الجبال

العالية ويزنوها، لكن الذي مات بالأخير مات بقضاء الله العادل، وهلك بفعل المصاعب، وكان أمره محزناً في روحه.

أرجو الرب أن يعطي الذين قالوا بأن هذا الحج كان رحلة سهلة، القدرة على الشعور بالأسف وأن يتعلموا امتلاك الرحمة نحو الحجاج إلى الأرض المقدسة، وذلك حسب ما يستحقونه، فمحاولة هذا الحج تحتاج إلى الشجاعة والقدرة على التحمل، ذلك أن كثيرين يقدمون عليها ويندفعون نحوها بتسرع غير مغفور، وبلا شك بفضول بليد، ذلك أن الوصول إلى الأماكن المقدسة، ومن ثم أن يعود الإنسان إلى موطنه نشيطاً ومعافى، هو منحة خاصة من الرب.

هنا نهاية أولى جولات الراهب فيلكس فابري ورحلاته إلى الأرض المقدسة.

الطريقة التي استعد بها الراهب فيليكس فابري لجولته الثانية أو حجه إلى الأرض المقدسة، والقدس، وصهيون، وجبل سيناء

بعد إكمالي لجولتي الأولى، حسبما شرحتها جزئياً، عدت إلى أولم، معافي في بدني، وبدوت سعيداً متحمساً، لكن كنت في قلبي وروحي حزيناً، وغير مستقر، بسبب القلق الذي شعرت به، لأنه كان عليّ تحمل حجاً آخر، وعودة إلى الأرض المقدسة، وعلى كل حال لم أخبر أحداً بهذا القرار، ذلك أنني لم أكن قانعاً بأي حال من الأحوال بحجي الأول، لأنه كان قصيراً إلى أبعد الحدود وسريعاً، وقد ركضنا حول الأماكن المقدسة دون أن نفهم أو نشعر ماذا كانوا، يضاف إلى هذا لم يكن قد سمح لنا بزيارة بعض الأماكن المقدسة في كل من داخل القدس، وفي خارجها، كما أنه لم يسمح لنا بالسير فوق جبل الزيتون، وفي أماكنه المقدسة أكثر من مرة، وقد زرنا بيت لحم وبيت عنيا مرة واحدة فقط، وكان ذلك في الظلام.

ولهذا حدث بعد عودتي إلى أولم، وشروعي بالتفكير حول الضريح الأكثر قداسة لربنا، والملف الذي تمدد فيه، ومدينة القدس المقدسة، والجبال التي هناك من حولها، ومظهر وشكل وأوضاع هذه الجبال والأماكن المقدسة الأخرى، ذلك أنها ضاعت من ذاكرتي، حتى بدت لي الأرض المقدسة، والقدس مع أماكنها المقدسة وكأنها مغلفة بالضباب الكثيف، وكأنني قد رأيتهم في المنام، وبدوت شخصياً بالنسبة لنفسي وكأنني أعرف أقل حول الأماكن المقدسة، مما كنت أعرفه قبل أن أزورهم، ولهذا حدث أنني عندما سئلت عن الأماكن المقدسة، لم يكن بإمكانني إعطاء أجوبة دقيقة واضحة، كما لم يكن بإمكانني كتابة وصف واضح لرحلتي، ولهذا السبب كنت حزيناً إلى أبعد الحدود، ولكوني عانيت ما عانيته من متاعب، وشقاء، ومخاوف، وأنفقت مبلغاً كبيراً من المال، وكثيراً من الوقت، دون أن أتلقى أية ثمار، أو مواساة، أو معرفة.

وفي غالب الأحيان عندما كنت أحاول حصر نفسي وتوجيه أفكاري نحو القدس والأماكن المقدسة، كنت قادراً فقط على تجميع صورة غير واضحة حولهم، ولهذا قلت وأنا مغضب لنفسي: «أرجوك، توقفي عن التفكير حول هذه الأماكن، ذلك أنك كنت هناك بالتوهم والخيال فقط»، ومن هذه الساعة اعتدت على امتلاك رغبة ملحة جداً بالعودة، وبرهنت على صحة هذا غير أن هذا أوجد أسفاً جديداً بالنسبة إليّ وفيّ، لأنني لم أستطع رؤية أي سبيل للرجوع إلى هناك، كما أنني لم أتصور أن ذلك العود ممكناً.

وهكذا بقيت مرهقاً فكرياً، ولم أتجرأ على الحديث حول هذا الموضوع مع أي إنسان، وكنت خائفاً من ذكر هذا الموضوع إلى الأب المحترم السيد لودويغ فوكس، مع أنه كان صديقاً مقرباً مني، وشريكاً لي في جميع أسراري، حيث ما كنت أتردد في إخباره بجميع الأشياء السرية التي كنت أشعر بها بقرارة نفسي، ومع هذا لم أتجرأ على البوح بذلك لأبي بالرب، ولم أذكر له خطتي بالعودة إلى القدس، خشية من إثارتة وإزعاجه، وخشية أنه وغيره عندما يسمعون بذلك سيظنون ظن السوء بي، ويحكمون بأنني صاحب عقل خفيف، ومتضايق من العزلة الانفرادية الهادئة، أوروباً أعاني من إغواء الشيطان، أو مدان بذنوب الفضول المرفوض، أو مصاب بدوافع طائشة ملتعبة جامحة، ولذلك بقيت بلا قرار، ولم أظهر إشارة بما شعرت به سوى أنني عندما سئلت عن القدس وعن الأرض المقدسة، لم يكن بإمكانني الكلام بدون تنهد، أو القول أحياناً: لست أدري فيما إذا كنت قد رأيت القدس حقيقة أم لا، وعندما سألوني، فيما إذا كنت أرغب بالعودة إلى هناك ثانية، أجبت بكل بساطة، نعم أنا أرغب بذلك، وفي الوقت نفسه ألفتني رغبتني في العودة في قلتي محموم، ولذلك لم تقدم لي الدراسة، ولا الكتابة أية بهجة أو متعة، إلا الحكايات التي وردت في التوراة وفي أماكن أخرى فيها

إشارات وذكر للقدس، ولهذا قرأت بعناية كل شيء تعلق بهذا الموضوع، ووصل إلى يديّ، فضلاً عن هذا جمعت كل حكايات حجاج الحروب الصليبية، والرحلات التي كتبت من قبل حجاج، وكذلك أوصاف الأرض المقدسة، وقرأتهم بعناية، وكنت كلما قرأت أكثر كلما ازداد اضطرابي، لأنني بقراءتي لروايات الآخرين، علمت كم كان حجي، ناقصاً، ومضطرباً، وغير نظامي، ومضطرباً متداخلاً.

وأضيت في أعمال القراءات والكتابات هذه سنة واحدة، لكن بعد مضي سنة عدم الاستقرار هذه، قدم إلى منطقتنا القائد العام لطائفتنا كلها، أي طائفة الرهبان المبشرين، وهو سالفوس دي كاسيتا، Salvus de Casseta أوف بالرمو (بلرم)، وقد جاء مرسلاً من قبل الأب المقدس البابا سكتوس الرابع، للتصدي للسيد أندرو، رئيس أساقفة كارنيولا Carniola، الذي تحرك لأدري بأية روح، وكان يحاول عقد مجمع عام في بازل، وكان يسكن هناك تحت حماية الامبراطور فردريك الثالث، ومن أجل أن يتمكن رئيس طائفة الرهبان المبشرين المتقدم الذكر، من العمل بشكل فعال أكثر، استدعى أفضل الوعاظ في منطقتنا للاجتماع به في دير كولمار Colmar، وقد بعثت بين هؤلاء، وقدمت إلى الدير المتقدم الذكر، لكي أسمع أوامره وأطيعها، وهكذا عندما كنت بحضرة رئيس الطائفة، كان بين الأشياء التي قلتها لذلك الأب، وتحدثت بها إليه، أن أخبرت فخامته وحدثته عن رغبتني بالعودة إلى الأرض المقدسة وفلسطين، فما كان منه إلا أن أذن لي بالذهاب مباشرة وبدون عمل أية مصاعب، وأعطاني رسالة سماح مختومة بختم الطائفة، فيها حظّر على كل واحد من المراتب الأدنى منه عمل أية عوائق في طريق إنجاز ذلك الحج.

ولدى حصولي على هذا السماح عدت مسروراً إلى أولم، وأبقيت رسالة الرئيس مكتومة، وانتظرت متشوقاً لفرصة مناسبة حتى أعلن

عنها، وليس بعد مضي أيام كثيرة على هذا، حتى قدم إلى أولم مولانا المحترم في المسيح أودالريكوس غيسلينوس Udalricus Gislinus أسقف أDRAMYTIIUM ، ونائب أسقف لمولاي أسقف أوغسبورغ Augsburg ، الذي كان صديقاً لي، وقد شملني بمعرفته، وجاء معه حكيم باللاهوت، وكان راهباً من طائفة الفرنسيسكان، وكان راغباً بالذهاب إلى روما ليتسلم ترسيمه أسقفاً، لأن السيد أسقف فريزيا قد جعل منه مساعد أسقف له، وقد زرت هؤلاء السادة، ورجوت الحكيم المتقدم الذكر أن يتفضل عليّ فيحصل لي من الأب المقدس البابا، على إجازة لي لزيارة الأماكن المقدسة فيما وراء البحر، وهو ما رجاه أيضاً الأب المحترم المتقدم الذكر أودالريكوس أن يفعله إكراماً لخاطره، وهكذا وعدني بأن يفعل ذلك، وقد حافظ على وعده وبعث لي رسالة تحتوي على الاذن بالسفر، وعندما حصلت على هذه الرسالة حافظت على الصمت فقد كنت آمل بتوفر فرصة موافقة أكثر، وكنت أرجو أن الفرصة المرغوبة هي ستقدم نفسها، وتلبي رغبتني وتشوقي من دون أن أطلبها، وهذا ما حدث بالفعل.

وكان في ذلك الوقت في أولم رجل اسمه كونراد لوخر Locher ، وكان إنساناً محترماً يشغل وظيفة النائب العام للامبراطورية الرومانية المقدسة في ذلك المكان، وكان معروفاً بشكل جيد من قبل عدد كبير من النبلاء، وقد نظر إليّ نظرة تقدير وأولاني عناية خاصة، وله — بحكم كونه صديق موثوق — فتحت أولاً قلبي، وأبحث له خبر رغبتني، والاجازتين التي حصلت عليهما، ورجوته إذا كان يعرف أي شخص من نبلاء المنطقة، يرغب بالقيام بالحج إلى الضريح المقدس في القدس، وهو بحاجة إلى خادم وشماس، فيوصي بي إلى مثل هذا الشخص، على أنني إنسان صاحب تجربة، ومعين في مثل هذا الحج في كل من القضايا

الروحية والدينية.

وبناء عليه نظر الرجل المتقدم الذكر في لائحة نبلاء المنطقة، فوجد السيد ذي الأصل النبيل جون تروخسيس فون وولدبورغ John Tru-chesess Von Woldpurg ، كان يعدّ العدة للقيام بحج إلى ما وراء البحار مع عدد آخر من البارونات والنبلاء، وقد زار هؤلاء النبلاء، وقام بإخلاص عظيم بالتوصية بي لهم، كما برهنت الأحداث.

لأنه مباشرة بعد هذا، وكان ذلك في سنة ١٤٨٣، وفي يوم عيد القديسة العذراء جيرترود Gertrude ، قام النبيل المتقدم الذكر، أي تروخسيس فون وولدبورغ، بالقدوم إلى أولم مع عدد كبير آخر من النبلاء، ومن أصدقائه، وأرسل على الفور رسولا إليّ واستدعاني من الدير، وعندما قدمت إليه إلى النزل الذي كان نازلاً به، وبدأ يسألني، وكأنه يطلب مشورتي حول كيف يمكن للذين يرغبون بعبور البحر والقيام بالحج إلى القدس، أن يفعلوا ذلك، وما الذي عليهم القيام به بشأن هذه القضية، وقال: «لقد سمعت بأنك كنت في تلك المناطق فيما وراء البحار، أرجوك، أشر عليّ، ما الذي ينبغي أن أفعله من أجل أن أعود إلى الوطن سالماً؟ ثم استطرد يقول: «إنني أنوي زيارة الأرض المقدسة، ومدينة القدس المشهورة، ومعلم الرب، الذي هو الأكثر عذوبة، وضريح الرب الأكثر تمجيداً»، وقال: أخبرني، «أرجوك بحرارة، ما هي المصاعب في طريقي، وكيف يمكن تجاوزها؟»، وعندما كنت أجيبه على أسئلته، كان ينظر إليّ بإخلاص عظيم، ومع أنه توقف عن سؤالني مثلما فعل في البداية، لكنه استوضح عما إذا ما زلت أمتلك أية رغبة في العودة إلى القدس، فأجبت أنه لا يوجد شيء في العالم أنا متشوق إليه بشدة، في الوقت الحالي، أعظم من رؤية ثانية لهذه الأماكن المقدسة، وبعدما علم هكذا رغبتني بالذهاب، جعلني هذا النبيل أعود إلى ديري، مؤكداً لي، أنه ينبغي أن أذهب إلى القدس برفقته ورفقة

أصدقائه.

وكان النبلاء التالية أسماؤهم قد تعهدوا مقسمين على القيام بالحج مع بعضهم، وهم: السيد جون وورنهر Wornher ، بارون فون كيمبيرن Cymbern ، والسيد هنري بارون فون ستوفل Stoe-fel ، والسيد أورسوس Ursus فون ريخبرغ Rechberg فون هوهنريخبرغ Hohenrechberg ، والسيد المتقدم الذكر تروخسيس فون وولدبورغ، الذي كان والد جميع المتقدمي الذكر، ومنه تلقوا التحريض والدافع الذي جعلهم يقررون القيام بحجهم.

ومباشرة في الساعة نفسها التي عدت بها إلى ديري، أرسل النبيل المتقدم الذكر رجلاً محترماً مرافقاً بحاشيته الخاصة، ليلقي كلمة يرجو بها السيد المحترم رئيس الدير، باسم البارونات النبلاء الذين تقدم ذكرهم، بأن يتكرم ويحسن بمنح الراهب الذي كان في بلدان ما وراء البحر، والذي وقع اختيارهم عليه بالاجماع لأن يكون شماسهم والقس الذي يعترفون إليه، إجازة بالمغادرة، وإذنًا بالسفر من البلاد معهم، ولهذا الغرض أضفت بأن السيد جون تروخسيس قد قدم الآن مع رفاقه والنبلاء الآخرين إلى هذه المدينة.

وعندما سمح رئيس الدير هذا افتعل كثيراً من المصاعب، وأخذ وقتاً لتقدير الجواب الذي ينبغي أن يعطيه، وعندما رأى السيد جون هذا، وخشية منه أن ينتهي النقاش في شيء يضاد رغباته، قام مباشرة في اليوم التالي، وجلب معه جميع النبلاء وأصدقائه، وكذلك النبيل كونت فون كيرخبرغ Kyrchberg الذي جاء أيضاً معه، ولقد اصطحب هؤلاء جميعاً وذهب إلى مقر محكمة العدالة المدنية، حيث كان جميع أعيان مدينة أولم مجتمعين، وترجاهم لكي يستمعوا له، وعندما جرت الاستجابة لهذا الطلب، توسل إلى القناصل لكي يستخدموا نفوذهم لدى رئيس دير الدومينيكان لكي يدع الراهب فيلكس، الذي اختاره

هو ورفاقه ليكون شماسهم أثناء الحج فيما وراء البحار، يدعه يغادر بدون عوائق، ولا سيما أنهم يعرفون بشكل خاص أنه راغب بالذهاب، وبناء عليه دخل عمدة المدينة مع عدد من القضاة إلى الدير ليلتمسوا من الأب، الموافقة على التماس النبلاء، من أجل خاطر أعيان المدينة، وعندما قال بأنه لا يمتلك السلطة ليمنحني إجازة للارتحال إلى القدس، لأن ذلك العمل هو في يدي أيينا المقدس، البابا، وكذلك هو من شأن القائد العام للطائفة، قمت على الفور بتقديم الرسالتين، اللتين هما من البابا، ومن القائد العام للطائفة، وعندما رأهما أعطى على الفور موافقته باسم الرب.

وبناء عليه التقيت بالسيد جون تروخسيس، وتباحثت معه حول المكان وحول اليوم الذي سألتقي به فيه مع سادتي الثلاثة الآخرين، وقام بتحديد يوم خاص، أما بالنسبة للمكان فقد كان بلدة إنسبروك Innsbruck حيث مقر دوق النمسا، وبعد إعداد هذا، ذهب سيادته إلى موطنه مع جماعته، واعتباراً من هذا اليوم أطلقت لحيتي، وزينت قبعتي وردائي بصليبين حمراوين، وجرت خياطة هذين الصليبين على ثيابي من قبل عذراوات، مكرسات للرب، اقترن بالذي صلب، وعملت جميع الشارات الأخرى لذلك الحج المقدس، كما ينبغي أن أفعل بشكل صحيح، حيث هناك أربطة خمسة خارجية للحاج هي: أولها صليب أحمر فوق رداء رمادي طويل، مع قلنسوة راهب مخاطة إلى القميص، ما لم يكن الحاج متميماً إلى إحدى الطوائف التي لا تسمح له بارتداء رداء رمادي، وثانيها قبعة سوداء أو رمادية، عليها في الواجهة صليب أحمر، وثالثها حية طويلة نامية من وجه حاد وممتقع اللون بسبب متاعبه والمخاطر، ذلك أنه في كل بلد من البلدان، حتى في البلدان الكافرة، يطلق الناس لحاهم ويدعون شعورهم تطول أثناء سفرهم، وإلى أن يعودوا إلى وطنهم، ويقولون إن أول من فعل ذلك هو أوزوريس،

وكان ملكاً قديماً لمصر، وكان مقدساً إلى درجة عدّه رباً، وكان قد ارتحل خلال العالم كله، والرابع هو مخلاة تعلق على الكتفين فيها طعامه القليل مع زجاجة، وهي كافية ليس لرغد العيش، بل لمجرد ضرورات الحياة، والخامس، وهو ما يحصل عليه فقط في الأرض المقدسة، وهو أتان، مع سائق مسلم، عوضاً عن عصاه.

وهكذا تطلعت بشوق عظيم إلى يوم مغادرتي، وبصمت وهدوء جهزت نفسي من أجل حجي المقدس، وذلك بسبب المشاكل التي أثارها الذين كانوا قلقين على سلامتي، والذين دأبوا على إزعاجي.

هنا بداية الرحلة الثانية للراهب فيلكس فابري إلى الأرض المقدسة والقدس

الجزء الرئيسي الثاني من الكتاب كله.

سوف أبدأ الآن جولاتي حول حجي الأكثر رغبة فيه والذي كان الأعظم إشراقاً وسروراً، وهو الحج الذي عازمت على وصفه في اثني عشر فصلاً، تبعاً للاثني عشر شهراً — أكثر أو أقل — التي استغرقها الحج، وقد قسمت كل فصل إلى كثير من العناوين، مثلما هناك أيام في الشهر، وبناء عليه سوف يكون كل شهر في فصل، وكل يوم تحت عنوان.

ولسوف أبدأ بيوم مغادرتي، وأنتهي بيوم عودتي، وسأتي بشكل صادق وأمين على ذكر جميع الأماكن التي رأيناها شهراً تلو شهر، ويوماً تلو يوم، وسأتحدث بصدق عن كل ما نزل بنا في كل شهر، وفي كل يوم، مضيفاً أوصاف جميع الأماكن المقدسة وغيرها من الأماكن، لكي أحسن روايتي وأشرحها، لأنني لم أر يوماً واحداً، أثناء رحلتي، دون أن أكتب بعض المذكرات، حتى عندما كنت في البحر، وفي العواصف، أو في البلاد المقدسة، وغالباً ما كنت في الصحراء وأنا راكب على ظهر أتان، أو جمل، أو في الليل عندما يكون الآخرون نياماً، حيث كنت أجلس وأدون كتابة ما كنت قد رأيته.

والآن عندما اقترب موعد المغادرة، وبات عليّ السفر، ترقبت يوماً مناسباً يمكنني أن أغادر فيه أولم، من دون أن ألاحظ، ومن دون تجمع حشد كبير من الناس، لأن رفاقي وذوي النوايا الطيبة نحوي قد انزعجوا كثيراً، وكانوا غير سعداء إلى أبعد الحدود بسبب مغادرتي، وقد أزعجونني كثيراً بنصائحهم التي وجهوها إليّ بالبقاء في الوطن،

وبسبب مخاوفهم الحمقاء، وقد بدا نحيبهم بالنسبة لي مزعجاً جداً،
لأنني أحب البهجة ولا أخاف، لأنني كنت ذاهباً لتلبية دعوة إلى
الاحتفال مع أعز أصدقائي.

وبناء عليه في الثالث عشر من نيسان، الذي كان يوم أحد ويعرف
باسم Misericor dia Domini وذلك في سنة ١٤٨٣، ومع حلول
الظلام، جاء إليّ رسول أرسله النزيل السيد فيليب كونت كيرخبيرغ،
يطلب مني القدوم في الصباح التالي بدون تأخير لزيارة الكونت والقيام
ببعض الأعمال معه، وكنت في وضع الرئيس لجميع أسرتي، لأن جميع آل
بيتي اعتادوا على الاعتراف إليّ، من كل من الكونتات والكونتسات،
وعندما تتوفر أية مصاعب، يمكنني أن أتعامل معها، كانوا دوماً يكتبون
رسالة إليّ، أو يبعثون إليّ للقدوم إليهم، وبناء عليه رتبت مع الخادم
بأنني سوف أقدم عليه بصحبته في الغد.

وفي الرابع عشر، الذي كان يوم عيد تيبورتوس Tiburtius
وفالتاين، وبعد قراءة القداس وتناول طعام الافطار دعوت للاجتماع بي
جميع الرهبان، وقلت لهم أنني الآن أرغب في مغادرتهم والسفر،
ورجوت بنيل مباركة الحج من أبينا المحترم المقدس لودويغ Ludwig،
وقد اقتادني إلى السدة حيث رافقني كل رهبان الدير، وجثوث في وسط
السدة بوجود القربان المقدس، وتلقيت المباركة من المذبح، وسط بكاء
مرّ ونحيب من رئيس الدير وجميع الرهبان، وبعدما تلقيت مباركتي
جعلني بكائي ودموعي غير قادر على القول وداعاً لإخواني الرهبان
بالكلمات، لكن دموعي، ووجهي الحزين، وتنهداتي تكلمت عني.

وبناء عليه عانقت وقبلت كل واحد من إخواني، ورجوتهم أن
يتذكروني في صلواتهم، غير أنني لم أستطع إلا بصعوبة بالغة إقناع الأب
المحترم لودويغ بالبقاء مرتاحاً في البيت، لأنه أراد أن يراني سليماً حتى
ميمنجن، كما فعل من قبل، لكنني رفضت كلياً أن أسمح له، حتى

لايعاني من ألم جديد واضطراب عندما نفترق، وعلى كل حال كنت لدى انطلاقي لهذا الحج مسروراً ومنتشياً، وروحي مبتهجة، ومع ذلك عندما تركت الأب، الذي هو صديق مخلص جداً، وغادرت إخواني المحبوبين إليّ كثيراً، الذين كانوا حزينين كثيراً ومحبتين، لم أستطع أن أمنع نفسي من ذرف دموعي.

وبعدما جرى جمع الحقائق التي نويت حملها معي، وبعدما وضعتها على ظهر الحصان الذي كنت قد اشتريته، امتطيت حصاني، وبت على نية السير والابتعاد برفقة خادم الكونت، لكن حدث لدى امتطائي لحصاني أن تخلق جميع إخواني الرهبان من حولي، ورجوني أن أئنبه وأن أعنتني بكتابة مذكرات عن جميع الأماكن المقدسة التي سأراها، وأن أكتب رواية عنها وأجلبها معي إليهم، وذلك من أجل أن يتمكنوا أيضاً بأفكارهم — طالما لم يستطيعوا بأجسادهم — من الحصول على متعة زيارة الأماكن المقدسة، وقد وعدت إخواني بفعل ذلك، وخرجت برفقة خادم الكونت وقتها من الدير، وسرنا بدون جلبه وكأننا مخفين لأنفسنا، وخرجنا من المدينة، وعبرنا نهر الدانوب عبر الباب الذي يقود إلى جسر الضأن، وصدف أن هذا الحج قد توافق مع الحج الآخر، فيما يتعلق باليوم الذي بدأ به، ذلك أنني كنت قد بدأت حجي المتقدم في يوم عيد القديسين تيورتيوس وفالتاين.

وفي الحقيقة بدأت بعد مضي عامين رحلتي الثانية في اليوم نفسه والساعة نفسها، مثل الرحلة الأولى، وسرت أنا وخادم الكونت فوصلنا بسرعة إلى قرية ديسين Dissen ، وصعدنا بعد ذلك إلى القلعة القائمة فوقها، التي سكن فيها مولاي الكونت، وكان السبب في إرساله خلفي هو مايلي: كان يوجد في قرية جيدنشييم Jedensheim أو إيهديمشييم Iheidemsheim ، القائمة عند سفح الراية التي قامت فوقها القلعة، كان يوجد هناك فتاة قد فقدت عقلها، التي من الممكن

تبيان أنها متلبسة من الشيطان، وقد أراني الفتاة وعرضها عليّ لأنظر إليها وأنفحصها، حتى يمكنني تقرير ما الذي يمكن العمل معها، وكان قراري أنها كانت فاقدة لعقلها، ولهذا كان الأجدى العهدة بها لعناية أطباء وليس لعناية لاهوتيين.

ومع انتهاء هذا العمل أخبرت مولاي الكونت، بأنني قد بدأت رحلتي، ورجوته أن يبعث معي بخادم يرافقني حتى سفح جبال الألب، لأنه بالنسبة للطريق خلال تلك المسافة غالباً ما يكون خطيراً، وقد خفت من السير وحيداً، وبناء عليه غادرت ثيسا Thyssa في ذلك اليوم نفسه مع الخادم الذي عين لي، وسافرنا حتى ميمنجن حيث أمضينا الليل.

وسافرنا في اليوم الخامس عشر مسرعين من ميمنجن حتى كامبتن Kampten، وهناك تناولنا طعام الغداء معاً، وبعد الغداء صرفت الخادم وطلبت منه العودة إلى سيده، ذلك أنني خشيت من احتمال أن يغادر مولاي انسبروك Innsbruck قبل وصولي إلى هناك، ولذلك سافرت حتى قرية ريوتي Reutte القائمة على ضفتي نهر ليكوس Licus، وهو الذي يعرف بشكل عام باسم ليخ Lech، حيث أمضيت الليل هناك.

وغادرت في يوم السادس عشر ريوتي وحيداً، وكان ذلك في الصباح الباكر، وشرعت في تسلق ألب ريهتك Rhaetic، في مكان يقوم فيه المدخل إلى ريهتك الألب، وذلك فوق طريق منحدر، يكون في أوقات الأمطار سيئاً جداً للسفر عليه، لأنه عميق وموحل، وقد وجدت الطريق سيئاً جداً، لأنه كانت هناك أمطار في اليوم المتقدم، وتساقط الثلج في الليلة التالية فوق الوحول، ولهذا لم أستطع رؤية التجمعات المائية والحفر العميقة، وعلى هذا غرق حصاني الذي قدته طوال الطريق صعوداً حتى بطنه أثناء كل خطوة، وغرقت أنا مثله حتى ركبتني، فضلاً

عن هذا غرقنا معاً في حفر عميقة، ومهما يكن من أمر لقد عبرت حتى حدود الريهتك ألب Rhaetic Alps ، التي هي موجودة عند مكان اسمه ايهرنستين Ehrenstein ، ووصلت إلى حيث يقود الطريق صعوداً فوق مونز فيريشيوس Mons Fericius ، وعندما وصلت إلى قمة هذا المكان ونزلت إلى الجانب الآخر، وجدت أنه ما يزال أمامي جزء من النهار، ولهذا عبرت خلال قرية الناصرية، وتسقلت ثانية جبلاً عالياً جداً ووصلت إلى قرية Schneckenhusen ، حيث قررت إمضاء الليل.

وجلس في النزل بعض عمال المناجم من مناجم الفضة، وكانوا يقيمون، ويشربون ويمتعون أنفسهم، وقد نظرت إليهم نظرة ريبة، وكنت حذراً في كلامي معهم، ووضعني صاحب النزل في غرفة صغيرة لوحدي، حيث قمت بإغلاق الباب بكل اتقان وحذر، ورحت نائماً.

وفي الصباح الباكر من اليوم السابع عشر، عندما استيقظنا جميعاً، كانت هناك ضجة كبيرة في دار النزل، لأن اثنين من الحمالين كانا يشتكيان بأنهما فقدوا نقودهما مع أموالهما كلها، لأنها عندما كانا نائمين، دخل عمال المناجم إلى غرفتهما، وسحبا حافظتي نقودهما من تحت وسادتهما، وأفرغاهن ورموهن في الحديقة المجاورة لدار النزل، ونجوا مع المال، بينما كان كل إنسان نائم.

وعندما أشرقت الشمس غادرت ذلك المكان، ومضيت مسافراً على طريقي تخالجي المخاوف من أن يكون أولئك اللصوص قد جلسوا كامنين لي على الطريق، وعلى كل حال لم يلحقني أي ضرر، ووصلت في منتصف النهار إلى بلدة إينسبروك Innsbruck حيث أملت بلقاء مولاي، لكن خاب أمني، ويطلق على إينسبروك اسم بونتينا Pontina في اللاتينية، وذلك اشتقاقاً من عبارة بونز إن Pons Ini ، ذلك أن الجسر القائم على نهر إن Inn ، هو المعني بالألمانية باسم

إينسبروك، ولدى اقترابي من جسر البلدة، وعندما كنت على وشك الدخول إليه، قابلت خمسة رجال مسلحين، كانوا من أتباع موالى، حيث كانوا قد صرفوهم عائدين إلى موطنهم، عندما كانوا أنفسهم قد انطلقوا من اينسبروك في ذلك اليوم نفسه، وكانوا يعملون في بلاط الدوق منذ أيام طويلة، وكانوا متعبين من ذلك، ولذلك ما أن أنهم أعمالهم هناك، حتى استأذنوا بالانصراف، قبل يوم واحد قبل الموعد الذي كان السيد جون التروخسيس قد حدده للقاء معي، وكانت الأعمال التي كان عليهم تصريفها مع الدوق هي أنه عهد إليهم بالمسؤولية عن كل ما خلفه وراءه هو ومن معه، أي: أزواجهم، وأولادهم، وأراضيهم، وقراهم، وبلداتهم، وقلاعهم، وكونتياتهم وإقطاعياتهم، فضلاً عن هذا كانوا قد تسلموا من الدوق رسائل توصية موجهة إلى أعيان وشيوخ البندقية، وكانوا عندما أكملوا هذا كانوا قد شرعوا بالانصراف.

وبما أنني لم أجد موالى في البلدة، عبرت من خلالها مسرعاً، من أجل اللحاق بهم، وتسقلت الجبال، وبعد عبوري الكثير من الممرات الملتوية بين الجبال، وصلت إلى واد كبير اسمه ماتري Matrae وأمضيت الليل هناك.

وفي يوم الثامن عشر تسلقت جبلاً أكثر علواً، وعبرت الممر الذي اسمه برينير Brenner ، حيث عانيت من البرد القارس، لأنه يوجد هناك دوماً حتى في الصيف جليد، وبخار على شكل صقيع، وذهبت من ذلك الشرف نزولاً إلى الطرف الآخر عبر طريق طويل سرت عليه حتى وصلت إلى بلدة ستيرتزنج Stertzng حيث وجدت موالى في النزل مع نبلاء آخرين وأتباعهم، والذين وجدتهم هناك كانوا : السيد هينريخ Heinrich فون ستوفل، والسيد جون التروخسيس، والسيد أوسوس فون ريخبيرغ، غير أن العضو الرابع من جماعتنا، وهو السيد جون ويرنر Werner ، بارون فون سيميرن، كان قد مضى في

مقدمتهم وسبقهم، من أجل أن يحضر مكان إقامة موائم في البندقية من أجل السادة جميعاً، ومن هم في جماعتنا.

وفي يوم التاسع عشر من نيسان غادرنا ذلك المكان بعد الغداء، ولدى مرورنا بدير نيوستفت Neustift ، العائد إلى طائفة كهنة نظاميين، على مقربة من بركسن Brixen ، خرج راعي الدير لاستقبالنا وأخذنا جميعاً إلى الدير برفقته، وقد فعل ذلك صدوراً عن احترامه للسيد جون التروخسيس، الذي عدّه حاميه، لأنه جاء من وولسي Walsee ، مقر السيد جون التروخسيس، وبفضله جرى تعيينه راعياً لذلك الدير، ولم يرغب راعي الدير المتقدم ذكره بأن يدعنا نذهب، بل أجبرنا على البقاء هناك، وعاملنا باحترام عظيم، ذلك أن الدير كان عظيماً جداً وثرياً، ونادراً ما رأيت في أي مكان آخر مثل الكثرة التي رأيتها هناك من صحنون الذهب والفضة في قاعة طعام راعي الدير، ويمتلك هذا الدير كنيسة كبيرة، مزينة بشكل ثري، كما يحتوي على مكتبة جيدة، والرجال هناك مترمتين ومحترمين، ويرعون إقامة القداسات الربانية، ولأعتقد أنني سمعت في أي مكان آخر مثل صحة غناء الجوقة وجودته في هذا الدير.

وفي يوم العشرين، الذي كان يوم أحد عرف باسم «اليوبيل» بقينا لسماح القداس الرباني، ومن أجل الغداء في نيوستفت، ثم غادرنا الدير، ومررنا مسرعين من خلال بلدة بركسن، لأن السادة قد علموا بأن الطاعون كان منتشرًا هناك، وفي مرات مقبلة عندما مررت من هناك أمضيت الليل فيها، ويوجد فيها أسقفية غنية، وكان غالباً ما تنشب إثر وفاة الأسقف هناك صراعات بين النبلاء، حول الأسقفية، وهذه المنطقة كلها مشحونة بالخلافات والصراعات اللاهوتية، وكانت المنطقة كلها محرومة لاهوتياً، ويمكنني أن أتذكر الوقت الذي وضع فيه دوق النمسا الحالي سيغسموند Sigismund ، والمنطقة كلها تحت حرمان واضح

دقيق، وكانوا جميعاً محرومين كنسياً بسبب ما كان يتفجر من خلافات حول الأسقفية، وبناء عليه فإن كل إنسان عبر خلال تلك المنطقة، سواء أكان عارفاً أم جاهلاً، أصبح محروماً.

ويوجد هناك كنيسة كاتدرائية جميلة، فيها وقفت مرة مع واحد من إخواني الرهبان من طائفتي ورددنا الساعات القانونية في تلك الكنيسة، وبناء عليه قام مولاي رئيس تلك الكنيسة والقانوني الكبير فيها، فبعث شماسه إلينا، وسأل عما إذا كنا رهباناً متسولين، وعندما عرف صدق ذلك منحنا صدقات جيدة وسخية، ويمكن لدير لرهبان جيدين أن يكون مفيداً جداً هناك، لأنه لا يوجد في الأسقفية كلها دير للرهبان المتسولين، فالرهبان القانونيين هناك متزمتين ومحترمين، ولذلك ليس هناك أي راهب سوى الذين هم في ريكوليت Recollets في نيوستفت، والدير في نيوستفت هو من ممتلكات هؤلاء الرهبان القانونيين، وليس قبل وقت طويل جداً كانت الكنيسة في نيوستفت كنيسة كاتدرائية، لكن عندما نقلت إلى البلدة، جرى وضع الكهنة النظاميين هناك.

وغادرنا بركسن وخلفناها وراءنا، فوصلنا إلى كونترسويف Kun- tersweg ، حيث تابعنا سيرنا من جانبها بسهولة، لأن دوق النمسا قد حصنها بقوة، ويذهب الآن إلى أعلاها وأسفلها بعربات ذوات دواليب، وقد تخلو عن ممرات الخيول القديمة، وكان الدوق المتقدم الذكر يبني لهذا بناءً عالياً بنفقات عظيمة، ليكون بمثابة بيت طويل، وقبل أقل من ستين مضيتا كان هذا الطريق على درجة كبيرة من السوء، وخطيراً إلى حد أن الإنسان يستطيع عبوره وسط أعظم المخاطر، وهو يقود فرسه خلفه، وأنا أعرف درجة المخاوف والمخاطر عبر هذا الطريق عندما مررت به أثناء سفري في حجي الأول، لأنه يوجد على جهة اليمين وديان عميقة جداً، وكان الطريق شديد الضيق،

لوجود شعاب جبلية عالية على يساره، ونظراً لأن هذا الطريق كان ضيقاً وخطيراً كان الأدلاء الشعييون يغنون حوله، لكن الآن — كما قلت — بذل الدوق جهوداً فنية لكي ينسف الصخور بوساطة البارود، حتى يقطع واجهات الشعاب الجبلية، ويجرف بعيداً كميات كبيرة من الصخور، وجعل بالانفاق العظيم من الأماكن الوعرة أماكن سهلة، ولم يقتصر هذا على هذه المنطقة فقط، بل شمل مناطق كثيرة من Rhae-tia التي هي خاضعة لحكمه.

وكان طول الطريق المتقدم الذكر ميلين ألمانيين، وعندما عبرناها وصلنا إلى بلدة بوتزن Botzen، التي وجدناها لسوء حظها قد تعرضت مؤخراً للحريق كلياً تقريباً، وفي الحقيقة لم تكن النيران قد زالت كلياً، بل إننا رأينا اللهب، وشممنا الدخان وكان مايزال ينبعث من بين أكوام الخرائب، وكانت الديرة والكنائس قد بقيت دون أن تتعرض للنار، وكان دير طائفتنا للرهبان المبشرين قد تعرض للنار، لكن بفضل جهود الرهبان الغيورة، الذين عملوا من فوق الأسطحة أمكن إطفاء اللهب، ومع ذلك تمكنت النيران من الانتشار بقوة، حتى أن ديرنا، لم يكن بالامكان إنقاذه إلاً بأكثر من العون البشري، لأنه عندما التهب سقف المهيجع — كما أخبرني عدد من الشهود الصادقين — قام رئيس الدير المحترم، الأب نيقولا مونخيرغر Munchberger، بالركوع على ركبتيه تحت اللهب، ودعا طالباً العون من العذراء المباركة، وهو ما تلقاه.

وكان قد حدث قبل سنين كثيرة مضت، أن جاءت النار إلى باب المدينة على مرأى من جميع الناس، وانتشرت خلال جميع الشوارع، وأحرقت البلدة كلها، ومثلما ساد اعتقاد بأن النار المتقدمة كانت بكل وضوح قد جاءت انتقاماً من السماء، كذلك هو الاعتقاد نفسه بالنسبة لهذه النار الأخيرة، لأن الناس هناك آثمين جداً، سلموا أنفسهم إلى

السكر، وإلى المتعة والتكبر بلا حدود ولا قياس.

وفي الحقيقة كل شيء هناك رخيص جداً، وهناك وفرة عظيمة بالأشياء الجيدة، والخمرة هي بشكل خاص جيدة، وجميع الفواكه حلوة، لكن الهواء غير صحي، لأنه قد قيل بأنه يوجد من الجانب الذي من الممكن أن تهب منه رياح جديدة جبال عالية جداً، وقد دُلني عليها إخواني الرهبان، وفي الوقت نفسه يوجد في الجزء الذي تتلقى منه البلدة الرياح، مستنقعات أسنة جداً، ونتيجة لهذا كله، هناك دوماً كثيراً من الأشخاص يعانون من أعراض الحمى، ومن الدارج كثيراً المعاناة من الحمى، لأنهم لا يعدون الحمى مرضاً.

وعندما يلتقي واحد منهم بصديق، ويراه ممتقع اللون، ووجهه متغير يقول له: «يا صديقي، ما القضية أراك ممتقع اللون ومتغيراً؟ يجيبه: في الحقيقة يا صديقي، إنني أشكر الرب لأنني غير مريض، لكن الحمى غيرت مظهري»، وهكذا حدث عندما كنت أزور بوتزن في إحدى المرات بصحبة صديق علماني نظر إلى البلدة وقال لي: «انظر إلى هناك يا أخي، أنا لا أعتقد أن هناك بلدة في العالم هي أبرد من هذه البلدة» واندعشت لقوله، فقلت له: «ليس الأمر كذلك، أعتقد أنها من أكثر البلدان دفئاً»، فأجابني: «إنني لم أقدم قط إلى هذه البلدة، حتى في أكثر الأيام حرارة، في أيام الصيف، دون أن أرى دوماً كثيراً من الناس جالسين هناك في فرائهم الشتوية، وهم ممتقعون اللون من البرد، وأسنانهم تصطك»، وقد قال هذا على سبيل المزاح، مشيراً بذلك إلى المعاناة من الحمى، ويعتقد كثير من الناس أن الشعب لا يصاب بالحمى بسبب الهواء السيء، بل بسبب الخمرة الجيدة، والطبخ الجيد الذي يهتمونه بأنفسهم فيصبحون مرضى.

وكانت هذه البلدة قبل سنين قليلة بلدة إيطالية، واللغة الإيطالية كانت هي اللغة الرائجة فيها، بين الناس، وفي الحقيقة إنني أعرف كاهناً

إيطالياً، لا يمكنه التفوه بكلمة ألمانية، وقد كان في شبابه ساعياً وواعظاً في الدير في بوتزن، لكن مع مرور الأيام، مع ازدياد تعداد الألمان، غدت البلدة بلدة ألمانية، والدير الذي كان من قبل من أملاك منطقة القديس دومينيك Dominic ، قد ألحق الآن بمقاطعتنا.

وقد أمضينا الليل في هذه البلدة، ورأينا كثيراً من الشقاء والتعاسة، لأن كثيراً من الناس كانوا يعيشون بين خرائب بيوتهم بدون أية أسقف، أو مكان للإيواء، وكان عدد كبير منهم يغادرون البلدة كمتسولين، مع أنهم كانوا حتى وقت قريب أناساً أثرياء، والآن يجري إعادة بناء البلدة، والأبنية التي يقيمونها الآن في تكاليفها أعلى من الأبنية التي كانت موجودة قبل النار.

وفي الحادي والعشرين من نيسان غادرنا ذلك المكان بعد سماعنا القداس وتناولنا الغداء في دير طائفنا، وقد جعلنا على جهة اليمين نهر أئيسيس Athesis أو لافيسيوس Lavisius (أدجي Adige) ، وهو الذي يعرف بشكل عام باسم ايتسخ Etsch ، ورأينا عبر أدجي منطقة هضبية خصبة جداً، مليئة بالقلع وبالقري، القرية الرئيسية بينها اسمها ترامينجم Tramingum التي هي قرية واسعة، وعلى مقربة منها هناك كروم تنتج خمرة ممتازة تصدر إلى سوابيا حيث هي معروفة هناك باسم ترامينجر Tramminger اشتقاقاً من اسم القرية.

وكان بيننا وبين أدجي، باتجاه بلدة ميران Meran مستنقعات عميقة، ويوجد خلف هذه المستنقعات في مقابل بلدة ترنت Trent تلال منخفضة، يقوم على قرنتها قلعة قديمة اسمها فيرميانوم Fir-mianum ، منها جاءت وصدرت أصول الأسرة النبيلة للوردات فيرميانوم، الذين رأيت بعضهم، وهذه القلعة مملوكة الآن من سيغسموند دوق النمسا، الذي يعيد الآن عمارتها على مستوى أوسع،

مع أسوار سميكة جداً، محيطاً إياها بأبراج كبيرة وعالية، وقد بلغت سماكة السور عشرين قدماً منتعلاً، وتحتوي في زواياها الأربعة على أماكن إقامة واسعة وقد بنيت بقوة حيث واحدتها منفصل عن الآخر بأسوار معترضة وبأبراج، ولكل مكان إقامة وسكن ساحة خاصة، واسطبلات للخيل خاصة، وبناء على ذلك يمكن لأربعة من الأمراء أن يقيموا هناك بأمان، وقد دخلت إلى القلعة، وكنت بها ورأيت كل ما فيها، وليس فيها ماء إلا ما ينضحونه بالدولاب من نهر أدجي، الذي يجري عبر الصخرة التي تقف عليها القلعة.

وكان هذا المكان سيء السمعة ومموجاً كسكن بسبب التثانة الصادرة عن المستنقع، مما كان يسبب بسرعة موت السكان، وبناء عليه ولإزالة هذا كله، قام الدوق بالأمر بحفر مجاري في المستنقع، وذلك من نهر أدجي حتى الجبال، ولذلك يوجد الآن مروجاً جميلة، حيث كان من قبل مستنقع ناعم موبوء، والأقنية أنفستها مليئة بالماء المجرور من المستنقع إلى حد أن الناس يعبرونها صعوداً ونزولاً بالقوارب.

وأمر الدوق بزرع كروم طويلة جداً على ضفاف الأقنية من كلا الجانبين، حيث يجمع منها في موسم الجني حمولة ما يزيد على عشرين عربة من العنب الممتاز، ومع هذا، وعلى الرغم من زوال نتن المستنقع، لقد قيل ليس بمقدور أي إنسان أن يعيش في القلعة أطول من ذي قبل، وسبب هذا كما حدثني مؤخراً حاكم القلعة، هو أنها عالية شائخة، وفيها هواء صحي قوي، يجعل الناس الذين يعيشون هناك يشعرون دوماً بالجوع والعطش، وشهيتهم مشارة بشكل عظيم، حيث لو حاول إنسان أن يشبع فوق حده، يدمر نفسه، لأنه لا يوجد خدم هناك، بل المائدة دوماً ممدودة وجاهزة عليها انتشرت الأطعمة، والخمر ليست مخبأة أو مقفول عليها، وتجعل هذه الوفرة المكان ليس عزيزاً على النفس.

وسألت حاكم القلعة عن الغاية التي جعلت الدوق يتكلف هذه

النفقات العظيمة في مثل هذه القلعة المحصنة بشكل غريب، في وقت نجد فيه أن المنطقة هناك من حولها ملك لكونتية تيروك Tyrok ، فأجابني بأنه فعل ذلك، من أجل أنه إذا ما حاول عامة الناس طرد رئيسهم، وتحرير أنفسهم من التبعية الاقطاعية له، مثلما فعل الـ Hel-vetions ، أو السويسريون، فوقتها يمكن للدوق أن يلتجئ إلى تلك القلعة، وبذلك يمتنع من الذين سيرغموه على القبول والرضوخ، لأن القلعة — حسبها يمكن للانسان أن يقول — لاترام، وقائمة في حلقوم ذلك الوادي.

وتابعنا سفرنا، ووصلنا إلى نيومارك Neumark ، التي هي قرية كبيرة واسعة، حيث توقفنا لمدة ساعة في نزل حتى نعلف لخيولنا ونريحها، وجاء في ذلك الحين رجل خادم إليّ، من البيت القائم في مقابلة النزل، وقال بأنه أرسل من قبل واحد من رهبان طائفة الرهبان المبشرين، ليسألني من أنا ومن أين قدمت، فأجبته إذا ما أراد ذلك الراهب أن يعرف من أنا، ومن أين قدمت، يمكنه أن يأتي إليّ، ولسوف أعطيه جواباً أدبياً، ثم قلت: «ذلك لأنني لن أعطي أي جواب لخادم»، وقد قلت هذا له على هذه الصورة لأنني شككت به أن يكون واحداً من الرهبان المتجولين التابعين لطائفتنا، الذين يتجولون حول تلك المنطقة التالية، لأن رهباناً غير راضين وهارين من طائفتنا والطوائف الأخرى، قد حملوا أنفسهم إلى هذه المناطق وإلى المنطقة التالية، حيث يمكنهم العثور على أفضل أماكن الاختباء سلامة، ولأن كل شيء هناك رخيص ويمكنهم العيش حياة هائثة، وهم يزورون الناس في المنطقة، ويخبرونهم عن قيمة القداسات العالية، ولهذا يشتري الذين يستمعون إليهم القداسات منهم لهم ولأقربائهم الموتى، غير عارفين بأن إثم السيمونية يقترب بمثل هذا العمل، وبناء عليه يعطون هؤلاء الرجال المال حتى يقرأوا عليهم القداسات، ويكون الأفضل منحهم المال بمثابة

هدية وكرم منهم، لأنهم لا يقتربون مطلقاً من المذبح لتقديم أي احترام للرب، ولقد رأيت هناك أناساً تعساء من كل طائفة دينية يتجولون في هذه الجبال، ولاحظت أنهم يعاملون بالفعل بشيء من التواضع من قبل الأساقفة والكهنة.

وسرنا من نيومارك خلال الوادي الذي يقود إلى ترنت Trent ، ويردد العامة قولاً متوارثاً بأنه خلال هذا الوادي أو القناة تدفق البحر حتى ميران Meran ، وأن نهر أدجي جرى نزولاً من الجبال فوق ميران، وصب بالبحر هناك، وفي برهان على صحة هذا، أنه يتم العثور حتى الآن في صخور الجبال على حلقات حديدية، كان من المعتاد ربط السفن بها، وعلى هذا فإن المنطقة كلها التي يجري فيها نهر أدجي ليصب في البحر المتوسط، كانت فيما مضى بحراً، بسبب أن البحر كان في العصور القديمة أعلى مما هو عليه الآن.

ووصلنا إلى قرية اسمها نوبا Nova حيث يجري هناك جدول جبلي سريع، يشكل الحدود ما بين إيطاليا وألمانيا، ويقوم فوق الجدول من جهتنا بيعة، جرى فيها دفن ما في جوف القديس أودالريخ Udal-rich أسقف أوغزبورغ Augsburg ، وتذهب الحكاية إلى القول بأن القديس المتقدم الذكر كان في روما، وعلى طريقه إلى الوطن، مرض مرضاً شديداً، لذلك توسل إلى الرب أن يسمح له بالموت في ألمانيا، وليس في إيطاليا، وهذا ما حدث وكان، لأنه ما أن عبر الجسر المقام على هذا الجدول مات، ولذلك جرى دفن أحشائه هناك، لكن جسده جرى حمله إلى أوغزبورغ.

وسافرنا من هذا المكان إلى مدينة ترنت، وأمضينا الليل هناك، وترنت واحدة من المدن القديمة جداً، التي تأسست في هذه الجبال من قبل تراجان الذي جاء إلى هناك بصحبة أنتينور Antenor ويجري نهر أدجي عابراً أسوارها، وهي مقامة في وضع هو الأكثر جمالاً، وهواء،

وصحة، وهي تتألف — كما يمكن القول — من مدينتين، المدينة العليا، والمدينة التحتا، بسبب الجنسين البشريين اللذان يسكنها، ففي المدينة العليا يسكن الطليان، ويسكن في المدينة التحتا الألمان، وهذان الشعبان مختلفان باللغة، وبعادات الحياة، ونادراً ما كان أحدهما بسلام مع الآخر، وفي الحقيقة، غالباً ما جرى تهديم المدينة قبل أيامنا، وجرى تهديمها أيضاً من قبل الطليان صدوراً عن كراهيتهم للألمان، وأحياناً من قبل الألمان أيضاً صدوراً عن كراهيتهم للطليان، وقبل سنوات قليلة مضت، كان الألمان مجرد قلة من الغرباء في تلك المدينة، وهم الآن بـرجوازية المدينة وحكامها، وسيأتي اليوم قريباً — لابل إنه جاء وحلّ بالفعل — عندما سيقوم فيه دوق أثيسيس Athesis (كذا) صاحب إينسبروك بضمها كلها إلى ممتلكاته ومن ثم إلى ألمانيا، مثلما حدث في بوتزن، لأن تعداد الألمان يزداد هناك يومياً، ولكن ما هو سبب هذا التزايد، ولماذا يتوجب على شعبنا الانتشار في بلدان الشعوب الأخرى، بدلاً من انتشارهم في بلداننا؟ هذا ما لم أتفهمه، ما لم نكن قد اخترنا — كما يقال — عدم التعلق ببلادنا، بسبب فقرها وجديها، ولذلك دفعنا إلى بلدان أخرى، أو بسبب حدة طباع الألمان، الذين لا يمكن لشعب آخر أن يتحمل البقاء إلى جوارهم، بل يتهربون من أمامهم، ويفسحون لهم المجال ولا يواجهون غضبهم، غضبهم الذي لا يمكن لإنسان أن يقاومه.

وأقام عبر المدينة وفي مواجهتها، فوق ضفتي نهر أدجي، الرهبان المبشرون ديراً جميلاً حقاً، من حوله أجمل الحدائق، واسمه دير القديس لورانس، وكان هذا الدير قد بني من قبل القديس جوردان Jor- danes الخليفة المباشر لأبينا القديس دومينيك، في رئاسة طائفتنا، لكن لا يوجد فيه قداسات أو نظام للحياة، والذي هو موجود فيه مجرد عدد من الرهبان، يسكنون هناك من دون هدف، وفي هذه المدينة جرى

استشهاد الطفل المقدس سمعان في سنة ١٤٧٥، على أيدي اليهود، بعدما عذبه كثيراً، ولهذا حكم على اليهود بالشنق بعد تعرضهم لعذاب عظيم، وأنا شخصياً كنت قد رأيت أجسادهم الملعونة معلقة على المشانق عندما ذهبت في السنة التالية إلى روما، وعندما تم العثور على جسد الطفل المقدس، صار مشهوراً بسبب المعجزات التي صنعها، وهو ما يزال مشهوراً، ولهذا يأتي الناس من أجزاء نائية من ألمانيا وفرنسا وإيطاليا حاجين إلى هناك، ويجلبون معهم تقدمات من الشمع، والأقمشة، وصحون الذهب والفضة، والمال، وكل ذلك بكميات مذهلة عندما تنظر إليها.

ونتيجة لهذا هدموا كنيسة القديس بطرس القديمة، التي من المعتاد حفظ الجسد فيها، وبنوا كنيسة أوسع فوق الموقع نفسه، وأنفقوا عليها من خلال هذه التقدمات، فضلاً عن هذا قاموا بتنظيف بيت الشهيد، وكرسوه كنيسة [من أجل رواية عن استشهاد هذا الطفل انظر ملحق أخبار الأيام — السفر ١٥ ص ١٧٧]، وهكذا عندما خلعنا نحن الحجاج ملابس سفرنا، ذهبنا إلى الكنيسة للحصول على غفران، ورأينا في كنيسة القديس بطرس جسد الطفل المقدس، والمكان الذي استشهد فيه، والكنيسة الكاتدرائية القديمة، والبيع الأخرى والكنائس، لأن هذا ما يتم صنيعه من قبل الحجاج المحترمين الذاهبين إلى القدس، أي يتوجب عليهم عندما يتوقفون في أية بلدة على طريقهم، فيسألون عن الكنائس، وعن آثار القديسين ويقومون بزيارتهم، وهذا ما فعله موالي، وفعلت ذلك معهم، حسبما سأحدث عن ذلك فيما بعد.

وعندما كان الوقت متأخراً، وكنا جميعاً جالسين نتناول العشاء، جاء زمار، أو بهلواني، ومعه زوجته، وكان يحمل مزماراً، وقد غنت زوجته لحناً جيداً، فيما كان هو يلعب بمزماره، وكان هذا الرجل عاقلاً بما فيه الكفاية، ومع ذلك عمل أثناء لعبه أعمالاً بليدة، وكشر وكأنه كان أحمقاً،

وجعلتنا حماقاته هذه نضحك من صميم قلوبنا، وذلك بالاضافة إلى متعتنا لدى سماع الموسيقى، وعندما فرغ من لعبه تشاور سادتي البارونات، كما جرت العادة، واحدهم مع الآخر، حول ما الذي سوف يدفعونه إلى البهلوان، وعلى كل حال قال واحد من النبلاء إنه لن يدفع، وأوضح بأن الكاهن في أسقفيته، غالباً ما قال في قداساته بأن إعطاء المال أو تسلمه في مثل هذه الحالات هو ذنب مدان، وإثم عظيم، وقال: «وبما أنني الآن في حج مقدس، إنني أكره أن أتلوث بصرف المال بشكل آثم، وإنني سوف أدفع المال إلى الفقراء»، وبناء عليه تفجر نقاش عظيم بين النبلاء، وتناقشوا مطولاً وهم في حالة غضب.

وسألوني أخيراً القيام بفض هذه القضية، وقالوا بأنهم سوف يلتزمون بقراري وحكمي، وبناء عليه أعلنت وقررت بدون خوف وجوب إعطاء المال إلى البهلوان، وبناء عليه أعطوا هدايا إلى لاعب الزمار وإلى زوجته، وبعد عودتي إلى البيت بحثت في كتابات المفتين من العلماء فيما إذا كنت قد قررت بشكل صحيح، وقد وجدت القرار الذي اتخذته مرتين لدى غيرسون Gerson (١) وفي مكانين، عندما عالج الشرور في قضية سبعة ذنوب مهلكة، وفي معارضة المذنبين، أوضح أن اللعب بالزماير، والاضحاك وأعمال البهلوان لا تستحق الادانة، وأن مثل هذه الأشياء يمكن أن تقال وأن تمارس، دون اقتراف لإثم كبير، ومع أن الكلمات التي قد تقال هي عبثية، وفيها مزاح، وأحياناً فيها أخطاء، لكن طالما أنه ليس فيها ما هو مخجل قولاً، وطالما أنها تعمل لمجرد التسلية، فصحيح ممارستها، إذا كان ذلك للتسلية والربح، ومن أجل تأمين انفراج لدى الأمراء والنبلاء، وعندما يكونون تحت ضغط المسؤولية، وقد اكتشفنا أن هذا هو الحال مع هذا البهلوان، الذي كان حرفياً مقيماً في ترنت، والذي كان لا يمارس اللعب بشكل دائم، بل فقط

١ - جون غيرسون، قنصل باريس، كتب في اللاهوت وفي مواضيع أخرى، توفي حوالي ١٤٢٩.

لدى وصول أمراء ونبلاء، وذلك أنه عندما كان يعلم أنهم حجاج إلى الأرض المقدسة، كان يلعب من أجل تسليتهم، ومن أجل فائدته، ومن أجل أن نضع حزننا وقلقنا جانباً لوقت قصير.

وسمنا في الثاني والعشرين قداساً عند مذبح سمعان الطفل المقدس، وبعد تناولنا لطعام الغداء في النزل، أسرجنا على خيولنا، وغادرنا المدينة، وخارج باب المدينة مباشرة صعدنا إلى هضبة شديدة الانحدار، وتخلينا عن الطريق المنخفض الذي يساير وادي أدجي إلى فيرونا - Ve- rona، وإلى جانب كون هذه الهضبة منحدرية، هي مكونة من قطعة واحدة من الرخام الأحمر القاسي، ولهذا فإن جميع أسوار مدينة ترنت وأبنيتها معمولة من رخام ثمين وجميل، مع أنه غير مصقول، وبعد تسلق طويل، نزلنا عبر الجانب الآخر من الراية، ووصلنا إلى قرية فيرسا Persa .

وفيرسا قرية واسعة، ويقوم على الصخرة فوق القرية قلعة عظيمة، كأنها مدينة، ولها أبراج عالية، وسور عظيم يحيط بها، ويتفق معي بالرأي عدد كبير من الناس، ويرون أنه من اسم هذه القلعة يمكن أن نعرف أنها بنيت من قبل فيرسوس Perseus ، أبو النبلاء الاغريق، وهي تعرف في هذه الأيام باسم فيرسا صدوراً عن اسمه، ومثل ذلك مملكة فارس، وهو اسم اشتق من الاغريقية، ومن استيلاء الاغريق عليها عرفت باسم فارس، ويحتفظ دوق النمسا دوماً بعدد كبير من الجنود في هذه القلعة، يتولون حراسة كل من القلعة والمقاطعة.

ومررنا عبر هذه القلعة واجتزناها، ووصلنا إلى بحيرة، يتدفق منها نهر اسمه برنتا، وهو يجري من هناك إلى بادوا، ويصب بعد هذا في البحر على مقربة من البندقية، وعبر هذا وصلنا إلى واد طويل وعريض وخصب، ثم وصلنا إلى بلدة اسمها بالعامية الداروجة فالسيان - Val- scian، حيث توقفنا من أجل استراحة قصيرة، ويلاحظ أن هذه

البلدة، والمنطقة كلها امتداداً حتى البحر، تتكلم الايطالية، وعلى كل حال كانت غالبية السكان تعرف كل من الألمانية والايطالية، وقد سألت أحدهم عن معنى اسم فالسيان، ولماذا أطلق هذا الاسم على البلدة، وقد أجابني بأن معنى فالسيان هو «الوادي الجاف»، وقد نال هذا الاسم، لأنه في العصور القديمة جداً، وقبل أن ينزل البحر إلى مستواه الحالي، كان البحر ممتداً حتى هذا الوادي، وكان الوادي بأكمله مليئاً بالماء، ولهذا من الممكن أن نرى على جنبات الجبال، التي تطل على الوادي، من كل جانب حلقات حديدية كانت، لربط السفن حتى يمكن بقاءها مثبتة إلى الصخور، وعندما تراجع البحر، أصبح الوادي جافاً، وهكذا حافظ على اسمه فالسيان.

ومن هذه القصة كنت قادراً على إدراك أن جميع الوديان في هذه الجبال، التي هي متجهة نحو البحر، كانت فيما مضى مليئة بالماء، وكانت هي أقيّة تقود إلى البحر المتوسط، مثلما يحدث الآن في أراض مجاورة للبحر، كما قلت من قبل، ويطلق الألمان على فالسيان اسم إن در بورغ In der burg، لأنه يوجد هناك قلعتان تطلان على البلدة، والبلدة قائمة بين سور القلعة، وتابعنا من فالسيان سفرنا، وسرنا متقدمين، ووصلنا في وقت متأخر في الليل إلى قرية اسمها سبتلي Spiteli، أي «مشفى صغير» حيث توقفنا لإمضاء الليل.

وفي يوم الثالث والعشرين، كان عيد القديس جرجس، الفارس والشهيد، وسألني السادة في الصباح بأن نحتفل بعمل قداس القديس جرجس لهم، ولجميع النبلاء، الذين ينظرون إلى القديس جرجس بتبجيل خاص، وكانت هناك بيعة واحدة في القرية، بدون كاهن، وواجهت مصاعب جمة للحصول على أدوات القداس العائدة للكنيسة، ولفتح هذه البيعة، والحصول على الأشياء الضرورية لإقامة القداس، وبعدما ارتديت ثيابي الكهنوتية، واجتمع سادتي النبلاء وأهل القرية مع

بعضهم، بوساطة صوت الناقوس، وكما جرت العادة أردت إعداد الخميرة قبل صلاة الاعتراف، فلم أجد لخبزاً ولارقاقة عجين في الصندوق في الخزانة، كما لم يتوفر شيء من هذا القبيل في القرية كلها، لذلك التفت بذاتي نحو الناس وأخبرتهم بعدم وجود خبز القربان، ولكي لانهب جميعاً فارغين، قرأت من المذبح القداس لوحده، وجميع أدعية القداس، وتركت ما بعد صلاة التقديم لوحده، مثلما يفعل تماماً في السفن في البحر، ويطلق على هذه القداسات اسم القداسات «الحارة» أو «الخام» أو «الجافة» أو «الفارغة».

وبعد أداء هذا القداس التفت نحو الناس وقدمت عرضاً قصيراً عن القديس جرجس وكان عرضاً مشجعاً، وعندما كنت أفعل ذلك، وقف أهل القرية ونظروا إليّ بدهشة، لأنهم كانوا طليان، ولعلمهم لم يسمعو قط قداساً يتلى في كنيستهم بالألمانية إلا من قبلي، وبعد الفراغ من هذا رجعنا إلى نزلنا لتناول طعام الافطار، وبعد الانتهاء من الطعام، بدأت تمطر، ومع هذا امتطينا خيولنا وغادرنا القرية، وازداد المطر ثقلًا وكثافة، وتبللنا حتى الجسد، وكنا مبللين جداً عندما وصلنا إلى مدينة فلتر Fel-tre ، وبما أنها كانت تمطر بكثافة، دخلنا إلى نزل هناك، وبيتنا البقاء هناك لمدة ساعة أو ساعتين، ومن ثم نغادر عندما يتوقف المطر، وعلى كل حال ازداد المطر سوءاً فسوءاً، وبذلك كنا مرغمين على البقاء هناك لمدة يوم، كان غير مريحاً، لأن النزل كان صغيراً، وكان مليئاً بإيطاليين من أهل المنطقة، وتحدث صاحب النزل، وصاحبته، وجميع العاملين فيه بالايطالية فقط، فضلاً عن هذا لم يكونوا معتادين على خدمة النبلاء، ولم تكن لديهم المواد اللازمة لخدمتهم بشكل لائق واحترام، وكانوا على كل حال جيدين، وأناساً بسطاء، وقد فعلوا كل مايسطيعون، الأمر الذي قدرته، لكن خدم النبلاء كانوا غير راضين عنهم.

وفي يوم الرابع والعشرين استمرت تمطر بدون توقف، مثلما فعلت في

اليوم المتقدم وفي الليلة السالفة، وسبب هذا تدفق المياه، وقاد إلى جريان السيول الجبلية، وعلى كل حال، وعلى الرغم من المطر، ذهبنا إلى الكنيسة التي تقوم فوق البلدة، وبعد سماعنا للقداش شاهدنا البلدة نفسها، وكانت إحدى البلدات التي بنيت من قبل أنتينور، من أجل الدفاع عن المنطقة الجبلية، وهي بلدة قديمة جداً، كما تبرهن أبنيتها على ذلك، وهي بلدة طويلة جداً، تمتد على طول جرف جبلي، ولها أسقف وفيها بعض الديرة القائمة عند سفح الراية التي تقوم عليها المدينة، وعدنا إلى نزلنا، وتناولنا طعامنا، وعندما كنا جالسين إلى المائدة توقف المطر، وهكذا أسرجنا على خيولنا وغادرنا فلتز، وأخذنا طريقنا وسط خطر عظيم، بسبب ارتفاع المياه، لأن أصغر المجاري تضخمت وصارت أنهاراً سريعة، وكانت مجاري الوديان الجافة تفيض بالمياه.

وعلى كل حال صارت أحوال المناخ طيبة، وأخذت المياه تتناقص بشكل تدريجي، وكنا قد غادرنا فلتز قبيل حلول المساء، وقد وصلنا إلى نهر عظيم، عبرنا ضفتيه بوساطة بيت حراسة بندقي، ومن هناك وصلنا إلى بلدة اسمها أوور Ower، حيث أمضينا الليل، وكان نزلنا الآن مثل بقية القرية، قائماً على سفح رابية جميلة مليئة بالأعشاب، وفي الوقت الذي كان يجري فيه إعداد طعام عشاءنا، خرجت مع موالي إلى ساحة البيت، وكنا ننظر فيما حولنا عندما قلت: «انظروا لو أن إنساناً كان على قمة تلك الهضبة، لكان بإمكانه رؤية البحر المتوسط»، وعندما سمع موالي هذا قالوا: «دعونا نصعد إلى هناك، لنرى البحر، الذي ربما سيكون قبرنا»، ومباشرة تسلق ثلاثة من موالي مع اثنين من خدمهما وأنا، تلك الرابية، التي كانت أعلى بكثير مما تصورناه، وألقينا بأبصارنا باتجاه الجنوب، فرأينا وراء الجبال سهل إيطاليا، وخلف السهل منطقة البحر المتوسط، ولدى رؤيتنا له، وقف موالي، الذين كانوا شباباً ذوي نشأة رفاهية، وقفة فيها شيء من التفكير، مما عكس الشعور بالمخاطر التي

منظرهم في البحر، وكنت جهدوء قد مددت بصري نحوه، لأنني كنت قد ذقت مرارته، لأنه كما بدا من هذه التلال، كان له مظهراً مربعاً، وبدا قريباً جداً، وتسلمت أشعة الشمس على الجزء الذي كان هو الأقرب منا، وبقيّة البحر التي لم يكن بإمكان أحد رؤيتها، بدت عالية، وغيوماً سميكة سوداء، على شكل ولون الهواء المظلم.

وبعدما شعبنا بما رأيناه منه، تحولنا بعيداً لننظر إلى الجبال التي قامت من حولنا، وقد شاهدنا عدداً كبيراً من القلاع القديمة المهدمة، وعلى الجبل نفسه الذي وقفنا عليه هناك، كان يوجد تحت أقدامنا خرائب أسوار ضخمة وخندق يطوق شطراً من الجبل، وصهريج جميل مايزال يحتوي على الماء، وراية لرعاية القطعان، قائمة في الأعلى داخل الأسوار، ومن المعتقد أن هذه القلاع كلها قد بنيت من قبل أنتينور، أو تراجان، الذي بعدما بنى مدينة بادوا في السهل، صعد إلى المنطقة التالية، وبنى البلدات والقلاع للدفاع ضد الشعب الذي كان موجوداً وراء الألب، حيث كان في ذلك الحين مايزال متوحشاً، يعيش في الغابات، مثل الحيوانات الضارية، وعندما كنت أنا وموالي وقوفاً نتحدث فوق الجبل، غابت الشمس، وبدأنا نحن بالنزول، وعندما وصلنا إلى النزل صارت الدنيا أكثر ظلاماً، وتناولنا عشاءنا على ضوء الشموع، ثم أوينا إلى الفراش.

وكان يوم الخامس والعشرين هو يوم عيد القديس مرقص، وطمعنا لو كنا في البندقية، لأنه يحتفل بالعيد هناك، بشكل محكم ورائع الشكل، وسمعنا — على كل حال — القديس من أجل عيد القديس مرقص في القرية، وتناولنا بعد ذلك طعامنا، ومن ثم انطلقنا مسافرين على طريقنا، ويقود الطريق من تلك القرية نزولاً إلى سفوح الجبال، ثم يخلفهم بالوراء، وهكذا وصلنا إلى منطقة منبسطة، وخصبة جداً، ومليئة بالحبوب، وبأشجار الفواكه، والكروم، التي ارتحلنا خلالها حتى وصلنا

إلى قرية تريفيسو Treviso ، حيث عزمنا على البقاء لعدة أيام، وذلك حتى نستطيع بيع خيولنا، ذلك أننا لم نعد الآن بحاجة إلى الخيول، لأننا صرنا مجاورين للبحر.

وكان يوم السادس والعشرين يوم عيد القديس ديسيدروس De-sidrius ، الذي هو مدفون في كاتدرائية تريفيسو، واحتفل سكان المدينة بالعيد بشكل فخم بوساطة مسيرة مهیبة خلال المدينة، وعندما اجتمع عامة الناس في ساحة السوق الأكبر، مثلوا لعبة المعجزة، حيث ظهر القديس في الحكاية، من خلال الممثلين المدربين لهذه الغاية، بمظهر فخم جداً، نظرنا نحن الحجاج نحوه بإعجاب، ولست أدري فيما إذا كنا قد فعلنا ذلك بتقوى أيضاً.

وجاء بعد الغداء عدد كبير من الايطاليين إلى نزلنا، طلبوا رؤية خيولنا لابتياعهم، وأثناء بيعنا لهم اختلف الايطاليون فيما بينهم بشكل مثير، حيث ركضوا نحونا، محاولاً كل واحد منهم إبعاد الآخر، وتدخل كل واحد منهم بشراء الآخر، وصب كل واحد منهم الالهات على الآخر، وكانوا كلهم سواء، حتى الشيوخ، والأغنياء، والرجال المحترمين، حيث كان كل واحد منهم يتقاتل مع الآخر مثل الأطفال، ويعرض كل واحد منهم سعراً أكبر مما تساويه الخيول مراغمة للآخرين، وكل منهم يعرض عن تعمد سعراً أكبر من أسعار الآخرين، وبينما كان هذا الشجار مستمراً وقفنا نحن بدون حراك، وحافظنا على صمتنا، وبعنا خيولنا بشكل جيد، وهكذا مضى النهار.

ولابد من أن نلاحظ بأنني وصفت الأماكن ما بين فلتر وإنسبروك، لأننا عندما عدنا إلى الوطن ثانية، لم أسافر عبر ذلك الطريق إلى إنسبروك، بل جئت عبر طريق آخر، وذلك حسبما سأحدث عنه في مكانه الصحيح، وبعد هذا المكان لن أقوم بوصف أي مكان خلال رحلتنا كلها، بل سأتولى وصف جميع الأماكن التي مكثت بها أثناء

رحلتنا عائدين إلى الوطن، ولهذا سوف أحتفظ بوصفي لتريفيسو والمدن الأخرى، حتى يحل موعد عودتي، لأنني الآن متعجل للوصول إلى القدس، التي وجهت نحوها وجهي بشكل ثابت ولن أصرفه وأستريح حتى أرى تلك المدينة الأعظم شهرة، والمرغوبة أكثر من سواها.

وفي يوم السابع والعشرين، الذي كان يوم أحد، واسمه Can-tate، سمعنا قداساً في تريفيسو وتناولنا الطعام، وبعد تناول الطعام اكرتينا بعض الخيول التي يدعونها باسم Martyrs، لتحملنا نحن أنفسنا وحقائبنا إلى البحر، وانطلقنا نحو شاطئ البحر، ووصلنا إلى بلدة ميستري Mestre، وكنا راغبين بالمتابعة حتى ملغيرا Mal-ghera التي هي قائمة على شاطئ البحر المتوسط، والتقينا على كل حال في البلدة المتقدمة الذكر بالمانى، سأل عما إذا كنا جماعة اللورد بارون فون سيمبيرن Cymbern، وعندما سمع بأننا كنا نحن هم، أخذنا إلى نزل، وأرانا مائدة ممدودة بالأطعمة والأشربة، وأخبرنا بأن اللورد جون فون سيمبيرن قد أمر بهذا لنا، وأخذنا أيضاً إلى حديقة البيت، وأرانا مركباً ضخماً في النهر الذي يجري هناك نزولاً من الجبال ليصب في البحر، وأن القارب قد أرسل من البندقية إلى ميستري من قبل اللورد بارون فون سيمبيرن، حتى يمكن لنا الابحار إلى هناك عبر النهر، ولدى رؤيتنا لهذا سررنا وتحمسنا بأرواحنا، وجلسنا وأكلنا وشربنا الذي أعد لنا سلفاً، وبعد هذا حملنا جميع حقائب اللوردات إلى ظهر المركب، ثم صعدنا جميعاً على ظهره، فصارت الحمولة ثقيلة إلى حد كبير، لأنه كان هناك عدد كبير منا، وكانت حقائب اللوردات وخدمهم كبيرة الحجم، وإثر هذا قلنا وداعاً لليابسة، وعهدنا بأنفسنا إلى المياه، وكان ذلك بعد إقلاعنا، حيث أبحرنا نزولاً مع النهر حوالي الميل نحو البحر، وعندما وصلنا إلى المكان الذي ينزل فيه النهر إلى بين فكي البحر المتوسط، عند حافة البحر وحدوده، وأبحرنا داخل البحر المالح المياه، وقتها بدأنا نغني

بصوت مرتفع وبغيمات فرحة، مزموور الحجاج، وهو الذي اعتاد المسافرون إلى الضريح المقدس لربنا على غناؤه مرددين: "In gottes Namen Fahren wir, Seiner genaden begehren wir: Nurhelff uns die Gottliche Kraft, und das heylige grab: Kyrie eleyson" والذي معناه مترجماً عن اللغة اللاتينية كمايلي: «باسم الرب نحن الآن مبحرون، نحن نحتاج إلى نعمته، فلعل قدرته تحميننا، والضريح المقدس يقينا:» Kyrie elee-son.

وبينما كنا في الوقت نفسه نقرب من قلعة ملغيرا Malghera ، ونعبر البرج الذي اسمه «برج ملغيرا» التقينا بقارب كان يجذب به عدد من الشباب الأقوياء، ويدفعونه بعنف شديد نحو مارغيروم -Marger-um ، وقد اصطدم بقاربنا، وبذلك ارتطم قوسا قاربينا ببعضهما بعضاً، واندفع قاربنا إلى أحد الجوانب بالصدمة، واصطدم بعمود كان قائماً في وسط الماء، مما هدد بانقلابه، ففي الحقيقة كاد أن يقلب مع جميع الناس الذين فيه والأشياء، وكان ذلك مرعباً ومؤلماً، وتبادل بحارة القارين الشتائم فيما بينهم، وهكذا تابعنا السير على طريقنا، وبعد وقت قصير التقينا بقارب آخر على ظهره مجموعة من الناس، سألنا أحدهم: في أي النزل ننوي النزول في البندقية؟ وعندما أخبرناه في نزل القديس جورج، حيث كان اللورد فون سيمبيرن قد حجز غرفةً لنا فيه، بدأ يشتم ذلك النزل ويشتم صاحبه، ووقف على قوس قاربه، محاولاً منعنا من الذهاب إلى هناك، ومشيراً إلى نزل آخر لنذهب إليه، وفيما هو واقف هناك وهو يصرخ محاولاً إقناعنا، أصيب فجأة بحادث، وسقط من على قوس قاربه إلى البحر، الذي سحب منه بواسطة رفاقه بعد مصاعب جمة، وبذلك أنقذ من الموت، وما لبث أن ارتدى ثياباً حريرية جديدة، تلقت التعميد معه، مما سبب ضحكاً كثيراً على ظهر قاربنا.

وبعدما سرنا مسافة صغيرة نحو الأمام، وجدنا أمام أعيننا، مدينة البندقية الجليلة، والشهيرة والعظيمة، والغنية، سيدة البحر المتوسط، وهي قائمة بشكل رائع في وسط المياه، بأبراجها العالية، وكنائسها العظيمة، وبيوتها وقصورها الرائعة، ودهشنا لدى رؤيتنا مثل تلك الأبنية المرتفعة والعالية والتي تقوم أساساتها في الماء، وأبحرنا فوراً إلى داخل المدينة، وسرنا عبر القناة العظمى حتى رياتو Rialto ، حيث رأينا على الجانبين أبنية لها جمال رائع وارتفاع مذهش، وتحت رياتو خرجنا من القناة العظمى، ودخلنا إلى قناة أخرى، يقوم على ضفتها اليمنى فونداكو دي تديستي Fondaco de Tedeschi ، من حيث تابعنا سيرنا بين البيوت حتى وصلنا إلى باب نزلنا، الذي يعرف باسم نزل القديس جورج، ويعرف بالألمانية بشكل عام باسم Zu der Fleuten ، ونزلنا هناك، وصعدنا حوالي الستين درجة حرجية من البحر إلى الغرف التي كانت معدة لنا، وقد حملنا جميع حاجياتنا إليها.

واستقبلنا هناك السيد جون، وصاحب النزل، والسيدة مرغريت صاحبة النزل، استقبلونا بسرور وحرارة، وحيوني بعبارات صديقة خاصة، لأنني كنت الوحيد بين فريقنا الذي عرفوه من خلال حجي السالف، حيث كنت ضيفاً في بيتهم لأيام كثيرة، واستقبلنا بضيافة العاملين، وحيونا وأبدوا تشوقهم للقيام بخدمتنا، وكان جميع العاملين بالنزل بما فيهم صاحبه وصاحبه، وكل الخدم من الرجال، وجميع الوصيفات، من الشعب الألماني ويتكلمون الألمانية، ولم نسمع كلمة إيطالية في النزل، مما سبب راحة كبيرة لنا، لأنه مزعج جداً أن تعيش بين قوم دون أن تستطيع التحدث معهم، وأخيراً جاء بعد الجميع، عندما دخلنا، الكلب الذي يحرس النزل، جاء لتحيّتنا، وكان كلباً أسود كبيراً، وقد عبر عن سروره الكبير بتحريك ذنبه، وقفز علينا مثلما اعتادت الكلاب أن تفعل مع الذين تعرفهم، وكان هذا الكلب يستقبل

جميع الألمان بالسرور نفسه، وذلك سواء من أي جهة من ألمانيا قد قدموا، لكن عندما يدخل إلى النزل إيطاليون، أو لومبارديون، أو غاليون، أو فرنسيون، أو سلافيون، أو إغريقون، أو أي أناس من أي بلد غير ألمانيا، يصبح غاضباً جداً، إلى حد أنك تظن بأنه صار مجنوناً، ويركض نحوهم، وهو ينبج بصوت مرتفع، ويقفز بحدة عليهم، ولا يتوقف عن إزعاجهم حتى يقوم أحد الناس بتهدئته.

ولم يتعود بعد حتى على الإيطاليين، الذين يسكنون في البيوت المجاورة، بل تراه ثائراً ضدهم، وكأنهم غرباء، وثابر على عداوته لهم، فضلاً عن هذا ما كان يسمح بأي شكل من الأشكال لكلاهما بالدخول إلى النزل، لكنه كان لا يعترض على الكلاب الألمانية، وكان لا يهاجم المتسولين الألمان الذين يقدمون يسألون الصدقات، بل كان ينقض على المساكين الإيطاليين، الذين يودون الدخول للتسول والحصول على الصدقة، ويطردهم بعيداً، وغالباً ما أنقذت رجالاً فقراء من بين أسنان هذا الكلب، ويقول الألمان بأن هذا الكلب برهان على أنه طالما هو عدو غير متهاون مع الإيطاليين، كذلك الألمان لا يمكن أن يتوافقوا مع الإيطاليين من صميم قلوبهم، وكذلك الطليان معنا، لأن كل أمة لديها كراهية متجذرة في طبيعتها تجاه الأمة الأخرى، وبما أن الحيوان غير عاقل، وتحكم فيه انفعالاته فقط، فإنه يتخاصم مع الإيطاليين لأن طبيعته تأمره أن يفعل ذلك، ولكن بما أن الإنسان قادر على التحكم بمشاعره بمعونة عقله، فهو يستطيع إخفاء مشاعر الكراهية المزيجة بطبيعته.

ووجدنا في النزل عدداً كبيراً من النبلاء من مختلف أجزاء ألمانيا، مع بعض من هنغارياء، كانوا جميعاً قد ارتبطوا بالعهد نفسه، مثلما فعلنا نحن أنفسنا، وكانوا عازمين على عبور البحر إلى أقدس الأضرحة العائد إلى ربنا يسوع في القدس، وكان في النزل الأخرى المزيد من الألمان، وكلهم

قد شكلوا أنفسهم في مجموعات كان بعضها كبيراً، وبعضها الآخر صغيراً، وكان الآن في مجموعتنا اثني عشر حاجاً، كلهم مع بعضهم من نبلاء وخدم أسماؤهم هي كمايلي:

اللورد جون ويرنهر، بارون فون سيمبيرن، وكان رجلاً وسيماً، وعاقلاً، ومتميزاً بأخلاقه الرفيعة، وكان يعرف اللغة اللاتينية.

اللورد هنري فون ستوفل، بارون الامبراطورية المقدسة، وكان رجلاً قوياً، وفعالاً، تمتع بسات الرجولة، مثلما يكون الرجل السوابي النبيل الحقيقي.

اللورد جون تروخسيس فون وولدبورغ، وكان رجلاً نبيلاً، طويل البنية، وكان رجلاً محترماً له أخلاق رفيعة، وجدياً، وكان مهتماً بعمق حول إنقاذ روحه.

اللورد بير Ber (أورسوس) فون ريخبيرغ، وكان رجلاً نبيلاً من أسرة هوهنريخبيرغ، وكان أصغرهم سناً، وأكثرهم حيوية، وشجاعة، وطولاً، وأعظمهم سروراً، والأكثر لطفاً وكرماً في المجموعة. وكان هؤلاء النبلاء الأربعة معهم رجال حاشيتهم للقيام بخدمتهم، وفيمايلي أسماؤهم مع وظائفهم مرتبة كالتالي:

بالشازار بوخلر Balthazar Buchler ، وكان رجلاً عاقلاً، صاحب خبرة عظيمة، اقتاد بنصيحته جميع اللوردات وتحكم بهم، ذلك أنهم عدّوه بمثابة أب لهم.

آرتوس Artus ، حلاق اللوردات، وكان رجلاً بإمكانه أن يلعب ببراعة وجودة على جميع الآلات الموسيقية، إلى حد أن الانسان لايعتقد أنه من الممكن العثور على مثله في أي مكان.

جون الذي كنيته شمدهانز Shmidhans ، وكان جندياً، قاتل

في معارك كثيرة، وقد جاء في هذا الحج بمثابة خادم للوردات.

كونراد بيك Beck، وكان رجلاً محترماً وعاقلاً، وقد كان من أهل مدينة ميرينجن Merengen، وكان المسؤول عن مؤن اللوردات، كما كان حاجبهم.

بطرس، وكان إنساناً بسيطاً، صبوراً تحت الشدائد قدم من بلدة وولدسي Waldsee، وقد عمل طباًخاً للنبلاء وللجماعة كلها.

أولرك فون رافنبورغ Ulric von Rafenburg، وكان رجلاً عمل فيما مضى في البحر بمثابة عبد غليون، وقد عانى كثيراً من المآسي، وكان من حيث اختصاص العمل تاجراً، أما وظيفته فكان ترجمان اللوردات.

جون، وكان مسالماً، متشوقاً لخدمة اللوردات، وكان من قبل معلم أولاد، ورئيس مدرسة في بابنهوزن Babenhusen.

الراهب فيلكس فابري، كاهن من طائفة الرهبان المبشرين في أولم، حاج للمرة الثانية إلى الأرض المقدسة، شماس للوردات ولجميع الذين تقدم ذكرهم.

واجتمع هؤلاء الاثني عشر مع بعضهم منفردين، وعاشوا على الحساب العام للوردات الأربعة المتقدم ذكرهم، وبناء عليه استدعى اللوردات الأربعة صاحب النزل إليهم، وعملوا معه الترتيبات من أجل إقامتهم، ومائدتهم، وجميع الأشياء الأخرى العائدة له، والتي سوف يستخدمونها، وعندما عملت هذه الترتيبات أمامنا جميعاً، فكرت بخطة أخرى من أجلي شخصياً، وبدون معرفة موالي اللوردات، ذهبت بقارب إلى دير القديس دومينيك، وسألت رئيس الدير أن يستقبلني بمثابة ضيف حتى يحين موعد مغادرة غليون الحجاج الميناء، الأمر الذي تمكنت بعد معالجات كثيرة، من إقناعه بعمله، ذلك أنني وجدت أنه من

غير اللائق بالنسبة لي، ومناقض لتفكيرى، أن أعيش كلياً بين أشخاص علمانيين، وبناء عليه عدت إلى نزلي، وحزمت أمتعتي، ثم زرت موالي، وأخبرتهم بما نويته، ولم يرضهم هذا الاقتراح، وفي الحقيقة أزعجهم كثيراً، ولم يوافقوا على تركي لهم بأي حال من الأحوال، ومن أجل إمكانية بقائي معهم برضاي، عملوا ترتيبات مع صاحب المنزل، فأعطاني غرفة خاصة بي، حيث يمكنني أن أجلس بهدوء لوحدي، ويمكنني أن أنام، وأن أصلي، وأن أقرأ وأكتب، وأن أنجو من ضجيج المنزل كله، بحيث أكون كما لو أنني في قلأتي في أولم، وعلى هذا بقيت مع بقية جماعتنا الوقت كله الذي مكثناه في البندقية، لكن غالباً — في الحقيقة مرة كل يوم — ما اعتدت على زيارة دير رهبان طائفتنا.

وخرجنا في الثامن والعشرين من نزلنا في الصباح، وسرنا خلال شوارع التجار، وذهبنا إلى كنيسة القديس مرقص لحضور القداس هناك، وبعد انتهاء القداس سرنا حول الساحة المفتوحة أمام قصر الدوج، وقام في هذه الساحة، أمام الباب الكبير لكنيسة القديس مرقص، علمان ثمينان جداً، وقد نشرأ عالياً فوق رحين طويلين، وكان لونهما أبيض، ورسمت عليهما علامة صليب أحمر، فقد كانا علما الحج إلى الأرض المقدسة، وأدركنا من هذين العلمين بأنه جرى إعداد غليونين وتعيينهما لنقل الحجاج، ذلك أن سادة البندقية عرفوا عدد الحجاج الذين تدفقوا إلى هناك واحتشدوا مع بعضهم، ولذلك وقع اختيارهم على اثنين من النبلاء من بين شيوخهم، وعهدوا إليهما بالعناية بالحجاج.

وكان اسم الأول من هذين الشيخين: المعلم بطرس دي لاندو Lando ، واسم الثاني المعلم أوغسطين كونتاريني Contarini ، ووقف خدم هذين النبيلين إلى جانب العلمين، ودعا كل واحد منهم الحجاج للابحار مع معلمهم، وبذلوا جهودهم لاقتياد الحجاج

وجذبهم: فئة أولى إلى أوغسطين والفئة الثانية إلى غليون بطرس، وأطرت الفئة الأولى وكالت المديح لغليون أوغسطين، وشتمت غليون بطرس، وفعلت الفئة الثانية عكس ذلك، ونتيجة لهذا غدا هذان السيدان: أوغسطين وبطرس عدوان أحدهما للآخر حتى الموت، وشتم أحدهما الآخر، وشهر به أمام اللوردات والحجاج، وحاول كل منهما أن يجعل من الآخر مكروهاً من قبل الحجاج، وطلب من الناس فعل ذلك.

وبدأ ينشأ عن هذا شر آخر، هو أن الحجاج أنفسهم تحزبوا ووقف كل فريق منهم مع إحدى جماعتي هذين القبطانين، وبات كل واحد متعصباً لقبطانه وقائده، واحتار موالى ولم يعرفوا بعد إلى أي من هذين القبطانين الأفضّل أن يعهدوا بأنفسهم، وسبب ذلك لما سمعوه من آراء مختلفة بشأن كل واحد منهما، أما أنا شخصياً، فقد وافقت على القبطان أوغسطين كونتاريني، الذي عرفت أنه رجل عاقل، ويمكن الوثوق به، لأنني عبرت البحر في حجي المتقدم على ظهر سفينته، لكن الآخرين شتموه وامتدحوا الآخر، ولذلك ومن أجل خاطر السلام، لم أتدخل في هذه القضية، وأعلنت أن كليهما كانا قبطانين جيدين، إذا ما حملنا بسرعة إلى الميناء الذي نقصده، وأضفت أنني لو عرفت أي واحد من الاثنين سوف يكون الأسرع، والمستعد حالاً للابحار، فهو الذي سوف أوصي الحجاج باختياره، وعلى كل حال، وعد كلاهما، أنهما سوف يشرعان برحلتها فوراً، الأمر الذي عرفت أنه كذب.

وفي يوم التاسع والعشرين، الذي كان يوم عيد القديس بطرس الشهيد، لدى طائفة الرهبان المبشرين، أخذت سادتي إلى كنيسة القديس يوحنا والقديس بولس، حيث كان هناك ديراً في غاية الفخامة والعظمة للرهبان المبشرين، واستمعنا هناك للقديس، الذي نفذ بشكل مهيب جداً، وكان هناك اندفاع كبير للناس في هذا اليوم إلى كنيسة هؤلاء الرهبان، لوجود عيد هناك، وقد احتشد الناس ووصلوا بتزاحمهم حتى

أطراف المذبح، فقد تقاطر الناس إلى هناك من المدينة كلها لسماع القداس، ولتقبيل آثار الشهيد المقدس، ولشرب ماء القديس بطرس، هذه المياه التي بعد مباركتها باسم الرب، وبعد لمسها بآثار الشهيد المقدس، يعتقد أنها ثمينة ومفيدة للجسد وكذلك للروح، ولهذا يأخذ المؤمنون من معظم أجزاء العالم ماء القديس بطرس هذا، ويعطونه للنساء في أثناء خوفهن لشربه، حيث ينقذهن من خوفهن، ومثل هذا إنه يعطى للمرضى من الحمى، فبوساطته يمكن أن يصبحوا أصحاباً، ويحمله الملاحون أيضاً في سفنهم، ويصبون قليلاً منه في الأوعية حيث يجري حفظ الماء، وبفضله تبقى المياه الأخرى وتحفظ من أن تصبح آسنة، ومهما كانت المياه قديمة، فإنها لا تفسد أو تتغير رائحتها، إذا ما صب فوقها بعضاً من هذا الماء، وقد عرف البحارة أن هذا صحيحاً من خلال الممارسات اليومية.

وهكذا بعدما سمعنا القداس، وقبلنا آثار هذا القديس، وتذوقنا بعض نقاط من هذا الماء المانح للحياة، عدنا إلى نزلنا لتناول الطعام، وبعد تناولنا للطعام، أخذنا مركباً وجذفنا في خلال شوارع البلدة حتى القديس مرقص، ومن هناك ركبنا إلى قصر دوج البندقية، على القناة العظمى، حيث رسا غليوننا القبطانين، بغرض أن نراها معا، وجذفنا أولاً نحو غليون المعلم بطرس دي لاندو، وصعدنا من قاربنا إلى ظهر الغليون، ومن إلقاء النظرة الأولى كان كل من السادة وأنا راضين عن مظهر المركب، لأنه كان غليوناً له ثلاثة صفوف من المجذفين، وهو واسع وعريض، وبالإضافة إلى ذلك كان جديداً ونظيفاً، وفي الوقت الذي كنا نسير فيه هناك، جاء معلم الغليون بطرس لاندو، الذي هو القبطان، على ظهر قارب، ورحب بنا باحترام كبير، ومدّ مائدة طعام على مؤخرة المركب، حيث قدم لنا بعض الخمرة والمربيات من الاسكندرية، وعاملنا بكل احترام، وذلك كإنسان يود أن يأخذنا معه

كركاب.

واقنادنا بعد هذا نحو الأسفل، عبر بعض الدرجات، إلى القمر، ثم إلى المكان الذي يجلس فيه الحجاج، ووضع تحت تصرفنا مساحة كبيرة من القمر، حيث يمكننا اختيار اثني عشر فراشاً لاثني عشر شخصاً على أي طرف نرغب فيه، وبعدها تفحصنا هذا الغليون، أخبرنا القبطان بأننا سوف نعلمه بالغد فيما إذا كنا قد نوينا الابحار معه أو مع انسان آخر، وهكذا عدنا إلى قاربنا ثانية، وجذفنا نحو الغليون الآخر، أي غليون المعلم أوغسطين كونتاريتي، الذي وجدناه جالساً على ظهره، وقد استقبلنا بتواضع كبير، وقادنا حول غليونه، وأعطانا الخيار لانتقاء مكان لاثني عشر شخصاً، وقدم إلينا بعض الخمرة واللحم الحلو، وأكد لنا أنه سوف يتعامل معنا باخلاص، وقد عرفني بشكل جيد، وأشار إليّ كشاهد على صدقه وأمانته قائلاً: «ها هو الراهب فيلكس، شماسكم، الذي يعرف كيف أتعامل مع الحجاج، وأنا أرجوه أن يقول الحق، ولسوف تقررون البقاء معي»، وقد نظرنا جميعاً خلال الغليون، فلم يرضنا مثلما أرضانا الآخر، لأنه كان يحتوي فقط على صفيين من المجذفين، ومساحته أقل، ومظهره قديم ورائحته كريهة، وأنا أعرف ذلك شخصياً، وكنت قد عانيت من كثير من المتاعب فيه، وبعد تفحصنا لهذا الغليون عدنا بالقارب إلى نزلنا.

وفي يوم الثلاثين من نيسان، الذي هو اليوم الأخير من الشهر، استمعنا إلى قداس في نزلنا، بسبب وجود لورد كبير من النمسا كان مقيماً هناك، مع أنه لم يكن حاجاً، وبعدها تلا شماسه القداس في البيت، اجتمعنا نحن الاثني عشر مع بعضنا لنتباحث حول مع أي من صاحبي الغليونين سوف نذهب، وأية شروط سوف نعمل معهما، وقرر موالي وجوب ذهابهم مع المعلم بطرس لاندو، في غليونه ذي الصفوف الثلاثة، ومن جهتي أنا، كنت أفضل الذهاب مع القبطان الآخر، وهو

أوغسطين، لكنني نفرت من غليونيه ذي الصفين، وذلك بسبب المتاعب العظيمة التي عانيت منها على متنه، ولهذا قررنا الذهاب مع المعلم بطرس، فضلاً عن هذا وضعنا عشرين شرطاً، حددنا فيها إطار عقدنا معه، وأوضحنا أن القبطان ملزم بتنفيذ ذلك لنا.

وكان الشرط الأول: إن على القبطان أن يأخذنا حجاجاً من البندقية إلى يافا، وهو ميناء في الأرض المقدسة، وأن يعيدنا ثانية من هناك إلى البندقية، ولهذا الغرض عليه أن يكون جاهزاً خلال أربعة عشر يوماً في الخارج، أي أن عليه عدم الإقامة هنا أكثر من أربعة عشر يوماً بعد هذا اليوم.

والثاني: هو أن يجهز الغليون بشكل لائق ببخارة ذوي خبرة، من الذين يفهمون فن الملاحة مع أي نوع من الرياح يمكن أن تهب، وأن يكون معه على ظهر الغليون ما يكفي من سلاح للدفاع عن الغليون ضد هجمات القراصنة، إذا ما حدث شيء من هذا القبيل.

والثالث: على القبطان أن يكون متيقظاً، فلا يتوقف في أي ميناء غير اعتيادي أو غريب على طريقه، بل عليه أن يتوقف فقط عند الموانئ التي اعتاد أن يحصل منهم على الميرة لغليونيه، وأن يأتي توقفه عبوراً، ذلك أن عليه أن يتجنب التوقف في أي ميناء، بل أن يتابع المضي على طريقه، ومرغوب منه بشكل خاص تجنب مملكة قبرص، وعدم التوقف هناك، وإذا ما فعل ذلك، عليه عدم البقاء في الميناء لمدة تزيد على ثلاثة أيام، لأن لدينا اعتقاد متوارث بأن هواء قبرص غير صحي بالنسبة للألمان، وعلى كل حال، إذا ما رغب واحد من جماعتنا أن يقدم التحيات للملكة قبرص ومن ثم خدمتها في نيقوسيا، وأن يتسلم منها شارة طائفتها، على القبطان القيام بانتظاره حتى عودته، ذلك أن هذه عادة قديمة بين النبلاء ما دام هناك ملك في تلك المملكة.

والرابع: هو إن على القبطان تقديم وجبتين من الطعام والشراب، إلى الحجاج كل يوم بدون انقطاع، وإذا ما حدث لأي سبب أن واحداً منا لم يرغب بالجلوس إلى مائدة القبطان، أو أن يحضر طعام العشاء في المساء، أو اننا جميعاً اخترنا البقاء في مخادعنا، على القبطان إرسال الطعام والشراب إلينا من دون إثارة أية خلافات.

والخامس: ويتوجب على القبطان أن يزود الحجاج، أثناء رحلتهم من البندقية إلى الأرض المقدسة، ومن هناك عائدين إلى البندقية، بما يكفي من الخبز الجيد، والبقسماط، والخمرة الجيدة، والماء العذب، الذي وضع حديثاً على ظهر المركب، وباللحم، والبيض، وجميع الأطعمة من النوع نفسه.

والسادس: هو إن عليه في كل صباح، قبل أن نتناول طعامنا، أن يعطي كل واحد منا قدحاً صغيراً من الخمرة المألوفية Malovoisie، حسبما جرت العادة على ظهر السفن.

والسابع: إذا ما طلب الحجاج انزالهم إلى الشاطئ قرب أي ميناء، توقف الغليون على مقربة منه، دون رغبة في الدخول إليه، أو لأي سبب معقول آخر، مثل الحصول على الماء أو الدواء، أو حاجيات ضرورية أخرى، وقتها القبطان ملزم باعطائنا قارب، وطاقم قارب ليتولى نقلنا إلى ذلك الميناء.

والثامن: إذا ما قام القبطان بالتوقف على مقربة من أحد الموانئ غير المسكونة، حيث لن يستطيع الحجاج الحصول على الضروريات لأنفسهم، هو وقتها ملزم بأن يزودهم بالطعام وكأنهم ليسوا في ميناء، ومن جهة أخرى إذا ما توقف في ميناء جيد، هم ملزمون وقتها بالتزود بما يحتاجونه لطعامهم.

والتاسع: القبطان ملزم بحماية الحجاج، في كل من داخل الغليون

وخارجه، من الاعتداء عليهم، ومن سوء سلوك عبيد الغليون، وذلك إذا ما رغب الحجاج بالجلوس مع العبيد، وهو أيضاً ملزم بمنع العبيد من السخرية بهم فوق اليايسة، وذلك بقدر ما يستطيع، وعليه عدم وضع أية شيء في مخادع الحجاج.

والعاشر: ينبغي على القبطان أن يترك الحجاج يبقون في الأرض المقدسة طوال المدة المستحقة ولن يستعجلهم كثيراً جداً، وعليه قيادتهم إلى الأماكن المعروفة، وأن يصاحبهم شخصياً، ونحن نرغب بشكل خاص أن لا يثير أي اعتراض في قيادتهم إلى نهر الأردن، وهو الأمر الذي يجد الحجاج دوماً صعوبة في تحقيقه والقيام به، وهو سوف يجنبهم وينقذهم من جميع المشاكل مع الكفار.

والحادي عشر: جميع المكوس، وجميع الأموال من أجل المرور الآمن، ومن أجل الحمير والنفقات الأخرى، مهما كان اسم المطالبة بها، أو أية مدفوعات في أي مكان يتوجب دفعها، هذا كله على القبطان القيام بدفعه من قبله وحده لصالح جميع الحجاج، الذين ينبغي أن لا يدفعوا شيئاً أو أن يطالبوا بأية مدفوعات، ومثل هذا عليه أن يدفع الايجارات الكبيرة، وأما الايجارات الصغيرة فنحن سوف نتدبر شأنها بأنفسنا.

الثاني عشر: وفي مقابل جميع هذه النفقات، ومقابل جميع ما سيتحمله القبطان، يتوجب على كل حاج أن يدفع إليه أربعين دوقية ducats من النوع الذي اسمه de zecha، أي المسكوكة حديثاً، على شرط، أن يدفع الحاج نصف هذا المبلغ في البندقية، والمتبقي في يافا.

الثالث عشر: وإذا ما حدث وتوفي أحد الحجاج، لن يتدخل القبطان بأي حال من الأحوال في أشياءه التي يخلفها بل عليه ترك هذه الأشياء دون أن يلمسها في حوزة الشخص أو الأشخاص الذين ترك الميـت لهم وصيته.

الرابع عشر: وإذا ما مات أحد الحجاج قبل الوصول إلى الأرض المقدسة، القبطان ملزم بإعادة نصف مبلغ المال الذي تسلمه من قبل، حتى يتصرف به الأوصياء وفقاً لتعليمات المتوفى.

الخامس عشر: وإذا حدث ومات واحد من الحجاج على ظهر الغليون، لن يقوم القبطان مباشرة بالأمر برمي جسده في البحر، بل عليه أن يتدبر أمر أخذه إلى الشاطئ ودفنه في إحدى المدافن، وإذا كان الغليون — على كل حال — بعيداً عن اليابسة، سوف يتم الاحتفاظ بجسد الميت حتى تتاح الفرصة للوصول إلى أحد الموانئ، أو أن يوافق رفاق الميت على رمي جسده في البحر.

السادس عشر: إذا ما رغب أحد الحجاج بالذهاب إلى القديسة كاترين في جبل سيناء، يتوجب على القبطان أن يدفع لكل شخص عبّر عن مثل هذه الرغبة عشر دوقيات من المبلغ الذي دفع إليه من قبل.

السابع عشر: قبل أن يغادر القبطان القدس مع الحجاج، عليه باخلاص مساعدة الحجاج الذين سوف يسافرون إلى القديسة كاترين، بأن ينظم اتفاقية صداقة فيما بينهم وبين دليلهم.

الثامن عشر: يتوجب على القبطان أن يعين للحجاج مكاناً موائماً على ظهر الغليون، ليحتفظوا فيه ببعض الفراخ والطيور، وأن يسمح طبائخه لطباخ الحجاج باستخدام نارهم لطبخ للحجاج عندما يرغبون بذلك.

التاسع عشر: إذا ما وقع أحد الحجاج مريضاً وهو على ظهر الغليون، ولم يعد قادراً على البقاء في مخدعه وتحمل روائح التن، وقتها يتوجب على القبطان أن يعطي مثل هذا الانسان مكاناً ليرتاح عليه في الطبقة العليا، أو في القمرة، أو على المؤخرة، أو أن يعطيه واحداً من مقاعد المجذفين.

العشرون: إذا ما ترك شيء وأغفل ولم يرد ذكره في اتفاق التعليمات

هذا، أو وجد أمر لم يوف حقه بالتعبير عنه، أو لم يشرح بما فيه الكفاية، إنما هو بحكم القانون والعادة من واجبات القبطان وعليه فعله، وقتها يعدّ هذا وكأنه قد ورد ذكره في هذه التعليمات، وسيعدّ وكأنه قد كتب بينها.

وبعدما وضعنا هذه الشروط وكتبناها، بعثنا بها إلى المعلم بطرس، وهو القبطان الذي كان يتولى انتظارنا في النزل، وقد قرأ هذه الشروط حسبما وضعناها، وأخبرناه إنه إذا كان راضياً بالتعامل معنا وفقاً لروحها، وعلى استعداد لأن يقسم يمينا بأن يفعل ذلك، نحن على استعداد لعقد عقد معه واتفاق كما تقدم القول، ولدى سماع القبطان بهذا، أخذ قائمة الشروط، وقرأها واحداً واحداً بعناية كبيرة، وأما بالنسبة للشرط الأول، فقد قال: إنه بالنسبة للفقرة الأولى من الشرط الأول، هو على استعداد لقبولها، وسوف يأخذنا إلى يافا ويعيدنا ثانية، أما بالنسبة للفقرة الثانية من الشرط فهو لا يمكنه الموافقة عليها وتعلل بعدة أسباب، على أساسها كان من غير الممكن له الإبحار خلال شهر أيار، وبناء عليه هو لا يمكنه الإقلاع بنا خلال أربعة عشر يوماً، ولاحتي خلال ستة وعشرين يوماً، إنما عندما تنقضي الأيام الستة والعشرين، هو سيشرع في أي ساعة تتوفر فيها ريح طيبة، وبالنسبة للشرط الثاني عشر، أعلن أنه لن يأخذ أقل من خمس وأربعين دوقية من كل واحد من الحجاج، وتعلل لهذا بأسباب كثيرة، وبالنسبة للشرط الخامس عشر، قال بأنه سوف يبقي جثة الرجل الميت على ظهر السفينة، غير أنه أوضح أن البحر لن يسمح بذلك، وأن ذلك سوف يعيق رحلتنا، ويمكن للقارئ أن يرى مدى الصدق في هذا في الصفحة ١٩٨ المقبلة، أما بالنسبة للشروط الأخرى فقد أعلن عن رضاه بها، وبناء عليه وبعد أحاديث طويلة عقدنا اتفاقاً معه.

وبعدما عقدنا اتفاقاً، أخذنا جميعاً إلى القديس مرقس حيث قصر

الدوج، وأحضرنا أمام شهود عدل المدينة، الذين عندما سمعوا السبب الذي حضرنا من أجله أمامهم، كتبوا اسماءنا وأوضاعنا الحياتية في كتاب كبير، وكان اسمي قد كتب فيه من قبل، عندما ذهبت في حجي المتقدم، وبذلك تأكد اتفاقنا وتأصل، وبعد الفراغ من هذا كله، ذهبنا في قارب مع القبطان إلى الغليون، واخترنا مكاناً لاثني عشر شخصاً على جانب اليد اليسرى، وقام القبطان بتقسيم ذلك الفراغ إلى اثني عشر مخدعاً، أو سرير، وكتب اسم كل انسان على مخدعه بالحكك، من أجل أن لا يأخذ انساناً آخر هذه الأماكن، وبالنسبة لي وافقني حظ طيب، فحصلت على أفضل مخدع، أو سرير بين جماعتنا، والمخدع أو السرير، هو مكان لإنسان واحد، يمتد طوله من رأسه حتى قدميه، يعين له للمنامة، والجلوس، والعيش فيه، سواء أكان مريضاً أو معافى.

وبعدما فرغنا من هذه الإعدادات، جذفنا عائدين الى مقرنا في النزل، ونحن راضين تماماً بكل شيء، إلا بأننا كنا مرغمين على البقاء مثل هذه الأيام الزائدة في البندقية، وهذا كان محزن جداً بالنسبة لنا.

هنا نهاية الفصل الأول .

oboi.kandi.com

الفصل الثاني

ويحتوي على أعمال الحجاج خلال شهر أيار

وفر لنا شهر أيار السار والبهيج وقتاً للتعبد التقوي في يومه الأول في عيد القديسين الرسولين: فيليب وجيمس، وبناء عليه في الصباح الباكر، عندما استيقظ موالي وبقية جماعتنا أعدوا أنفسهم للذهاب إلى الكنيسة والاستماع للقداس، وسألوني: في أي الكنائس يتوجب علينا سماع القداس في هذا اليوم؟ فأجبته: «أيها السادة، خذوا بعين التقدير، أننا أقلعنا بقصد الحج باسم الرب، وليس من اللائق بالنسبة للحجاج الوقوف من دون نشاط، وطالما نحن محاطون بالماء من كل جانب، لا يمكننا حبس أنفسنا وتمضية الوقت بزيارة حدائق الورود، أو السهول المشرقة، أو الغابات الظليلة، أو المروج الخضراء، أو الحقول البهيجة، أو الأشجار، والورود، والزهور والليلك، كما لا يمكننا التسلي بالصيد، وفي الوقت نفسه ليس من اللائق بنا حضور المبارزات أو احتفالات الرقص، وبناء عليه إن نصيحتي، هي: أننا مادمننا هنا، علينا أن نحج كل يوم إلى إحدى الكنائس، ونزور أجساد وآثار القديسين، حيث يوجد حشد عظيم منهم في هذه المدينة، وبذلك يمكننا خلال شهر أيار أن نقطف، ورود وزهور وليلك الفضائل، والنعمة، والغفران»، وعندما سمعوا هذا، وافق الجميع على نصيحتي، وجاءت الموافقة بالاجماع بأن علينا أن نركب في القارب أو أن نسير على الأقدام في كل يوم إلى إحدى الكنائس، وإذا لم نذهب نحن جميعاً، ينبغي على الأقل أن يذهب بعض جماعتنا، وأن يفعلوا ذلك، حتى يمكنهم فيما بعد اخبار البقية بما رأوه.

وبناء عليه قمنا في اليوم الأول من شهر أيار باستئجار قارب، ذهبنا به إلى كنيسة الرسولين المقدسين: القديس فيليب، والقديس جيمس،

وحضرنا القداس هناك، وبعد القداس صعدنا إلى المذبح وقبلنا الرأس المقدس للقديس فيليب، الذي كان محفوظاً هناك، والذراع المقدس للقديس جيمس، وكان هناك اندفاع عظيم وضغط شديد بين الناس لرؤية الآثار المقدسة وتقيلها، وعندما انتهى القداس ذهب الناس، لكننا بقينا نحن حتى يمكننا أن نحصل على مشهد أفضل للآثار دون التعرض للضغط، ويمكننا أن نلمسهم بمجوهراتنا، لأن الحجاج إلى الأرض المقدسة قد اعتادوا أن يحملوا معهم إلى الأماكن المقدسة خواتم منتقاة من الذهب أو الفضة، أو بعض الحبوب من الحجارة الكريمة من أجل أن يعمل منها رقى أو سبحات، أو يكون المحمول سبحاتهم المصنعة، أو بعض الصلبان الصغيرة من الذهب أو الفضة، أو أي شيء مماثل هو ثمين، وسهل حمله من الحلي، التي عهد بها إليهم من قبل آبائهم أو أصدقائهم، أو أشياء اشتروها في البندقية أو من أي مكان من بلدان ما وراء البحر لتكون هدايا للأشخاص العزيزين عليهم، وكانوا كلما التقوا بأية آثار مقدسة، أو وصلوا إلى أي مكان مقدس، كانوا يأخذون هذه المجوهرات، ويلمسون بها الآثار أو الأماكن المقدسة، عليهم يحصلون بذلك على بعض القداسة من عملية اللمس، وبذلك يعودون إلى أصدقاء الحجاج أئمن وأكثر قيمة من ذي قبل.

وكنت أنا شخصياً الأقل بين الجميع، وأفقر واحد في جماعتنا، ومع هذا كان معي كثيراً من الجواهر الثمينة أعيرت إليّ من قبل أصدقائي، أو نصرائي أو نصيرائي، من أجل أن ألمس بهن الآثار والأماكن المقدسة التي سأزورها، ثم سأعيدهن إليهم، وأتسلم جائزة لقيامي بذلك، وكان بين هؤلاء من آخرين صاحب السيادة السيد جون اخنغر Echinger، وكان في تلك الأثناء عمدة أولم، فقد عهد إلي بخاتم ثمين جداً وعزيز لأنه كان خاتم والده جيمس اخنغر، فقد كان قد سحبه من أصبعه في

ساعاته الأخيرة وأعطاه إلى ابنه، مثلما تسلمه من أبيه من قبله، وأعتقد مؤكداً أنه يساوي بالنسبة إليه أكثر من مائة دوقية، وأنه يقدره الآن بأكثر من مائتي دوقية.

وهكذا بعدما انسحب الناس، اقتربنا — كما تحدثت — أكثر، ولمست آثار الرسولين المقدسين، وكان واجبي أن أحمل جميع المجوهرات العائدة إلى الحجاج العلمانيين في الأماكن المقدسة، أو في الأماكن التي كانت الآثار محفوظة فيها، وببيدي لمست الأشياء المقدسة، بكل قطعة من المجوهرات، ثم أعدتهم جميعاً إلى أصحابهم، لكن بعض النبلاء أبقوا مجوهراتهم في يدي طوال الحج، وفعلنا هذا في جميع الأماكن المقدسة، ومع جميع الآثار التي وجدناها خلال حجنا كله، شروعاً من سمعان الطفل المقدس في ترنت، وبناء عليه عندما فرغنا من هذا كله عدنا إلى النزل لتناول طعام الغداء.

وفي اليوم الثاني من أيار ذهبنا في الصباح إلى القديس مرقص، وحضرنا القداسات في الكنيسة الكبرى للقديس مرقص، وعندما انتهت القداسات ذهبنا إلى قصر دوج البندقية، حتى نقابله شخصياً لنقدم إليه الرسالة التي بعثها صاحب السمو العظيم سيغسموند، رئيس دوقات النمسا، والتي عهد بها إلى موالي لتقديمها إليه، وذلك حسبنا قلنا في الصفحة ١٥٣، لدى الحديث عن اليوم السابع عشر، وهكذا صعدنا على السلم الحجري من ساحة القصر إلى الرواق المعمد، ووقفنا خارج قاعة القضاء، وطلبنا أن يسمح لنا بالدخول إلى الشيخ Senate، وسمح لنا على الفور بالدخول إلى مكان القناصل، ثم وضعنا في حضره الدوج والشيخ، وقام اللورد جون، بارون فون سيميرن وهو حامل الرسالة عالياً، أي رسالة رئيس دوقات النمسا، ومشى نحو الأمام بطريقة جريئة حتى وصل إلى وسط القاعة، ثم توجه نحو الدوج، وقدم الرسالة إليه باحترام وأدب، ثم عاد.

ونظر الدوج إلى الختم، ولدى تعرفه عليه، قبل الرسالة، ثم ناوها إلى الشيوخ الذين جلسوا معه، حتى يقوموا أيضاً بتقبلها، ثم أمر بقراءة الرسالة على مسامع جميع الحضور، وعندما استمع إليها وقف الدوج، وعرض — من خلال ترجمان — خدماته على الحجاج، ودعا إليه كل واحد منهم على التوالي، وقدم يده لكل رجل منهم، ثم سحبه إليه وقبله وفق الطريقة الايطالية، والتمس بعد هذا موالي منه رسائل توصية إلى قائد البحر العام، وإلى حكام الجزر، من أجل أنه إذا توفرت الحاجة أن يحصلوا على حماية هؤلاء الأشخاص الذين تقدم ذكرهم، وتمت الاستجابة لهذا الطلب مباشرة، وكتبت الرسائل وسلمت إلينا.

وفي اليوم الثالث، الذي كان يوم عيد اكتشاف الصليب، ذهبنا بالقرب إلى كنيسة القديس الصليب، وبعد سماعنا للقداس هناك، رأينا وقبلنا جسد القديس أثناسيوس، الذي هو راقد هناك، ولمسناه بمجوهراتنا، حسب الوصف الذي قدمناه عن اليوم المتقدم، وكان هذا القديس من أعظم أبطال الدفاع عن الايمان وأقدرهم، وقد كتب ضد الهرطقة وليوقع الاضطراب بينهم عقيدة: «من الذي سوف يتم إنقاذه» الخ، وعدنا بعد هذا إلى نزلنا لتناول الغداء.

وبعد الغداء ذهبنا عبر الماء إلى أعظم ديرة الفرنسيسكان، وشاهدنا البناء، الذي كان كبيراً جداً، وفي بيعة مرتبطة بالكنيسة، هناك حصان قد بني بطريقة فنية رائعة، ذلك أن البنادق يقلدون عادات الأمم الكافرة، وعلى هذا الأساس قرروا مكافأة واحداً من قادتهم البحريين، كان قد قاتل بشجاعة في سبيل الجمهورية، وربح بشجاعته كثيراً من المناطق الجديدة لصالحها، مكافأته بإقامة نصب تذكاري دائم له، فنصبوا تمثالاً من البرونز للحصان ولراكبه في واحد من شوارع المدينة أو ساحاتها، ومن أجل أن يجري تنفيذ ذلك بأروع ما يمكن، أرسلوا وراء النحاتين الموجودين في بلادهم، وأمروا كل واحد منهم أن يصنع حصاناً من أية

مادة يختارها، وقالوا بأنهم سوف يختارون واحداً من الثلاثة الأفضل من بين الخيول، ومن ثم يأمرزون بصب حصان من النحاس حسب النموذج الذي اختاروه، وإلى جانب ثمن هذا التمثال، اقترحوا إضفاء تشريف خاص على الفنان الذي صنع شكل حصان.

وبناء عليه اجتمع النحاتون مع بعضهم في البندقية، وصنع واحد منهم حصاناً من خشب، غطاه بجلد أسود، وهو الحصان القائم في البيعة المتقدمة الذكر، وجاء هذا التمثال مشابهاً جداً لحصان حي، لكن مع فارق هو أنه جاء بحجم غير معتاد، ولا يمكنه التحرك، لأنه حصان مصنوع بشكل فني، وصنع فنان آخر حصاناً من الطين، وشواه في القرن، وقد جاء بشكل يجذب الإعجاب ولونه أحمر، وصنع الثالث حصاناً مدهشاً بشكله من الشمع، واختار البنادقة هذا النموذج الأخير، لأنه صنع ببراعة أعظم من الجميع، وأجازوا الفنان، لكن كيف سيصبونه، لم أسمع عن ذلك، ولعلمهم تخلوا عن المشروع، وبناء عليه، بعد ما رأينا هذا الدير، والأشياء المتقدمة الذكر، عدنا إلى مكان إقامتنا.

وفي اليوم الرابع، الذي كان يوم أحد اسمه Vocem Ju- cunditatis ، وكان ذلك عيد العذراء الأكثر قداسة، أي القديسة كاترين المدفونة في جبل سيناء، وقد عبرنا من مكان الاعتكاف والتوبة للقديس دومينيك إلى كنيسة القديس يوحنا والقديس بولص، ورأينا هناك مسيرة مهيبة، وحضرنا قداساً، وكانت الكنيسة كلها محتشدة بالناس، وكان هناك عدد كبير من النساء قد لبسن مثل الـ Beguines، وعندما انتهى القداس، ذهبت إلى دير الرهبان، ووجدت هناك راهباً من طائفتي، مقيماً هناك وهو مسافر على طريقه، وكان يحمل شارات حاج إلى الأرض المقدسة، وقد جاء من بلاد فرنسا، ومن دير تابع لطائفتنا موجود في جزيرة فرنسا، وكان ينوي الإبحار معنا، ولهذا تعرفت عليه، واتفقنا على أن يتحمل أحدنا صحبة الآخر، وعلى كل حال، هو لم

يسافر على غليوننا نفسه، بل على الغليون الآخر، ومع هذا كان يزورني دوماً في القدس، وغالباً ما زارته أنا هناك، وقد تحملنا صحبة أحدنا الآخر.

وبعد تناول طعام الغداء ذهبت وحيداً في قارب إلى دير القديس دومينيك، لرؤية كهنة الدير هناك، وقد أروني ذراعاً كاملاً للعدراء كاترين المباركة جداً والمدفونة في جبل سيناء، وكان ذراعاً كبيراً جداً، وجميلاً، وفيه جلده كله وعظامه، وقد قبلت هذا الذراع مرات كثيرة، ووجدت في الدير نفسه راهباً آخر من رهبان طائفتي، قدم من نابل، وكان يحمل شارات الحج، وهو أيضاً لم يبحر في غليوني، وعدت بعد هذا بالقارب إلى النزل.

وذهبنا في اليوم الخامس بالماء إلى جزيرة الامبراطورة القديسة هيلانة، وهناك قرأت قداساً لموالي، وبعد القداس فتح الرهبان قبر القديسة هيلانة من أجلنا، ورأينا جسدها كله، مع آثار أخرى كثيرة، وبعد تقبيلهم ولمسهم بمجوهراتنا، عدنا إلى النزل، وبعد الغداء، ذهبنا في قارب إلى الغليون الذي استأجرناه، ورأينا القبطان قد أمر بوضع ألواح فوق الجزء المنخفض من مخادعنا، وقد اصطدم بعضهم بأقدامنا وكان في المكان الذي أردنا أن نضع فيه أحذيتنا وصندوق أنيتنا، ولهذا أخبرنا الرجال الذي كانوا مسؤولين عن الغليون، أنه ما لم يقم في الغد بنزع هذه الألواح، سنعدّ اتفاقنا ملغى، ذلك أننا رأينا في عملهم هذا مخالفة للشرط التاسع، وبناء على ذلك نشب خلاف فيما بين الحجاج وبين القبطان، وقررنا على كل حال أنه إذا أراد الحفاظ علينا، يتوجب عليه تدمير العمل الذي أقامه، وبعدما فرغنا من تنظيم مخادعنا على هذه الصورة، عدنا إلى نزلنا.

وذهبنا في اليوم السادس في قارب إلى القديسة لوسيا Lucia، وبعدما سمعنا هناك قداساً شاهدنا جسد تلك العدراء وقبلناه، ذلك أنه محفوظ

هناك في ضريح وسط تكريم عظيم، وذهبنا في ذلك اليوم نفسه إلى السوق، واشترينا كل ما يمكن أن نحتاجه في غليوننا من أجل الرحلة، من وسائل وفرش، ومخاد، وشراشف، وأغطية، وحصر، وجرار، وما تبقى من أشياء لكل مخدع، وسألتهم أن يشتروا لي فراشاً محشياً بشعر البقر، وكنت قد جلبت أغطية صوفية معي من أولم، من أجل أن أنام على ظهر الغليون مثلما أنام في قلايتي، لأنني رأيت أنه لا يصح بالنسبة لي أن أنام على مكان أنعم فوق ظهر الغليون مما أفعل في قلايتي.

وفي اليوم السابع، الذي يوم عيد انتقال القديس بطرس الشهيد، ذهبنا في قارب إلى خارج البندقية، إلى جزيرة مورانو، واستمعنا إلى قداس دومينيكاني في كنيسة القديس بطرس الشهيد هناك، ثم ذهبنا إلى الكنيسة الأبرشية، وهناك عرض علينا كهنة الأبرشية، الأجساد الكاملة لعدد كبير من الأبرياء المقدسين، وكانوا جميعاً ممددين في قبر واحد، حيث قبلناهم، ثم قصدنا إلى أفران صنع الزجاج، حيث يجري هناك صنع آنية من الزجاج بفن عالي الجودة والرقى، ذلك أنه لا يوجد مثل أعمال الزجاج هذه في أي مكان آخر في العالم، وهم يصنعون آنية غالية السعر من الكرستال، وأشياء أخرى كثيرة رائعة من الممكن مشاهدتها هناك، وبعدها شاهدنا هذا كله عدنا في قاربنا إلى نزلنا في البندقية.

وفي اليوم الثامن، الذي كان يوم عيد صعود ربنا، ذهبنا إلى كنيسة القديس مرقص، من أجل حضور القداس هناك، وللتمتع بالمشهد العظيم، ذلك أن أعداداً لا تحصى من الناس تتدفق على هناك وتحتشد في ذلك اليوم، وعندما احتشد الجميع واجتمعوا، سار البطريرك مع إكليروسه ورجال الدين من جميع الدير، والدوج والشيوخ ونقباء الحرف، ساروا جميعاً بعدما وقف كل فريق منهم في مكانه المحدد، وقد لبس كل منهم لباسه الخاص مع شعاراته، وأعلامه، ومشاعله، وذخائره، ومشوا في مسيرة من كنيسة القديس مرقص إلى البحر، وهناك

صعدوا على ظهر سفن أعدت خصيصاً لهم، وأقلعوا بها، وصعد البطريك مع الدوج والشيخ على ظهر الـ Bucentaur (في اللاتينية Bucephalus ، وسميت هكذا على اسم حصان الاسكندر الكبير) التي كانت سفينة عظيمة تشبه خيمة العهد، وكانت مطلية، ومغطاة بالذهب وبشقق الحرير المعلقة، وأخذ هذا مكانا وسط احتفال فخم، وقرع لجميع نواقيس المدينة، وزعق الأبواق، وغناء مختلف أنواع التراتيل من قبل رجال الدين، وعندما ابتعدت الـ Bucentaur من الشاطئ بضربات مجاذيفها، التي كان تعدادها أكثر من ثلاثمائة، صاحبها ما يزيد على خمسة آلاف مركب، وقد أبحروا حتى القلاع التي تشكل ميناء البندقية، وعندما عبرت السفن جميعها وصارت خارج الميناء في البحر، بارك البطريك البحر، حسبما جرت العادة بمباركة المياه في مثل هذا اليوم.

ولدى الفراغ من احتفال المباركة، انتزع الدوج خاتماً ذهبياً من اصبعه ورماه في البحر، وبذلك اقترنت البندقية بالبحر، وبعد احتفال الخاتم، خلع كثيرون ثيابهم وغطسوا نحو الأعماق بحثاً عن الخاتم، وكان الذي يعثر عليه، يحتفظ به لنفسه، وفوق ذلك يسكن طوال ذلك العام في المدينة وهو معفى من الأعباء التي يخضع لها سكان تلك الجمهورية، وفي أثناء القيام بهذا كله تتجمع السفن كلها حول Bucentaur، وهي تضغط بشدة وتتأرجح، وتصدر أصواتاً باطلاق المدافع، والنفخ بالأبواق وقرع الطبول، وبالصراخ والغناء، إلى حد بدا فيه البحر وهو يهتز، وكنا حضوراً أثناء هذا العرض، في مركبنا المستأجر.

وبعد الفراغ من المباركة، وعملية الاقتران بالبحر، جذفوا بالـ Bu-centaur نحو دير القديس نيقولا على الـ ليدو Lido، ولدى الوصول إلى الشاطئ هناك، نزلوا جميعاً من جميع السفن، ودخلوا إلى الكنيسة، التي لم يستطع جزء من مائة من الناس الدخول إليها، مع أنها كانت

كنيسة عظيمة، ولم يكن بين ذلك الجمهور العظيم ولا امرأة واحدة، ذلك أن الذين نفذوا الاحتفال كانوا من الرجال فقط، وعندما يكون البطريرك سائراً نحو الكنيسة، وهو مرتدياً لثيابه الحبرية، ومعه الدوج الذي برفقته حاشيته كلها، يأتي راعي الدير، وعلى رأسه قلنسوته الحبرية، وبرفقته جميع الرهبان بأرديتهم المقدسة، نحو الخارج لاستقبال الجمهور، ولاصطحاب البطريرك والدوج بيده ولأخذهما نحو سدة الكنيسة حيث يعقدون القداس لذلك اليوم، وسط مهابة عظيمة، ويعودون بعد هذا إلى سفنهم، ويتوجه كل انسان نحو بيته لتناول طعام الغداء.

ولقد رأيت في بعض الأحيان مثل هذه المشاهد في أماكن أخرى، وبالنسبة لذلك انظر الصفحة ٢١٠، في القسم الثاني، وفي خلال الاسبوع الذي يلي يوم الصعود، ينعقد هناك سوق تتوفر فيه مشاهد رائعة.

وذهبنا في اليوم التاسع بالمركب إلى دير اسمه دير الرهبان العكاكزة، وبعد سماعنا للقداس هناك أرونا جسد القديسة بربارة مع كثير من الآثار الأخرى، التي قبلناها باحترام، ثم عدنا إلى نزلنا، وذهبنا في اليوم نفسه إلى بيت، كان موجوداً فيه فيل، الذي هو حيوان ضخمة ونخيف، وقد رأيناه، واندھشنا لدى رؤيتنا لمخلوق بمثل هذا الحجم غير الاعتيادي، وقد تلقى تدريبات عظيمة، ذلك أنه كان يقوم بأعمال رائعة، فعلها أمام أعيننا، بإشارة من سائسه، وقد اشترى هذا الرجل هذا الحيوان مقابل خمسة آلاف دوقية، وأخذه من البندقية إلى ألمانيا، وكسب من ورائه مائلاً كثيراً، لأنه لم يدع انساناً يراه، دون أن يدفع لذلك، وأخذه بعد ذلك إلى بريطانيا، وهناك رماه البحارة فوق ظهر السفينة أثناء إحدى العواصف فهلك.

وفي اليوم العاشر، الذي كان يوم سبت، ذهبنا بالقارب إلى كنيسة

اسمها كنيسة القديسة مريم ذات النعمة، وسمعنا قداساً، وذهبنا من هناك بالقارب إلى كنيسة القديسة مريم صاحبة المعجزات، فهناك قد بنوا كنيسة ذات جمال رائع مع دير جميل جداً، وفي أثناء حجي الأول كان الناس قد بدأوا يتدفقون على ذلك المكان، حيث لم تكن آنذاك بيعة هناك، بل مجرد صورة للعدراء المباركة فوق رافعة مثبتة إلى جدار، وقد قيل بأن معجزات قد صنعت هناك، ولذلك أخذت جماعات من الناس تأتي إلى هنا، وتوفرت تقدييات كثيرة، مما أدى إلى بناء كنيسة بنفقات عالية، وهي الكنيسة القائمة الآن هناك في ذلك الموضع، والتي أطلق عليها اسم كنيسة القديسة مريم صاحبة المعجزات، ولسوف أذكر المزيد عنها في القسم الثاني — الصفحة ٢٠٨.

وفي اليوم الحادي عشر، وكان يوم أحد ضمن الأسبوع التالي ليوم الصعود، استمعنا إلى قداس في أقرب الكنائس منا، وكانت واقعة في مقابل النزل الذي نحن فيه، وذهبنا بعد الغداء بالقارب إلى الكنيسة التي اسمها كنيسة القلعة، حيث يسكن بطريك البندقية، وحيث يتم الحصول في كل يوم على توبة وغفران، وشاهدنا المكان، وكانت الكنيسة واسعة وقديمة، وقد وجدنا هناك واحداً من رهبان طائفة المبشرين، وهو الذي كان يتولى الوعظ، مع أننا لم نفهم ما قاله في القداس، لكن بعد انتهاء القداس رجعنا إلى النزل.

وفي اليوم الثاني عشر، الذي كان يوم عيد الشهداء نيروس Nereus وأخيليس Achilles وبنكرايتوس Pancratius، ذهبنا عبر الماء إلى كنيسة القديس زكريا، وحضرنا قداساً هناك، وبعثنا بعد القداس برسالة إلى راعية الدير المرتبط بالكنيسة سألناها فيها السماح لنا برؤية الآثار، وهؤلاء الراهبات ثريات ونبيلات، وهن متساهلات جداً بنظامهن، الذي هو نظام القديس بينيت، وقد فتحن لنا الضريح الذي فيه أجساد الشهداء الثلاثة، الذين كنا نحتفل بعيدهم، أي: القديس نيروس،

والقديس آخيليس، والقديس بنكرايتوس، ورأينا في ضريح آخر مصنوع من الفضة الجسد الكامل للقديس زكريا، والد يوحنا المعمدان، وفمه مفتوح، وإلى جانبه جسد القديس غريغوري نازيانزن Nazianzen، وجسد القديس ثيودور المعترف، وجسد القديسة سابينا، العذراء الشهيدة، ودهشت إزاء ثراء هذه الكنيسة بالآثار، وقد أخبرت بأن ابنة أحد الأباطرة، كانت مرة راعية للدير هناك، وأن الامبراطور، حباً لابنته، جلب هذه الأجساد إلى هناك، وهكذا بعدما رأينا هذه الآثار وقبلناها، عدنا إلى مكان إقامتنا.

وفي اليوم الثالث عشر، ذهبنا إلى الكنيسة الكارثية Carthusian العائدة للقديس أندرو، حيث يوجد هناك دير عظيم وكبير جداً، وعلى جزيرة خاصة به، مع أربعة أروقة وقلاليات جميلة وواسعة، ورأينا هناك كثيراً من الآثار، من ذلك إصبع القديس أندرو الرسول، وذراع القديس لورانس الشهيد، وهكذا كثير، وعدنا بعد هذا إلى مكان إقامتنا.

وذهبنا عبر الماء في صباح اليوم الرابع عشر إلى دير القديس جرجس، القائم في مقابل قصر القديس مرقص، وذلك عبر القناة العظمى، وجعلنا رهبان ذلك الدير يغنون لنا قداساً عن القديس جرجس، وبعد القداس أرونا الآثار المقدسة التي لديهم، وهي: رأس القديس جرجس، وذراعه الأيسر ويده، وكذلك رأس الرسول القديس جيمس الأصغر، والجسد الكامل للقديس بولص، دوق القسطنطينية، وقطعة من الليفة التي منحت لربنا، وأشياء أخرى كثيرة، وعندما فرغنا من رؤية هذه الأشياء، عدنا إلى مقر إقامتنا.

وفي يوم الخامس عشر الذي كان نهاية الاسبوع التي أعقب الصعود، وعدّ مقدساً مثل اليوم الأول من الصعود، ذهبنا باكراً إلى القديس مرقص، وعندما استمعنا إلى القداس، أمكننا رؤية كنز القديس مرقص، الذي لا يمكن تقدير قيمته لا بالذهب ولا بالفضة ولا بالحجارة

الكريمة، فقد رأينا هناك ضريح وجسد القديس ايزيدور Isidore، وأما جسد القديس مرقص، الذي جلبه البنادقة من الاسكندرية إلى مدينتهم، فلم نره، لأنه قد قيل بأن راهباً قد استولى عليه، وحمله إلى ألمانيا إلى أويا Owia ميجر، وحول هذه المسائل سوف تتوفر رواية أكثر كمالاً، في ص ٢٠٦ من القسم الثاني.

ومن الكنيسة ذهبنا إلى قصر الدوج، حيث تولى واحد من رجال بلاط الدوج ارشادنا والطواف معنا حول الغرف الداخلية للدوج، وشمل ذلك أيضاً خزانة الدوج، التي رأيناها، وكان هذا اليوم يوم عيد خاص للنساء، وقد شاهدنا عرضاً للنساء المزيّنات بزينة دنيوية كانت ثمينة جداً، وكان رائعاً مشاهدتهن.

وفي اليوم السادس عشر، وبينما نحن في فرشنا، سمعنا أسرة النزل يبكون ويتحبون، لأن صاحب نزلنا المعلم جون، قد توفي في الليل، وكانوا يتجهزون لدفنه، وبناء عليه، اعتقد بعض منا، أنه ربما هناك طاعون قد نزل هناك، لذلك استأجروا قوارب وأبحروا إلى بادوا، حيث أقاموا لعدة أيام، أما أنا والذين بقيوا، فقد ذهبنا عبر الماء إلى كنيسة القديس روخ Roch ، في مدينة البندقية، وطلبنا عون القديس المتقدم الذكر، الذي هو معين خاص للذين يخافون من الوباء، وذلك خشية أن نصاب بالعدوى.

وفي يوم السابع عشر، الذي كان عشية عيد الحصاد، ذهبنا بالقارب إلى دير القديس يوحنا، العائد لطائفة الرهبان البيض، وهناك حضرنا قداساً، وقبلنا الآثار، وذهبنا بعد الغداء إلى مخزن سلاح المدينة، الذي يسمونه أرسنال (دار الصناعة)، ورجوناهم السماح لنا بالدخول، وعندما سمح لنا، شاهدنا كميات رائعة من آلات الحرب، مع مخازن تابعة للدولة لتزويد الرجال للقتال في البحر، أو خيالة، أو رجالة، وذلك حسبها سيأتي وصف ذلك في الصفحة ٢٠٥ من القسم الثاني،

ومثل ذلك، ذهبنا بعد هذا إلى بيت الخبازين، الذين يتولون خبز البقساط للاستخدام في البحر، ودهشنا لدى رؤيتنا الأفران الكبيرة، والنيران، والأعمال والعاملين، وقفنا بعد هذا كله عائدين إلى النزل.

وفي يوم الثامن عشر، الذي كان يوم أحد، ويوم عيد الحصاد، ذهبنا في الصباح إلى كنيسة القديس بارثولميو الرسول، التي هي الكنيسة الأبرشية لنزلنا، واستمعت هناك إلى اعترافات بعض الحجاج، وبعد الحصول على إذن المغادرة من الكاهن الأبرشي للكنيسة المتقدمة الذكر، توليت إدارة قداس القربان من أجلهم، وبقينا في الكنيسة خلال جميع وقت القداس، وذهبنا بعد الغداء عبر الماء إلى كنيسة الروح القدس، التي تدفق عليها جمهور كبير للحصول على الغفران، ولمشاهدة مسيرة مهية للنقابات التي يسمونها مدارس.

وذهبنا في اليوم التاسع عشر بالماء إلى الكنيسة التي اسمها القديسة مريم ذات الشفقة، التي هي فائقة الجمال، وهي أيضاً الأغني والأكثر قدماً من أية كنيسة أخرى في المدينة، وحضرنا هناك قداساً، وعجبنا لرؤية الرسوم والمنحوتات التي زينت بهم، ولدى عودتنا إلى نزلنا زرنا كثيراً من الكنائس الأخرى، حصلنا فيها على الغفران، وسيكون مرهقاً لي تولي كتابة أسمائهم جميعاً.

وذهبنا في اليوم العشرين في الصباح الباكر، وقبل أن ترتفع حرارة الشمس، إلى كنيسة القديسة مريم الجميلة، وكانت الكنيسة في الحقيقة واسعة وجميلة: وهكذا استمعنا هناك قداساً، وقفنا بعد ذلك عائدين إلى نزلنا، ولم نتجراً خلال بقية ذلك النهار على الخروج، بسبب الحرارة العالية جداً، لأن الحر كان أعظم مما عرفته البندقية قط من قبل، وبسبب هذه الحرارة جفت الآبار، وصار الماء العذب عزيزاً جداً، ذلك أنه لم يعد ماء الشرب متوفراً هناك، إلا الماء الذي جلبته السفن من نهر برنتا Brenta وقد بيع هذا الماء بثمان مرتفع جداً، وجرى صبه من حول

الآبار، على أمل أن يتصفى خلال الأرض، وينفذ إلى الآبار.

وذهبنا في اليوم الحادي والعشرين بالقارب إلى دير القديس أنطوني، وكان على مقربة من دير القديس دومينيك، وحضرنا هناك قداساً، وخرجنا بعد ذلك نتجول هناك، وشاهدنا الأبنية العملاقة التي كان سادة البندقية يقيمونها هناك في ذلك المكان، واستولى علينا العجب تجاه النفقات الكبيرة لمثل هذه الأعمال، لأنهم كانوا يقيمون جدراناً ضخمة في ماء البحر بالذات، وكان مكلفاً جداً عمل الأساسات هناك، وبسبب هذا المبنى كان الدوج مع أعيان البندقية الآخرين، غاضبين جداً من أخواني رهبان القديس دومينيك، لأنهم طلبوا من الرهبان منحهم نصف أرض حديقة ديرنا، من أجل توسعة دير القديس أنطوني، لكن إخواني الرهبان لم يوافقوا، ووقفوا في وجه الدوج والشيوخ وقفة جريئة مما أثار غضباً كبيراً ضدهم.

ولكي يحصلوا على موافقة الرهبان، عرضوا منحهم المساحة التي أرادوا من الأرض في البحر، باتجاه الشرق، وحسب اختيارهم وقبولهم، وأن يقوموا بارساء الأساسات على حساب الدولة، لكن رئيس الدير، وكان جريئاً، رفض مطلقاً إعطاء الموافقة، وكان سادة البندقية يتولون عمارة هذا البناء بهذه الروعة، مع بيوت جميلة وكثير من الغرف، من أجل استقبال الحجاج الذاهبين إلى القدس، وإقامتهم فيها، لأنهم أدركوا أنه من غير اللائق، أن يقيم الحجاج في نزل عامة، مع أنهم عازمون على القيام بالحج المقدس، وأنه في مثل هذه المدينة العظيمة ليس لديهم من مكان يأوون إليه إلا الحانات العامة، لأن سمعة النزل العامة، كانت فيما بينهم سيئة وغير محمودة، ولذلك عندما كانت تزورهم بعض الشخصيات الكبيرة، كانوا يعينون لها بعض البيوت الخاصة، ليحولوا دون نزولها وإقامتها في النزل، فضلاً عن هذا، كانوا غير راضين، أن تذهب وجبات الأطعمة التي كانوا يرسلونها إلى الغرباء المهمين على

الحساب العام، وتؤخذ إلى النزل، وكان إذا ما أرسل شيء إلى أحد النزل، كان كمية صغيرة وردية.

وعندما تسلم موالي وجبة أهديت إليهم من قبل الدولة، أخبروهم أنهم لو كانوا مقيمين في أي مكان غير النزل العام، لبعث إليهم أعيان البندقية بالوجبات بشكل متواصل، ولتعاملوا معهم بكرم أعظم، ولهذا السبب كانوا يتولون عمارة هذا البيت بنفقات عظيمة إلى هذه الدرجة، من أجل أن يتمكن الحجاج ذوي المكانة من الإقامة هناك، ولكي ينالوا التكریم على أيديهم، وذهبنا من هناك بوساطة القارب إلى غليوننا، ووجدنا عدداً كبيراً من الرجال يعملون عليه، في تثبيت مقاعد المجذفين، والمجاذيف، والسواري، والأشياء الأخرى المحتاجة، وكانوا يثقلونه ويوازنونه بالرمل، وعندما رأينا هذا ابتهجنا، آمليين بالإقلاع في القريب العاجل.

وفي اليوم الثاني والعشرين، ذهبنا عبر الماء إلى الكنيسة التي اسمها كنيسة الرسل، وحضرنا القداس هناك، وبعد القداس أرونا جسد القديسة مريم العذراء، التي يوجد حولها رواية رائعة في القسم الأول من كتاب «حياة الآباء» (ص ٤٩)، وبعد الغداء ذهبنا ثانية إلى الغليون، وأخذنا بعض الصناديق والخزائن لوضعها في مخادعنا، وذهبنا في القارب أيضاً إلى المكان الذي ترسو فيه السفن ذات الحجم الأعظم، وصعدنا إلى ظهور هذه السفن، وتملكتنا الدهشة تجاه ما رأيناه، وتساءلنا كيف يمكن تحمل مثل هذه العمائر الضخمة، وهذا الوزن العظيم.

وذهبنا في اليوم الثالث والعشرين عبر الماء إلى كنيسة القديس إرميا، حيث أرينا بعد القداس جسد القديس الأسقف مغنوس Magnus الذي كان أول أسقف لمدينة البندقية، ومضينا من هناك إلى كنيسة القديسة مريم، التي اسمها القديسة مريم صاحبة العذراوات، ورأينا كثيراً من آثار القديسين هناك، وزرنا بيعاً أخرى كثيرة في ذلك اليوم،

نسيت أسماءها.

وفي اليوم الرابع والعشرين الذي هو يوم انتقال القديس دومينيك، ذهبنا عبر الماء إلى كنيسة القديسة آن Anne ، التي هي بالجوار، حيث شاهدنا كثيراً من الآثار، وفي طريق عودتنا إلى مقر إقامتنا، ذهبنا إلى كنيسة القديسة مريم صاحبة الكرم، فهناك يمتلك الرهبان الفرنسيون ديراً جميلاً جداً، هو الذي يعملونه يومياً أكثر نفاسة، وقمنا هناك بتوجيه التحية إلى العذراء المجيدة، وعدنا إلى مقر إقامتنا.

وفي اليوم الخامس والعشرين، الذي كان يوم أحد، وكان أيضاً يوم عيد الثالوث المبارك، نهضنا باكراً، وعبرنا القناة العظيمة إلى كنيسة الثالوث المقدس، حيث يوجد هناك البيت العائد للرهبان الألمان النظاميين، وهناك حضرنا مسيرة وقداًساً، ودعينا إلى الغداء من قبل السادة هناك، وكان في هذا اليوم حشداً عظيماً من الناس هناك، وكانت القناة طوال اليوم مليئة بالقوارب فيها أناس قادمون، وأناس ذاهبون، وعندما عدنا إلى نزلنا علمنا بأن السادة قناصل البندقية قد أصدروا أوامر إلى كل من القبطانين بالاقلاع مع حجاجهم في ذلك الأسبوع، وعدم الانتظار مدة أطول، ولدى سماعنا بهذا ابتهجنا، لأننا كنا قد بدأنا نملّ كثيراً من الإقامة في البندقية.

وعبرنا القناة في اليوم السادس والعشرين إلى كنيسة القديس اسطفان، حيث يوجد دير القديس أوغسطين، وسمعنا قداًساً هناك، وبعد القداس أُرانا الرهبان بعض الحجارة التي من المعتقد أن القديس إسطفان قد رجم بها في القدس، وفي ذلك اليوم أصدر قبطاننا الأوامر بوجوب إحضار جميع خزائنا وحقائبنا ووضعهم على ظهر الغليون، الأمر الذي نفذناه مباشرة وسط سرور عظيم، لأننا كنا نتطلع بشوق عظيم لموعد مغادرتنا.

وذهبنا في اليوم السابع والعشرين إلى كنيسة القديس كارتيانوس CARTIANUS، حيث كانت الكنيسة كنيسة أبرشية، فيها سمعنا قداساً، وبعد القداس أَرانا رجال الدين جسد الأسقف القديس مكسيموس، المحفوظ بعناية داخل غلاف فضي، وذهبنا أيضاً إلى كنيسة فيها يرقد جسد راعي الدير، القديس سابا، وبعدما قبلنا هذه الآثار، عدنا إلى نزلنا، وعملنا في ذلك اليوم بنشاط كبير، في إعداد أمورنا على ظهر الغليون، وبدا لنا أن الأيام التي بقيت لنا لنقيم بها في البندقية تكاد لا تكفي لإكمال استعداداتنا.

وفي اليوم الثامن والعشرين ذهبنا باكراً عبر الماء إلى كنيسة القديسة مريم الكرملية، وذلك حيث يمتلك الرهبان الكرمليون ديراً، وبعد سماعنا قداساً عدنا إلى نزلنا بسرعة أكبر مما اعتدنا عليه، ذلك أن موالي قد عينوا موعداً مع طبيب كان سيتناول طعام الغداء معنا، وتسلموا منه أحكاماً مكتوبة ينبغي اتباعها في البحر، وذلك كل رجل حسب أوضاعه الجسدية، وأعطاهم وصفات أدوية، وأخذ كثير منا منه أشربة مطهرة، لأن من الضروري بالنسبة للمسافرين عبر البحر تناول الشراب المطهر قبل السفر.

وفي اليوم التاسع والعشرين الذي كان عيد «جسد المسيح» الأكثر قداسة، ذهبنا إلى كنيسة القديس مرقص، وحضرنا مسيرة مهيبة هناك، فنحن لم نر قط مثل الفخامة التي رأيناها في ذلك اليوم في البندقية، وكانت المسيرة رائعة، وقد حوت حشداً عظيماً من الرهبان ورجال الدين التابعين لجميع الطوائف، وكانوا جميعاً يرتدون أرديتهم المقدسة، ويحملون آثراً ثمينة جداً من كل نوع، ومشوا وفق نظام محدد حول الساحة الكبيرة للقديس مرقص، التي كانت مغطاة بأقمشة كتانية من جميع جوانب الدائرة التي تحركت فوقها المسيرة من الباب الأول لكنيسة القديس مرقص حتى الباب الآخر، وحمل البطريك خبز القربان،

ومشى إلى جانبه الدوج، وهو واضح قبعة الدوقية الثمينة جداً، وجاء من بعدهما رعاة الديرة، وهم يرتدون قلنسواتهم، ثم شيوخ البندقية جميعاً، وإلى جانب العرض اللاهوتي، الذي كان رائعاً جداً، كان هاماً رؤية مهابة السادة الشيوخ، وثيابهم الجميلة وغير الاعتيادية، وقد جاء من بعدهم كثير من الأصناف، ثم العامة من الناس، وقد مشى رجال الدين والرهبان من نظاميين وعلمانيين في الطليعة، وسط الغناء وعزف آلات الموسيقى والألحان والمشاهد العرضية من كل نوع، وفي هذه المسيرة ما من دير، أو نقابة ظهوروا من دون عرض خاص بهم وأبهة ذاتية لنيل الإعجاب، ولإدخال السرور إلى قلوب المشاهدين، وزين الرهبان المبشرون التابعون للقديس يوحنا والقديس بولص المسيرة بوساطة عروضهم المضحكة وتمثيلاتهم الجميلة، ولقد رأينا هناك كثيراً من الذهب والفضة، وكميات كبيرة من الأحجار الكريمة، والملابس الثمينة، مما لا يمكن لإنسان أن يقدر أثمانها، والذي كان هناك هو حشود متداخلة تركض وتتدافع في فوضى.

ومضينا بعد الغداء عبر الماء إلى دير جسد المسيح، حيث تقيم سيدات نبيلات وغنيات من البندقية، هن راهبات في طائفة القديس دومينيك، وفي الحقيقة، جاءت المدينة كلها تقريباً، بعد الغداء، عبر الماء إلى تلك الكنيسة، وكان هناك حشد عظيم وضغط شديد من أجل مشاهدة المسيرة، لأن الرهبان التابعين لثلاثة أديرة، هي: دير القديس يوحنا، والقديس بولص، ودير القديس دومينيك، ودير القديس بطرس الشهيد، قدموا جميعاً إلى هناك، وعملوا مسيرة فائقة الجمال مع جسد المسيح، وكانت مسيرتهم طويلة جداً فوق القناة العظمى، وقدموا كثيراً من العروض، ولا يمكن لإنسان أن يتخيل كم من العروض العبيثة قد عرضت وسط هذه المباريات المقدسة، وكم من الملابس العظيمة البذخ التي ارتدتها النساء، وكم من التصرفات غير اللائقة التي صدرت عن

رجال الدين، والأعمال غير النظامية التي مارسها رجال الدين النظاميون وغير النظاميون، هذا كله لا يمكن لانسان أن يتصوره، وأن يتصور العدد الهائل من الجمهور الذي احتشد هناك، وفيما إذا كان التشریف المضافى على القداس الأعظم مكانة، قد دنس على هذه الصورة؟ الرب وحده الذي يعرف الأشياء كلها، يمكنه أن يقول ويخبر، وبعدها انتهى هذا كله، عدنا إلى مقر إقامتنا لتناول طعام العشاء.

وذهبنا في اليوم الثلاثين إلى القديس دانيال، وسمعنا قداساً هناك، وأرونا بعد القداس الجسد الكامل لشهيد اسمه القديس يوحنا، وقبلنا هذه الآثار، وعدنا إلى مقر إقامتنا، وفي ذلك اليوم بالذات، قام عدد كبير من الحجاج، بعد تناول طعام الغداء بحزم أمتعتهم، وذهبوا بوساطة القارب إلى الغليون، حيث صعدوا إلى ظهره، ومن هناك لم يعودوا ثانية إلى المدينة، بل مكثوا على ظهر الغليون حتى أقلع بنا جميعاً.

وفي اليوم الحادي والثلاثين الذي كان اليوم الأخير في شهر أيار، نهضنا باكراً، وذهبنا لسماع قداسات في كنيسة القديس المخلص، حيث يوجد هناك رهبان نظاميون يتولون مراعاة الأعمال التعبدية بشكل دائم، واستأجرنا بعد هذا مركباً، وتدبرنا أمر الذهاب إلى الكنائس التي حماها من القديسين يقدمون خدمات خاصة إلى الذين على نية السفر إلى الحج، لأن موعد مغادرتنا بات قريباً، وكنا نرغب بالتوجه بالدعاء إلى جميع القديسين من أجل الحصول على عونهم، وبناء عليه ذهبنا أولاً إلى كنيسة القديس رافائيل، الذي هو رئيس للملائكة، حيث صلينا للرب حتى يرسل إلينا رئيس الملائكة المقدس لديه، ليتولى قيادتنا مثلما فعل لطوبيا، ومن هناك ذهبنا بالقارب إلى كنيسة القديس ميكايل الذي كان رئيساً للملائكة، ورجونا أن يحطم تحت قدميه كل شيء شرير يمكن أن يهاجنا، سواء أكان من الأعداء المرئية أو غير المرئية، وذهبنا من هناك إلى كنيسة القديس كريستوفر ورجونا أن يحملنا سالمين عبر البحر

الكبير، ذلك أنه يوجد فيما بين البندقية وجزيرة مورانو جزيرة ، عليها تقوم كنيسة جميلة وجديدة هي كنيسة القديس كريستوفر، وذلك مع دير للرهبان البيض، وفي تلك الكنيسة هناك لوحة قد رسمت عليها خريطة جميلة جداً للعالم.

وذهبنا بالقارب من تلك الجزيرة إلى كنيسة القديسة مرثا، السيدة التي أكرمت الرب يسوع وخدمته، ورجوناها أن تهتم بنا وتزودنا بنزل جيدة ومحترمة، أو في جميع الحالات أن تزودنا بالصبر حتى نتحمل نواقص النزل التي سوف نسكن بها خلال رحلتنا الطويلة، ويسكن من حول تلك الكنيسة راهبات يرتدين أردية بيضاء، وانظروا كيف أننا عندما كنا نقيم في المدينة، لم نستطع منع أنفسنا عن القيام بالحج، ولقد دونت فقط المشاهد الرائعة والمحترمة والجولات التي قمنا بها في مدينة البندقية، وكل ما قمنا به بدافع الفضول، أو استحقق المشاهدة، تجاوزت ذكره، مع أننا فعلنا ذلك أيضاً.

وهنا تنتهي جولاتنا في البندقية، وكنا طوال ذلك اليوم مشغولين في إعداد أنفسنا للذهاب والصعود على ظهر السفينة غداً، وعملنا تسوية مع طبيبنا، ودفعنا ما علينا من استحقاقات للسيدة مرغريت، صاحبة نزلنا، وعهدنا بالأشياء التي لافائدة منها في البحر، إلى السيد نيقولا فرج Frig وكان ألمانيا، وكان هو وكيل المؤونة في النزل، وانتظرنا قدوم الغد.

وفيماء يلي بعض الأشياء، التي من الضروري تيسانها من أجل فهم جولاتنا ورحلاتنا فوق البحر. وقبل الشروع في تدوين أخبار جولاتنا ورحلاتنا في البحر، رأيت من الضروري التمهيد لذلك ببعض الايضاحات الضرورية، لتيبان كثيراً من المصاعب التي لا بد من أن تقوم أثناء الحج في البحر، لأن الحج إلى الأرض المقدسة، ينفذ جله عبر البحر، ويتم تمضية الجزء الأكبر من الوقت في الرحلة البحرية، ولذلك عازمت على كتابة ثلاثة تماهيد لذلك.

والتمهيد الأول: حول أنواع البحار الكثيرة، وطبيعتهم، والمخاوف فيهم.

والتمهيد الثاني: حول الغليون ذي الصفوف الثلاثة للمجذفين، وتراتبية.

والتمهيد الثالث: حول النظام وطبيعة الحياة على ظهر الغليون، ونصيحة إلى الذين يبحرون في غليون.

وعندما يجري فهم هذه التماهيد بشكل صحيح، فإن الانسان الذي لم ير البحر قط، يمكنه أن يرتاح راضياً، [أي أنه سوف يفهم حكايتي].

حول أنواع البحار الثلاثة

يتألف البحر بطبيعته من ثلاثة أنواع هي: البحر الكبير، والبحر الأكبر، والبحر الأعظم، والبحر الكبير هو البحر المتوسط، الذي يطلق عليه اسم بحرنا، والبحر الأكبر هو بحر بنطش، والبحر الأعظم هو المحيط الذي يمتد حول العالم، وسوف نقوم أولاً باستعراض موجز للمحيط، وبعد ذلك للبحرين الآخرين، والمحيط، أو البحر المحيط الأعظم، هو الذي يحيط بالعالم كله ويغلفه، ويلتف حوله مثل الخاتم، وهو يسمى بالمحيط من قبل كل من الإغريق واللاتين، لأنه يجري حول العالم، وجاء ذلك إما بسبب سرعته، لأن معنى محيط هو يجري Ocius، أي يسرع، أو بسبب ضم عبارة Ce مع Coelum التي تعني السماء، لأن هذا البحر فيه شبه للسماء باللون، ومهما كان لون السماء، سيكون المحيط له اللون نفسه، وينشأ المحيط وينمو من العالم، وجذوره وبداياته في العالم، فضلاً عن ذلك فإن بداية الأول هي عند نهاية الآخر، ومثل هذا فإنه أصل جميع المياه في العالم، فمنه تتدفق وإليه تعود، وبناء عليه أطلق على المحيط اسم بيت الأنهار، ونبع الأمطار، ومع ذلك هو لايزداد بتدفق نهر من الأنهار، ولا ينقص بعدم تدفق نهر آخر، لأنه يعيد

من المياه بقدر الكميات التي يتلقاها، ومع هذا إنه ل يبدو أمراً مدهشاً، أن نرى مثل هذا العدد الكبير من الأنهار تصب في المحيط، وبشكل متواصل، وتتدفق بكميات غير محدودة من المياه، ومع ذلك لا يغدو هذا المحيط أكبر بسبب ذلك وليس أقل عجباً أنه مع أن كثيراً من الأنهار تنبع من قاعه، وأن النجوم تسحب شطراً كبيراً من مياهه، لأن الشمس والنجوم الأخرى تتولى بقوتها النارية الحادة سحب كميات عظيمة من المياه، وتصبها حول جميع النجوم لتلطف الجزء الناري منهم، ومع ذلك إن هذه المياه التي تأخذها النجوم من المحيط لا تنقصه، لأنه كما قلنا من قبل، يسترجع ثانية بقدر ما يفقده من هذه المياه التي تشربها النجوم، وكيف حصل هذا وانتظم، الله وحده هو العليم بذلك، لأن العالم صنع يديه، وهو وحده يعلم جميع أجزائه، ويتبع هذا البحر، دون سواء مسار القمر، ولهذا فإن الدوامة التي تبتلع المياه والسفن، وتقذف بهم مجدداً، وهي تبتلع مياهها ثم تقذفها بقوة تيار أعظم، عندما يكون هناك قمر جديد، ويطلق على هذه الدوامة اسم المهواة العظيمة، وهكذا نقرأ في سفر التكوين: ١١/٧ «انفجرت كل ينابيع الغمر العظيم»، ويوجد في مقابل هذا أغواراً عظيمة، وكهوفاً مفتوحة وواسعة، فيها تنشأ الرياح وتهب من خلال تنفس المياه، ويمكن تشبيه هذه الكهوف والأغوار بفتحتي أنف العالم، واسم التنفس في الكتابات المقدسة، روح العاصفة، وتقوم الرياح بتحريكها في داخل هذه الكهوف المفتوحة بسوق مياه البحر نحو المهاوي العميقة، وترغمهم على الاندفاع ثانية بقوة أكثر، وبتيار أشد عنفاً، وقد نوقشت هذه المسائل بتوسع من قبل Vin-centius في كتاب «Speculum Naturae»، ومياه هذا البحر مالحة، مثل مياه البحار الأخرى، وهو ما سوف نشرحه فيما بعد، وفيما يتعلق بحجم هذا المحيط واتساعه لا يمكن لشيء أن يقارن به، ويبلغ عرضه مقداراً عظيماً بحيث لا يمكن عبوره، ولا يوجد خلفه بلاد، بل إن ذلك البحر محاط فقط بغيوم وهواء كثيف يشكل حدوده، وهناك

على كل حال أرض تحتها، فتبعاً للنظام الطبيعي للخليقة، كان وجه الأرض كلها ستغطيه المياه، غير أن الله برحمته اللامحدودة تفضل بإبقاء جزء من الأرض جافاً لسكنى البشر والحيوانات، وذلك عندما قال: «لتجتمع المياه تحت السماء إلى مكان واحد ولتظهر اليابسة» [التكوين: ١/٩]، وهذا الجزء القائم فوق الماء، هو الذي عني عندما قيل عن العالم نفسه بأنه «قد أقامه فوق البحار» (المزامير: ٢١/٢)، وعليه كانت المياه ستغمر الأرض، لولا أن الأمواج قد صدت بقوة الخالق، ولذلك قال في المزمور: «أنت وضعت لها تحماً لاتتعدها، لاترجع لتغطي الأرض» [٩/١٠٤]، وقال أيضاً في أيوب [٨/٣٨]: «من حجز البحر بمصاريع حين اندفق فخرج»، وكل من يرغب أن يمتلك فهمها واضحاً لهذه الأشياء، عليه أن يقرأ شروح بولس أوف بورغوس Burgos، على الـ Postilla لدي ليرا Lyra حول ما وقع في اليوم الثالث من أعمال حيث قرأنا: «لتجتمع المياه تحت السماء إلى مكان واحد»، ومن هذا البحر وإليه وفيه تصب مياه البحار الأخرى: البحر المتوسط، وبحر بنطش، والبحر الأحمر، وهي بذلك تشبه أغصان جذع واحد.

ويطلق على بحر بنطش اسم البحر الأكبر، لا لأنه في الحقيقة أوسع من بحرنا، بل لأنه غير مقسم بوساطة أية جزر، أو لأنه لاجزر فيه تقريباً، واسمه بحر بنطش، لأن جميع تلك المياه التي فيه تتدفق خلال قناة ضيقة، عبرها اكسريسي بوساطة جسر (Pons) مصنوع من السفن، ولهذا السبب أطلق على هذا المضيق اسم هيلوسبونت Hel-despont، أو من الممكن تسميته ببحر بنطش، لأنه بدون جسر، ولا يمكن عبوره بوساطة جسر، وكذلك من الممكن تسميته ببحر بنطش من كلمة «نقطة Point»، لأنه كما قيل هو مستدير مثل نقطة أو بقعة، وأيضاً من الممكن تسميته ببحر بنطش بسبب قصره، ويعرف هذا البحر بشكل عام باسم بنطش يوكسينوس Pontus Euxinus، وذلك

بسبب طباع سكانه، وذلك حسب رواية ايذيدور، لأنه تبعاً لبطليموس امتلك شعب يوكسين Euxine أسوأ طباع ممكن توقعها من الجانب الأخلاقي، ولهذا ما من أحد يمكنه التمازج معهم، ولقد كان أشبه بملجأ إليه يفر الناس من البلدان الأخرى بغرض اللجوء، وفضلاً عن هذا فإن نهر اكسوس Euxes ، الذي ينبع من جبل القوقاز، يصب في هذا البحر، وبالتالي أعطاه اسمه، أو ربما نال النهر اسمه من البحر، ويوجد خلف بحر بنطش مستنقعات واسعة جداً، هي التي تتلقى مياه نهر تانيس Tanais، الذي يشكل الحدود فيما بين أوربا وآسيا، وهو ينبع من جبال ريفائين Rhiphaeon ، وبحر بنطش يوكسينوس هذا مياهه أقل ملوحة من مياه البحار الأخرى، وذلك بسبب عدد أنهار المياه العذبة التي تصب به، وفي الحقيقة نجد أن نهرنا الدانوب، الذي ترفده مياه ستة أنهار كبيرة، يصب لمدة سبعة أشهر في بحر يوكسين.

والبحر الكبير هو الذي نسميه «بحرنا»، و«البحر المتوسط»، ومقصدي الحديث عن هذا البحر أكثر من الحديث عن سواه، ومن حيث البداية أطلق عليه اسم «البحر الكبير»، لأنه بالمقارنة معه نجد البحار الأخرى والبحيرات أصغر منه، وثانياً، أطلق عليه اسم «بحرنا» لأنه معروف من قبلنا، وقريب منا، ويستخدم من قبلنا، وثالثاً، أطلق عليه اسم «المتوسط» لأنه قائم في وسط الأرض، فمن الغرب حتى الشرق، نراه قائماً بين الأجزاء الرئيسية للعالم، أي بين أوربا، وآسيا، وأفريقيا، ويفصل فيما بينهم ويرسم الحدود فيما بين كل واحدة منهن بنفسه وبفروعه، ففي الغرب والشمال منه هناك أوربا، وفي شرقيه آسيا، وعلى جنوبه أفريقيا، ولهذا فإن الحاج الذي يذهب إلى القديسة كاترين، سوف يلامس البحر عند كل واحد من هذه الأجزاء الثلاثة للعالم، ذلك أنه يبدأ رحلته من أوربا، ويصل عبر كريت ورودس وقبرص إلى آسيا، وعندما يصل إلى الاسكندرية في مصر سوف يكون في أفريقيا، لأن نهر

النيل يفصل فيما بين آسيا وأفريقيا، وهناك على الجانب الأفريقي توجد الاسكندرية، ويتصل بحرنا بالبحرين المتقدمي الذكر، ومياه بحر بنطش والبحر المتوسط هي نفسها، وتتدفق هذه المياه — كما نرى — من مملكة إسبانيا وتمر بغاليا، وإيطاليا، وصقلية، وكريت وصولاً حتى مصر، ويطلق بشكل صحيح على الفرع الذي يصل المحيط قرب إسبانيا، اسم مضيق المغرب، فهو يفصل فيما بين مملكة المغرب — الموجودة في أفريقيا — وإسبانيا، وفيما بين هاتين المنطقتين يتلقى البحر المتوسط مياهه من المحيط من خلال المضيق المتقدم الذكر، الذي لا يتجاوز عرضه ربع ميل، ذلك أن النساء الغسالات في إسبانيا قد يقفن على أحد الشواطئ، وتقف في مقابلتهن النساء الكافرات في المغرب، وتشم كل فئة منهن الفئة الأخرى، وهناك تنفصل أفريقيا عن أوروبا.

ويصلها ذراعها الآخر الذي اسمه الهيلوسبونت — أو ذراع القديس جرجس — ببحر بنطش، ويفصل هذا الذراع أوروبا عن آسيا الصغرى، التي يطلق عليها الآن اسم تركيا، لأن الأتراك قد استولوا على المنطقة كلها، وفي الداريجة يطلق على هذا الذراع اسم خليج القسطنطينية، لأن مدينة القسطنطينية قائمة على شاطئه الأوربي، ويقال بأن مدينة طروادة القديمة والقوية، قد قامت عند المكان الذي يبدأ فيه هذا الذراع بترك البحر المتوسط، وذلك على ساحل آسيا الصغرى، ولم يتبرهن — على كل حال — بتأكيد كامل بأن مدينة طروادة قد قامت هناك، وعلى كل حال إن تسمية بحرنا بالبحر المتوسط، تسمية صحيحة، لأنه واقع في وسط البلاد، ويحتل المكان الوسط فيما بين البحرين الآخرين، وتصب جميع الأنهار المعروفة من قبلنا في هذه البحور الثلاثة، فنهرنا الدانوب يحمل نفسه ويتجه نحو الشرق ليصب في بحر بنطش، الذي عرف أيضاً باسم يوكسين، وجميع الأنهار التي تنبع من جبال الرايتك Raetic، فنهر الراين ينبع من جبال يوكسين، ثم يجري باتجاه الغرب، ويحمل

عدداً لا يحصى معه من الأنهار إلى البحر المحيط، ونهر الرون الذي نبعه قريب من نبع الراين، يجري باتجاه الجنوب، ويحمل معه المتبقي من الأنهار إلى البحر التيراني Tyrrhenian ، وكذلك أنهار الأدجي، وبرنتا، فهي تنبع من جبال الألب، وتصب في البحر المتوسط.

وهناك بحار أخرى معروفة بشكل جيد بالنسبة إلينا من خلال الكتابات المقدسة، وهي مرتبطة بواحد من البحار المتقدمة الذكر، بأقنية نحن لانستطيع رؤيتها، أو كما هو معتقد بوساطة أنهار تحت الأرض: من ذلك على سبيل المثال، يوجد في الشرق بحر الخزر، الذي هو منعزل، وليس له اتصال ظاهر مع أي من البحار الأخرى، ومع ذلك قد قيل بأنه يتدفق بشكل سري من تحت الأرض ويصب في بحر بنطش، فضلاً عن هذا لقد قيل بأن بحر الجليل، والبحر الميت يصبان بوساطة قناة خفية في البحر الأحمر، الذي يتلقى المياه من المحيط، وهناك لسان من المحيط حيث حدود كل من بلاد فارس وشبه جزيرة العرب، ومنه يبحر الناس إلى الهند، فهذا ما حكاه جيروم في رسالته إلى فابيولا . Fabiola

فضلاً عن هذا، ينبغي أن نعرف أن البحر المتوسط هذا، مع أنه بحر واحد، له مع ذلك أسماء مختلفة تبعاً للبلدان المتنوعة التي تشاطئه، وهذا مثل الأرض، مع أنها واحدة، لها أسماء متنوعة، فهو يستعير أحياناً أسماء من البلدان، من ذلك على سبيل المثال، إنه يسمى البحر الآسيوي، والبحر الشامي، والبحر الايبيري، وينال الأسماء أحياناً من الجزر، فيسمى البحر البيلياركي Balearic والبحر الصقلي، والبحر الكريتي، أو البحر القبرصي، وأحياناً من قنن الجبال مثل البحر الايجي أو البحر المالي Malean وأحياناً من أسماء الشعوب، مثل البحر الألماني، والبحر الغالي، والبحر الايطالي، والبحر الدماشي، وأحياناً من المدن المجاورة، مثل البحر الأدرياتيكي، والبحر التيراني، والبحر

اليافاوي، والبحر الاسكندراني، أو البحر البندقي، وبناء عليه عندما تقرأ في جولاتي عن بحار مختلفة، ينبغي أن تعرف أن المعني هو بحر واحد، لكن له أسماء مختلفة.

وهذا البحر مثله مثل المحيط والبحار التي تصدر عنه، يحتوي على مياه مالحة، ومرة، وغير سائغة وغير صحية، وهي بشكل عام غير صالحة للشرب، وملفوظة أكثر من البول، من قبل الانسان والحيوان، وسبب هذه الملوحة هو سر عظيم غامض، وذلك استناداً — فيما أعرفه — إلى أن الفلاسفة القدماء بذلوا جهوداً كبيرة وشاقة في سبيل معرفة سبب ذلك، ويبدو أنهم أخطأوا وابتعدوا كثيراً عن الحقيقة في تحديدهم لأسباب ذلك، وذلك مثلما أخطأوا في مسألة النيل، ومكان ينابيعه، كما سنرى في الصفحة ١١٩ من القسم الثاني، وقد وقعوا بحماقات أكبر عندما بحثوا في أسباب ملوحة البحر، ذلك أن علماء الأصول القدماء جداً لم يتمكنوا من الارتقاء فوق الأفكار الحسية، حيث ذكروا في أسطورة مخترعة أن الكائن الأول الذي هو أبو الأشياء كلها، قد انتزع كتلة نارية كبيرة من جبل Acroceraunus وبعدما ضغطها مع بعضها وصنع منها كرة صلبة، أسقطها ست مرات في المحيط، ونتيجة لذلك الانغمار، بدأت المياه كلها بالغليان، وصارت حارة، ولولا أنه سحب تلك الكرة مباشرة وأخرجها، لصارت مجموعة المياه الهائلة كلها، وتحولت إلى ملح يابس، وبما أنه رغب ببقاء البحر بقيت المياه مياهاً، لكن مالحة.

فضلاً عن هذا نجد لدى أرسطو في كتابه الثاني حول الأنواء نقاشاً حول أسباب ملوحة البحر، وبالإضافة إلى ما قاله أرسطو نفسه، أوضح بعضهم، أنه عندما تصير الأرض دافئة بوساطة الشمس تتعرق وتصدر ما فيها من رطوبة، وبناء عليه تشكل البحر باجتماع هذا التعرق، وبما أن العرق مالح، كذلك صار البحر مالحاً، ذلك أن عرق الأرض مالح،

وبناء عليه يقول هؤلاء الناس بأن البحر ليس إلا مجرد العرق الذي يتدفق دوماً من على سطح الأرض، ويقول بعضهم بما أن البحر قائم فوق الاقليم الحار للأرض، صار سميكاً بسبب حرارته، وذلك مثلما تصير المياه مالحة من خلال الحرارة، وكذلك يقول آخرون، بأن بعض أجزاء الأرض مالحة، وعندما امتزج البحر معها صار مالحاً بسبب هذه الأرض، وذلك على سبيل المثال مثل المياه التي تجري تصفيتها من خلال الرماد تصبح مالحة، ويقول آخرون بأن الملوحة تنتج من خلال امتزاج التبخر الدافئ مع جزئيات الماء، لأن العرق والبول يتفاعلان فوق النار، ويصبحان ملحاً، ويقول آخرون بأن مياه البحر قد جفت بفعل حرارة الشمس، لأن الشمس تجفف وتشرب كل شيء، وهكذا يتداخل الطعم المالح وينتشر في البحر، لأنه مفتوح بشكل واسع لتلقي حرارته، وهكذا فإن المياه بعدما تغلي بحرارة الشمس والنجوم، تصبح مالحة، والانسان الذي يشرب خمرة حلوة وماء عذبا يخرج منه بول مالح، بسبب أن الحرارة تنتج ملوحة، ويقول آخرون بأن الشمس تمتص جميع الحلاوات والجزئيات الرقيقة، التي من السهل جذبها بوساطة قوة النار، وبذلك فإن الجزئيات الخشنة والأسمك تبقى متخلفة، ولهذا فإن وجه البحر حلو كثيراً، وقعره عظيم المرارة، والآن إن القمر يتغذى بالمياه العذبة لكن الشمس تتغذى بالمياه المالحة، والمياه المالحة لا تتجمد بسرعة مثل المياه العذبة، لكنها تصبح حارة بشكل أسرع، ولهذا فإن الحلاوة والملوحة قد امتزجتا في البحر، ويمكن البرهنة على ذلك فيمايلي: إذا ما جرى صنع وعاء من الشمع، وأغلق من جميع الجهات، بحيث لايمكن للمياه أن تدخل إليه، ثم جرى وضع هذا الوعاء في البحر، عندها تأخذ مياه البحر بالتسرب إليه من جميع الجوانب، ووقتها يصبح مافي داخله عذباً وسائغاً للشرب، وجميع الجزئيات المالحة سوف تزول منه، وكأن ذلك حدث بوساطة مصفاة، فضلاً عن هذا إذا ما حفر إنسان حفرة على الشاطئ قرب البحر، فإن الماء الذي يتسرب إليها من البحر،

يصبح عذباً بسبب مروره من خلال الرمال، وسائغاً للشرب.

ويعزرو آخرون ملوحة البحر إلى سبب لاهوتي: ولهذا إنه لائق أكثر أن نقول بأن البحر قد خلق مالحاً من قبل الرب، وأنه مثلما كل عنصر من العناصر الأخرى له طبيعته الخاصة، كذلك ملوحة البحر لها طبيعتها الخاصة، لأنها مالم تكن ممزوجة بالملح، لصارت آسنة مثل بقية أنواع المياه الراكدة التتنة، وبعض البحيرات القذرة: ولهذا السبب قضي من قبل الرب بقاء البحر بحركة دائمة، فبتلك الحركة يمكن لعناصره البقاء بدون فساد، لأنه بوساطة الحركة الدائمة يتصفى ويحفظ من الفساد، ولقد قضي من قبل الحكمة الإلهية بهذه الملوحة من أجل أن تتمكن السفن من الابحار فوق مياه البحر بسهولة أكبر، لأن الماء المالح أغلظ وأكثر وزناً من الماء العذب، لأن الماء العذب مصفى ومنقى، وبناء عليه فإن الماء المالح أفضل لحمل السفن، ذلك أن السفن التي لايمكن أن تغرق في المياه المالحة تغرق في الغالب في المياه العذبة، وهذا يمكن البرهنة عليه، بسبب أن البيضة تغرق بالماء العذب، لكنها تطوف في الماء المالح، فضلاً عن هذا، إن في ملوحة البحر خدمات عظيمة لصحة الانسان، لأنه لو كانت مياه البحر قابلة للشرب، لايمكن للناس عبوره أحياء إلا بصعوبة بالغة، لأنه من خلال حرارة الشمس، والتعب في البحر، تجد البحارة دوماً على درجة عالية من العطش، ولو كانت لديهم مياه عذبة للشرب بقدر ما يريدون، فإنهم يدمرون أنفسهم، ولذلك إنه مفيد من أجل الحفاظ على حياة الذين يبحرون فوق سطح البحر، أن تكون مياه البحر مالحة.

ومياه البحر غليظة ومموجة، ولهذا عندما تنضح من البحر، وتُصب فوق صخور، تغطي هذه الصخور على الفور بالملح بسبب حرارة الشمس، ومن طبيعة ملوحة البحر هذه اشتق اسمه، وصار يدعى باسم البحر (Mare)، وذلك بسبب مرارته (Amaritudo)، وقد ورد ذكر

هذا البحر في سفر عاموس: ٨/٥، «اطلبه ... الذي يدعو مياه البحر ويصبها على وجه الأرض، الرب هو اسمه»، وقد علق جيروم (الكتاب السادس ص ٣) كمايلي: «يدعو الرب مياه البحر، عندما يرفعها نحو الأعلى، كما هي مألحة، لكن من خلال حرارة الهواء وبوساطة ذلك تتصفى وتصبح نقية وعذبة من خلال مياه المطر»، وبالنسبة للملوحه البحر انظر «Speculum Naturae» — الكتاب السادس، الفصل التاسع، وتمتلك مياه البحر سمات متباينة، قامت وتكونت وفق مايلي: بما أن الأرض فيها تتجاويف، وبما أن الماء سائل، فإنه يجري نحو الأسفل، ويمر خلال مجار للمياه، حيث يتصفى ويصبح أكثر رقة، ومن ثم يمتلك سمات متباينة من خلال طبيعة الأرض، لأنه يمر من خلال أرض رملية وأخرى صخرية، فيحصل من هناك على طعم العذوية، ويصبح نقياً، ومتماسكاً وبارداً، وإذا ما مرت المياه من خلال أرض ملحية، أو من خلال أرض موحلة، تصبح ذات طعم مقيت، وإذا ما مرت من خلال أماكن كبريتية، أو كلسية، أو نحاسية، تصبح مرة، وإذا ما مرت من بؤر مليئة بالشب والكبريت، تكسب عناصر منهما، فتصبح حارة وذات روائح كريهة، وعلى هذا تملك سمات متباينة تبعاً لتباين أنواع الأرض، التي تنبع منها، كما أن ألوانها تتغير تبعاً لتباين أنواع الرياح، فتجدها في وقت من الأوقات صفراء، وفي وقت آخر بيضاء، ثم في وقت بعد ذلك سوداء، وساعة موحلة، وساعة أخرى داكنة، وساعة صافية، ومرة أخرى سميكة غير صافية، وأحياناً لونها ذهبي، وفي حين آخر لونها مائل إلى الاحمرار، فأى لون من الممكن رؤيته في السماء يمكن رؤيته في البحر أيضاً، وعلى كل حال تبدو بعض المياه للذي ينظر إلى نوعين من المياه مع بعضهما ويقارن بينهما أنها في الغالب مختلفين، وفي كثير من الأحيان قد تبدو السماء صاحبة ومشركة ومع هذا يبدو منظر المياه أسود مثل الفحم، ويحدث هذا لأن المياه تأخذ لونها أحياناً من الرياح الهابطة، وأحياناً من أشعة قبة السماء.

المخاطر المتنوعة التي تواجه الذين يرحلون بوساطة البحر

تخضع الرحلة بوساطة البحر إلى كثير من المضاعف، والبحر نفسه عظيم الإيذاء إلى الذين لم يعتادوا عليه، وهو خطير جدا في كثير من الجوانب، من ذلك إنه يلقي الرعب في النفس، ويسبب الصداع، ويثير الغثيان وعدم استقرار المعدة والدوار ويدمر القابلية للطعام والشراب، ويعمل بشكل مرهق على جسد الإنسان، ويثير الانفعالات، ويتبع كثيرا من الشرور الغريبة، وهو يسبب كثيرا من المخاوف القاتلة، وغالبا مايقود الناس إلى حالات موت مرعبة، وأعظم مخاطره اربابا هي أن العاقل يكون أكثر الناس خوفا منه، في حين ينظر الأحمق إليه نظرة استخفاف، وبناء عليه عندما كان الفيلسوف العظيم أرسطيبوز Aris- tippus في عاصفة في البحر، يعاني من الدوار، وغثيان في المعدة، وأثقل بالصداع، بات خائفا من أجل حياته، وعندما عاد الهدوء، ورجعت الأمور طيبة كما كانت من قبل، جاء انسان ثرثار، وقال للفيلسوف: «ماهو السبب في أننا نحن الأناس العاديون شجعان، وأنتم الفلاسفة مرعوبون؟» فأجابه: «لأننا لانمتلك نوع الحياة نفسها حتى نعتني بها، وسيكون أمرا استثنائيا بالنسبة لك أن تهتم أو تعتني بحياة واحد بلاشعور أو اهتمام مثلك، لكن عندما أكون أنا في خطر، تجدني محقا حين أخاف على الفيلسوف من الموت، لأن الرجل الغني يخاف من اللصوص أكثر من المعدم، ذلك أنني أحمل في ذاتي روحا مليئة بالفضائل، ولهذا إنه مسوغ بالنسبة لي في أن أخاف من أكثر اللصوص براعة، ومن أعظم قطاع الطرق والسارقين خطورة ووحشية، وهو البحر».

ولايمكن البرهنة على هذه المخاطر البحرية المتقدمة الذكر من قبل انسان عرفها من خلال القراءة في الكتب، أو من خلال الاصغاء إلى الرحالة، مثلما يفعل ذلك انسان عرفها من خلال المشاعر التي كسبها

بخبرته، وانظر في الالهيات، الاصحاح: ٣/ ٥/ ٢٦ (٢٤) قوله: «الذين يبحرون على ظهر البحر يتحدثون عن المخاطر فيه، وعندما نسمع ذلك بأذاننا يتولانا العجب نحو ذلك»، وكقاعدة يعاني الذين يعبرون البحر من مخاطر، سببها إما البحر، أو الرياح، أو السفينة، وهناك على كل حال مخاطر خاصة لا يمكن تعدادها، تتأتى اما من وضع الإنسان الخاص، أو من رفقة السوء، أو من الحاجة إلى الشراب، أو من رجال القيادة السيئين، أو من الحرارة الزائدة جداً، أو من البرد القارص، أو من سوء التجهيزات وما شابه ذلك، وفي الحقيقة هناك مخاطر لو أردت ذكرها جميعاً، وحاولت ذلك، لأعوزتني الكلمات ولعجزت عن ذلك نحوها جميعاً، ولهذا سوف أتحدث بعض الشيء حول المخاطر العامة للبحر، أما المخاطر الخاصة فسوف أتحدث عنها خلال مجرى حديثي، وقد وصفت بعض هذه المخاطر إلى حد ما في الرواية التي قدمتها عن حجي الأول.

ويصدر الخطر الأول الذي يقع فيه البحارة عن البحر، لأن البحر إذا كان غليظاً مليئاً بالصخور والتتوءات، كما هو الحال بين الجزر التي اسمها سيكلاد Cyclades وفي بحر أثينا، وخارج ساحل إيليريا -Ilyria ودلماشيا، فهو في مثل هذه الحال لا يمكن عبوره من دون رعب، ففي تلك الأجزاء من غير الممكن الإبحار في الليل بسبب الصخور والرؤوس والتتوءات، وخاف من هذا الخطر البحارة الذين حملوا القديس بولص، وذلك حسبما نقرأ في أعمال الرسل: ٢٧/ ٢٩، وغالبا ما وجدت أنا شخصياً في هذا الخطر، أو ثانية إذا كان قعر البحر ليس مستوياً، بل هو مرتفع في أحد الأماكن بأكوام من الرمل، أو هو عميق جداً مثل الهاوية في مكان آخر، أو هو في جميع الأحوال غير مستوي، فيه حفر عميقة ووديان، ففي مثل هذه الأماكن من الصعب بالنسبة للسفن العبور، لأنه مع أن البحر يبدو مستوياً في كل مكان (حيث يسمى في بعض الأحيان باللاتينية aequos) عندما تصل السفينة إلى مكان غير

مستو، تتوقف قليلاً، ومالم تكن هناك ريح لتدفعها كي تتابع سيرها، سيكون من الصعب تحريكها ونقلها من هناك، وقد تعلمت هذا بالتجربة والخبرة كما وضح في ص ١١٦.

وثانياً: إنهم يعانون من رعب الريح، ذلك أن أي ريح لطيفة تحول البحر إلى بحر غير هادئ، وعاصف، وقاس، يفور ويمور، ولهذا السبب، غالباً ما أطلق على البحر اسم Fretuem باللاتينية، وخطر أن يقلع الإنسان في بحر عاصف، وغائم، ورطب، ومظلم الأنواء، خاصة عندما توضع السفينة في خطر، والخطر (لا) يمكن رؤيته، والذي هو أكثر أرباباً وخطراً هو الريح العنيفة جداً، ولاسيما عندما تكون الرياح مضادة، وتهب بشكل مفاجئ، فعندها يصبح جنوح السفينة وغرقها مرعب حقاً، وهذا الخطر عام، ووقعت فيه شخصياً مراراً.

وينشأ الخطر الثالث عن ضعف السفينة نفسها، وعدم كفايتها، لأنه ليس من الأمان أن يعهد الإنسان بنفسه إلى سفينة صغيرة جداً، أو هي ضعيفة، أو محطمة أو قديمة، لأن مثل هذا النوع من المراكب ليس أميناً أثناء حركة العاصفة، لأنها أما أن يتم قهرها بالأمواج بسبب صغر حجمها، فتقلب، أو أنها تتحطم بسبب ضعفها، ويكون ذلك بقوة الرياح والأمواج، وفي بعض الأحيان يحدث من خلال الحاجة إلى قائد بارع أن المركب يستهلك وقتاً أكثر مما ينبغي حتى يصل إلى المرفأ المنشود، وعلى هذا من الممكن إضافة عامل رعب رابع عام إلى اللائحة، وهو الرعب الذي ينشأ عن جهل، أو كسل، أو إهمال، أو نوم قباطنة السفن، وهذا أيضاً قد جربته.

وإنه لمرعب رؤية المخاطر وأنت هناك تنتقل من الغليون إلى قارب صغير وقت هبوبها، أو وقد انتقلت من الغليون إلى قارب صغير، ووقتها على الإنسان أن يعمل خطوة واحدة أو أن يقفز قفزة، وإذا حدث ولم تصل قدم الإنسان إلى الغليون أو القارب، فلا بد من أن

يسقط في البحر، ويهلك دون أمل بالحصول على عون، انظر ص ٢٨١ .

زد على هذا هناك خطر آخر، لا يخطر على بال غير المجرب أبداً، كما أنه غير موجود في كتب الكتاب الذين تحدثوا عن مخاطر البحر، وهذا الخطر مزعج جداً، مع أنه لا يسبب الرعب، فعندما تكون الرياح جميعها هادئة، والبحر صامت ساكن، والهدوء موجود في كل مكان، أصرح قائلاً: الحقيقة أن هذا النوع من هدوء البحر وسكون الريح هو أكثر ازعاجاً للمسافرين في البحر من المخاوف المتقدمة الذكر، وذلك باستثناء غرق السفينة الفعلي، لأنه عندما لا تهب الرياح، ويكون البحر بلا حركة، والسفينة واقفة ثابتة في مكانها، وقتها يكون كل شيء على ظهر السفينة قد صار عفناً، ومنتناً، ومتجمداً، وتبدأ المياه بالتحول إلى آسنة، وتغدو الحمرة غير قابلة للشرب، وتصبح اللحوم، حتى وإن كانت جافة ومدخنة، مليئة بالدود، التي تغدو كلها حية بشكل مفاجيء، ويصير هناك أعداد لا تحصى من الذباب، والبعوض، والقمل، والبراغيث، والديدان، والفئران، والجرادين، فضلاً عن هذا يصير الناس جميعاً على ظهر السفينة كسالى، نائمين، ومنزعجين من الحرارة، ويشعرون بالنكد من المعاناة الشريفة بالمينالوخيا، والغضب، والاثارة والاضطراب مع الآخرين كمن فقد السيطرة على نفسه، ولقد رأيت قليلاً من الناس يموتون على ظهر السفينة أثناء العواصف، غير أنني رأيت عدداً أكبر يمرضون ويموتون في أوقات السكون المتقدمة الذكر، وهذا كله سوف يرد ذكره في سياق قصتي.

وهناك مخاوف في البحر تعرف باسم الانحلال من عنف الأمواج، أو باسم Syrtis أو Charybdis، والانحلال يكون عندما يندفع بحران مع بعضهما، فذلك الاندفاع يعرض السفينة للخطر، و Syrtis هو اسم مكان توجد فيه أكوام من الرمال، وحيث يكون قاع البحر غير مستو، فبذلك يكون الماء في مكان عميقاً، ومجاوراً لما هو غير عميق، أو تتوفر

هناك بعض الصخور الخفية التي من الممكن أن ترتطم السفينة بها، وكانت Charybdis تبعاً لحكايات الشعراء امرأة عجوزا جشعة، ولأنها سرقت ثور هرقل رماها جوف Jove بصاعقة، وألقى بها في البحر، وهي حتى هذا اليوم تطوف خلصة حول قاع البحر جاهدة لسحب السفن العابرة إليها نحو الأسفل، حتى يمكنها سرقتها، حسبما اعتادت فيما مضى، ولهذا السبب فإن الأماكن التي غرقت فيها السفن، وحيث هناك متاهات أعماق خفية، مثل الأماكن الموجودة بين جزر غوزابولس Gozapolis، التي ورد ذكرها في ص ١١٤، قد أطلق عليها اسم Charybdises، ويدعى الخطر نفسه باسم Charybdis، نسبة إلى المرأة القديمة Charybdis التي يعتقد القدماء بأنها أغرقت سفناً في أماكن مثل هذه.

وهناك مصدر رعب آخر، يسميه بعضهم خليج، وهو ما يواجهه البحارة عندما تهب الرياح مندفعة من كهوف وسط الجبال بقوة ترمي بالسفن وتقلبها على جنبها، وهناك مصدر رعب آخر اسمه Grupp، وهذا يحدث عندما تحارب الرياح بعضها ضد بعض، وتتلقى السفينة فيما بينهم الضربات من الجهات المتعاكسة، وهناك خطر آخر من الممكن مواجهته، يطلق عليه اسم Troyp اشتقاقاً من اسم سمكة Troys، التي عندما تعرف بوجود سفينة، تنطلق نحوها من الأعماق، وتخرق السفينة بأنيابها، لأن لها أنياب مثل مثقب النجار بشكلها، ومالم تطرد ويتم إبعادها، يمكنها خرقها، والنفاذ فيها، ومن غير الممكن طرد هذه السمكة وإبعادها عن السفينة إلا بوساطة نظرة انسان لا تعرف الخوف، وبناء على ذلك على الانسان الانحناء من فوق السفينة والنظر بعدم خوف في عيني السمكة، حيث تنظر السمكة إليه في الوقت ذاته وتحقق به بشكل مرعب، وإذا ما ظهرت ملامح الخوف على الرجل الذي ينظر إلى السمكة وبدأ يشيح بناظريه، تقفز السمكة على الفور، وتلتقطه

مباشرة، وتأخذه إلى تحت الماء وتلتهمه، وليكن في هذا كفاية حول المخاوف في البحر.

حول السفينة التي عبر الحجاج البحر بها، والتي اسمها غليون،
وكم كان حجمها كبيراً، ومن أي الأنواع هي

يملك البحر أنواعاً من السفن مختلفة، منها ماهو كبير الحجم، ومنها ماهو متوسط الحجم، ومنها ماهو صغير، وفي البداية لم تكن هناك سوى السفن الصغيرة في البحر، واستمر ذلك حتى أيام ياسون Jason الذي بنى له أرغوس Argus سفينة كبيرة، حيث أبحر هو ورفاقه الأرغونيون Argonauts إلى كولخيس Colchis ، وبنى بعد ذلك أمينودس Aminodes سفناً ذوات ثلاثة مجاذيف من أجل أن يستخدمها الكورنثيون ضد كورسيرا Corcyra، ويحكى أن أول من اخترع السفن هو أثلس Athlas في ليبيا، وهو الذي أبحر في البحر.

وأنوي — على كل حال — أن اتحدث هنا عن نوع السفن التي اعتاد الحجاج على عبور البحر بها إلى الأرض المقدسة، وهو النوع الذي اسمه غليون، وهو اسم أطلق على هذا النوع من المراكب حتى في كتب الشريعة من الكتابات المقدسة، كما أنه موجود في روايات اليهود والمسلمين، والغليون هو نوع من المراكب المتوسطة الحجم العاملة في البحر، وهو ليس النوع الأكبر، وبالوقت نفسه ليس النوع الأصغر، واسم هذا المركب باللاتينية Bireme أو Trireme، وأطلق ايزودورس في كتابه التاسع عشر حول أصول الكلمات Etymologies على هذه السفينة اسم درمون Dorma ، وعلى كل حال أطلق عامة الناس سواء من الألمان أو الطليان عليها اسم غليون، ومنحت هذه السفينة هذا الاسم لأن مقدمتها لها شكل الخوذة (gALEA)، وذلك عندما ينظر إليها من الأمام، ولأنها تواجه الأمواج مثل رجل مسلح، والغليون هو مركب مستطيل الشكل يتحرك بكل من المجاذيف

والأشرعة، والغلايين متشابهة، أو شبه متشابهة بالشكل، غير أنها تختلف من حيث الحجم، لأن بعض الغلايين كبيرة، ويطلق عليها اسم Tri-remes، وبعضها صغير اسمه Biremes كما أن هناك فوارق أكبر، ذلك أن بعض الغلايين هي سفن حرب، وبعضها الآخر سفن حمولة، وذهبت في حجي الأول عبر البحر في Bireme ، وفي حجي الثاني في Trireme، وال Bireme هي سفينة تتحرك بواسطة زوجين وزوجين من المجاذيف، ولكن ال Trireme هي السفينة التي تتحرك بواسطة ثلاثة وثلاثة من المجاذيف، وبالقدر نفسه المحتاج من المجذفين، ويمتلك الغليون الذي عبرت على ظهره في المرة الثانية، ستين مقعداً متصالباً، حيث جلس على كل مقعد ثلاثة من المجذفين مع مجاذيفهم، ولو أن هذا الغليون كان مجهزاً على أن يكون حريباً، يكون فيه أحد الرماة مع قوسه فوق كل مقعد، وذلك مع المجذفين.

وكان طول الغليون ثلاثة وثلاثين ذراعاً، على أساس أن الذراع يساوي مقدار امتداد ذراعي أحد الرجال، وهذا الطول هو مقياس مابين المقدمة والمؤخرة، وعرض الغليون هو سبعة أذرع، وهو المقياس عبر السفينة حيث توجد السارية، هذا وإذا ما أردنا قياس العرض كله، بإزاحة المجاذيف ووضعهم جانباً على كلا الجانبين، فوقتها يكون هذا العرض ثلاثة عشر ذراعاً، أما بالنسبة للارتفاع فإذا قسناه من البئر إلى القبة الموجودة فوق السارية، في القمة المستديرة، فإنه يساوي أكثر من ثمانية عشر ذراعاً.

هذا وإن الغلايين ذات الحجم الواحد متشابهة كثيراً من جميع الجوانب، إلى حد أن انساناً إذا ما انتقل من غليونه إلى ظهر غليون آخر، سيكون من الصعب كثيراً عليه أن يلاحظ أنه صار على ظهر غليون آخر، باستثناء تمييز القباطنة والملاحين الموجودين فوق الغليون، لأنهم مختلفون عن أولئك في غليونه، ذلك أن الغلايين العائدة للبنادقة يشبه

أحدها الآخر مثل تشابه أعشاش السنونو، وقد بنيت هذه الغلايين من أمتن الأخشاب، التي ربطت مع بعضها بعدد كبير من المسامير الملولبة، والسلاسل، والحديد، والجزء الأول والمتقدم من الغليون، الذي اسمه القيدوم، هو حاد حيث يواجه البحر، وله منقار قوي، صنع شبيها برأس التنين إلى حد ما، ذلك أن له فم مفتوح، وكله مصنوع من الحديد، وبه من الممكن ضرب أي سفينة قد يواجهها، ويوجد على جانبي المنقار فتحتين، في خلالهما يمكن لانسان أن يضع رأسه، فمنهما تمر حبال المراسي، ومن خلالهما يمكن سحب المراسي ورفعها، ولا يمكن للبحر أن يمر من خلال هاتين الفتحتين إلا أثناء العواصف العظيمة، ويمتد منقار القيدوم عالياً، ومنه يبدأ جوف السفينة بالامتداد والاستدارة أمام البحر، وللقيدوم شراع خاص به اسمه *dalum* وعليه يطلق بشكل عام اسم *trinketum* ، ويوجد تحته حجرة صغيرة، فيها يجري خزن الحبال والأشرعة، وفيها ينام قبطان القيدوم، الذي له ملاحين خاصين به، وهو يسكن هناك وليس في أي مكان آخر، ويقوم ملاحوه بأعمال ووظائف ذلك الجزء من السفينة، وهذا الجزء أيضاً هو مكان الفقراء التعساء الذين يلتقطهم عبيد القيدوم، ومعلق على جانبي القيدوم مرساتين حديديتين عظيمتين، تلقيان نحو قاع البحر في الوقت المناسب، والمؤخرة الموجودة في النهاية القصوى الأخرى للغليون، ليست حادة في المكان الذي تواجه به البحر، أي ليست مثل القيدوم، كما أنه ليس لها منقار، بل هي عريضة، وهي تنحني من الأعلى نحو الأسفل حتى الماء، وهي أعلى بكثير من القيدوم، ويوجد فوقها بناء يطلقون عليه اسم القلعة، ومعلق منها هناك نحو البحر الدفة، أو عمود الدفة، حيث يوجد فوقها حجرة شبكية، هي للموجه الذي يمسك بيديه ذراع الدفة، وتتألف القلعة من ثلاثة طوابق، يجلس في الأول منها الموجه للدفة، والمسؤول عن البوصلة، وهو الذي يخبر الموجه للدفة عن مؤشرات البوصلة، وهناك أيضاً الذين يتولون مراقبة النجوم والرياح، ويشيرون

إلى الطريق عبر البحر، والطابق الوسط هو الذي فيه قمرة صاحب السفينة وقبطانها، ومعه رفاقه النبلاء، وخدم المائدة، والطابق المنخفض هو المكان الذي تقيم فيه السيدات النيبالات في الليل، وفيه يضع القبطان أمواله وثروته، ولا تتلقى هذه الحجرة النور إلا من خلال فتحة باب جانبي موجود في السطح فوقه، ويجري على طرفي المؤخرة تعليق القارين، اللذين أحدهما كبير، وثانيهما صغير، ويجري انزالهما في الموانئ إلى سطح البحر، لاستخدامهما في انزال الناس إلى اليابسة، ويوجد على الجهة اليمنى السلام، التي تستخدم للنزول عليها إلى القارين عندما يكونا على سطح البحر، أو يتم الصعود عليهم إلى ظهر المركب، وللمؤخرة شراعها الخاص، وهو أكبر من شراع القيدوم، وهم يطلقون عليه اسم Mezavala أي الشراع الأوسط، واسم هذا الشراع باللاتينية epidromus ، ويرفع العلم دوماً على المؤخرة، لإظهار الاتجاهات التي تهب فيها الرياح، وهناك مقعدين خلف البيت على المؤخرة، وذلك على الجهة اليمنى، فهناك مكان المطبخ، وهو غير مغطى، ويوجد تحت المطبخ مخزن الأطعمة، ويوجد أيضاً إلى جانب المطبخ الاصطبل المعمول من أجل حيوانات الذبح، وعليه يوجد فيه أغنام، وماعز، وعجول، وثيران، وأبقار، وخنازير كلها واقفة مع بعضها، وبعيد ذلك، يوجد على الجانب نفسه مقاعد متصلة عليها مجاذيف وهي ممتدة حتى القيدوم، ويوجد على الجانب الأيسر مقاعد مجذفين، وذلك طوال الطريق من المؤخرة حتى القيدوم، وهناك فوق كل مقعد ثلاثة مجذفين مع رامي للقوس، ومعلق بين مقعدين على حافة السفينة على كل طرف من الطرفين bombardarda بوصلة حديدية متحركة، كما ويوجد على كلا الطرفين bombardana ، منها يجري في أوقات الضرورة رمي الحجارة.

وتقف في وسط السفينة السارية، التي هي طويلة، وسميكة، وشجرة

قوية معمولة من عدد من الجذوع، مربوطة مع بعضها، وهي تدعم العارضة بال accaton أو بالشرع الرئيسي، ويوجد على رأس السارية حجرة يطلق عليها الألمان اسم «السلة»، والطيّان «القبّة»، وهي باللاتينية carceria، وعلى ظهر المركب، هناك إلى جانب السارية مكان مكشوف، يجتمع الناس فيه للتحادث، مثل ساحة سوق عائدة للغليون، ويتألف الشرع الرئيسي من ثلاث وخمسين قطعة قماش، طول كل قطعة أكثر من ذراع، ومن أجل مواجهة مختلف أنواع الأنواء يجري رفع أنواع متعددة من الأشرعة، إنما ليست بسعة ال occaton، ويسكن فوق ظهر الغليون ضباط الغليون، وعبيد الغليون، حيث يجلس كل إنسان فوق مقعده، وهناك ينامون، ويأكلون ويعملون، ويوجد بين المقاعد على كل طرف من الطرفين فسحة واسعة إلى حد ما، يقوم عليها صناديق كبيرة مليئة بالسلع والبضائع، ويوجد فوق هذه الصناديق طريق يصل ما بين القيدوم والمؤخرة، يسعى عليه الضباط صعوداً ونزولاً أثناء عمل المجاذيف، وبجوار السارية توجد الفتحة الرئيسية للباب نحو الأسفل، حيث ينزل الإنسان سبع درجات إلى القمرة، التي هي المكان الذي يعيش فيه الحجاج، أو حيث توضع حمولات وبضائع الغليون، وتمتد هذه القمرة طولياً من غرفة المخزن في المؤخرة إلى الحجرة الصغيرة الموجودة في القيدوم، وأما من حيث العرض فهو من الطرف الأول للسفينة إلى الطرف الثاني، وبذلك تشكل المساحة مكاناً كبيراً وغرفة واسعة، وهي لا تتلقى إنارة إلا ما يأتي من خلال فتحات النزول الأربعة، ويمتلك كل حاج في هذه القمرة مخدعه الخاص أو مكان نومه، وجرى ترتيب المخادع بحيث غطت كل السفينة، أو بالحري القمرة، وكل مخدع هو ملاصق للآخر من دون أية فسحة فيما بينهما، ويضطجع كل حاج إلى جانب الآخر، على طرفي السفينة، وقداً كل واحد منهما ممتدة نحو قدمي الآخر، وفي المكان الذي تكون القمرة فيه عريضة، وضعت صناديق الحجاج وحقائبهم فيما بين المخادع، وهي ممتدة من

غرفة المخزن حتى الحجرة الموجودة في القيدوم، وفيها يحفظ الحجاج حاجياتهم الخاصة، وتمتد أقدام النائمين من على الجانبين حتى هذه الصناديق، ويوجد تحت الحجاج فسحة واسعة، تصل حتى قعر الغليون، ويطلق على هذه الفسحة اسم معدة الغليون، لأن قعر الغليون ليس مستوياً، مثل السفن الأخرى، لكنه حاد من الدفة حتى المؤخرة، وبناء عليه ينتهي الغليون بالأسفل بقدم حادة، وهي حادة إلى حد أنه عندما يكون الغليون خارج الماء، لا يمكنه الوقوف قائماً فوق الأرض، بل لابد من أن يميل على أحد جانبيه، ويجري تعبئة هذا الفراغ الحاد بالرمل، حتى دعائمات ظهر السفينة، ويدفنون في الرمال الزجاجات التي يحفظون فيها الخمرة، والبيض والأشياء الأخرى التي تحتاج إلى البقاء باردة، ويوجد في الأسفل حيث يعيش الحجاج بئر من أجل الماء الآسن، وهو موجود إلى جانب وسط السارية، ولا يحتوي هذا البئر على القاذورات البشرية، بل يحتوي على جميع المياه المريئة وغير المريئة التي تدخل إلى الغليون وتتسرب إليه، وتتجمع بعد ذلك في ذلك البئر، وهي ذات رائحة مقبحة، وهذه الرائحة الصادرة عنها أبشع من أية روائح صادرة عن الغائط البشري، ويتوجب نضح مياه هذا البئر كل يوم، ولكن في الأنواء القاسية يجري تصريف المياه منه بدون توقف، ويوجد على طرفي الغليون أماكن أعدت للمقاصد الضرورية.

والغليون كله مغطى من الداخل ومن الخارج ومطلي بأشد أنواع الاسفلت سواداً، ويفعل مثل ذلك بالحبال لابل حتى بالألواح الخشبية، وبكل شيء آخر، من أجل الحيلولة دون الاهتراء بالماء، وتحتل الحبال التي هي من أجل عمل الأشرعة والمراسي حيزاً كبيراً في الغليون، وذلك لكثرتهم، ولطولهم، وغلظتهم، ولكثرة أنواعهم، ومن المثير للدهشة النظر إلى حشد الحبال وربطاتهم، ولفهم من حول المركب، ويشبه الغليون الدير، لأن مكان الصلاة موجود على الظهر إلى جانب

السارية، وذلك حيث يوجد مكان السوق، ويشغل المكان الوسط من المؤخرة مكان المائدة العامة، ومقاعد عبيد الغليون، ومخادع الحجاج مكان مهجع النوم، ومكان القداس موجود أمام المطبخ، والسجون موجودة تحت المقدمة والمؤخرة، والمخزن، والمطبخ، والاسطبل كلها أماكن مفتوحة نحو السماء، وذلك فوق ظهر المركب، وهكذا بمرورنا بأشياء كثيرة، تملكنا صورة للغليون.

وقارن القديس جيروم في رسالته إلى الرجل المريض العالم بالبحر، والدير بالسفينة، وكذلك الأوضاع الأخلاقية والخلقية هناك، وقد أوضح كيف أن البحر يشبه العالم، لأنه بطبيعته غير مستقر، وهو صاخب من دون ربح، تأثر حتى في وقت الهدوء، حاد وفيه أمواج مرعبة، وهو حتى عندما لا يؤذي الذين لا يعومون فوقه، فإن سعته، حتى عندما لا يؤذي، تقذف الرعب في القلب، ويعاني الذين يبجلون فوقه دوماً من الرعب، ومن تضارب الأمواج وهياجها، ومع ذلك قد ينشر الموجه للسفينة بعد هياجها جميع الأشعة من دون خوف، وفي العالم مثلما هي الحال في البحر، الإزدهار نادر، والفوضى عامة، وكلاهما مليئين بالمنغصات وبالرعب، والانزعاج أيضاً، ليس معدوماً، والملجأ الأمين الوحيد هو الموت.

النظام الذي يدار الغليون به

جرى إعداد نظام السفينة بدقة متناهية مثل بقية الأنظمة، ولهذا السبب استقى أرسطو مع الكتاب الآخرين حول السياسة أمثلتهم من أنظمة الملاحة، واستقوا شواهد منها، كما هو في نهاية الكتاب الأول من كتاب «الأخلاق»، لأنه في السفينة أكثر من أي مكان آخر يوجد في مكان الجماعة العام الموضع الذي يضم جميع الشعوب الأخرى، لأنه بدون من غير الممكن وجود أي مملكة، أو مدينة، أو قرية، وهو الأول بين الجميع، هذا ويضم البيت الكامل ثلاث جماعات هي: الزوج

والزوجة، أو السيد والخدام، أو الأب والابن، ولا يحتوي البيت في السفينة على الجماعة الأولى من هؤلاء، والجماعة الثانية موجودة فيه بالتمام والكمال، وهو يحتوي على بعض الشبه مع الثالث، حيث يوجد فيه السيد والقبطان، مع كثير من الخدم، والسيد هو مثل الأب، وهو الحامي للحجاج، الذين هم بمثابة أولاده، وحدد أرسطو في الكتاب الأول من كتاب «السياسة» الأشكال الثلاثة من أحكام هذه البيوت، ففي البيت الأول الحكم للزوج على زوجته، وهذا ثانية موجود في السفينة، الذي معناه أنه بالوسائل العامة يمكن لجماعة البيت الاستمرار، لكن ما من أحد يحاول الإبقاء على جماعة السفينة، بل يسعى إلى فضها في لحظة الوصول إلى المرفأ المرغوب، والثاني هو نظام أحكام الأبوة، أي حيث يحكم الأب أولاده، وهذه الصلة قائمة فيما بين القبطان والحجاج، بقدر ماتقتضي الطاعة، حيث يرى الحجاج أن من واجبه إطاعة القبطان، والثالث هو نظام التسلط الطغياني، حيث القبطان الذي هو المحرك الأول والمعلم، يتولى تعيين الوظائف والأوامر بالنسبة للآخرين، ويحدد لهم درجات السلطة لأحدهم فوق الآخر، ويبقى هو ثابتاً لا يتحرك مثل الملك أو الحاكم، الذي تنفذ السفينة أوامره مهما كانت، وهو لا يتدخل بفن الملاحة، كما أنه لا يفهم هذا الفن، بل الذي يقوم به هو مجرد إعطاء الأوامر إلى السفينة لتبحر إلى هنا أو إلى هناك، ويقف جميع الذين في السفينة مرعوبين منه، ويحال كل خصام شديد بين الحجاج أو بين طاقم الملاحين إليه، ومامن أحد يجري تعيينه قبطاناً لغليون، خاصة الغليون الذي يحمل فرساناً حجاجاً، مالم يكن نبيلًا، وقويًا، وغنيًا، وحكيماً، وشريفاً، وعندما يجري تعيينه، يصطحب معه بعض الأصدقاء، الحكماء، والمجربين، حيث معهم يتشاور، وإليهم ييوح بأسرار أفكاره، فضلاً عن ذلك، كان يتولى اختيار واستئجار أحد الرجال الشجعان ممن لديه امكانات قتالية، وله خبرة في الحروب البحرية، فيعيّنه قائداً حريباً، أو كما يقولون «معلماً للسلاح»، ويزود

الغليون بالمدافع، والمجانيق، والقسي، والرماح، والعصي، والسيوف، والدروع، والترسة، ولدى القبطان أيضاً حاجب، يتولى توفير كل شيء له علاقة بالأطعمة، وهم يطلقون عليه اسم Schalk، وهو يتولى إدارة مخزن الأطعمة والمطبخ، ويراقب أمور الخبز والخمرة، والحيوانات المعدة للذبح، ويصدر كل يوم الأوامر إلى الطهارة، وإلى صاحب مخزن الأطعمة بأن يقوموا بكذا وكذا من الترتيبات المتعلقة بالطعام والشراب، وإذا ما حدث نقص بالطعام أو الشراب، فتلك لن تكون سوى غلطته، وهو وحده يتحمل المسؤولية عن ذلك، ولهذا السبب نجد أن الـ Schalk مكروهين بالعادة على ظهر السفينة، فضلاً عن هذا للقبطان موظف آخر قوي، يسمونه الخليفة، فهو الذي يتولى حكم الغليون، والنظر في جميع أجزائه، فيرى هل هناك أي شيء غلط، أو أي جزء منه محطم، أو أي شيء يعيق إبحاره، فهو الذي يتولى ترتيب البضائع، ويتولى اصلاح أو ترميم مافسد، ويرعى شؤون الغليون من بثره إلى رأس ساريته، وذلك من قيدومه حتى مؤخرته، وهناك موظف قوي آخر للسفينة يسمى القرصان Pirate، ونفترض نحن الألمان أن اسمه يعني المرشد Pilot، فهو يعرف أكثر الدروب سلامة وأقصرها عبر البحر، وتأخذ السفينة طريقها وتتوجه وفقاً لأوامره أو نصائحه، وإذا ما وصل إلى مكان في البحر غير عارف به، يأمرهم بالرسو في أقرب ميناء، وهناك يتخلى عن عمله، في حين يقوم القبطان باستئجار مرشد آخر، يعرف ممرات البحر، وذلك خشية أن تتواجه السفينة من خلال الجهل مع charYbdi أو Bythallassium syrtis.

ويكون مع المرشد نفسه، بعض الرجال البارعين، والفلكيين، والمنجمين، الذين يتولون مراقبة علامات النجوم والسماء، ويقررون أي نوع من الرياح سوف تهب، ويقدمون المشورة إلى المرشد نفسه، وهؤلاء الرجال كلهم مثل بعضهم على دراية واسعة بفنهم، إلى حد أنهم

بنظرهم إلى السماء يمكنهم أن يخبروا سلفاً هل ستكون هناك عاصفة أم هدوء، ذلك أنهم يستطيعون قراءة الشارات في لون البحر، وفي تجمع الدلافين مع بعضها مع حركتها وكذلك الأسماك الطائرة، وفي دخان النار، وفي رائحة الماء الأسن، وفي بريق الحبال والكابلات في الليل، وفي لمعان المجاذيف لدى غطسها في البحر، ويعرفون في الليل جميع الساعات بالنظر إلى النجوم، ولديهم إلى جانب السارية بوصلة، وبوصلة أخرى في الحجرة العليا للقلعة، وإلى جانبها مصباح مشتعل بشكل دائم طوال الليل، وهم لا يزيحون أعينهم عن المصباح لدى إبحارهم أثناء الليل، بل يتوجب على أحدهم التحديق بالبوصلة بشكل دائم، والغناء بنوع من الأغنيات الحلوة، تظهر أن كل شيء يسير على مايرام، ويغني باللحن نفسه إلى الذي يمسك بعصا الدفة، موضحاً إلى أي اتجاه ينبغي للدفة أن تتحرك، ولا يتجرأ الممسك بالعصا والموجه للسفينة على تحريك الدفة مطلقاً إلا بناء على أوامر الذي يراقب البوصلة، فهو الذي يرى فيما إذا كانت السفينة تسير بشكل مستقيم، أو متخبط، أو جانبي، وانظر حول هذا الموضوع فيما يلي، ولديهم أيضاً أدوات أخرى، يمكنهم بوساطتها معرفة مسارات النجوم، وهبات الرياح والممرات في البحر، من ذلك على سبيل المثال لديهم خريطة، طولها ذراع، وعرضها أيضاً ذراع، عليها جرى رسم البحر كله بآلاف وآلاف الخطوط، ورسمت البلدان وعلمت بنقاط، أما الأميال فبالأرقام، ومن خلال هذه الخارطة يمكنهم معرفة أين هم، حتى عندما لا يمكنهم رؤية أية أرض يابسة، والنجوم أنفسهم مغطاة بالسحب، ويمكنهم اكتشاف ذلك بمد خط منحنى من خط إلى آخر، ومن نقطة إلى أخرى ببذل جهد رائع، ولديهم أيضاً أدوات أخرى كثيرة بوساطتها يجدون طريقهم فوق البحر، وهم يجلسون كل يوم يتباحثون حول ذلك.

ويأتي بعد هذا الموظف الرئيسي للغليون، والذي يتولى القيام بالعمل

الفعلي، والذي يتلقى أولاً أوامر الأبحار ويتسلمها، موظف آخر اسمه cometa وهو وكيل ربان الغليون، ومكانه هو تحت القلعة فيما بين مقاعد المجذفين والطابق الأعلى، وإليه يبوح القبطان برغباته، وبناء على ذلك يقوم هو بتحريك طاقم الملاحين، وهو قد علق حول رقبتة صفارة فضية، بوساطتها يعطي الإشارة للبحارة ليقوموا بالأعمال المتوجب تنفيذها، ويتم سماع هذه الصفارة في كل وقت من النهار والليل، ويستجيب لها على الفور جميع الرجال باصدار صفير جواباً له، ويأمرهم هذا الموظف بالرسو في أحد الموانئ أو بالخروج منه، أو بانزال المراسي أو سحبها، أو بنشر الأشرعة أو طويها، أو بالعمل بوساطة المجاذيف أو بالتوقف عن العمل، أو بتحريك السفينة للتوقف عند الشاطئ في الصباح، أو بانطلاقها، ويخاف الموظفون الذين دونه منه مثلما يخافون من الشيطان، لأنه يضرب بالعصي، ويعاقب كل من أراد بقبضتيه أو بأطراف الحبال، ولا يتجرأ أحد بالتمتمة ضده، لأن الجميع سوف ينهضون ويهاجمون المتمتم عندما تعطى الإشارة اليهم، ولقد رأيت ممارسة أعظم الأعمال الوحشية من قبل هؤلاء والوكلاء على عبيد الغليون المساكين.

ويوجد تحته موظف آخر اسمه البارون، أو عريف الملاحين في الغليون، وهو الذي يُحرّك ويتحرك بوساطة أوامر الوكيل، ويعيش بشكل دائم في وسط الغليون قرب السارية، وهو أيضاً يحمل صفارة علقها حول رقبتة لاصدار الأوامر بها، وحيث لا يوجد وكيل للربان يركض عريف الملاحين وهو يصفر، ويصرخ، ويشجع الرجال على العمل، ومسؤوليته الخاصة هي عن الحبال، والأشرعة، والمراسي، بأن يكونوا دوماً موثمين، وجاهزين للاستخدام، وله امتيازات خاصة وحقوق على ظهر السفينة، ويوجد تحته موظف آخر يعرف باسم «تحت البارون sub parono»، وهو يتلقى أوامره، ويعطيها إلى الآخرين.

ويأتي بعد هذين بعض الرجال الذين اسمهم *compani*، أي الرفاق، وعددهم حوالي التسعة، وبعض هؤلاء يرأسون آخرين في العمل، وهؤلاء الرجال هم الذين يعرفون كيف يعتنون بالخيال مثل السنانير، وهم الذين يتسلقون على القلع بسرعة كبيرة وصولاً حتى الرأس، ويركضون على طول عارضة الشراع، ويقفون منتصبين حتى في أشد العواصف، وهم الذين يرفعون المراسي، ويغطسون عميقاً في الماء، إذا ما التصقت المراسي ولم تتحرك، وهم الذين يتولون القيام بأخطر الأعمال على ظهر السفينة، وهم بشكل عام شباب على درجة عالية من النشاط، وهم لا يعرفون السكون في حياتهم، وهم أيضاً شجعان وأقوياء في الغليون مثل أتباع البارون المسلحين، ومجدداً يوجد تحت هؤلاء آخرين يسمون الملاحين، وهم يغنون أثناء القيام بالعمل، ويكون الغناء بقيام واحد بالغناء بالأوامر الصادرة، ويردد العمال خلفه مغنين متجاوبين معه، ويقف هؤلاء الناس إلى جانب الذين يعملون، ويغنون لهم، ويشجعونهم، ويهددونهم بتوجيه الضربات لهم، وهذه الوسيلة يجري سحب أوزان كبيرة، وهؤلاء بالعادة رجال متقدمين بالسن ومحترمين، ودون الجميع في الغليون العبيد من الطبقة الأولى والطبقة الثانية، وهم الذين نسميهم باللاتينية *remiges* ، أو المجذفين، وهم الذين يجلسون على المقاعد المتصالة للعمل بالمجاديف، ويوجد عدد كبير منهم، وهم جميعاً رجال لهم أحجام كبيرة، ذلك أن عملهم مناسب فقط للحمير، وهم يجرضون على تنفيذ أعمالهم، بالصراخ، والضربات، والشتائم، مثل حال بعض الخيول وهي تتولى جرّ عربات مثقلة بالأحمال صعوداً فوق طريق منحدر، وكلما جروا أكثر وأثقل، كلما جرى تحريضهم أكثر ودفعهم، ولدى قيام هؤلاء التعساء بالجر أكثر يتعرضون للضرب ليجروا بشدة أعظم، ولقد أعيتني الكتابة، وإنني لأرتجف وأنا أفكر بعذاب وعقوبات هؤلاء الناس، ذلك أنني لم أرقط حيوانات تحمّل ضربت بمثل هذه الوحشية التي ضرب هؤلاء بها، وكثيراً

ماأرغموا على ترك قمصانهم وماآذرهم معلقة من أوساطهم، والعمل بظهور عارية وأذرعة وأكتاف، وذلك من أجل أن تصل الأسواط والمقارع إليهم.

والشطر الأعظم من عبيد الغليون هؤلاء، قد شربوا بمثابة رقيق من قبل القبطان، أو أنهم أناس من سوية متدنية، أو سجناء، أو رجال فارين، أو مطرودين من ديارهم، أو منفين، أو تعساء، لايمكنهم العيش أو كسب مورد للعيش على اليابسة، وكلما توفرت خشية من فرارهم كانوا يربطون إلى مقاعدهم بالأغلال، وبشكل عام هم من مقدونية، أو رجال من ألبانيا، أو آخيا، أو إيريا أو سكلافونيا، ويكون في بعض الأحيان بينهم أتراك ومسلمين، يخفون — على كل حال — دينهم.

وأنا لم أرقط عبد غليون ألماني، لأن مامن ألماني يمكنه أن يعيش ويبقى حياً وسط هذه التعاسة، فعييد الغليون قد اعتادوا على تعاستهم، إلى حد أنهم يعملون بضعف شديد وبدون قصد، مالم يقف انسان فوقهم، ويقوم بضربهم مثل الحمير، ويلعنهم، وهم يطعمون بتعاسة متناهية، وتراهم دوماً نائمين على مقاعد تجذيفهم، وهم دوماً في كل من الليل والنهار جاهزين في العراء للعمل، وعندما تكون هناك عاصفة، يقفون في وسط الأمواج، وهم بشكل عام لصوص، ولايوفرون شيئاً يجدونه، مع أنهم يتعرضون مقابل كل جريمة إلى التعذيب الوحشي الذي لا حدود له، وعندما يكونون بدون عمل يجلسون ويلعبون بالورق والنرد من أجل الذهب والفضة، مع أيان لا تحتمل وتجذيفات، وأنا لم أسمع قط مثل هذه الأييان المرعبة التي سمعتها على ظهر المركبين المتقدمي الذكر، لأنهم لا يفعلون شيئاً سواء أكان بادرة خير أو أمانة، من دون تجذيف قدر جداً، وشتم للرب وللقديسين، ويكون بينهم أحياناً بعض التجار المحترمين، الذي أخضعوا أنفسهم لمثل هذه العبودية

القاسية جداً، من أجل إمكانية الترويج لتجاراتهم في الموانئ، وبعضهم ذوي اختصاصات فنية، مثل الخياطة أو صناعة الأحذية، حيث يمكنهم في أوقات الهدوء صناعة أحذية ومآزر، وقمصان على ظهر السفينة، وبعضهم عمال غسيل، يتولون غسل القمصان على ظهر المركب، مقابل أجر.

وفي الحقيقة، بالنسبة لهذا المجال، جميع عبيد الغليون كلهم سواء، فهم جميعاً تجاراً، وكل واحد منهم لديه شيء مالى للبيع موجود تحت مقعده، وهو يعرضه للبيع عندما يكون في أحد الموانئ، والتجارة قائمة يومياً فيما بينهم، فضلاً عن هذا، هم بشكل عام، يعرفون على الأقل ثلاث لغات هي: السكلافونية، والاغريقية، والإيطالية، ويعرف الشطر الأعظم منهم التركية أيضاً، ويوجد حتى بين عبيد الغليون أنظمة ودرجات، ذلك أن بعضهم لديهم سلطة كلفوا بها فوق آخرين، والذين هم محل أعظم ثقة بينهم يوضعون حراساً حول ممرات ومجازات الغليون، ويطلق عليهم اسم «الحراس»، ويتولى بعضهم العمل في قيادة القيدوم، وبعضهم على جهة اليمين، والآخرين على جهة اليسار، ويخدم بعضهم في دفة القيادة، ويعامل هؤلاء بشكل أفضل، ويوجد أيضاً في أغلب الغلايين ثلاثة أو أربعة شباب أقوياء قد تعلموا الركض فوق الحبال، وقد دربوا أنفسهم على الأعمال الأخرى التي تحتاج شجاعة، وإلى جانب عبيد الغليون هناك بعض اختصاصيي المدفعية، وبعض الذين ينفخون بالأبواق، فهؤلاء يزعقون بأبواقهم في الصباح وفي المساء، وقبل الغداء، وبعد الغداء، وفي جميع الموانئ، ويجري استخدام بعضهم في تنظيف الغليون وتزيينه، ويوجد على ظهر الغليون حلاقين على الأقل، هما بالوقت نفسه طبيبان وجراثيحيان، وإلى جانب ذلك هناك معذبون أشرار، هم مثل الذين يفسحون الطريق أمام الحكام، يلقون على الشاطئ ويعذبون كل من يأمرهم القبطان بتعذيبه، وهناك

موظف آخر صاحب سلطات عظيمة في الغليون، يطلقون عليه اسم «الكاتب» أو «المحاسب»، وهو الذي لديه أسماء جميع الأشخاص الذين على ظهر الغليون، قد دونت في كتبه، ويأخذ أسماء الذين يصعدون إلى ظهر الغليون وأسماء الذين يغادرونه في كل ميناء من الموانئ، وهو الذي يتولى فض جميع الخلافات التي تثور حول أماكن النوم، ويجعل الناس يدفعون أجور عبورهم، وعليه واجبات كثيرة، وهو — كقاعدة — مكروه من كل انسان سواء، وأكثر بكثير من جميع موظفي الغليون.

حول العدالة والقضاء ورعايتهما بكل دقة على ظهر الغليون

ومن أجل الحفاظ على السلام بين مثل هذا الحشد من الناس، جرى إفراد مكان خاص من أجل العدالة، ويجري تطبيق عدالة دقيقة فوق الغليون، حيث يوجد على ظهر الغليون قضاة يجلسون في كل يوم — إذا قضت الحاجة — لممارسة أعمال القضاء، حيث يستمعون إلى الطرفين المتخاصمين، ويقررون الأسباب، والإجراءات القضائية دقيقة جداً على ظهر المركب، فضلاً عن هذا إذا ما اختلف بعض الأشخاص حول أي شيء وقع في الغليون، إنهم إذا لم يقوموا بفضه بواسطة قضاء المحكمة البحرية، غير مسموح لهم بالشكوى ضد بعضهم بعضاً في أية محكمة لاتعقد في البحر، كما أنه مامن انسان مجبر على الالتزام بأي عقد أبرم مع آخر، بعد مغادرته السفينة، كما لا يجوز لأي قاض يعمل على اليابسة التدخل بعقود أبرمت في البحر، وإذا ما أقرض انسان رجلاً آخر عشر دوقيات في البحر، وقال الرجل الآخر بعد الذهاب إلى اليابسة بأنه لم يستلمهم مامن قاض يمكنه أن يرغمه على إعادة الدفع، كما لا يمكن الاستماع إلى أي شاهد ضده، وهكذا يقول الملاحون: سواء أكانت الحقيقة هكذا، أو بالفعل كان الأمر كذلك، كل واحد يمكن أن يقرر ذلك حسب هواه، ولهذا السبب روعيت الإجراءات القضائية بدقة، وكانت تتم عقوبة اللصوص، لكن بشكل خفيف، ولايدان أحد

بالإعدام، بل كانت أقسى العقوبات التي تصدر على ظهر السفينة ضد أي واحد اقترف جريمة كبيرة، هي أن يجلد حتى يفقد وعيه، ويضرب على قدميه، وبعد إنزال هذه العقوبة به كان يلقي به على اليابسة في أقرب مكان، ويترك يذهب في سبيله، حيث تبحر السفينة مخلقة إياه، ولقد رأيتهم يتعاملون على هذه الصورة مع لوطي، ويكفي ماقلناه حول هذا الموضوع، ونتابع الآن الحديث عن:

الخدمات الدينية وعن كيفية إقامة القداسات على ظهر الغليون

علينا عدم حذف معرفة كيف يتصرف الذين يذهبون بالبحر نحو الرب، في تأديتهم للقداسات، لأن عليهم في الحقيقة أن لا يكونوا ناسين للرب، في وسط مثل هذه المخاطر والمخاوف، وتجري عباده الرب على ظهر السفينة ثلاث مرات في اليوم، أولاً في الصباح الباكر، عند اشراق الشمس، عندما يقوم واحد من خدم القبطان، يكون واقفاً عالياً فوق رأس القلعة، فيأمر بالصمت بوساطة صافرته، ويرفع بعد ذلك لوحاً من الخشب، مرسوم عليه صورة العذراء المباركة، وهي تحمل طفلاً بذراعيها، ولدى رؤيتها يقوم الجميع بالركوع وقول الـ AVE MARIA وقول صلوات أخرى حسب الاختيار، وما أن يقوم بنقل الصورة وإبعادها حتى يبدأ البواقون بالنفخ بأبواقهم، وعندها يمضي كل انسان إلى عمله.

والمرة الثانية هي في حوالي الساعة الثامنة قبل منتصف النهار، حيث تعطى شارة الصلاة ثانية، ويجري تغطية صندوق قائم على ظهر المركب قرب السارية، بغطاء قماشي جيد، ويتم هناك وضع شمعدانين، وبين الشمعدانين تمثال للصليب، وكتاب للقداس، وكأن القداس على وشك القيام به، ويأتي جميع الحجاج إلى ظهر السفينة ويتحلقون حول السارية، ثم يقدم راهب واضعاً بطرشيلاً حول عنقه، ويبدأ بالـ Confiteor، ومنه يقرأ القداس التالي، ويدع القانون دون أن يقرأه، لأنه لا يكمل،

وبذلك يؤدي القداس من دون تضحية، منهياً إياه بما جاء في الانجيل: «في البدء كانت الكلمة»، ويطلق على هذه القداسات اسم «الجافة» أو «الحارة»، وأنا لا أتذكر أنني قرأت في أي مكان، فيما إذا كانت هذه الطريقة بقرأة القداس قد تأسست على الشريعة القانونية، والذي أعرفه أن بعض العلماء غير راضين عن ذلك، ويقولون بأن قراءة ذلك الجزء من القداس، الذي يجري الغناء به بشكل مكشوف من قبل فريق الأداء هو عمل غير معترض عليه، لكن أن تقرأ ذلك الجزء وأنت لابس البطرشيل مع كل توابعه، وبمهاة كهنوتية، فهذا خداع، وهم ينشدون مثل هذه القداسات، مثل قداسات أيام الأعياد، لكن مقدمة القربان لم تكمل قط على ظهر السفينة.

وقبل أن أقوم بتفحص هذه القضية بشكل دقيق، غالباً ماكنت أصاب بالدهشة تجاه ذلك، وعزوتها إلى إهمال أساقفتنا، الذين كما يبدو لي، أبدوا قليلاً من الاهتمام تجاه خلاص أبناء الكنيسة، وكان ذلك أقل ما ينبغي ومما هو صحيح، خاصة عندما نقرأ أنهم أقاموا قداسات في أيام القديس غريغوري على ظهر السفن، حسبما يمكن رؤية ذلك في حوار الثالث، حيث نقرأ أن بعض الناس الذين كانوا في خطر بالبحر الأدياتيكي شاركوا جزئياً بجسد الرب ودمه، وانظر أيضاً حكاية القديس لويس، ملك فرنسا، ويبدو في الحقيقة الأمر بالنسبة لي أنه يحتوي على شطر كبير من الإهمال من جانب الكنيسة، حيث لم تتخذ إجراءات منذ زمن طويل مضى بالعهد بإدارة القداسات إلى رجال يكونون في وسط مثل هذه المخاوف، وبشكل خاص للحجاج، الذين يتحملون هذه المخاوف من أجل محبة الرب وتشريفه، وبعدها قدرت هذه المسألة بكل عناية، وفكرت بشكل منطقي حولها، وجدت أن كنيسة الأم المقدسة والحكيمة لم ترغب بكمال قداس القربان الأعظم قداسة، وبعدهم مراعاته تماماً على ظهر السفينة، وكان هذا لعدة أسباب،

أولها: أن هذا القداس ليس قداساً ضرورياً، بل فيه كفاية الخلاص
لإنسان امتلك النية بالمشاركة بذلك في وقت مناسب ومكان موئم، هذا
ولا يوجد على ظهر السفينة مكان مناسب، كما سنرى ذلك فيما بعد،
لابل حتى وإن توفر وقت (٤٩ب) الوقت أيضاً في كل حين غير
موئم، وثانياً: لأنه لا يوجد على ظهر السفينة كاهن مناسب تكون
وظيفته الخاصة وواجبه الاحتفال بقداس العشاء الرباني المقدس، وذلك
حسب توجيهات القانون، لأن مامن أحد يعرف إلى أي الأبرشيات
تنتمي السفينة، لذلك جرى حذف ذلك، وثالثاً: من غير الممكن الحفاظ
بشكل جيد على خبز القربان هناك، لأنه الأرغفة المخبوزة بشكل جيد
لا تعيش طويلاً على ظهر السفينة، بل تصبح بعد مضي عدة أيام مليئة
بالماء ومتفتتة مثل التراب، وبناء عليه كم أقل وقتئذ سيقى هناك الخبز
من النوع الأرقى والذي غير مخبوز بشكل جيد؟ ولا يمكن لخبز القربان
أن يبقى في الأنواء الرطبة أكثر من ثلاث ساعات، يذوب بعدها
ويصبح عجينا مائعاً، ويحدث الشيء نفسه للرقائق التي هي غير مناسبة
للاستخدام في الأنواء الرطبة، ورابعاً، من المفترض الاحتفاظ بخبز
القربان في الكنيسة وفي مكان مقدس، ومعلوم أن السفينة ليست كنيسة،
وليست مكاناً مكرساً، كما أنها ليست مكاناً للاقامة الدائمة، وخامساً،
ينبغي أن نبقى إلى جانب قداس القربان مصباحاً مشتعلًا بشكل دائم،
وهذا أمر غير ممكن على ظهر الغليون، لأنه بقوة الرياح، واندفاع
الأمواج، غالباً ما يكون الغليون مغطى بالماء، ولا يمكن الحفاظ على
ضوء مشتعل سواء في مشعل أو مصباح، وسادساً ينبغي عدم إقامة
القداس على ظهر الغلايين مع عدم الاحتفاظ بخبز القربان هناك،
بسبب عدم التأكد من المخاطر التي من الممكن أن تحمل بهم، لأنه فجأة
وبغمضة عين يمكن للعاصفة أن تثور، حيث تسبب تآرجح السفينة
بعنف لدى قدومها، حتى أن الكاهن إذا ما كان واقفاً قرب المذبح،
لا يمكنه المحافظة بالوقوف على قدميه، ولا الكأس أو الصليب، كما أن

المنضده لا يمكن أن تظل في مكانها، بل في لحظة ينقلب كل شيء عاليه سافله، وسابغاً إنه بسبب عنف الرياح، نجد أنها عندما تهب، لا يمكن للضوء أن يبقى مشتعلًا، ولالغطاء المذبح والأغطية الأخرى البقاء، بل سيتم رميها من على المذبح، وثامنا بسبب عدم التيقن من حركة الماء التي تجري الآن إلى هنا ثم بعد ذلك إلى هناك، حتى عندما يكون هناك قليل من الريح، وعندما لا يكون أحداً متوقعاً حركة المياه أو خائفاً منها، نجدها تغطي فجأة الغليون بكميات كبيرة، فتفسد كل شيء تلمسه، وتوسعاً، بسبب الحاجة إلى وقار حقيقي، ذلك أنه لا يوجد على ظهر السفينة مكان لا يعرف الإثارة والاندفاع في بعض الأوقات، فالبحارة في أثناء سعيهم وراء أعمالهم المطلوبة، من غير الممكن ابداء الاحترام إلى الراهب وهو يقوم بأداء القداس، أو إلى القداس نفسه، بل إنه سيقرب كل شيء، ويزيح الكاهن والمذبح، والقربان كلهم سواء، لأن العمل في البحر ينبغي القيام به فجأة، وبسرعة مثل البرق، وهو ضاغط ولا يمكن تأجيله، فضلاً عن هذا، الناس نيام في كل جزء من الغليون، وهم تجدهم يأكلون ويشربون، ويتسامرون ويكذبون ويحلفون أيانا كاذبة، وكل هذا مدمر للوقار الجدير بالقداس، وعاشراً، لا ينبغي الاحتفال بالقداس على ظهر السفينة، بسبب وجود أناس غير أهل بالاحترام، لأنه غالباً ما يكون هناك على ظهر السفينة: يهود، وأتراك، ومسلمين، ومنشقين، وهراطقة، وخارجين على القانون والقضاء، ومحرومين كنسياً، وإذا لم يجتمع هؤلاء الناس غير الجديرين بالاحترام مع بعضهم، ولم يكونوا موجودين جميعاً لابد من وجود بعضهم هناك، حيث بحضورهم لا يجوز الاحتفال بالقداس، وأحد عشر بسبب الذنوب الكبيرة الهائلة التي تقترب على ظهر السفينة، لأن الرجال يلعبون هناك يومياً بالورق والنرد، ويشتمون الرب بشكل مرعب وكذلك القديسين، ويحشون بأيامهم، ويكذبون، وينشلون، ويسرقون، ويأكلون بنهم، ويحشون أنفسهم، ويسكرون، هذا ولقد سمعت مراراً — وأصلي للرب

أن لا يكون ذلك صحيحاً — أن رقيق الغليون الشرقيين، يقترفون الالتم العظيم الذي لا يمكن الحديث عنه، وهو اللواط، على ظهور الغلايين، وبناء عليه ان المكان الذي تقترف فيه مثل هذه الآثام وتمارس غير جدير بأن يؤدي عليه مثل هذه التقدمات والقداسات، وثاني عشر، إن رائحة التبن وقذارة كل من الغليون والرجال الذين على ظهره تجعل المكان غير مناسب، وثالث عشر، ينبغي عدم الاحتفال بالقداس بسبب سخرية الكفار، وعار حضورهم، لأنهم إذا ماسمعوا بأن ربنا كان حاضراً على ظهر السفينة في القربان، حسبما نعتقد في ديانتنا، ومع هذا رأونا ونحن نعيش مذنبين، أو متخاصمين، فهذا لاشك سيجلب عاراً فظيماً، ولسوف يسخرون من القربان الأعظم قداسة، ورابع عشر، بسبب الحمقى من المسيحيين والسيئين منهم، لأنه إذا ما كان القداس قائماً على ظهر الغليون، وهبت عاصفة في البحر، وأصبحت السفينة في حالة خطر، ولم يأت الفرج أو العون على الفور، سيتحول هؤلاء الحمقى من المسيحيين فوراً إلى أعمال النقد ضد القربان المقدس، ولسوف يقولون بقلوبهم، إن لم يكن بشفاهم: «إذا كنت أنت المسيح أنقذ نفسك وأنقذنا»، ولقد رأيت حالة من هذا النوع بعيني، ففي إحدى المرات عندما استمرت العاصفة طويلاً وكانت تزداد عنفاً، قمت أنا وأشخاص من الطوائف المقدسة، وكهنة بالتوجه بأنفسنا نحو الرب، وغنينا ابتهالات، والتمسنا العون من قديسي الرب، لأن العاصفة كانت خطيرة، وبينما هي في ذروتها، قال بعض النبلاء الذين تلقوا الفروسية في القدس، لكنهم كانوا بلا إيمان، بوجوب توقفنا عن الدعاء، لأنهم اعتقدوا أن العاصفة كانت تزداد شدة وحدة بسبب أدعيتنا، وقالوا لدى إيقافهم لغنائنا للمزامير والابتهالات: «لو أن أدعيتكم لاقت أي قبول من الرب، لتم انقاذنا منذ زمن طويل من هذا الخطر»، وبناء عليه، إنه بدون شك لو أن القداس جرى الاحتفال به على ظهر السفينة، لحدث الشيء نفسه، لأن الجهلة وغير المؤمنين من الناس العلمانيين، يخلل إليهم

أنه عندما يكون القربان موجوداً بينهم، مامن شر يمكن أن يلحق بهم، وإذا مالق بهم أي شيء من هذا القبيل سوف يعزونه لحضوره.

فهكذا فعل بنو اسرائيل، عندما أخذوا تابوه الرب وحملوه إلى المعركة معهم، معتقدين أنهم بذلك لن يلحقهم أي شر أو أذى على أيدي أعدائهم، لكن على الرغم من ذلك، تعرضوا للهزيمة، وسلب تابوه الرب وذلك حسبا ورد الخبر في الاصحاح الرابع من سفر الملوك الأول، لأن التعامل بدون احترام أو وقار وحمل الأشياء المقدسة يثير غضب الرب، أكثر من التعامل معهم بتواضع وأدب، ومثل هذا نجد بعض الفلاحين يجعلون مساعدي الخوارنة لديهم يحملون القربان إلى حقولهم وخلالها، من أجل أن لايجري تدمير محاصيلهم بهطولات البرد، وإذا ماجاءت المحاصيل جيدة تراهم غير شاكرين، لكن إذا جاءت سيئة تراهم ناكرين، ويتمتمون ضد الرب.

والسبب الخامس عشر الذي يدعو إلى عدم القيام بالقداس على ظهر السفينة، هو بسبب سهولة تقيؤ الناس هناك وحدوث ذلك بشكل مفاجيء، لأنه لو ثارت عاصفة مباشرة بعد انتهاء الكاهن من الاحتفال بالقداس، سيكون مرغماً بفعل قوة الطبيعة على التقيؤ بالقربان، حيث لايمكنه الاحتفاظ به، وهذا أمر من المرعب الحديث عنه، وبناء عليه، ينبغي التوقف عن أداء هذا القداس في البحر، لأنه يتعارض مع التقوى.

والمرة الثالثة التي يحمد الناس فيها الرب على ظهر الغليون، هي عند غياب الشمس، فوقتها يجتمعون كلهم حول السارية الرئيسية، حيث مكان الاجتماع على ظهر الغليون، فهناك يجثون على ركبهم ويغنون Salve, Regina، ويقدمون لذلك بابتهالات، عندما يكونون في أوضاع صعبة جداً، وبعد الـ Salve يطلق حاجب القبطان دعوة بصافرته، ويقف على الفور على القيدوم، ويتمنى لكل واحد ليلة سعيدة

باسم سيده، ويقوم ثانية كما في الصباح بعرض صورة العذراء المباركة، التي لدى رؤيتها يغني الجميع Ave maria ويرددون ذلك ثلاث مرات، كما جرت العادة بفعل ذلك على الشاطئ بناء على صوت الناقوس، وبعد الفراغ من هذا ينزل الحجاج إلى القمرة إلى أماكن نومهم.

وبعد نزول الحجاج إلى الأسفل، يقف محاسب الغليون على القلعة، ويبدأ ترنيمة طويلة باللغة الإيطالية الجارية، ثم يصلها بابتهاج، يرددها معه جميع رقيق الغليون وموظفيه، وهم جاثين على ركبهم، وهم يستخدمون كلمات كثيرة، وتأخذ صلاتهم هذه حوالي الربع ساعة، وغالباً ما كانت حاضراً أثناء هذه الصلاة، وكان في النهاية يرجو كل واحد ليقول pater, Noster وكذلك Ave maria من أجل رוחي والدي القديس يوليان، وهم يفعلون ذلك كل ليلة، ولم يتخلوا عنه قط، فضلاً عن هذا تقصيت لماذا توجب القيام بالصلاة من أجل رוחي والدي القديس يوليان، لأن هذه الصلاة تقدم كل مساء على ظهر السفينة، وتلقيت لهذا السؤال جواباً مزدوجاً، فأخبرني بعضهم بأن هذه الصلاة كانت تقدم مديحاً لسمعان المجذوم وشكراً له، فهو قد كان اسمه أولاً يوليان، وهو قد تلقى بأريحية ربنا، ولقد قيل إنه من أجل وساطته حتى يصل الملاحون إلى ميناء جيد، وأن يستقبلوا بأريحية، يفعلون ذلك، وأجبت على هذا بأن الصلاة لم تصنع لشكر هذا القديس، بل من أجل رוחي والدي القديس يوليان وتساءلت: ولو أنهم توجهوا بالصلاة من أجل الاستقبال بأريحية، لماذا بالحري لم يتوجهوا بالصلاة إلى مرثا المباركة التي استقبلت ربنا بأريحية خاصة؟ ولم يمكنهم الإجابة على هذا، وقال آخرون بأنهم عملوا هذه الصلاة من أجل والدي القديس يوليان، الذي عنه نقرأ في «Speculum Nat- crae of vincentius» الجزء الثاني — الكتاب العاشر، الفصل

١٥ — الذي عندما كان شاباً، وفي حالة الجهالة قتل أباه وأمه في فراشهما، حيث تصور بأن أمه كانت زوجته، وأن أباه كان يمارس الزنا معها، فهذا مانقرأه هناك، لكن كيف تأسست هذه العادة مامن أحد يعرف، وعلى هذا كان ماتقدم هو المتعلق باستخدام القداس الديني في البحر، إنما بالإضافة إلى ذلك، هناك كثيراً من الأدعية يتلوها الحجاج في الليل والنهار.

وما أن يصلوا إلى أي ميناء حتى تراهم يركضون جميعاً إلى الكنيسة بتقوى متناهية لسماع القداس، أما مايتعلق بالاحتفال بأيام الآحاد، وأيام القديسين في البحر، فإنهم يراعون ذلك بشكل مخجل جداً، وأنا لأشك بأن الشيطان يبذل جهوداً مضنية بالقاء الميعقات في سبيل الحفاظ على أيام الأعياد المقدسة، ولقد لاحظت مراراً، أنه في أيام العيد المهيبة، يكون هناك دوماً فوضى واضطراب على ظهر السفينة، أكثر من أي يوم معتاد، وفي بعض الأحيان، عندما نكون قد توقفنا في أحد الموانئ لمدة أربعة أيام أو خمسة، ما أن يحل مساء يوم السبت حتى نصبح جاهزين للاقلاع، ولإبحارنا ليلاً، يبات من غير الممكن إقامة قداس في يوم الأحد، ولقد حدث هذا على ظهر السفينة التي أبحرت بها مراراً، وكأنه صنع عن قصد، وفي الحقيقة، كلما كان اليوم أكثر قداسة، يكون العمل في البحر أشد قسوة، وهذا مايمكن رؤيته في سياق حكايتي، وكان من عادتي على ظهر السفينة الوعظ بقداس في الأيام المقدسة، لكنني سوف أتحدث باختصار عما وقع لي في هذا العمل التقوي.

ففي أثناء حجي الأول، وعندما كنت أقوم بالوعظ، قام واحد من أبناء الشيطان بمقاطعة كلمة الرب عدة مرات يضحكه، ولم يمكن ابقائه هادئاً لا بالكلام الحسن ولا بالضرب، لابل ازداد ضحكاً، وماكان مني إلا أن حافظت على هدوئي، ولم أقم بعد هذا بالوعظ بكلمة الرب، مع أن كثيرين رجوني فعل ذلك، لأن الرجل العاقل قد قال في الإلهيات:

٦/٣٢: «لاتنفوه بالكلام حيث ليس هناك من يسمع»، وقال ربنا في متى: ٦/٧: «لاتعطوا القدس للكلاب، ولا تطرحوا درركم قدام الخنازير»، وكان —على كل حال— في حجي الثاني على ظهر السفينة رجال أكثر نبالة واحتراما، وكانوا رفقة جيدين، وقد اعتادوا على الطلب مني الوعظ بكلمة الرب لهم، الأمر الذي قمت به في جميع الأيام المقدسة، ومع هذا نلت بوعظي عدم رضا كثير من النبلاء، الذين اعتقدوا بأنني قد وصمتهم واتخذتهم أثناء وعظي أمثلة لاقتراف بعض الآثام، ذلك أنه مثلما يفعل الخنوع فيعطي بعض الأصدقاء، كذلك تفعل الحقيقة فتجني الكراهية.

ودفن الموتى هو أيضاً جزء من الخدمات الدينية، وكان يمارس على ظهر الغليون وفق الطريقة التالية: عندما كان أي انسان يقع مريضاً، كان يعترف لأي كاهن يختاره، لأنه في مثل هذه الحالة، تسود حالة الضرورة، التي فيها أي كاهن هو قادر على اعطاء الغفران، وعندما كان يقترب من الموت كان رفاقه يتولون خدمته والسهر عليه، لأنه — كما سلف وقلت — لا يوجد قربان هناك، كما لا يوجد مسح بالزيت، لأن الاستعدادات لم تتخذ لمثل هذا أيضاً، مع أن هذا الطقس من الممكن مراعاته، بما أن الزيت ليس هو المقصود، بل الاستخدام الذي صنع من أجله، والذي يتضمنه القداس، وعلى هذا يموت الرجل المريض بعد الاعتراف فقط، وعندما يصبح ميتاً، يلف بكفنه، ثم يضعونه في قارب، وينقلونه إلى أقرب شاطئ، إذا كانوا على مقربة من اليابسة، وهناك يقومون بدفنه بالمقبرة، إذا وجدت كنيسة هناك، وإذا لم يوجد يودعونه في الأرض في أي مكان كان، وإذا ماكانوا على مقربة من اليابسة، لكن البلاد هي من بلاد الكفار، لا يأخذونه إلى الشاطئ، بل يلغون بجسده في البحر، وإذا ماكانوا بعيدين عن اليابسة، يأخذون الكفن، ويجلبون رملاً من قعر السفينة، ويصبون الرمل فوق الكفن، فيمددون الجسد

على الرمل، ويلفونه، ويربطون حقيبة مليئة بالحجارة إلى قدميه، ثم يقوم الكاهن بحضور كل الذين في السفينة ويغني librame Domine، ثم يأخذ عبيد الغليون الجسد، ويدعونه يسقط في البحر باسم الرب، ومباشرة يغرق الجسد، وقد أثقلته الحجارة، في الأعماق، وتصعد الروح إلى السماء، وغالباً مارأيت طريقه الدفن هذه، غير أنني لم أر طريقة الدفن الأخرى، التي يقول بعضهم بأنهم رأوها، حيث فيها يجري لف الجسد بكفنه، ثم يربط إلى لوح، ومن ثم يلقي به في البحر مع اللوح، وهنا صحيح أنه عندما يكون الميت بدون رفاق، يفعلون ما يريدون بجسده، ويلقونه بالبحر إما بدون حجارة أو مع حجارة، أو مع لوح، وعندما يجري تمديد الجسد، يقوم محاسب الغليون فيعمل لائحة مكتوبة بكل الممتلكات التي خلفها الميت، ويقدمها إلى القبطان، ويقوم بسداد ديون الميت، إذا لم يكن له رفاق، أما إذا كان له أصدقاء، فهم الذين يتدبرون هذا له، ويتولون دفنه في المرسى التالي الذي يصلون إليه، ومالم يكن الحجاج قد عقدوا سلفاً اتفاقاً مع القبطان، كما فعلنا نحن أنفسنا، يتسلم القبطان الفراش وجهاز النوم، والملابس العائدة للميت، ويعتقد كثيرون أن هذه أفضل طريقة للدفن، وهي مفضلة على أن يهرس بوزن الأرض، وبناء على هذا يقوم الأثيوبيون في الوقت الحالي برمي أمواتهم في نهر النيل — وذلك حسبما أخبرنا ديودور — لأنهم يرون بأن النهر أفضل من كل ضريح آخر، فسواء أجرى أكل الجسد من قبل الحيوانات، أو أنه اهترأ هناك، فهو لن يلوث لالهواء ولا الأرض، وإذا مامات واحد من أعيان البنادقة في البحر، يدفنون جسده بالرمال الموجودة في داخل السفينة، ويحضرونه إلى البندقية، فهذا قد رأيته، كما سأحدث عنه في الصفحة ١٦٥ من القسم الثاني.

كيف يمضي الناس وقتهم على ظهر الغليون

يختلف أسلوب الحياة بين الحجاج على ظهر الغليون تبعاً لأوضاعهم

المتنوعة، فهم يشغلون أنفسهم بمشاغل متنوعة في سبيل تضيئة الوقت أثناء ابحارهم، ومالم يعرف الانسان كيف يتخلص من الوقت على ظهر الغليون فلسوف يجد الساعات طويلة جداً، ومتعبة كثيراً، ولهذا فإن بعضهم ماأن يغادر المائدة، حتى يبدأ بالتجوال حول الغليون وهو يبحث عن مكان لبيع أفضل الخمرة، فيجلس هناك ويمضي النهار كله وهو يشرب الخمرة، وهذا يعمل بالعادة من قبل السكسون، والفلمنك، وأناس آخرون من الطبقة الدنيا، ويلعب بعضهم من أجل المال، ويلعب بعضهم باللوح والنرد، وآخرون بالنرد فقط، وبعضهم بالورق، وآخرون بالشطرنج، ويمكن للانسان أن يقول بأن معظمهم ينشغل في هذا النوع من تضيئة الوقت، ويغني بعضهم بعض الأغاني، أو يمضون وقتهم مع العود، والمزمار، ومزمار القربة، وآلات وترية، والقانون، وآلات موسيقية أخرى.

ويتولى بعضهم مناقشة قضايا دنيوية، ويقرأ بعضهم الكتب، ويصلي بعضهم مع الخبز، ويجلس بعضهم يتأملون بدون حركة، ويصرخ بعضهم بصوت مرتفع ويسرور صادر عن القلب، ويضحك بعضهم، وبعضهم يصفّر، ويعمل بعضهم بأيديهم، وينام بعضهم صدوراً عن الكسل، ويمضي بعضهم الوقت كله تقريياً وهم نيام في مخادعهم، ويركض بعضهم فوق حبال الأشعة، ويقفز بعضهم، ويعرض بعضهم قوته برفع بعض الأوزان الثقيلة، أو تنفيذ بعض البراعات الأخرى، ويرافق بعضهم هؤلاء جميعاً، ينظر إلى الأول قليلاً، ثم يقف فينظر إلى الآخر، ويجلس بعضهم فينظر إلى البحر وإلى اليابسة التي يعبرونها، ويكتب عن ذلك، ويعمل كتب رحلات، وهذا ماكنت أفعله واشتغل به يوماً، وذلك خارج الساعات الدينية المتقدمة الذكر، لأن الرجال المنشغلين لا يملون من الحياة حتى على ظهر السفينة، ولقد كتب جيروم رسائل جميلة جداً إلى أسيلة Asella حول الأصدقاء المزيفين عندما كان

على ظهر السفينة، وذلك لدى عودته من روما إلى القدس.

وأخيراً هناك شغل آخر بين جميع ركاب البحر، شغل مع أنه مقيت، هو عام جداً يومياً، وضروري، وأعنى بذلك اصطياد وامسك القمل، والهوام، وإذا لم يمض الانسان عدة ساعات في هذا العمل عندما يكون حاجباً، فإنه لن ينام نوماً هادئاً، ونقرأ في «حياة الفلاسفة» عن الفيلسوف هوميروس، بأنه كان في أحد الأيام يمشي على شاطئ البحر، وإذا بسفينة تتوقف هناك، على ظهرها جلس رجال يبحثون عن القمل ويضحكون، وعندما سأهم الفيلسوف، لماذا يضحكون، أجابه أحدهم قائلاً: «نحن نضحك لأن كل الذي أمسكناه، لم نحصل عليه، والذين لم نمسكهم نحفظ بهم»، ووقتها صرف هوميروس تفكيره إلى اصطياد السمك، ولم يستطع فهم هذا اللغز، ولهذا أصبح متألماً جداً في قرارة نفسه، وصار مجنوناً، وقتل نفسه بالشنق.

ويتم الانشغال بهذه الأعمال والاهتمام بها تبعاً لأحوال الأنواء، لأن أوضاع الناس تتباين بشكل مدهش في البحر، أكثر مما يكون عليه الحال فوق اليابسة، وذلك تبعاً لتأثير الأجسام السماوية، ولفعالية الهواء، وحركة البحر، وغالباً ما رأيت أياماً، كنا فيها جميعاً مبتهجين، ومسرورين، ورفقة جيدين، فما من أحد نائم، بل كل واحد فرحان من قلبه، وبالمقابل رأيت أياماً، كان فيها صمت عميق، وسكون رهيب، حيث من غير الممكن سماع صوت انسان، والجميع إما قد غلبهم النعاس، أو جلسوا وهم يشعرون بالحزن، وغالباً ما رأيت الحجاج قد اتحدوا مع بعضهم في حالة سلام عظيم ووثام، وكأنهم جميعاً أخوان، وأبناء أم واحدة، كما أنني بالمقابل رأيت في بعض الأحيان كثيراً من المشاحنات، وتفجر للخلافات من أسباب لا قيمة لها مطلقاً، إلى حد يغدو الغليون فيه مثل الجحيم بشتائمهم ولعناتهم، ولقد كتبت هذا من أجل تبيان حقيقة أن حركة الانفعالات الانسانية، هي أكثر عنفاً فوق

الماء منها في أي مكان آخر، وهكذا رأينا كيف يمضون الساعات على ظهر السفينة، وبالنسبة لي كان اليوم دوماً ينتضي قبل أن أنهي عملي.

كيف يأكل الحجاج على ظهر الغليون

عندما تقترب ساعة الغداء أو العشاء من الحلول، ينهض أربعة ممن ينفخ بالأبواق، ويصوتون بأبواقهم دعوة إلى المائدة، ولدى سماع هذه الدعوة يركض جميع الذين كانوا جالسين إلى مائدة القبطان، بأقصى سرعة نحو القيدوم، ويفعلون ذلك كي يحصلوا على مكان مناسب يجلسون فيه بشكل مريح، ويوجد هناك ثلاث موائد نصبت بشكل نظامي فوق القيدوم، والذي يمكنه الجلوس إليهم سوف يكون بحالة مرضية، لكن الذي يأتي متأخراً يتوجب عليه الجلوس خارج القيدوم، على مقاعد عبيد الغليون، وذلك بشكل غير مريح في الشمس، أو المطر، أو الريح، وفي الجلوس إلى المائدة لا يوجد ترتيب، بل الذي يأتي أولاً يجلس حيث يريد، ولا يقوم الرجل الفقير بافساح الطريق إلى الغني، ولا الفلاح إلى الغني، ولا العامل للكاهن، ولا الرجل العادي للحكيم المتعلم، أو الخادم للراهب، وذلك ما لم يظهر أحدهم تقديراً واحتراماً لآخر من باب الصداقة الخاصة، وسبب الحاجة إلى النظام والتقدير فيما أتصور، هو أنهم جميعاً يدفعون المال نفسه إلى القبطان، العظيم والصغير في ذلك سواء.

وأعتقد تماماً لو أن الشخصيات من المراتب العليا دفع أحدهم ستين دوقية ودفع الانسان العادي البسيط عشرين، أوقام القبطان فأخذ مالا من كل انسان حسب مكانته، وقتها من الممكن اظهار التقدير والاحترام من الصغير إلى الكبير، ولهذا السبب يأكل النبلاء الذين لديهم خدمهم معهم، دوماً على مقربة من السارية (على ظهر السفينة)، أوفي مخادعهم (تحت) مع استخدام الاضاءة، حتى في منتصف النهار، لأن الجو هناك مظلم، وقبل بداية الوجبة يقدم دوماً لكل واحد خمرة حلوة، أما الطعام

الذي يلي ذلك، والذي يقدم إلى جميع الضيوف، فقد أعدّ وفق الطريقة الإيطالية، حيث هناك سلطة خس أولاً مع الزيت، وإذا توفرت توابل خضراء تقدم أيضاً، وفي وجبة الغداء هناك قطعة من اللحم مع معجنات، أو صحن من الخييص، أو طحين قمح أو شعير مطبوخ، أو ثريد مع جبنه رقيقة، وفي أيام الصوم، عندما لا يؤكل اللحم، يجري تقديم نوع من السمك الصغير الذي اسمه Zebilini، وهو مملح، ويكون معه زيت وخل، أو معجنة مصنوعة من البيض، وكذلك حلوى، ويجري تقديم خبز طازج عندما تكون السفينة على مقربة من أحد الموانئ، لأنه من غير الممكن الحفاظ على الخبز طازجاً على ظهر الغليون، بعد اليوم الخامس، ولدى عدم توفر الخبز الطازج، يقدمون كعكاً خبز مرتين، وهم يدعون هذا النوع باسم البقساط، والذي يبلغ من القسوة حداً أنه مثل الحجارة، لكنه يصبح على الفور ليناً، إذا جرى صب الماء و النبيذ عليه، ويعطى لكل واحد من الخمرة بقدر ما يستطيع أن يشرب، وأحياناً تكون الخمرة سميكة، وأحياناً رقيقة لكنها دوماً جيدة المزج والخلط بالماء، ويجري تقديم وجبة الغداء بسرعة، ويتم جلب كل شيء إلى الحجاج بسرعة، ولدى الفراغ من تناول طعام الغداء، ينفخ حملة الأبواق بأبواقهم، وبعد إزالة أغطية الموائد، يجري ثانية وضع الأطعمة عليها بشكل مهيب للقبطان ولأركانها، ومائدته اقتصادية أكثر من مائدة الحجاج، لكن طعامه يجلب إليه في صحن فضية، ويجري تذوق مشروبه قبل أن يقدم إليه، مثلما يفعل للأمراء في بلادنا.

ولا تأتي النساء من الحجاج إلى المائدة العامة، بل يبقين في مخادعهن، ويأكلن هناك وينمن، هذا وامتلك موالي طبّاخهم الخاص، ومكان خاص بهم للأكل، ويأكل عبيد الغليون بشكل جماعي كل ثلاثة منهم مع بعضهم، على مقاعد تجذيفهم وهم يقومون بتحضير طعامهم، وغالباً

مارأيتهم يأكلون لحماً ما يزال لونه أحمر بدمه، وإذا مارغب الحجاج بالحصول على شيء خاص من المطبخ، يتوجب اظهار المال للطباخين، لأن هناك ثلاثة أو أربعة من الطباخين سريعي الغضب، وليس من الممكن تهدئتهم إلا باعطاء المال لهم، ولا يهتمون مطلقاً بالوعود بالمال، هذا وليس عجباً أن يكون الطباخين سريعي الغضب إلى هذا الحد، حين نرى أن المطبخ ضيقاً، وهناك أوعية وآنية كثيرة، وكثيراً من الأشياء المتنوعة التي ينبغي طهيها، والنار صغيرة، وكثير من الصراخ يدوي خارج المطبخ، وعدد كبير من الناس يطلبون صنع أشياء لهم، يضاف إلى هذا إن عمل الطباخين يثير دوماً شفقة الانسان، ويرفض النبلاء والفرسان دوماً الطعام الذي يقدمه القبطان، وتراهم يعطون الطباخين مبالغ كبيرة من المال، للحصول على وجبات خاصة من الطعام أعدت لهم، ويقومون بالوقت نفسه بإعطاء طعام القبطان إلى الفقراء من عبيد الغليون، واللحم الذي يقدمه القبطان مقرف بشكل خاص، لأنهم يذبحون الحيوانات التي يرون أنها لن تبقى حية، وكذلك الأغنام المريضة، وهم في الحقيقة يذبحون الحيوانات التي يرون أنها مريضة، وسوف تموت ذاتياً، وباستثناء ساعة الغداء مامن خمرة تقدم إلى الحجاج من مخزن القبطان، لكن عبيد الغليون أنفسهم كانوا قد اشتروا خمرة ممتازة، يقومون ببيعها إلى الحجاج، وفي الأنواء العاصفة يجري الأكل والتقيؤ في الوقت نفسه.

كيف أن نوم الحجاج على ظهر السفينة غير هادىء

يجلس الحجاج بعد العشاء، ويتحدث أحدهم مع الآخر، ويكون ذلك على الطابق العلوي من السفينة وعلى مقربة من السارية الرئيسية، ولا يذهبون إلى الفراش إلا ومعهم مصابيح، وعندما يذهبون نحو الأسفل من أجل الاستراحة، سيكون هناك اضطراب هائل، أثناء اعدادهم لفرشهم، فالغبار يثور، وتتفجر خلافات عظيمة بين الذين

يتمددون بجوار بعضهم، خصوصاً في البداية، قبل أن يعتادوا على ذلك، ذلك أن كل واحد يلوم جاره لتجاوزه على مخدعه مع فراشه، وينكر الآخر ذلك، ويصر الأول على أنه فعل ذلك، ثم يستدعي كل واحد رفاقه للمساعدة، ويحدث أحياناً أن جماعات الحجاج كلها تتقاتل مع بعضها بعضاً، ولقد رأيت أثناء هذه الخصومات بعض الحجاج ينقض أحدهم على الآخر بسيف مجردة، وخناجر، وهم يصرخون، محدثين فوضى مرعبة، ووقتها لو تدخل محاسب الغليون — الذي وظيفته هي توزيع المخادع بشكل متساوي — لجرى تمزيقه إلى قطع من قبل الحجاج، ولدى انتهاء هذا الخصام، أو الافتراض أنه لن ينفجر ثانية، يأتي بعضهم إلى فراشه متأخراً، ويجعلون أنفسهم غير متوافقين مع الآخرين بمصاييحهم المضاءة، وأحاديثهم العالية الصوت والطويلة.

ولقد رأيت بعض الحجاج الحادي الطباع يلقون بمبولة الغرفة على المصابيح المشتعلة، وعندها يتفجر للمرة الثانية خصام عظيم، ويقوم بعضهم بعد اطفاء الأنوار بتسوية مشاكل العالم مع جيرانهم ويستمرون أحياناً بالحديث حتى منتصف الليل، وإذا ما قام أي واحد بتوبيخهم، وطلب منهم السكوت سوف يصرخون أكثر، ويبدأون خصاماً جديداً، وعلى هذا إن لم يكن هناك بعض ذوي الفضائل ورجال من أهل الاحترام، يتولون تسوية هذه الخصومات، لن تمر الليلة بسلام، خاصة عندما يكون هناك فلمنكيين سكارى.

هذا وهناك معيقات كثيرة للنوم إلى جانب ماتقدم ذكره، فالرهبان الذين اعتادوا على النوم لوحدهم في قلاياتهم، يجدون من الصعب النوم على ظهر السفينة، بسبب عدم استقرارهم، أو بسبب شخير جيرانهم، فخلال عدد كبير من الليالي لم أغمض عيني أبداً، وعلاوة على ذلك، ان ضيق المكان من أجل فراش الانسان الواحد، وقسوة الوسائد تجعل الانسان غير مستقر، حيث من الصعب أن يتحرك أحد الحجاج دون أن

يلمس جاره، فضلاً عن هذا، المكان مغلق، وعظيم الحرارة، وملىء بالروائح القذرة المتنوعة، حيث لا بد للانسان من أن يتعرق طوال الليل، مما يفسد راحة الانسان بشكل عظيم، والقمل والبعوض والهوام تسرح هناك بأعداد لا تحصى، وهناك أيضاً فئران وجردان، ويمكنني القول أنني غالباً ما قمت بهدوء كل ليلة، وصعدت نحو الهواء الطلق، فشعرت وكأنني تخلصت من سم قذر.

وتعاق الراحة أيضاً من قبل أناس لا يعرفون الاستقرار أثناء نومهم، ثم إنهم يشخرون ويتكلمون وهم نيام، ويثنون وهم مرضى، وكذلك بسبب سعالهم ولعناتهم، وكنت في إحدى المرات لبعض الوقت على ظهر غليون، حيث وقفت الخيول والبغال على الظهر فوقنا، وقد تابعوا أحداث الضجة المستمرة بحوافرهم على الألواح طوال الليل والنهار، ونضيف إلى هذا ركض البحارة هنا وهناك فوق رؤوسنا، وصوت البحر، وأشياء أخرى كثيرة، تذهب براحة الحجاج، هذا وهناك الكثير للقول حول هذا الموضوع.

وبالإضافة إلى هذا كله، هناك الحر الصادر عن الشمس فوق ظهر المركب، والظلام في القمرة، والاحتفاظ، والحرارة القذرة، والهواء الملوث الثقيل، ومع أن هبوب الرياح أساس للذين يبحرون في السفينة، هو مع ذلك غير مريح كثيراً، لأنه عندما تبدأ السفينة بالتأرجح بسبب الرياح، يصير الحجاج سكارى ومرضى، وكل واحد منهم يرتجف إلى حد أنه يتقيأ كل ما في معدته، وتصبح أحشاؤهم كلها تعاني من الجيشان، كما أنه لن يكون من الممكن البقاء على ظهر المركب، بسبب قوة الرياح، وبسبب المياه التي تنقذف فوق السفينة، وعمل، وسعي الملاحين إلى هنا وهناك، كما أنه من غير الممكن للحجاج البقاء في مخادعهم، إذا مارفع الشراع فوق المكان الذي فيه مخادعهم، حيث عليهم

وقتها العبور إلى الجانب الآخر، وعلى الانسان إدارة فراشه، بأن يضع القدمين في المحل الذي كان الرأس فيه، والرأس أيضاً محل القدمين، وذلك بسبب ميلان السفينة إلى جانب واحد، من خلال قوة الأشرعة، علاوة على ذلك يملأ الدخان الصادر عن المطبخ السفينة أثناء هبوب الرياح، وفي بعض الأحيان يضايق الحجاج كثيراً.

وفي أثناء العاصفة يصير الأصحاء من الرجال مرضى، ويزداد المرضى ضعفاً، يضاف إلى هذا أن استمرار نضح المياه القذرة مثير للحجاج بسبب الرائحة النتنة الصادرة عنها، ولأنهم وقتها يمنعون من الصعود إلى ظهر السفينة، أو النزول من الظهر، طالما النضح مستمر، والذباب أيضاً الذي يملأ السفينة، هو مصدر اضطراب عظيم، وكذلك القمل والبعوض، وكذلك التعاسة الصادرة عن التعرق تجلب من الضيق إلى الانسان أكثر من الهوام الحية.

ومع مرور الأيام تتوالد الفئران والجردان في السفينة بأعداد هائلة، وتراهم يسعون طوال الليل، ينقبون أوعية الانسان الخاصة، ويشقون طريقهم إلى داخلهم، فيلوثون الطعام، ويتلفون الوسائد والأحذية، ويفعلون هذا كله أو بعضه في أوقات مختلفة، لأنهم لا يظهرون دوماً على ظهر السفينة، بل فقط في موسمه الخاص، فعندما تهب رياح محددة تختفي جميع المخلوقات الحية الموجودة على ظهر السفينة أو تهلك، وذلك من أمثال الذباب والقمل والفئران، وماشابه ذلك، ولا تعود موجودة، لكن عندما تختفي هذه الرياح أو تتغير، تتوالد ثانية، ويزعج البعوض في موسمه الحجاج كثيراً بأصواته ولسعه، فضلاً عن هذا يلد من الرطوبة على ظهر السفينة علق أبيض سمين يدب في كل مكان، ويأتي خلصة فوق أرجل الرجال ووجوههم، وعندما يعي الانسان وجودهم، ويضع اصبعه عليهم، ظاناً أنهم ذباب، يتفجرون ويلوثون المكان الذي يكونون متعلقين به، بالدم، ومع هذا كله هناك هوام قذرة كثيرة تتولد من

العفونة على ظهر الغليون، لكن مامن شيء سام يمكنه أن يتوالد أو يعيش هناك، حيث لا وجود هناك للعقارب أو للأفاعي، أو للعلجوم، أو الثعابين السامة، أو العناكب، لأن مياه البحر تطرد السم، وتشفي من لسع العقارب، ومن عضات الأفاعي والثعابين، وهي عدو للزواحف من كل نوع، ولولا أن الحكمة الإلهية قد أمرت بذلك، مامن إنسان كان بإمكانه أن يعيش على ظهر سفينة قديمة واسعة.

وهناك أمر مزعج آخر للحجاج هو مدّ فرشهم في المساء، ولقّهم في الصباح حيث يتوجب في الصباح على كل إنسان، لف فراشه وربطه بحبل، وذلك مع الأغشية، والوسائد، والبياضات، وتعليقهم على مسامير جرى تثبيتها على جانب السفينة، فوق رأسه، ويكون ذلك حتى نهاية النهار، والغرض من ذلك توفير ممرات بلا عوائق (خلال القمرة)، ويأخذ الحاج في المساء فراشه وينزله، ويحله، ويرتبه، ويسبب هذا متاعب كثيرة.

وأخيراً إن انعدام الثقة بعييد الغليون وسرقاتهم، يزعج الحجاج كثيراً، لأنه لا يمكن تأمينهم على أي شيء، لأن عبد الغليون يسرق كل ماتطاله يده أو يضعها عليه، ولهذا محذور على الملاحين النزول إلى الأسفل حيث مخادع نوم الحجاج، هذا ولا يتجرأ أي منهم على الإقدام على ذلك، وهم لا يتجرأون حتى عندما يدعوهم الحجاج، ولا ينزلون إلى الأسفل.

**تحذيرات من الأشياء التي ينبغي على الحاج أن يكون محتزراً منها
عندما يكون في رحلة بحرية**

على الحاج إلى الأرض المقدسة أن لا يكون محتزراً فقط من أن يذنب في عقله، وأن يجلب الخوف إلى نفسه، بل أن يحترز ضد الإهمال، خشية أن يتلقى جرحاً لجسده وحياته، ولهذا أريد في هذا الموضع أن أدون

التحذيرات التي يحتاجها الحاج عندما يعبر البحر، ولا أريد تقديم النصيحة التي هي من اختصاص الطبيب، حيث هو الذي يتولى تقديمها، بل تحذيرات صديق مع الذي تعلمته بالخبرة، لأن الطبيب يحذر بشكل عام الحجاج بأن يكونوا منتهين من الفواكه، ومن شرب الماء، ومن هواء البحر، ومن السمك، ويقدم الطبيب النصيحة ضد الحر، وينصح طبيب آخر ضد البرد، أما ضد العطش، والامساك، والاسهال المفرط، فيقدمون كثيراً من العلاجات، وطرق الخلاص، وأما بالنسبة لفقدان الوعي، ولتشجيع شهية الطعام، وللتخلص من السموم، فإنهم يقدمون كثيراً آخر من طرائق الخلاص، كما يقدمون كثيراً من النصائح الأخرى إلى الذين يسافرون بالبحر، وهي أشياء من المؤكد أنها مفيدة وجيدة، وبالنسبة لهذه القضايا، من المنطقي اتباع توجيهات الأطباء دون سواها، ومع ذلك أعترف بأن مايلي هو ماقد رأيته شخصياً: فلقد عرفت حجاجاً كانوا حريصين ومنضبطين تماماً باتباع نصائح أطبائهم، إلى حد أنهم كانوا لا يتجرأون على ابتلاع أو فعل أي شيء مالم يكونوا قد أوصوهم به، ومع ذلك يصبح بعضهم مرضى، وضعفاء أثناء حجهم، وبعضهم يموت.

وبالمقابل، رأيت أناساً يأكلون ويشربون، ويفعلون كل ما يرغبون به، وفي البحر وعلى اليابسة، ولا يحافظون على نظام، أو قواعد للطعام، وتراهم في الغالب يتطرفون ويبالغون ومع ذلك لم يذهبوا إلى فراشهم، وهم دوماً مبتهجين، وسعداء، وأنا حين أكتب هذا ليس لدي رغبة للإيحاء إلى أن المتقدمي الذكر يموتون بسبب شدة عنايتهم بأخذ الأدوية، وأن الأواخر يبقون أحياء بسبب إهمالهم، بل إظهار أن مامن شيء هو مؤكد حول الحظ، ولندع الحاج يدع نفسه أولاً إلى عناية الرب، وبعد ذلك إلى عناية أطبائه إنما بدرجة معتدلة، وعليه في المجالات الأخرى أن يراعي التحذيرات التالية: على الحاج أن يكون

حذراً تجاه السباحة في البحر العميق من أجل الاغتسال، لتوفر مخاطر مضاعفة حتى بالنسبة للذين يعرفون السباحة بشكل جيد، وليكن متيقظاً تجاه كل شيء، عندما يكون على ظهر السفينة، عندما يعبر من مقعد متصالب إلى مقعد آخر، خشية أن يسقط، لأن السقوط في أي مكان على ظهر السفينة خطر، وعليه دوماً أن يصعد من، أو أن ينزل إلى المكان الذي فيه المخادع أو أماكن النوم بالتيقظ الموجب، فأنا شخصياً قد وقعت مرتين على هذه السلام نفسها، وإنه لعجب أنني لم أتمزق إلى قطع، وبعد هاتين الوقعتين صرت أصعد وأنزل وأنا حذر ومتيقظ، ولقد رأيت بعض الناس يسقطون ويكادون يقتلون أنفسهم، وليكن حذراً جداً لدى الذهاب إلى موضع الخلاء، لأن طريق النزول إلى هناك خطر، وعليه عندما يكون سائراً على جانب السفينة، أن لا يثق بأي من الحبال، ما لم يطمئن بشده بيده، والتأكد من أنه محدود بشكل ثابت وقوي، لأن الحبل إذا انفلت لدى محاولته الإمساك به، سوف يجعله يسقط في البحر، وليحذر الحاج من إهانة أو اغصاب عبيد الغليون التعساء، لأنه قد يحدث أن يكونوا ذوي فائدة عظيمة له، أو أنهم قد يؤذونه إيذاء كبيراً ويجرحونه، وعليه أن يحسن التعامل مع بقية رجال السفينة، وأن لا يثير الكراهية ضد نفسه، ذلك أنه أمر مدمر بالنسبة إلى أي إنسان أن يكون له أعداء على ظهر السفينة، فلقد رأيت حاجاً متكبراً أهان فأغضب عدداً كبيراً من الناس، ثم آل الحال بهذا الرجل نفسه إلى وضع تعيس على ظهر السفينة، فقد أرغم على التماس العون من الذين أهانهم، حتى أن بعض الناس الأكثر تقوى عندما قدموا بعض المساعدات له، تشكك بأنهم يحتقرونه، لأنه عرف بأنه يستحق الاحتقار.

وعلى الحاج الحذر من احتلال مكان سواء على الظهر أو في الأسفل عائد لإنسان آخر، إلا إذا حدث ذلك بموافقة ذلك الإنسان التامة، وله في النهار الحق بالوقوف على مقربة من السارية، فذلك المكان عائد إلى

الجميع، لكن في الليل لاحق له بأي مكان، إلا بمخدعه، لأنه إذا ما قام انسان بالتردد ليلاً على مكان إلى جانب مخدعه، يعدّه الذين لا يعرفونه لصاً، وعلى كل حال، إنه إذا لم يستطع — لسبب ما — الجلوس بهدوء في مخدعه، يمكنه الصعود إلى الظهر، وأن يجلس على بعض المصنوعات الخشبية على جوانب السفينة، وأن يدع قدميه تتأرجحان نحو البحر، وأن يمسك بالحبل الذي يدعم السارية، ولسوف تعلم التجربة الانسان كثيراً حول هذه القضايا، التي قد يجد من الصعب تصديقها عندما يخبر بها للمرة الأولى.

وعلى الحاج أن يكون متيقظاً عندما يجلس على سطح المركب، حتى لا يجلس على أي من الحبال، خشية أن تتغير الريح فجأة، فيقذف به فوق السطح، أو يجرح بوساطة الحبال، وعليه أن لايلمس الحبال، بأي حال من الأحوال، لدى شدهم لها، حتى لا تتمزق يده، أو تنفصم اصبعه بسبب العنف، لأنهم يشدونها بعنف عظيم، ويحركون بذلك أوزاناً هائلة.

وعلى الحاج عدم الجلوس في أي مكان تعلق فيه البكرات فوقه، حيث يمكن في وقت طيران السهم أن يصاب بجراحة بليغة أو أن يقتل فوراً، كما حدث لموجه الغليون الذي أتيت على ذكره في ص ١١٨، وعليه أن يكون حذراً من الحصول في طريق الملاحين عندما يكونوا على وشك الانطلاق نحو أعمالهم، لأنه مهما كان عالي المقام، لابل حتى لو كان أسقفاً، هم سيدفعونه، ويلقونه أرضاً، ويدوسونه، لأن العمل في البحر ينبغي أن ينجز بسرعة مثل البرق، ولا يقبل أي تأخير، كما أن عليه عدم المشاركة في أعمالهم، لأن هذا يزعجهم، وفوق كل شيء عليه عدم البقاء معهم على السطح أثناء الليل أثناء العاصفة، وعليه أن يكون متيقظاً ومتنبهاً إلى المكان الذي سيجلس عليه، خشية أن يلتصق بمقعده، لأن كل مكان مغطى بالزفت، الذي يصبح ليناً بسبب حرارة

الشمس، وكل من يجلس فوقه يرجع بشيابه وقد اتسخت.
وعليه أيضاً أن يكون متيقظاً، عندما يجلس مريحاً نفسه على جانب الغليون، وأن لا يمسك بيده أي شيء ثمين، حتى لا يسقط في البحر، فأحد النبلاء كان جالساً مرة إلى جانبي سقطت من يده سبحة ذات أحجار ثمينة، وكانت لديه غالية جداً، وكان على غير استعداد للتخلي عنها مقابل عدد كبير من الدوقيات، وقد ضاعت منه دون أمل باستردادها، وحدث أنني عندما كنت جالساً هناك أقرأ قداساً مسائياً من أجل الميت، سقط الكتاب من يدي في البحر وتلف، وسقطت أشياء كثيرة وفق هذه الطريقة من أيدي الناس بسبب قلة الانتباه، ولا سيما القبعات، حيث كانت تطير من فوق الرؤوس عندما تكون هناك ريح قوية.

وعلى الحاج عدم حمل مصباح على السطح أثناء الليل، لأن البحارة لا يحبون هذه الأعمال الغريبة، وليس بإمكانهم تحمل الضوء أثناء عملهم، ولهذا السبب يطفئون المصابيح كلها أثناء العواصف أو يغطونها بالمكايل، حتى في داخل القمرة، وعلى الحاج أن يحرس بعناية مقتنياته، وأن لا يتركهم بدون حراسة، حتى بين أصدقائه، لأنه ما أن يدير وجهه حتى تكون قد ذهبت، وعليه أن لا يترك ماله في صندوق في مخدعه، بل عليه حمل هذا المال معه دوماً، موضوعاً حول جسده، وأن لا يعهد به لا إلى خدمه أو رفاقه، لأن الناس ميالين بشكل غريب إلى ممارسة دور اللص على ظهر السفينة، مع أنهم قد يمقتون اللصوصية عندما لا يكونون في البحر، وأكثر ما يكون عرضة للسرقة الأشياء الشخصية مثل المناديل، والأحزمة، والقمصان، وما شابه ذلك، لأنه حتى بين الرفاق يسرق أحدهم مثل هذه الأشياء من الآخر، لأن الإنسان غالباً ما يحتاج إلى أشياء على ظهر السفينة ولا يمكنه العيش بدونها، فيحصل عليها بأية طريقة، سواء أكانت صحيحة، أم خاطئة، ويزود نفسه بها.

وعلى سبيل المثال، في أثناء قيامك بالكتابة، إذا وضعت قلمك، والتفت بوجهك، فإن قلمك سوف يضيع، حتى وإن كنت بين أناس أنت تعرفهم، وإذا ما فقدت قلمك سوف تواجه متاعب عظيمة في سبيل الحصول على قلم آخر، وهذه هي الحال مع أشياء أخرى كثيرة، ويبدو أن القانون البحري ما يزال يحتفظ بالشرعة المصرية القديمة جداً، التي لم تحرم اللصوصية، بل أمرت كل الذين رغبوا في أن يكونوا لصوصاً، بتدوين أسمائهم في بيت الكاهن الرئيسي، وأن يحملوا إلى هناك مباشرة كل شيء سرقوه، وبالطريقة نفسها طلب من الذين سرق منهم أي شيء أن يكتبوا رواية عن ذلك يذكرون فيها الوقت، واليوم والساعة التي فقدوا بها مقتنياتهم، وبهذه الوسيلة كان ممكناً بسهولة البحث عن اللص، وترد الحاجة المسروقة، باستثناء ربعها، الذي كان يعطى إلى اللص، فيما أنه كان من غير الممكن منع اللصوصية، رأى المشرع أنه من الأفضل أن يعاني الإنسان من خسارة شطر من حاجياته بدلاً من فقدانها كلها، ومن الممكن قراءة هذا في الكتاب الثاني من التاريخ القديم لـديودور — الفصل الثالث، ومثل هذا جاء في الأمثال: ٣٠ / ٦ قوله: «ليس هناك ذنب عظيم في السرقة»، وفي الحقيقة، في الشريعة القديمة لم يكن اللصوص يعاقبون بالموت، كما هو واضح من سفر الخروج: ٢٢ / ١، بل كانوا يغرمون بالتعويض عن ذلك، وعلى كل حال إنه إذا كانت الشريعة كاملة، ينبغي اعدام اللصوص في المجتمع الإنساني العادي، لكن على ظهر السفينة يبدو أن الأمر مختلف، لوجود الرغبة بالسرقة، خاصة السرقات الصغيرة، وهذا يزداد بين الرجال أثناء السفر.

وفي الموانئ على الحاج أن يكون حذراً فلا يغادر غليونته، فيفضل سبيله هنا وهناك، لاسيما في الأماكن المنعزلة قرب الشاطئ، خشية أن يقع فجأة بأيدي القرصان، فيجعلون منه عبداً في منتهى التعاسة طوال حياته كلها، وهذا أمر غالباً ما وقع لكثير من الرجال، فأنا أعرف فارساً

أمسك وحيداً على مقربة من البحر، تحت أسوار المدينة، وسلبت منه أمواله والأشياء الثمينة التي كانت معه من قبل السكان هناك.

وعليه أن يكون حذراً فلا يدخل أي بيت لدى إغرائه من قبل النساء، لأن في ذلك خطر عظيم إذا فعل ذلك، وليس ذلك متعلقاً بشرفه وحاجياته، لابل حتى بحياته، وعلى كل من يسعى وراء الاستقامة والشرف، ويريد الحفاظ على حجه المقدس دون تلويث، عندما يكون في الموانئ، السير في الخارج في النهار، لكن عند اقتراب المساء، عليه العودة إلى غليونه، والنوم هناك سليماً في مخدعه، لأن النزول على جزر البحر، هي بيوت سيئة السمعة، كما وضع مما جاء في ص ١٢٧، ومامن أحد يستقبل حجاجاً ألمان في بيته، إلا أصحاب البيوت السيئة السمعة، ومعظم هؤلاء من الألمان، الذين يسكنون هناك مع عاهرات، مع أنهم يبعدون عندما يدخل الحجاج إلى بيوتهم، وبناء عليه يمكن للحجاج الجيد والتقي الإقامة في بيت من البيوت خلال النهار مع رفاقه، لكن لا يجوز له النوم هناك مطلقاً، والتجربة سوف تعلم الإنسان أشياء أخرى عليه تجنبها والابتعاد عنها. ويتوجب عليّ الآن العودة إلى سياق خبر أدائي لجولاتي ورحلاتي.

هنا نهاية الفصل الثاني.

الفصل الثالث

ويحتوي على وصف لأعمال الحجاج إلى الأرض المقدسة

خلال شهر حزيران،

الذي وصلوا فيه إلى حدود الأرض المقدسة

في اليوم الأول من شهر حزيران بدأنا رحلتنا البحرية، وكان هذا اليوم هو يوم الأحد الأول بعد عيد الثالوث المبارك، فقد نهضنا في ذلك الصباح باكراً قبل شروق الشمس، وحملنا جميع حاجياتنا في قارب كبير اكتريناه وقد وقف على باب نزلنا، وبعدما قلنا وداعاً لكل واحد في النزل، أقلعنا وعبرنا من خلال القناة الكبيرة إلى خلف المدينة، وتابعنا سيرنا إلى القديس نيقولا في الليدو، وتركنا هنا واحداً يتولى حراسة أغراضنا في القارب، ودخلنا إلى الكنيسة، وكانت كنيسة كبيرة، مع دير للبندكتيين ملاصق لها، وبحثت عن المسؤول عن القداسات، وطلبت منه رقائق الخبز التي كان قد وعدنا بها، وطلبت منه تزويدنا بزجاجة من الخمرة الجيدة، وذلك بالإضافة إلى نبيذ القداسات، وأن يضعها على المذبح، وعندها وضعت عليّ ألبستي المقدسة، وذهبت إلى المذبح، حيث عملت قداساً أعدده ليوم الأحد، وكان ذلك بحضور الحجاج، وبعد القداس توليت مباركة الخمرة التي جلبت إلينا في الزجاجة بمباركة القديس يوحنا الانجيلي، وأعطيته إلى موالي الحجاج ليشربوها محبة للقديس يوحنا، حتى تكون رحلتنا سعيدة وناجحة، وبعد إنجاز هذا بكل تقوى صعدنا ثانية إلى قاربنا، وأبحرنا حتى ميناء البندقية، القائم بين قلعتين، كانتا تتوليان حراسة مدخل ذلك الميناء، ذلك أن غليوننا كان راسياً في البحر على بعد حوالي الميل خلف الميناء، وفيما نحن في طريقنا هبت ريح قدرة، فأعاقتنا، حتى أننا احتجنا إلى ساعتين للوصول إلى الغليون، وكان ذلك مع صعوبة كبيرة، وعندما وصلنا

أخيراً إلى هناك، وجدنا الغليون مليئاً بالناس، ورفاقنا الذين بعثنا بهم مقدماً إلى هناك قبل أربعة أيام، ضعفاء كثيراً، بسبب السفينة، التي كانت تتأرجح وهي راسية، إلى مختلف الاتجاهات، وكان ذلك بسبب قوة الرياح، وقد جعلهم ذلك مرضى، وعلى كل حال، عندما رأونا ابتهجوا، وبدأوا يتحسنون، وقد حدثوا سادتهم عن المصاعب المريعة للبحر، التي تذوقوا قليلاً منها فقط، وفي ذلك اليوم نفسه التمس مني أحد الفرسان أن أعود معه في القارب إلى المدينة لاحضار صندوق كان قد أمر بصنعه لنفسه، ليكون مخدعاً له، ولكي ينام عليه في الليل، لأنه كان متكبراً جداً، وأبت نفسه النوم على الأرض، وقد كان موضع نومه واسعاً إلى حد يمكنه أن يضع فيه الصندوق، وبناء عليه دخلنا معاً إلى المركب ورجعنا إلى البندقية، وبعدما تسلمنا الصندوق عدنا به إلى الغليون، إنما بعد صعوبات، لأن الرياح كانت ضدنا، وكان الوقت متأخراً مساء عندما أنزلنا الصندوق إلى القمرة، ووضعته الفارس في مكان نومه وهو مبتهج، وهو يأمل أن ينام عليه بشكل جيد، لكنه لو أنه عرف المستقبل، لما كان مسروراً بأي حال من الأحوال، ولقام برميهِ، ولرفض عدّه مريحاً، لأنه على ذلك الصندوق بالذات مات ذلك الفارس ميتة وحشية وبشعة، وعلى كل حال، هو لم يكن منتمياً إلى جماعتي، بل إلى جماعة أخرى، وقمنا الآن بترتيب أماكن نومنا وفرشنا لننام فيها، وكان ذلك مع كثير من الفوضى والجهد، والخلاف، لأننا لم نكن قد اعتدنا على ذلك بعد، وعندما باتت الدنيا مظلمة، وبعدما أطفئت جميع المصابيح، وصار كل شيء هادئاً، فجأة هبت ريح عنيفة جداً، جعلت السفينة تتأرجح، فصرنا خائفين، وبوضع غير مريح، وقد بقينا متمددتين بهدوء وسكون، ونائمين في الظلام والرعب، وحدث فجأة أن واحداً من النبلاء، وكان مرعوباً من منام مخيف، بدأ يصرخ بصوت مرتفع بشكل مزعج جداً، وكأنه يركض هناك بسيف، وأفاق كل انسان على ظهر السفينة بسبب صراخه، ولأنهم كانوا نياماً في

الظلام، أصيبوا بفوضى، وافترضوا ان هذا الفارس قد طعن من قبل واحد من اللصوص، وأفاق النبلاء وحاولوا العثور على سيوفهم في الظلام، وحاول آخرون تدبر أمر نجاتهم، خشية منهم أن شراً ماقد أعد للحجاج، وحدث اضطراب خطير في داخل القمرة الرئيسية للغليون، لكن الرجل الذي كان متمدداً إلى جوار الذي صرخ، قد أدرك الذي حصل وفهمه، فصرخ بصوت مرتفع وطلب من كل انسان العودة إلى مكانه والتمدد فيه، وهكذا مضت تلك الليلة مع فوضاها، ولم يكن القبطان قد جاء بعد، ولم يصعد إلى ظهر الغليون.

وفي اليوم الثاني من حزيران، جاء القبطان قبل اشراق الشمس، مع خدمه وآل بيته جميعاً، وجلب معه أيضاً بعض الحجاج الذين تلقاهم مؤخراً، ليكونوا ركاباً على ظهر السفينة، وكان بين هؤلاء رجلاً فلمنكيا مع زوجته، وعندما وصلت هذه المرأة إلى ظهر السفينة، غضب عدد كبير من الناس لذلك، لأنها كانت المرأة الوحيدة على ظهر السفينة، لأنه قبل وصولها لم يكن بيننا ولا امرأة، ذلك أن المعلم أوغسطين، قبطان الغليون الآخر، كان قد جمع كل النساء على ظهر مركبه، ولم يكن هناك واحد على ظهر غليوننا لم يكن مزعوجاً من قدوم هذه المرأة العجوز، ومن التفكير بوجود امرأة واحدة سوف تعيش بين مثل هذا العدد من النبلاء، لاسيما عندما بدت — لدى إلقاء النظرة الأولى عليها — أنها لاتعرف الاستقرار، وفضولية، كما تبرهن أن ذلك كان حقيقة، لأنه صدقاً، كانت النسوة السبعة اللائي رافقنا في الرحلة الأولى التي قمنا بها، حسباً رأيت في ص ١١٧، المتقدمة، كن أقل ضجيجاً من هذه العجوز الشمطاء، فقد سعت ما بين هنا وهناك حول السفينة بشكل غير ضروري، وكانت مليئة بالفضول، راغبة في سماع كل شيء ورؤيته، فجعلت بذلك نفسها مكروهة إلى أبعد الحدود، وقد بدا زوجها أنه كان رجلاً عاقلاً، ومن أجله أمسك كثيرون عن الكلام، ولولا وجوده هناك

لسارت الأمور معها بشكل صعب، فلقد كانت هذه المرأة شوكة في أعيننا جميعاً.

وعندما أصبحنا جميعاً على ظهر الغليون، وأضحى النهار، صدرت الأوامر إلى بعض الملاحين بتزيين الغليون، فقاموا بتعليق سبعة من الأعلام الحريرية الواسعة، وذلك امتداداً من القلعة إلى القيدوم، ومن القمة أيضاً، وزينوا القمة نفسها بقطعة من السجاد بأن لفوها من حولها، وكان أكبر الأعلام وأولها هو علم السادة الحجاج إلى الضريح المقدس، وكان أبيض اللون، عليه صليب أحمر ممتداً من أول طرف حتى الطرف الآخر، وكان العلم الثاني هو علم سادة البندقية، أي علم القديس مرقص، وكان أبيض اللون أيضاً، عليه أسد أحمر، كان تحت قدميه الأوليين البحر، وتحت قدميه الخلفيين اليابسة، وكان العلم الثالث هو علم مولانا البابا سكتوس الرابع، وكان لونه لون الهواء، عليه شجرة بلوط خضراء تحمل جوزات بلوط ذهبية، ومفتاحي الرسولين، وكان العلم الرابع هو علم القبطان، وكان مكوناً من أنواع مختلفة جميلة، وعرض الخامس أذرع البندقية مع ذراعي القبطان مع بعضهم، وكان هناك علمين آخرين، كلاهما متشابهين، على كل واحد منهما أسد أسود وأبيض.

وبعد الفراغ من تزيين الغليون، بدأوا بالاستعداد للانطلاق، لأنه كان لدينا رياح لطيفة، كانت تحرك الأعلام في الأعالي، وبدأ الملاحون بصوت مرتفع يرفعون المرساتين ووضعهما على السطح، وبرز عارضة الشراع نحو الأعلى مع الشراع الرئيسي accaton يخفق فوقها، وجرى أيضاً رفع قاربي الغليون وإخراجهما من البحر، وجرى إنجاز هذا كله بعد جهد كبير وصرخات عالية، واستمر ذلك حتى أطلق الغليون من رباطاته، فأقلع بسرعة وهو ممتلئ بالرياح، وأبحرنا وسط بهجة عظيمة وابتعدنا عن اليابسة، لأن البواقين زعقوا بأبواقهم وكأننا كنا على وشك

الالتحام بالقتال، وصرخ عبيد الغليون، وغنى جميع الحجاج مع بعضهم: «In Gottes Nahmen Fahren Wir» حسبما يمكن القراءة عن ذلك في ص ٣٤٣.

وفي الوقت نفسه مخر الغليون بقوة خلال البحر، وابتعدنا بسرعة عن مدينة البندقية، وخلفنا مرساها الذي انطلقنا منه بعيداً وراءنا، وكنا مسرورين كثيراً لمغادرتها، وكأننا قد أطلق سراحنا من السجن، ذلك أننا رغبتنا باصرار بالوصول إلى القدس، وسيقت السفينة بسرعة كبيرة بفضل قوة الريح الطيبة، إلى حد أننا لم نعد قادرين على رؤية أي شيء من الجبال، أو أي جزء من الأرض، أو أي ساحل أو أي جزء من اليابسة، بل كان أمام أعيننا السماء فقط والماء، ذلك أننا قطعنا مسافة كبيرة في ذلك الوقت القصير وصرنا في أعالي البحار، وصرنا أعلى فأعلى من أعالي جبال الألب، ولم نعد قادرين على رؤيتهم، لأنهم صاروا الآن — كما هو الحال — منخفضين مع الانحناء الاعتراضي للبحر بينهم وبيننا.

وأما وقد غدونا الآن بعيدين عن رؤية العالم، أنزل البحارة جميع التزيينات التي زينت بها سفينتنا، وكانوا يلقون نظرة عليها في كل يوم، جاعلين إيهاها جاهزة للعمل، وبعد منتصف النهار، عندما تناولنا الطعام، رأينا على يسارنا، باتجاه الشمال جبال إيستريا، وهي منطقة من مناطق مقاطعة دلماشيا، ورغبنا بالوقوف هناك في ميناء بارينزو Pa-renzo ، لأن ريحنا الطيبة توقفت عن الهبوب، وعلى كل حال لم نتمكن من الوصول إلى بارينزو، بل تجاوزناها، ومع ذلك لم نقطع مسافة جيدة، لأنه مع انتهاء النهار، انتهت الريح أيضاً، ومكثنا الليل كله من دون التقدم نحو الأمام بل كنا نراقب بدون راحة، ونتأرجح هناك.

وهبت في اليوم الثالث من حزيران، عند الصباح، ريح كانت قدرة تماماً، وأرغمنا على العودة نحو جبال إيستريا، وبعد جهود عظيمة نجونا من الريح المعاكسة، واقتربنا من الجبال، وجلبنا سفينتنا إلى ميناء رويينا

Rubina (Rovigno) وذلك على مسافة ميلين خلف بارينزو، حيث كان القبطان الآخر مع حجاجه، وميناء مدينة روبينا هذا، ليس ميناء مطروقا، لكنه آمن وغني، وفي هذا الميناء تفضل علينا القبطان، بتنشيطنا وانعاشنا بغداء لأننا دخلنا إليه في وقت الغداء، وهو أمر متوجب عليه فعله، لرؤيته أننا كنا في ميناء جيد، حيث يمكننا التزود لأنفسنا، وبعد الغداء نزلنا من الغليون إلى القارب، وذهبنا به إلى المدينة، حيث صعدنا إلى الكنيسة الكاتدرائية وصلينا هناك للرب وللقديسة يوفيميا - Eu-phemia العذراء، التي جسدها كله ممدد هناك وملفوف في ضريح من الرخام كبير، وهذا الضريح المتفوق التابع للكاتدرائية، فتح لنا، وقد أرونا الجسد المقدس، ولسوف أتحدث لكم وأنا عائد، عن كيفية انتقال جسد القديسة يوفيميا الخلقيدونية إلى هاهنا، وسأصف لكم مدينة روبينا، كما سأحدث عن مرساها، وقد مكثنا في هذه المدينة حتى وقت العشاء، وتعشنا على حسابنا في إحدى الحانات، وكان عشاء جيداً، عدنا بعده إلى غليوننا، آمليين أن نتمكن خلال الليل من الابحار، لكن تلك الرياح القذرة — ولا أجرؤ على تسميتها شريرة — هبت طوال الليل، جاعلة تلك الليلة ليلة غير مستقرة تماماً بالنسبة لنا، ومع أن سفينتنا كانت مربوطة بالمرساتين والأربطة الأخرى العائدة للميناء، أرجحتها الرياح وهزتها بكل عنف، وجعلتنا نصاب بدوار البحر بكل شدة.

وفي اليوم الرابع لم تكن الرياح لطيفة، ولهذا نزلنا من الغليون وغادرنا حيث ذهبنا إلى كنيسة القديسة يوفيميا حيث قرأنا واستمعنا إلى قداسات، وتغدينا بعد القداس مع مضيفنا، وكانت حانتنا مجرد كوخ صغير، استأجرناه من رجل فقير، حيث قام طبّاخ مولاي فأعد لنا الطعام الذي جلبناه له، وكانت هناك أشياء كثيرة يمكن الحصول عليها، لكن لم يكن في تلك البلاد حانات كما هو موجود في بلادنا، وأية حانة

هناك كانت تعيسة جداً، ليس فيها لاقدور، ولا أوعية قلي أوغلي، ولا أيضاً مايكفي من صحون أو ملاعق، وعلى هذا وجد الحجاج النبلاء أنفسهم مع أنهم في بلدة جليلة واسعة، مرغمين على الدخول إلى البيوت العامة السيئة السمعة، حيث كان من الممكن الحصول على الضروريات، وذلك حسبما قلت من قبل في ص ٢٥٨، وقد عانى الحجاج من مصاعب كثيرة، بسبب الحاجة إلى نزل، وعانى بشكل خاص الذين ليس لديهم تجهيزات خاصة بهم للطبخ بها، وبعد الغداء ذهبنا بالقرب إلى جزيرة صغيرة، وإلى كنيسة القديس أندرو القائمة هناك، وكان على مقربة من الكنيسة دير صغير، كان فيه فيما مضى رهبان من طائفة القديس بندكت، وعندما تخلى هؤلاء عن هذا المكان أخذه الرهبان الفرنسيون، وتملكوه، وبنوا ديراً جميلاً هناك وفق طرائق طائفتهم، فضلاً عن هذا قاموا بزراعة الجزيرة الصغيرة نفسها، وجعلوها وكأنها جنة من الجنات، ومن هناك يمكن للإنسان أن يحصل على الأخشاب وأشياء أخرى لها حاجة، ذلك أن تربة الجزيرة هذه غنية وخصبة، كما أن الأراضي في الجزر القريبة كلها متشابهة، وخصبة.

وبعد ما تمشينا لساعات حول الجزيرة المتقدمة الذكر بقيادة الرهبان، عدنا إلى الدير، حيث احتفي بنا بلطف بتقديم وجبة لنا، الأمر الذي عوضهم عليه اللورد جون التروخسيس بكرم، عندما غادرنا، وفي أثناء تناول الطعام انتبهت لوجود واحد من الرهبان، كنت قد رأيته أثناء حجي الأول فوق جبل صهيون، حيث كان نائب الوصي في الدير هناك، وهو أيضاً قد تذكروني، وقد حياني بلطف، وقد تلقيت منه بعض النصائح، وعندما انتهينا من الطعام، صعدنا إلى قاربنا، ووصلنا إلى روبينا مع صعوبات كبيرة، لأن الريح كانت معاكسة، وتناولنا العشاء في البلدة، وعزمنا على البقاء بعيداً عن الغليون طوال الليل، وآثرنا النوم

على المقاعد على أن نكون على ظهر السفينة، لأننا أمضينا ليالي تعيسة على ظهر الغليون عندما كان راسياً، يتأرجح بقوة الريح، لكن الذي حدث، هو أننا ماأن فرغنا من تناول العشاء، حتى كان القبطان قد أمر بالنفخ ببوقه (Buccina)، وكان ذلك شارة للجميع حتى يعودوا إلى ظهر الغليون.

وفي ذلك المساء، وقبل غياب الشمس، قام الملاحون برفع المرساتين، وبحل أربطة الغليون واطلاقه، وأبحرنا خارجين من الميناء، مع أنه لم تتوفر ريح لطيفة في البحر، ذلك أنهم رأوا عن بعد أوغسطين مع غليونيه، وخشوا من أن يحصل على الأولوية علينا، ولهذا قمنا بهذه المحاولة المخففة، لأننا ماأن صرنا خارج الميناء، حتى دفعنا مسافة بعيدة في البحر بريح معاكسة، وهكذا أمضينا تلك الليلة نتأرجح فوق الأمواج، وكنا غير مرتاحين بما فيه الكفاية.

وفي اليوم الخامس، استمرت الريح نفسها، فكان أن حملنا خلال الأمواج إلى أسوأ جزء من ذلك البحر، الذي كان اسمه كورنيروس Cornerus (Quarnero) فهناك الذين يبحرون يكونون دوماً في خطر، لأن البحر يتدفق من هناك بتيار سريع جداً نحو أنكونا An-cona، ويتوجب على البحارة المحافظة على السفينة بعناية كبيرة، وجهد عظيم لمنعها من مسايرة تيار البحر، الذي كان في بعض الأحيان يدفع السفن بعنف ويلقي بهم إلى داخل ميناء أنكونا، وذلك وسط رعب عظيم ومخاطر للسفن وللذين على ظهرهم، وعندما كنا في ذلك الخليج رأينا الجبال التي تفصل دلماشيا وكرواتيا عن مملكة هنغاريا والهنغاريين، الذين يحجون إلى سيدتنا صاحبة لوريتو Loretto، يأخذون سفينة من هناك ويبحرون إلى مكان العذراء المقدسة.

وقطعنا في ذلك اليوم مسافة قصيرة، ومع ذلك استمرت السفينة طوال الوقت وسط حركة عنيفة، وإنه لأمر مدهش للانسان الذي هو

غير معتاد على البحر، أن يرى السفينة وهي تجري بسرعة كبيرة، لكن دون أن تتمكن من قطع أي مسافة على مسارها، الأمر الذي هو في غاية السوء، وعند حلول المساء، أصبحت الريح القذرة أشد، ولقد أمضينا ليلة غير هادئة تماماً، حيث أصبح معظم الحجاج مرضى كثيراً، لأنهم باتوا يعانون من دوار في رؤوسهم ومن معدة مضطربة، وكان الغثيان العنيف والشديد نصيب الجميع، علماً بأن بعضهم صاروا أضعف من آخرين لتلك الأسباب، وعندما صارت العاصفة أشد، أراد البحارة تحويل اتجاه الشراع الرئيسي، وكانت عارضة الشراع قد رفعت نحو الأعلى إلى مافوق رأس السارية، مع الشراع الرئيسي accaton منشور من حولها، لكن عندما تركوا عارضة الشراع تطير حول الطرف الآخر، انفلت الشراع ونزل على المجاذيف على ذلك الجانب، وعندما ملأت الريح الآن الشراع بشكل مفاجيء، وأخذت برفعه بقوة كبيرة، تعلق بين المجاذيف، ومالت السفينة كثيراً نحو ذلك الاتجاه حتى أن عارضة الشراع نفسها لامست الماء، وباتت السارية، لابل في الحقيقة الغليون نفسه مهدداً بالانقلاب إلى ذلك الجانب، ولهذا كان هناك ركض إلى هنا وهناك، وصراخ على السطح الأعلى، أما نحن تحت في مخادعنا فقد قذفنا نحو الجانب الآخر، واستعد القبطان في القيدوم لانقاذ نفسه، فقد أمر بقطع الحبال التي تمسك القارب الصغير، حتى يسقط في الماء، حتى إذا ماغرقت السفينة، يمكنه أن يقفز إليه، ولم يعرف الحجاج الذين كانوا في الأسفل بهذا، ولو عرفوا به لحدث اضطراب عظيم، وفوضى مرعبة، من التسارع الذي كانوا سيقومون به في ركضهم نحو السطح، وبعون الرب، انتهى هذا الأمر على كل حال، ووصل إلى نهاية سليمة، حيث رفعت الريح الشراع خالصاً من بين المجاذيف، وبدأت السفينة تبحر متقدمة كما كانت من قبل، ولو أن السفينة جنحت وانقلبت إلى ذلك الجانب، كما كانت على حافة وقوع ذلك، مامن أحد من الحجاج الذين كانوا في القمرة الرئيسية، كان سينجو من الموت.

واستمرت الريح في اليوم السادس قذرة، وقد أسفنا لمغادرتنا ميناء روبينا، ووجهنا السفينة مجدداً نحو الجبال، علنا نستطيع دخول أحد الموانئ التي هناك، والانتظار هناك هبوب ريح لطيفة، وتقوم فوق الجبال القريبة من البحر شارات من خلالها يعرف البحارة مكان وجود ميناء آمن، وأين يمكنهم الاقتراب من اليابسة، ومالم يروا هذه الشارات، لا يتجرأون على جلب هذه السفن الكبيرة وتقريبها من اليابسة، وبعد رؤية واحدة من هذه العلامات، ومن ثم التأكد من وجود ميناء، مع امكانية القدرة على الوصول إلى اليابسة، وجهنا رأس غليوننا نحو الجبال، فوصلنا إلى مابين جدارين من الصخر، وجلبنا المركب إلى وادي حيث وجدنا ميناء آمناً، وبناء عليه القينا المرساة، وربطنا السفينة بالصخور، وثبتنا وقفتها، ولم يكن الميناء أكثر من مكان بين تلال وجبال، فيه يمكن للسفينة الوقوف دون التعرض لتهديد الرياح، ومع هذا لا يكفي أن يكون موقع الميناء آمناً، بل هناك مطلب آخر، هو أن يكون البحر هناك عميقاً، وأن تقيم ميناء هناك، لم تكن هناك حاجة لوجود سكان قاطنين على مقربة منه، بل كان يكفي أن تكون السفينة قادرة على الوقوف هناك، وهي آمنة من الرياح العنيفة، سواء أكان المكان مسكوناً أم لا.

وكان هذا الميناء في بقعة مهجورة، على إحدى الجزر التي اسمها أسارو Assaro، وكان محاطاً من كل الجوانب بشعاب وجبال وعرة، وبعدها تناولنا طعام الغداء على سطح الغليون طلبنا إنزال القارب إلى البحر، وذهبنا به نحو الشاطئ، وقد تمشينا فوق الجزيرة لتمضية الوقت، وكان نامياً هناك أعشاب ذات رائحة جميلة، وكثيراً من نبات القيصين الصغير بلا حدود، وكف مريم agnus costus وبعدها اجتزنا بعض التلال، وصلنا إلى حقول شعير، وكنا بذلك مسرورين، على أمل أننا كنا على مقربة من إحدى المزارع، حيث يمكننا الحصول

على خبز طازج وبيض للبيع، وبعدما مشينا بعض الشيء على الطريق وصلنا إلى كوخ تيس، كان يسكن فيه بعض الفقراء المعدمين من السكلافونيين، الذين لم يكن لديهم أي شيء على الإطلاق في بيتهم، سوى بعض الجذور، كانوا يجففونها في الشمس، وعندما تصبح يابسة كانوا يطحنونها، ويتخذون منها طحيناً، يتخذون منه خبزاً، وقد أعطونا بعضاً من هذا الخبز، لكنه كان أسود جداً وبلا طعم، ولم يكن هناك بيت آخر غير هذا على الجزيرة، وبعدما رأينا هذا كله، عدنا إلى الشاطئ، إلى مقابل المكان الذي رست فيه سفينتنا، ورأى كثيرون أن الشاطئ أكثر كآبة من السفينة، فعاد هؤلاء إلى ظهر السفينة مجدداً، وبقيت أنا مع عدد من النبلاء على الشاطئ، ساعياً لإعطاء رفاقي الراحة، وقمت بتسلق أحد الجبال وحيداً لأنظر من حولي، وهنا رأيت ليس بعيداً، انساناً يلبس ملابس الرهبان المبشرين، يركض نحوي، ولذلك ركضت نحوه، للقاءه، وحييته، وسألته من أين جاء، وإلى أين هو ذاهب، لكن هذا الراهب المسكين، لم يعرف لغة يتحدثني بها، فهو لم يعرف لا اللاتينية، ولا الإيطالية، ولا الألمانية، لأنه كان إما دالماشي، أو سكلافوني، فقد كان على طريقه نحو الغليون للتسول.

وذهبت بعد هذا إلى شاطئ البحر، حيث وجدت واحداً من الملاحين، يقتلع عشباً كان نامياً بين صدوع الصخور، قال بأن له نكهة عظيمة في السلطة، وقال بأن اسم هذه العشبة كان Porcella، وكانت طيبة الطعم، ومالحة، ونكهتها حادة (occtosa) وهي مثل الكبوسين، لكن أثخن وحجمها أكبر، وتساءلت كيف أمكن لعشبة جيدة أن تنمو بين الصخور وان يكون طعمها مالحاً، ولعل ذلك بسبب أن الملح منتشر على الشاطئ، أو بسبب أنه في أثناء العواصف تضرب المياه المالحة الصخور وتغطيها، حيث تشرق الشمس بعد ذلك وتضرب بأشعتها

ذلك الماء فتجففه وتجعل منه ملحاً، وطبيعة الملح تجعل الأرض جرداء، ومع ذلك نمت هذه العشبنة في الملح، على الرغم من طبيعة جميع النباتات، ووجدت أيضاً أغصاناً من أفضل أنواع نبات كف مريم فأخذتها، علني أطردها بها روائح نتن السفينة من مخدعي، وحول هذا النبات، انظر عرضاً مطولاً في القسم الثاني ص ١٨٩.

وحدثنا النباتيون، ولا سيما ألبرتوس ماغنوس Albertus Magnus في De veget tractatus, i, c, 5 بأن هذه العشبنة قد عرفت باسم كف مريم agnues castus، بسبب عصاريتها، وزهورها، وأوراقها، التي هي مفيدة من أجل التحريض على فعل الخير، فبوساطة حرارتها يحفّ الأساس المنوي البشري، والريح التي تمدد الأجهزة المولدة، ولهذا السبب قام الحكماء الاغريق برسم هذا النبات على أراضييات منازلهم، حتى تزدهر الفضيلة بين عقيلاتهم، وقد قيل أيضاً بأن هذا كان عقيدة الفيثاغورسيين، لأن هذا النبات كان يحوّل الانسان إلى مخلوق هادىء ولطيف مثل الحمل، ولهذا السبب أقدم كهنة الشمس والعذراءات المكرسات لخدمة الربة فيستا Vesta، والذين تحتضن ديانتهم القسم بالطهارة، على نشر أوراق كف مريم على أسرة نومهم وفي بيوتهم، وأنا أعرف هذا النبات منذ أيام طفولتي، ذلك أنني عرفته في بازل Basle، حيث كان ينمو في حديقة ديرنا، وكان قد زرع من قبل رجل جاء من البحر في أيام مجمع بازل.

وقد قيل بأن هذا النبات لا يمكن نقله وزرعه في مكان آخر، بل ينمو فقط حيث زرعه الرجل، لكن هذا غير صحيح، لأنه في الوقت الذي كنت فيه هناك باقامة عابرة، اقتلعت غصناً مع الجذور وزرعته في حديقة مأوى العجزة، فهناك نما وصار شجرة كبيرة، ولهذا النبات أوراق فيها بعض الشبه بأوراق الجوز، إنما أنعم وأقل قسوة، وزهورها مثل زهور الأقحوان، ولهذا يطلق عليها اسم جوز البحر، ولها رائحة

جميلة وحادة ومفيدة، وبعضهم على كل حال يمتقنون رائحتها، ولا يستطيعون تحمل شمها.

وهكذا عدت إلى ظهر الغليون، أخذاً معي حزمة من الـ Porcella من أجل السلطة، وكف مريم من أجل الرائحة ومن أجل تزيين مخدعي، وبعد عودتي لم أشارك أصحابي بالعشاء، بل صنعت سلطة تعشيتها، وكنت راضياً بها، ومع حلول المساء ازدادت قوة الريح المعاكسة، وهبت بشدة جعلتنا نخاف مع أننا كنا مانزال في الميناء، وأرغم البحارون على الحصول على مزيد من الحبال لربط المركب، لأن التيارات انجرفت وتحركت عبر البحر المفتوح، واندفعت ضد الشعاب الصخرية ومن حولنا، ووصلت حتى إلى المكان الذي وقفنا فيه، وثارَت في حوالي منتصف الليل عاصفة مرعبة جداً رافقتها رياح عنيفة، ورعد وبرق، وأمطار ثقيلة، إلى حد أن مياه المطر جرت إلى داخل حجر نومنا، لذلك لم نعرف الراحة في تلك الليلة، وكان هناك خوف عظيم، مع أننا كنا في ميناء، لأن الماء ضرب بعنف شديد جوانب الغليون، حتى كان عجباً كيف أمكن لأي خشب تحمل مثل هذه الضربات.

وفي اليوم السابع لم تكن الأنواء مناسبة لرحلة جيدة، ولهذا قمت بعد الغداء ثانية بالذهاب إلى الشاطئ، وكان ذلك في القارب، كما فعلنا في اليوم المتقدم، ولم نذهب جميعاً، بل ذهب بعضنا فقط، وكنت أنا بين الداهيين، وبصعوبة وخطر أمكننا الخروج من الغليون إلى القارب، لأن البحر كان هائجاً، وهز كلا من القارب والغليون وأرجحهما صعوداً وهبوطاً، ولهذا لم يتجرأ قائد القارب على تقديمه إلى جوار الغليون، خشية منه أن تحمله الرياح فيضرب جانب الغليون، فيتحطم إلى قطع، لأنه ارتفع عالياً بوساطة الأمواج، فكان أعلى من الغليون، ثم هبط عميقاً إلى حد أننا الذين كنا على سطح الغليون لم نعد قادرين على رؤيته، بسبب الأمواج التي كانت فيما بيننا، وفي مثل هذه الأنواء على

كل من يرغب بالخروج من الغليون والحصول في القارب، الوقوف على سلم الغليون، والانتظار بحذر اقتراب القارب من الغليون، حتى يمكنه الوصول إليه قفزاً، لأن الناس لن يسمحوا للقارب بالاقتراب أكثر من هذا، ويتوجب عليك القفز في اللحظة التي يقترب فيها القارب، لأنك ما لم تقفز، سوف يبتعد عن الغليون بقوة الأمواج، ولدى قفزه نحو القارب، لا يمكنه أن يصون نفسه من الوقوع في الأمام أو في الخلف، على وجهه أو على قفاه، ويقوم الذين على ظهر القارب بإيقافه.

وكانت هذه أعظم اللحظات ذات الخطر العام، التي كان يخضع لها الحجاج، إنما وإن بدت صعبة في البداية، كان مأناً يعتاد الإنسان عليها، حتى تصبح مسألة روتينية عادية، بعدما كانت من قبل لايجرؤ الإنسان على التفكير بها، أو تجربتها بسبب الرعب، ولقد رأيت نساء كن في البداية مليئات بالرعب، لم يتجرأن على النظر إلى البحر، لكن بعد ذلك أصبحن جريئات — بسبب الممارسة — إلى حد أنهن كن يغامرن بالقفز من الغليون إلى القارب، وقد يعتقد الإنسان في البداية أن الأفضل له البقاء على سطح الغليون، وتحمل شقاء البقاء هناك، على أن يغامر بالقفز، ومن ثم الحصول في ميناء جيد ومنعش، ولكن بعدما يجد الإنسان نفسه قد تعرض للقذف بالعواصف وبالمصاعب، وجاع بسبب العوز إلى الطعام على ظهر السفينة، تراه يقدم لدى الوصول إلى ميناء جيد، ويتجرأ على القفز خمس قفزات خطيرة، مفضلاً ذلك على البقاء على ظهر السفينة، وهناك أيضاً المصاعب نفسها عندما يصل القارب إلى الشاطئ، لأنه إذا كان الشاطئ صخرياً ومنحدرًا، لايتجرأ الملاحون على الاقتراب منه، إذا كان البحر هائجاً، ولذلك يتوجب على الإنسان أن يقفز ثانية، إما على الصخور أو في البحر، وفي جميع الأحوال على الإنسان أن يكون متنبهاً وحذراً تماماً تجاه عمق البحر، لأنه عندما يكون البحر هائجاً قد يغطي الصخور العالية، ولهذا يوجد بشكل عام في

الموانئ رجال للخدمة، الذين عندما تتراجع مياه البحر، يسرعون إلى القارب، ويحملون كل واحد من الذين سوف يعطيهم بنساً، وكل من يعبر البحر، يرى هذه الأشياء، وأشياء أخرى كثيرة من هذا النوع.

ودعوني الآن أعود إلى سياق حكايتي، فقد وصلت إلى الشاطئ مع بعض الحجاج والبحارة، وعملنا ناراً على الشاطئ، ومشينا حول التلال، وبذلك أمضينا الوقت حتى المساء، وكان الوقت متأخراً عندما عدنا لتناول عشاءنا على ظهر الغليون، وقد تغلبنا على مخاوف القفز من القارب إلى الغليون.

وفي اليوم الثامن، الذي كان الأحد الثاني بعد الثلاث، استمر الجو مظلماً، والهواء معاكساً، وفي حوالي مابعد الغداء ذهبنا جميعاً تقريباً إلى الشاطئ بالقارب، وهناك ركض بعضهم حول الهضاب التي بلامرات، بينما جلس بعضهم الآخر بلا حراك يتحدثون، وقد تمتعنا بيوم بهيج، من ثم كانت الأوضاع على ظهر ذلك الغليون رائعة إلى أبعد الحدود، وكان هناك سلام ووئام، وصداقة، ووحدة بين جميع الحجاج، وكان الوضع هو المعاكس على ظهر غليون حجي الأول، حيث كان هناك غضب، ونزاع، وخلاف، وكثيراً من الشتائم بقدر مايمكن رؤيته في ص ١١٠-١١١، وعليه عندما كانت الشمس على وشك الغياب، عدنا إلى ظهر الغليون، من أجل تناول طعام العشاء، ولم نتحرك في تلك الليلة، ذلك أن قوة الريح بدأت تتلاشى.

وفي اليوم التاسع جلب الرب كنوز خيراته وقدمها لنا، فقد توفرت رياح طيبة، كنا مسرورين لها كثيراً، فرفعنا المرساتين، وحللنا حبال الربط، ونشرنا الأشرعة، فامتألوا بالهواء، ولم يمض سوى وقت قصير حتى غادرنا الميناء، ومن ثم صرنا في أعالي البحار، وقبل الظهر وصلنا إلى ميناء في دالماشيا اسمه يادرا (زارا)، وهنا طوى القبطان الأشرعة، وأنزل مرساة واحدة، وأنزل القارب، وأرسل بعض البحارة إلى المدينة

مع أوعية لجلب الماء، لأن الماء الذي جلبناه معنا من رويننا، كان قد نفد، ولم يكن على جزر أسارو، ولاقطرة ماء للشرب، ولم يدع القبطان ولا واحداً من الحجاج يغادر السفينة، لأنه عزم على الاقلاع ثانية مباشرة، ويا للعجب عندما كنا راسين هناك، وصل المعلم أوغسطين أيضاً مع غليونيه وتجاوزنا، ولمدة طويلة كان بإمكاننا رؤية غليونيه في البحر، مبحراً أمام ربح طيبة، وأمام هذا المشهد كان قادة غليوننا غاضبين جداً، لأنهم عزموا، واستخدموا كل جهد في سبيل ابقاء غليوننا أمام غليونيه حتى الأرض المقدسة، ولكن مشروعههم حقق الإخفاق، وعندما أحضرت المياه إلى الغليون، لحقنا مباشرة بأوغسطين، وأبحرنا على طول مسار جيد جداً، حيث كان على جانبينا قرى، وقلاع، وأرض مزروعة، ووصلنا إلى يادرا القديمة، ورأينا خرائبها العظيمة، واستطعنا بعون الريح انجاز رحلة جيدة طويلة في ذلك اليوم.

وعلى كل حال توقفت ريحنا الطيبة عند غياب الشمس، وهبت ريح قدرة، تراجعنا أمامها ووجهنا سفيتتنا نحو الجبال، خشية أن تدفع بنا بعيداً عن مسارنا، وعندما أصبحنا بين الجبال، ربطنا سفيتتنا في ميناء مهجور، وأمضينا ليلة مليئة بالعاصفة والرعب بسبب سوء الأنواء والبرق والرعد، وعليه كان الجو مليئاً بأشياء غير موافقة للناس في البحر، أكثر من الذين سكنوا فوق اليابسة، وكان اسم ذلك الميناء أونيوم Oneum، وهو في كراواشيا Crawacia، التي هي مقاطعة في دالماشيا.

ولم تكن هناك ريح في اليوم العاشر، سوى الريح القدرة، وذلك في الصباح الباكر عند شروق الشمس، ويثسنا من مغادرة أونيوم في ذلك اليوم، لكن على كل حال، تغير الهواء بعد مضي ساعتين، فحلوا أربطة الغليون، وساقوه خارج الميناء بوساطة المجاذيف، ووجدنا في الخارج في البحر ريحاً جانبية، لم تكن نافعة كثيرة لنا، وقد حملتنا على طول

الأطراف حتى وقت الغداء، وبعد انتهاء وقت الغداء هبت ريح مواتية وقوية وسعيدة، دفعت السفينة بشكل مفاجيء وبقوة على امتداد طريقها الحقيقي فوق البحر، ولكي تمضي أسرع رفع البحارة الشراع الأمامي (Trin Ketum) فوق القمة الأساسية، وعلقوه حتى عنق القمة الأساسية، وذلك فوق العارضة الرئيسية للشراع، فضلاً عن هذا لقد أخرجوا الظلة، أو غطاء السفينة، الذي يغطي به أحيانا الغليون كله من البداية حتى النهاية، ليحمي الغليون من الشمس والمطر، وجرى مدّه بشكل منحرف عبر الغليون حيث تقوم السارية، وذلك تحت قلع الشراع الأساسي، وقد وصل من طرف إلى طرف، وأمسك الريح كلها من الخلف حتى يساعدنا ذلك على طريقنا، ولذلك مضينا في طريقنا مسرعين جداً، وتجاوزنا مدينة ليسينا، ثم مدينة كورزولا، وكذلك مدناً أخرى كثيرة، سوف أتحديث لكم عنهن — بعون الرب — أثناء عودتي، واستمرت هذه الريح السعيدة والمبهجة ذلك النهار كله، والليلة التالية، التي نمنا خلالها بعمق، ونحن نسير بسرعة وعذوبة، لأن طريق الغليون لم يكن على الجانب، بل كان مستقيماً نحو الأمام، جعلنا ميالين إلى الهدوء، لأنه عندما تكون الريح هادئة ولطيفة، وليست قوية جداً، لن تكون هناك أية حركات يشعر بها الذين في القمرة نظراً لسير السفينة بهدوء، وبدون ضجيج، وينام كل من الحجاج تحت، وعبيد الغليون على السطح بهدوء، ويكون كل شيء ساكناً، باستثناء الذين يراقبون البوصلات، والذي يمسك عصا الدفة، لأن هؤلاء يقومون عن طريق التناوب والترداد بتقديم الشكر من أجل رحلتنا السعيدة، والحظ الجيد، ودوماً يحمدون النسيم، ويشكرون الرب، والعذراء المباركة، والقديسين، ويرد أحدهم على الآخر، ولا يلتزمون الصمت مادامت الريح طيبة، وكل واحد على ظهر المركب يسمع هذا الغناء الصادر عنهم، سوف ينام حتى وإن كان بالعادة لا ينام، مثله في ذلك مثل الطفل الذي لا يعرف الاستقرار والدائم الصراخ، فتقوم أمه فتهدئه عن طريق أغانيها الشجية،

لكن عندما يكون كل شيء هادئاً تراه يصرخ، لأنه مع الأغنية يغطّ في نوم عميق لأن الأغنية تؤكد له حضور أمه، ذلك أن تأثير الحضور أعظم من حلاوة الغناء، ومثل هذا كان الحجاج أكثر هدوءاً، لأنهم بهذا الغناء كانوا يدركون ويتأكدون أن السفينة مبحرة نحو الأمام باستقامة، وأن كل شيء على مايرام، وهذا أكثر أهمية من الأغنية نفسها، وكانوا يتناوبون النداء، مثلما فعل حراس مدينة أولم، عندما كانوا ينادون بساعات الليل، ولا يعيق هذا النداء أي انسان ويمنعه من النوم، بل يرسل القلقين من الناس إلى النوم.

وفي أثناء العواصف، عندما تكون الريح معتدلة وقوية، تركض السفينة بعنف مع تأرجح واهتزاز صعب، ويكون ذلك وهي على مسارها بسرعة فائقة العظمة، سرعة لايمكن أن يجارها سهم أطلق من قوس زيار أوقوس عادي، وغالباً مابرهن الملاحون على صحة ذلك، بالوقوف في المؤخرة مع قوس وارسال سهم باتجاه القيدوم، وهنا لايلحق السهم السفينة، حيث تتغلب عليه بسرعتها، وتدفع الريح السفينة، تدفعها نحو الأمام بوساطة أشرعتها، بقوة تبدو معها مياه البحر وكأنها تسعى لمواجهة القيدوم، ويبدو منقار القيدوم أيضاً وكأنه يشق مياه جدول أو نهر بكل عنف، ولذلك تعلو المياه أحيانا فوق قرني القيدوم، ولأن الماء يندفع بعنف كبير ضد المؤخرة، غالباً مايقفز حتى إلى حجرة القبطان الخاصة، وطالما أن الريح مالىء للأشعة ويدفعهم بقوة متناهية، يبدو الماء وكأنه يجري بالاتجاه المعاكس والمضاد للمؤخرة، بسرعة عظيمة، هذا ومن الصعب لنظر الانسان أن يتابع فيه سرعة البحر.

ويبدو — على الأقل بالنسبة لي — أن السهم عندما يطلق من القوس لايمكن أن يسير بسرعة تساوي جريان الغليون، ذلك أن للغليون سرعة أعظم بعشر مرات من سرعة البحر، حيث أن السفن

تسير بسرعة من الصعب تصديقها، عندما يكون الريح والبحر في هذه الوضعية، وأنا أعتقد أن الابحار خلال يوم وليلة مع ريح طيبة، تقطع السفينة خلالها مسافة تساوي مابين كولون والبندقية، لأنه عندما تكون السفينة، تتقدم نحو الأمام ببطء، ويعدّ تقدمها كأنه لا شيء، تراها مع ذلك لا يستطيع حصان أن يعدو بسرعة تعادل حركتها البطيئة تلك، وعندما نقول بأن سرعتها متلاشية، مامن سباق يمكنه أن يجارها حتى وإن كانت تزحف زحفاً، وعلى كل حال يصدف أن لا تتحرك السفينة مطلقاً، أو تقف كلية، وسوف يكون ذلك مزعجاً جداً للذين هم على ظهرها، وبناء عليه تقدمنا تقدماً عظيماً على طريقنا، في تلك الليلة ذات السرعة الكبيرة، والأنواء اللطيفة، ومات في تلك الأثناء فارس نبيل هولندي، حيث جرت عملية دفنه حسبما أوضحنا فيما تقدم في الصفحة ٢٥٤، وقد دفناه في أعماق البحر.

وفي اليوم الحادي عشر، الذي كان يوم عيد القديس برنابا الرسول، تابعنا الابحار والتقدم بنجاح، واجتزنا مدينة راغوثةا، وهي المدينة الرئيسية في دالماشيا كلها مع سكلافونيا، التي سوف أحدثكم عنها أثناء عودتي، ورأينا في ذلك اليوم حدود الممالك، وهو المكان الذي تتصل به إمارات دالماشيا، وإليريا، ودوقية ألبانيا، والمورة أو آخيا، ومملكة هنغاريا، ومملكة البوسنة، ومقدونيا، تتصل به مع بلاد الاغريق، ذلك أن هذه الممالك تمتد حتى شاطئ البحر، وتشكل حدود المسيحية نحو الشمال، لأن آخيا، وألبانيا، والبوسنة، ومقدونية تابعة للأتراك، وهكذا أمضينا يوماً ممتعاً، مع ريح طيبة، ومناظر جميلة من كل جانب، وقام البحارة في هذا اليوم باصطياد السمك، لأنهم رأوا حشوداً لاتعد ولا تحصى من السمك الكبير، ولم يكن لديهم وسيلة للصيد سوى رمح حاد جداً برأس له ثلاث شعب، وقد وقفوا على أطراف الغليون، وعندما كانوا يرون سمكة كانوا بسرعة يصيبنها ويجلبونها، وفي الحقيقة

لقد جرحوا كثيراً، لكن الذي أمسكوه كان قليلاً، ونحو حلول المساء ضعفت ريحنا الطيبة، إنما بعد غياب الشمس عادت قوية كما كانت من قبل، واستمرت طوال الليل جيدة، ولهذا قطعنا مسافة طويلة.

وفي اليوم الثاني عشر تابعنا الابرار بريح طيبة، وكنا في أعالي البحر، بعيدين عن اليابسة، ورأينا مدينة سكودروم Scodrum التي يسمونها سكوتاروم Scutarum، وهي التي أعطاها البنادقة في السنة الماضية إلى الأتراك حتى يتخلصوا من متاعبهم، ثم اجتزنا دوراسيوم Duracium (دورازو)، التي هي الآن مدينة كبيرة عائدة للأتراك، وهي التي كان قسطنطين قد قرر فيها مضى إقامة القسطنطينية في موقعها، وهذا مأسوف أخبركم به أثناء عودتي، واجتزنا أيضاً مدينة لافيلون Lav-ilone التي إلى جانبها يوجد نهر يجري في أراضي الأتراك، ويعبرها إلى البحر، ويبحر الأتراك من وسط بلادهم على هذا النهر، من أجل اصطيد المسيحيين، وأطلقنا طوال ذلك اليوم جميع الشراع على أمل أن يتمكن من إمساك الريح، وذلك حسبما قلناه من قبل وفعلناه في اليوم السابع، ومع غياب الشمس ازدادت ريحنا الجيدة قوة، وأنزلنا بعضاً من شراعنا خشية أن نسير أسرع كثيراً في الظلام، وفي ذلك المساء كنا جميعاً مسرورين، ومبتهجين، وظل المزمار يلعب حتى غدت الدنيا مظلمة، وامتلكنا طوال الليل ريحاً طيبة.

وفي اليوم الثالث عشر، ازدادت الريح في المساء المبكر قوة، ثم انتقلت إلى مكان آخر، ولهذا قام القادة بنقل الأشرعة، وعندما أديرت عارضة الشراع، انعطفت السفينة بشكل مفاجيء ومالت على طرف واحد، وجرى من ثم قذف جميع الحجاج الذين كانوا مايزالون نائمين من فرشهم، وكان هناك دعر عظيم في القمرة، لكن على السطح لم يكن هناك سبب للخوف، وعندما أشرقت الشمس رأينا على يسارنا جزيرة كورزيري Gorziri، التي يسمونها كورفو Corphu والتي هي أول بلاد

الاغريق، واجتزنا هذه الجزيرة بسرعة، لأن الطاعون كان منتشرًا بها، ولدى متابعة إبحارنا على طريقنا دخلنا إلى بحر إيروس Epirus، وبذلك غدت أبوليا وصقلية على يميننا، وبتوفيق عبرنا في ذلك اليوم عددًا كبيرًا من الجزر التركية، وخلفناهن وراءنا، لكن عندما غابت الشمس ضعفت ريحنا الطيبة، ولم نقطع في تلك الليلة أية مسافة أبدًا، الأمر الذي أغضبنا كثيرًا، لأن يوم الأحد بات قريبًا، وكنا نأمل أن نكون في ذلك اليوم في ميتونا Metona (Modon) وأن نسمع قداسًا هناك، لكن الشيطان لم يكن راضيًا بأن نفعل ذلك.

وتابعنا في اليوم الرابع عشر سيرنا على طريقنا، ورأينا جبال أخيا، قرية من مدينة باتراس، حيث جرى صلب القديس اندرو، وهنا وقفنا عند اشراق الشمس بلاحرار، لأننا لم نمتلك ريحا تساعدنا، وبعد تناول طعام الغداء هبت ريح ضعيفة، جعلت الغليون يجبو ببطيء باتجاه مدينة ميتونا، التي يسمونها مودون، فإلى هناك رغبت بالذهاب، ومع اقتراب المساء انبعثت ريح قوية طيبة، حملتنا بعيدًا عن جزر سامافرا Sa-mafra، وأخذتنا نحو جبال المورة، وإلى مقاطعة كارنزا Carenza، ووصلنا بعدها إلى بلفنتور Belventor.

وعندما تأخر الوقت رأينا على يسارنا بلاد أخيا، التي هي ملك للأتراك، ورأينا على يسارنا جزيرة من دون جبال، يسمونها ستيرفيل Stirvale (Stamphane)، ويسكن فوق هذه الجزيرة رهبان اغريق تابعين لطريقة القديس باسيل، وهؤلاء لم يستطع الأتراك مطلقًا طردهم من هناك، مع أنهم خاضوا ضدهم عددًا كبيرًا من المعارك، لأنه ما أن يأتي الأتراك، حتى يندفع الرهبان بأسلحتهم، ويرغمون على الفرار كل من يقابلهم، وقد فعلوا هذا مرارًا، لذلك لم يعد الأتراك يتجرأون على الذهاب إلى هناك لمحاربتهم، وقد أبحرنا نحو هذه الجزيرة، وعندما عبرناها تركناها على يسارنا، وعندما جاء الليل تراجعت ريحنا الطيبة،

وقطعنا مسافة قصيرة جداً في تلك الليلة.

وفي الخامس عشر، الذي كان الأحد الثالث بعد التثليث، وهو يوم عيد القديس فيتوس Vitus والقديس موديستوس Modestus، وعند اشراق الشمس، بدأ عبيد الغليون بتحريك الغليون بوساطة مجاذيفهم، لأن الريح لم تكن طيبة، وكنا قاصدين ميناء ميتونا، الذي لم نكن بعيدين عنه أكثر من مسافة ميل ألماني، وبعد بذل جهد كبير دخلنا إليه، وكان ذلك في حوالي الساعة الثامنة قبل الظهر، ونزلنا مباشرة إلى القارب، وجذبنا إلى المدينة، حيث وجدنا الحجاج الذين أبحروا مع المعلم أوغسطين، وقد أخذت موالى وبعض الحجاج الآخرين إلى كنيسة الرهبان المبشرين، واستمعنا هناك إلى قداس رفيع.

وكان رئيس الدير في هذا المكان والرهبان الآخرين يعرفونني معرفة جيدة من رحلة حجي الأولى، وبعد انتهاء القداس ذهبنا إلى بيت الخباز، حيث يجري خبز البقسماط من أجل السفر البحري، وكان يسكن هناك عجوز ألماني، وقد تولى طبخ غداءنا، وتغدينا، ومضى بقية الحجاج إلى بيت السادة التيوتون، وأعدوا هناك طعاماً لأنفسهم، وذهبنا بعد تناول الغداء وصعدنا إلى أسوار البلدة، ومشينا من حولهم ونحن فوقهم، وأعجبنا بالدفاعات التي لا ترام، ولم يكن الموضع جزيرة، بل جزءاً من اليابسة، وكان الجميع من ممتلكات الترك، وفي طريق عودتي سوف أحدثكم أكثر حول هذا، وفي هذا المرفأ كان غليون المعلم أوغسطين راسياً أيضاً، وكان جميع الحجاج بالمدينة، ولذلك كوناً صداقة سعيدة وبهيجة معهم، مع أن ذلك لم يفرح القبطانيين، اللذان رأيا أنه بسبب خصامهما، ولأنهما كانا متعادين أحدهما ضد الآخر، علينا نحن أن نصاب بالداء نفسه، وبناء عليه يتوجب علينا تجنب صداقة ورفقة بعضنا بعضاً، المهم أننا جلبنا الحجاج الآخرين إلى ظهر غليوننا وأريناهم إياه، وهم بدورهم أخذونا إلى غليونهم لرؤيته، وهكذا أمضينا

النهار معا حتى حلول وقت العشاء، ونحن مسرورين مع بعضنا بعضاً، كوننا التقينا في وسط البحر، لأنه قد قيل بأن مدينة مودون قائمة في وسط الطريق فيما بين البندقية وبين القدس، وفي حوالي وقت العشاء زعقت أبواق القبطانيين تدعو الحجاج إلى السفيتين، وعندما سمعنا هذه الشارة صعدنا إلى ظهري الغليونيين، وفي ذلك المساء نفسه غادر أوغسطين وحجابه الميناء، لكننا بقينا نحن هناك حتى الصباح. ولسوف أصف هذه المدينة أثناء عودتي.

وفي اليوم السادس عشر، وقبل أن يضيء الصباح، قام العبيد بالتجذيف بالغليون وأخرجوه من الميناء، فأوصلوه حتى زاوية الجبل، حيث أودعناه بيد الريح، ودخلنا بحر ماليان، واجتزنا مدينة كورونا، القائمة فوق صخرة عالية، وهبت هناك بعد منتصف النهار، ريح قوية، وقد أبحرنا مسرعين نحو جذور (كذا) ماليا Malea، من دون توقف أو عائق، وضاعفنا الرأس هناك من دون متاعب، الأمر الذي يحدث دوماً: لأن الانسان يواجه في ذلك المكان المخاطر دوماً والمصاعب، وأبحرنا الليل كله بتلك الريح، واجتزنا عدداً كبيراً من الشعاب والصخور بحظ جيد، لأن ذلك البحر، من الصعب جداً الملاحة فيه من دون حظ جيد صادر عن ريح طيبة.

رأينا في اليوم السابع عشر جزيرة كريت، والخذق أو «ستابولس Centapolis»، وفي بعد ظهر هذا اليوم تراجعت قوة الريح وصارت ضعيفة، ودفعتنا الأمواج إلى هنا وهناك دون أن نتقدم إلى الأمام، ولم نستطع الوصول إلى كريت في ذلك اليوم، وتجنب القبطان الآخر، أعني أوغسطين جزيرة كريت وأبحر من ماليا إلى جزر سيكلادس Cy-clades، لكن قبطاننا لم ير تجاوز كريت، ذلك أنه رغب بزيارة السيد بطريك القسطنطينية، الذي شغل منصب رئيس أساقفة كريت، وكان هذا البطريك نفسه من أهل البندقية، وكان والد قبطاننا، ولهذا

السبب قرر التوقف في تلك الجزيرة، لكن خشية منه أن يتخذ الحجاج هذه المسألة أساساً للشكوى ضده، جلب في ذلك اليوم إليهم قطعة من القماش الحريري، اسمه أطلس atles ، تساوي قيمتها عشر دوقيات، ليلعبوا عليها الورق متراهنين، وقد ربح هذه القطعة اللورد بيرفون هوهن ريخبيرغ، وكان واحداً من موالي، وكان هناك كميات ضخمة من الأرباح المالية تمت على ظهر الغليون في مختلف الألعاب، لأن كل يوم من المقامرة العميقة والأثمة، تبدد بين النبلاء وذلك بالورق والنرد، وكان أحدهم الرابع، وآخر الخاسر، وكان في كل يوم هناك إنغماس في الملذات الحسية، إنها بدون خلافات، وإنني أعرف بعض الفرسان الشبان، والرجال النبلاء قد جلبوا معهم مبالغ كبيرة من المال، لأنه كان بنيتهم الذهاب إلى القديسة كاترين، وكان لديهم ما يكفي لذلك، لكن بوسائط هذه المقامرة الملعونة أصبحوا في حالة عوز وفقير، إلى حد أنهم باتوا غير قادرين على تحمل الانفاق بالارتحال حتى القدس، ولولا أن رفاقهم ساعدوهم، لعادوا إلى الوطن دون تسلم فروسياتهم، وفي أيام الأعياد، عندما كنت أعظ بكلمة الرب، على ظهر الغليون، وجهت اللائمة إلى هؤلاء المقامرین طويلاً وبحدة، لكن الذين انتقدتهم تصلبوا أكثر في مواقفهم، وكانوا يجلسون في كل يوم من الصباح حتى المساء يقامرون بخمسين أو ستين، أو مائة أو مائتي دوقية، منحنيين على المنضدة مثل وتد وذلك من أجل لعبة واحدة، وعلى ذلك توفر في ذلك اليوم سرور عظيم، مثل سرور الحمقى، لأن جماعتنا ربحت قطعة من قماش الحرير.

وكان لدينا في اليوم الثامن عشر، بعد شروق الشمس، ريحاً ضعيفة، حركت سفينتنا ببطء نحو كريت، وفي حوالي الظهر رأينا غليونا مسلحاً يتحرك تحركاً قرصانياً ليس بعيداً عنها، وقد استدعاه المسؤول العسكري لدينا بالطريقة التالية: فقد أطلق طلقة مدفع نحوه، ولدى

سماعهم الصوت، قام الذين يوجهون الغليون بعطف قيدومه نحونا، وجلبوه بالتجذيف إلى جوارنا، ثم انهم أنزلوا قارباً وجاء به القبطان والمسؤول الحربي، وصعدا إلى ظهر مركبنا، وتكلما لبعض الوقت مع قبطاننا ورجال التوجيه لدينا، لأن ذلك الغليون كان ملكاً للبندقية مثلما كان غليوننا أيضاً، وكانت هذه هي العادة في البحر، عندما يرى غليونان أو أكثر أحدهما الآخر، يقوم الذي يعد نفسه أعلى من الآخر، باستدعائه وفق الطريقة المتقدمة الوصف، وإذا كان الغليون بندقياً، يستدعى الأكبر الأدنى، وينبغي على الأدنى أن يقدم إلى حضرته، لكن إذا لم يكن الغليون بندقياً، مع ذلك إنه إذا قدم عندما دعي فذلك خير، لكن إذا لم يقدم، عندها يقوم على الفور الذي استدعى بالإسراع نحوه بقدر ما يستطيع ويشتبك بالقتال معه، حيث يكون قد جهز مدافعه، وقسيه، ونشابه، ومجانيقه، وعندما يرى المركب الآخر هذا، يقوم، إذا كان خائفاً، بانزال شراعه، كشارة على الخضوع والصدافة، وإذا لم ينزل شراعه، فذلك يعني المقاومة والقتال، ويستعد المركبان للحرب.

ومع حلول المساء وصلنا إلى كريت، وبحثنا عن حانة يمكننا أن نتعشى فيها، غير أننا لم نجد حانة سوى واحدة أستحي أن أتكلم عنها، فقد كانت بيتاً سيء السمعة، تتولى إدارته امرأة ألمانية، وقامت السيدة، التي اقتدنا إليها، عندما رأت أننا مكونين من نبلاء وكهنة، أو رهبان، بتنظيف بيتها، ووضعت هذا البيت بجميع غرفه تحت خدمتنا، وكانت سيدة أدبية، ومحترمة، وامرأة عاقلة، وحصلت على كل مااحتجناه بكميات كبيرة، وحصلنا على عشاء فاخر، مع خمرة كريمية، وهي التي نسميها مالفوسيه Malvoisie، ووجدنا في ذلك اليوم عنباً ناضجاً، من النوعين الأسود والأبيض بكميات كبيرة، لكن بما أن الريح كانت طيبة، أخبرونا بوجوب الاقلاع في تلك الليلة، وبناء عليه عندما انتهى عشاءنا عدنا إلى غليوننا وأمضينا الليل هناك.

وفي اليوم التاسع عشر، الذي كان يوم عيد القديس جيرفاس Ger- vais والقديس بروتياس Protais، عندما استيقظنا في الصباح، ونحن أملين بالاقلاع، رأينا عبيد الغليون يحملون سلعهم إلى خارج الغليون، لأخذها إلى السوق لعرضها للبيع، وعندما رأينا هذا عرفنا بأن الغليون لن يقلع، ولذلك نزلنا مباشرة إلى القارب، ودخلنا إلى المدينة، حيث سمعنا قداساً في كنيسة من كنائس الرهبان المبشرين، وذهبنا بعد القداس إلى حانتنا، وحصلنا على غداء جيد، وبعد ما تغدينا قمنا بزيارة جميع الكنائس والديرة في المدينة، ولسوف أتحدث عن هؤلاء بشكل كامل أثناء عودتي، ومع حلول المساء، استدعينا جميعاً إلى الغليون بوساطة أصوات الأبواق، وما أن أصبحنا على ظهر الغليون حتى همدت الريح الطيبة التي هبت طوال النهار، ولهذا بقينا في الميناء طوال الليل حيث كنا، مع كثير من الارهاق، والشكوى، وقلة الصبر.

وفي اليوم العشرين، وقبل اشراق الصباح، أخرجوا الغليون من ميناء كريت بالتجذيف وذلك بعد بذل جهد كبير، وأبحرنا مع ربح ضعيفة نحو جزيرة ستانديا Standia، وجزيرة ستانديا تواجه جزيرة كريت، وقد وقفنا فيما بينها دون أن نتقدم، وعلى كل حال، قدمت في حوالي الظهر رياح طيبة وجديدة، أخرجتنا من بحر كريت إلى البحر الإيحي، وإلى جزر السيكلاد Cyclades ، حيث أبحرنا من خلالها طوال هذا اليوم، وطوال الليلة التالية.

وفي اليوم الحادي والعشرين كنا في وسط السيكلاد، نبذل جهدنا للوصول إلى جزيرة رودس التي هي أول جزر السيكلاد والرئيسية بينهن، وواقعة على الجهة الشرقية منهن، وخرجنا في حوالي الظهر من دائرة السيكلاد، إلى منطقة اسمها نابوليا، وهذه المنطقة هي الأولى التي هاجمها الأتراك فبعدها جالوا حول العالم لمدة طويلة، قدموا إلى هذه المنطقة، فقتلوا واستعبدوا الذين سكنوا فيها، وبدأوا حكمهم هناك،

وعندما انطلقوا من هذه المنطقة، استولوا على آسيا الصغرى كلها، وانتزعوها من المسيحيين، وجعلوها خاضعة لهم.

وتراجعت قوة الرياح بعد منتصف النهار لمدة تقارب الساعة، غير أنها هبت بعد ذلك بقوة أعظم ودفعت بنا فخرجنا من نابوليا نحو رودس، وبسرعة وصلنا إلى جبال رودس، ونحو مدينة كولوسوس Colossus ، التي هي المدينة الرئيسية في تلك الجزيرة، وفي الوقت ذاته، غابت الشمس، وحل الليل علينا قبل أن تتمكن من الدخول إلى ميناء كولوسوس، وتمكنا — على كل حال — بعون ضوء القمر من الابحار إلى داخل الميناء، حيث ربطنا السفينة، ونمنا تلك الليلة، ووجدنا في الميناء غليون المعلم أوغسطين، الذي كان مع حجاجه قد نزلوا إلى شاطئ المدينة.

وكان اليوم الثاني والعشرين هو الأحد الرابع بعد الثلاث، وكان يوم عيد العشرة آلاف شهيد، وبعدما حصلنا على إذن من المقدم الأعلى لفرسان القدس — الذي من دون إبداء موافقته مامن أحد يسمح له بالدخول إلى المدينة — غادرنا غليوننا، ودخلنا إلى مدينة كولوسوس، التي يسمونها رودس، وهنا ذهبنا إلى قلعة الفرسان وصعدنا إلى كنيسة القديس يوحنا، حيث سمعنا قداساً عالياً، وبعد القداس جاء بعض فرسان القديس يوحنا — وكانوا من النبلاء الألمان — إلى موالي، حيث قدموا التحية لهم باحترام كبير وسرور، وأروهم آثارهم المقدسة، وحضروا بعد ذلك لهم غداء فاخراً في بيت محترم، وهناك تناولنا غداءنا، وبعد الغداء، غادر المعلم أوغسطين وحجاجه، وعندما رأى قبطاننا بيرو لاندو هذا، نفخ في بوقه، واستدعانا إلى ظهر السفينة، ولذلك أسرعنا نحو ظهر غليوننا، وعلى كل حال، خلفنا وراءنا في تلك المدينة عدداً من الفرسان الجيدين والشرفاء، كانوا مريضين جداً، غير قادرين على متابعة السفر، وكان بينهم جيروثيوس فون راتزنهوزن Je-

rotheus Von Ratzenhusen، وعددًا من فرسان القديس يوحنا، الذين جاءوا من البندقية معنا، وقد حزنا جميعاً لفقدانهم، لأننا عقدنا على ظهر السفينة صداقة على درجة عالية من الجودة والتعاش، ومثلما يحدث في أماكن الدراسة، والأماكن المائية، يكون الفراق الذي يحل محزنًا، وبقي هناك خلفنا المرأة الوحيدة التي كانت معنا، بسبب أنها ضاعت بذهابها إلى إحدى الكنائس خارج البلدة، غير مفترضة بأن الغليون سوف يبحر في ذلك اليوم، وباستثناء زوجها، مامن أحد كان أسفا لغياب هذه المرأة، لأنها جعلت من نفسها ثقيلة الظل بدون حدود، بسبب كلامها السخيف، وفضولها حيث كانت تصطاد في القضايا الخاسرة.

وكان هناك أيضاً رجلاً فقيراً، أخذه القبطان معنا محبة للرب، لكنه ماكان يرغب بأخذه مسافة أبعد، ووقف هذا الرجل على الشاطئ وهو يبكي وينوح، لأنه سيكون غير قادر على الذهاب إلى القدس، وعطف عليه موالي، وأحضروه إلى ظهر السفينة، وقدموا النفقات من أجل رحلته ووضعوا تحت حمايتهم رجلاً آخر من بلادنا، كان غير قادر على متابعة السفر، وسددوا عنه النفقات كذلك، وبناء عليه أقلعنا في ذلك المساء.

وفي اليوم الثالث والعشرين، وفي عشية عيد القديس يوحنا المعمدان، أبحرنا أمام ربح قوية جداً، وكنا قد أبحرنا في الليلة المتقدمة وسرنا بسرعة كبيرة جداً، إلى حد أننا لم نر في الصباح يابسة، بل فقط البحر الأديرياتيكي (الايجي؟) والكاربائي، وعند غياب الشمس ولدى ازدياد الظلام، استعد بشارتنا لعمل نار القديس يوحنا على ظهر الغليون، وقد عملوها كمايلي: لقد أخذوا أكثر من أربعين مصباحاً مصنوعين من الخشب ومن قرن شفاف، وعلقوهم واحداً فوق الآخر فوق حبل طويل، ثم عندما أشعلت المصابيح، رفعوهم إلى الأعلى إلى مافوق القمة

الرئيسية، وذلك بشكل أن المصابيح المشتعلة تعلقت نزولاً من القمة الرئيسية حتى مقاعد التجذيف، وبذلك أضاءت الغليون كله، ومن أجل هذا المشهد جاء جميع الناس إلى السطح، من القمرة، والقيدوم، ومن الغرف الداخلية للغليون، ووقفوا حولها، وهناك بدأ البوقية ينفخون بأبواقهم، وغنى عبيد الغليون مع البحارة الآخرين، وطربوا، وابتهجوا، ورقصوا، وصفقوا بأيديهم، وتفاعل الذين وقفوا هناك مع صيحات السرور، والتصفيق بالأيدي، وابتهجوا للاحترام الذي أعطي للرائد المبارك جداً لربنا.

وقبل هذا لم أر ممارسة التصفيق بالأيدي للفرح، الذي تمت الإشارة إليه في المزمور السادس والأربعين، الذي جاء فيه قوله: «يا جميع الأمم صفقوا بالأيدى، اهتفوا للرب بصوت النصر»، كما أنني لم أكن أعتقد أن التصفيق العام لعدد كبير من الرجال بأيديهم في وقت واحد، عندما يكون صادراً عن السرور، سيكون له تأثير عظيم بأن يحرك عقل الانسان نحو السرور، وهكذا ابتهجنا كثيراً على ظهر الغليون حتى حوالي منتصف الليل، بينما كنا مبحرين أثناء ذلك كله بسرعة وهدوء ونحن على طريقنا، وتمددنا بعد هذا وأسلمنا أنفسنا للنوم، نحن الحجاج والبحارة معاً، وتركنا السفينة مندفعة أمام الريح، لكن الريح ينبغي عدم الوثوق بها لوحدها، من دون عمل الانسان، والمراقبة أيضاً، لأنها قد تتغير في لحظة واحدة، كما سيتضح في حكايتي.

وفي اليوم الرابع والعشرين، الذي كان يوم عيد القديس يوحنا المعمدان، رأينا قبرص في الصباح الباكر، ولدى رؤية الملاحين في غليوننا لها، غضبوا غضباً عظيماً، لأنهم رأوا أنفسهم أنهم قد تاهوا، وابتعدوا عن الطريق الصحيح فوق البحر، وضيعوا طريقهم عندما كانوا نائمين، لأن الغليون انحرف بعيداً جداً نحو اليسار، ولولا أن موجه الغليون قد نام تلك الليلة، لكان الغليون في هذا الصباح في

واحد من مراسي قبرص المرغوب بها، ولهذا تفجر خلاف ونزاع فيما بين القبطان، ورجال القيادة، وتنازع المرشدون فيما بينهم أنفسهم، ووجهوا اللوم إلى الملاحين، ولذلك عطفوا الغليون نحو اليمين، بعيداً عن المنحى الذي كان يسير عليه، وعدنا في حوالي ساعة العشاء إلى مسارنا الصحيح، لكن ماأن أصبحنا على مسارنا الصحيح، حتى نامت الريح، وهكذا لم نتقدم في تلك الليلة مطلقاً.

وفي اليوم الخامس والعشرين وصلنا إلى مقابل أقدم موانئ قبرص، الذي اسمه بافوس، وهو الذي ورد ذكره في أعمال الرسل الاصحاح ١٣/٦ و ١٣، ورأينا على مقربة من هناك جبل فينوس الذي سوف أحدثكم عنه في طريق عودتي، وسرنا ببطء شديد حتى الظهر، وعند الظهر هبت ريح طيبة، حملتنا بسرعة من هناك، وبسرعة أبحرنا على طول ساحل مملكة قبرص واجتازنا مينائي بيسكوبي Piscopi، ولياسول، وفي حوالي ساعة العشاء أبحرنا إلى داخل ميناء سالينا sal-inae وجعلنا سفيتنا تتوقف بثبات بالمرساتين وبحبال الأريطة، وعلى الفور غادر القبطان وخدمه إلى الشاطئ، حيث استأجر خيولاً، وذهب إلى مدينة نيقوسيا، وهي المدينة الرئيسية في قبرص، فقد ذهب إلى بلاط المملكة، لرؤية زوجته، التي كانت السيدة المسؤولة عن غرفة نوم الملكة التي أتيت على ذكرها في ص ١١٦، ولسوف أقدم وصفاً لذلك في ص ١٤٣ من القسم الثاني.

وعندما تركنا القبطان، وقفنا نحن الحجاج على سطح الغليون، ننظر نحو الشاطئ، وقد وقفت معهم، أحدث الذين كانوا على مقربة مني عن جفاف هذا الميناء، وعن طبيعة البلاد، لأنني أمضيت هناك أياماً كثيرة خلال حجي الأول، وبينت لموالي الحجاج الأماكن التي أعرفها على الشاطئ، وبين أشياء أريتهم جبل الصليب المقدس، وهو أعلى جبل في مملكة قبرص، الذي توجد على قمته كنيسة معلق فيها صليب

الصلب الذي صلب على الجانب الأيمن للمسيح، وحدثت هؤلاء السادة بقصة ذلك الصليب كلها، كما سترون فيما بعد، وفيما وقف موالي والحجاج الآخرون هناك، يتساءلون حول ذلك الصليب، وينظرون نحو الجبل، الذي كان يبعد عنا مسافة خمسة أميال ألمانية، قلت لهم: «انتبهوا يا إخواني الأعزاء إلى أن قبطاننا قد ذهب إلى نيقوسيا، ومن الصعب أن يعود في الغد، وسيكون لدينا في الغد يوماً طويلاً ومتعباً، والآن، وبناء عليه، على الذي يرغب باتباعي إلى الجبل المقدس، أن يأتي إلى مؤخرة الغليون، ولسوف نزور الصليب المبارك، ولسوف نعود في الغد في وقت مناسب.

وما إن قلت هذا، حتى ذهبت إلى المؤخرة، وتبعني إلى هناك عدد كبير من النبلاء، ظانين أنني قلت ذلك وفعلته مزاحاً، وقمت وأنا واقف عند القيدوم فاكتريت خادماً يعرف الطريق إلى الصليب المقدس ووعدته بأنه سوف يتسلم قطعة نقود marcella من كل واحد من رفاقي، واكتريت أيضاً قارباً وقائدًا له ليأخذنا إلى الشاطئ، وعندما رأى النبلاء أنني كنت جاداً، تبددوا وتركوني، وبقي معي على كل حال، هؤلاء الحجاج:

— اللورد هنري أوف سكومبيرغ Schomberg وكان فارساً نبيلًا، ورجلاً شجاعاً.

— المعلم جون، وكان كاهناً، وشماساً رئيساً من ترانسلفانيا Ttan-sylvania، وكان رجلاً تقياً وعالمًا.

— المعلم كاسبار سيكولي Caspar siculi، وكان فارساً، وشاباً قوياً وشجاعاً.

— المعلم بوركارد نوسدورفير Burchard Nudorfer، وكان فارساً، ورجلاً جيداً ومرحاً.

— رجل اسمه رودلف Rudolph، وكان سويسرياً من ثورغو

thurgau، وكان رجلاً طويلاً وأميناً.

— رجل اسمه جون، وكان تاجراً من فلاندرز، وكان رجلاً متشوقاً كثيراً.

— وأنا الراهب فيلكس، المحرك الروحي لهؤلاء جميعاً، والخادم الذي أكثريته، وكان اسمه اندرو.

وذهبنا نحن الثمانية، ونزلنا من الغليون إلى القارب، وعندما صرنا على الشاطئ، بدأنا نبحت كيف يمكننا تدبر حجننا، لأن الساعة كانت متأخرة، وكانت الشمس قد غابت، وبدأت الدنيا تصبح مظلمة، وأخذنا دليلنا وخادمنا في الظلام إلى قرية اسمها أورنيكا Ornyca، على بعد ميل واحد عن البحر، حيث أيقظ رجلاً من الريف كان يعرفه، وقدم هذا الريفى لنا الخمرة، والخبز، والجبن، وقد أكلنا وشربنا، واستأجرنا أيضاً ثمانية بغال من القرية، التي ركبناها، وانطلقنا مسرورين، وكان القمر في الوقت نفسه قد أشرق، والسرور ملأ قلوبنا، مثلما طرد النور الظلام، ذلك أننا كنا نحن الثمانية، رفقة مختارين، وكان المناخ حسناً، والمنطقة جميلة، والطريق جيداً، وبالإضافة إلى هذا كله كانت نباتات تلك الأرض تصدر روائح طيبة جداً، لأن أعشاب تلك الجزيرة كلها تقريباً كانت توابل من مختلف الأنواع، تعطي أطيب الروائح في أوقات الليل، وذلك عندما يكونوا مبللين بالندى، وتابعنا رحلتنا حتى إشراق نجمة الصبح — الزهرة — التي تتقدم على إشراق الشمس، وكان ذلك عندما وصلنا إلى قرية اسمها القديس الصليب، حيث ربطنا حيواناتنا، وأشعلنا ناراً، وكان رفاقي قد سكروا، غير أنني تماسكت، لأنني كنت أنوي الاحتفال بقداس فوق الجبل المقدس، وقد تمددنا واسترحنا لبعض الوقت، وقد نمت حتى عم الضياء، وكنا مضطجعين على الأرض إلى جانب حيواناتنا.

وفي اليوم السادس والعشرين، الذي كان عيد الشهيدين المقدسين: يوحنا وبولص، عندما استيقظنا طلبنا من الاغريق الذين استرحنا أمام بيتهم إعداد وجبة غداء جيدة لنا، لأننا عزمنا على العودة إليه من الجبل، من دون أن نكون قد تناولنا طعام الافطار، وهكذا امتطينا ظهور دوابنا وانطلقنا، حيث كان الجبل المقدس أمامنا، يرتعد في أعاليه، ووصلنا عند سفح الجبل إلى واد شهبي، كان يجري في وسطه جدول ماء عذب ونقي، كان شاطئيه مليئين بأكثر الزهور جمالاً، وهي زهور لم أعرف أسماءها، وكانت هناك نباتات ذوات روائح حلوة، كما كانت هناك أشجار محملة بقرون الخروب، التي يسميها العلماء يون «خبز القديس يوحنا»، واتخذنا من هذا الوادي طريقنا صعوداً إلى الجبل وتحت ظل بارد جداً، بسبب أن الشمس، مع أنها كانت تبعث الدفء في الجبل كله بوساطة أشعتها، لم تصل هذه الأشعة إلى الوادي، ووصلنا على الفور إلى المكان الأكثر انحداراً من الجبل، الذي لم نستطع صعوده ونحن على ظهور بغالنا، ولذلك ربطنا دوابنا إلى أشجار هناك، وتسلقنا على أقدامنا مع جهد كبير وتعرق عظيم، لأن الجبل كان مرتفعاً، وشديد الانحدار، ويقال إنه يشبه في كل شيء جبل الطور في الأرض المقدسة، الذي عليه تغيرت هيئة ربنا، وقد سمعت هذا من رجل تسلق الجبلين معا.

وعندما وصلنا إلى القمة، جثونا على ركبنا مصلين أمام الكنيسة، وجلسنا في الهواء الطلق قبل أن ندخل إلى الكنيسة، وذلك بقصد أن نسترد أنفاسنا، وأن نمسح العرق الذي كنا متجللين به، وأن نتخلص من الحر الذي كنا فيه ونبرد قليلاً، وبعدما فعلنا هذا، أعددت نفسي أولاً، كما هو لائق، ودخلت إلى الكنيسة، وقرعت الناقوس حتى يسمع الحافظ لغرفة المقدسات ويأتي، وقدم على الفور كاهن، جاهل باللغة اللاتينية، وقد أحضر كتباً لاتينية قديمة جداً من أجل القداسات، كما أحضر أشياء أخرى لها حاجة في القداس، وبعد قرع الناقوس قرأت

قداساً من أجل الصليب المقدس، مع مجموعات من أجل الشهيدين المقدسين، يوحنا وبولص ومن أجل الرحالة، وبعد القداس، أدت نفسي نحو إخواني ورفاقي، وألقيت فيهم خطاباً، أخبرتهم فيه كيف ينبغي عليهم تقديم الاحترام الجدير للصليب لدى رؤيتهم له، وأوضح لهم في أي المجالات يختلف هذا الصليب الذي سنراه عن صليب مخلصنا، وفي أي المجالات هو مشابه له، فضلاً عن هذا حذرهم أن لا يكونوا فضولين أكثر من اللازم عندما يروه، وأن لا يرغبوا برؤية معجزة هناك، لأننا عندما سوف نأتي للضريح الأكثر قداسة لربنا في القدس سوف لن نرى معجزة، فكم سيكون الأمر أقل، الذي نتوقعه من هذا الصليب هنا؟ وقد قلت هذا بسبب أننا سمعنا حكايات غريبة وشاذة حول الصليب الذي كنا سنراه هناك، وأخذت بعد هذا شمعة مشتعلة بيدي، وذهبت إلى المكان الذي كان فيه الصليب، وتبعني حجاجي إلى هناك، وجاء الحافظ لغرفة المقدسات معهم، وعندما وصلنا إلى المكان فتحه الحافظ لغرفة المقدسات، وعلى هذا وجدنا الصليب المقدس واضحاً من الممكن لنا رؤيته بأعيننا، ثم إنني صعدت أولاً إلى الصليب، وقبلته، ونظرت إليه بدقة وحرص من الأمام ومن الخلف، وجاء بعدي رفاقي الذين قدموا له الاحترام، ونظروا إليه بحرص، واحداً بعد الآخر، وكان صليباً كبيراً إلى حد ما، مغطى من الأمام بألواح من الفضة، وكان مذهباً، ولكن من الجهة التي تطل على الجدار كان غير مغطى، وكان مصنوعاً من خشب سليم، من نوع خشب الصنوبر، وقد قالوا بأن هذا الصليب هو صليب دسمة Dysma ، اللص الذي كان على الجانب الأيمن من ربنا، وهو الذي وعده بالجنة عندما كان على الصليب، ذلك أن حنة المباركة، وجدت الصليبان الثلاثة تحت جبل الجمجمة، حيث أطاحت بالصليب الذي عاد إلى جسمه Gesma، اللص الذي كان على يساره، واحتفظت بالصليب الثاني، أي صليب دسمة، أما الصليب الثالث، الذي كان صليب المسيح، فقد عرضته ليراه

العالم كله، حتى يمكن أن يبجل بما جدير به، وقد جلبت صليبيها، أي الصليب الذي كان صليب دسمه، جلبته كاملاً من القدس إلى هذا الجبل، وبنت هنا ديراً كبيراً للرهبان، وكنيسة وضعت فيها هذا الصليب، الذي هو أثر فائق القداسة، وقد أمرت ببناء حجرة، أو غرفة مغلقة في الجدار المواجه للمذبح، ووضعت الصليب، وبقي الصليب هناك دونما تحريك حتى هذا اليوم، وعلى كل حال بالنسبة للدير نفسه جرى اجتثاته حتى الأرض من قبل الأتراك، والمسلمين، وقد تشتت الرهبان البندكتيون الذين سكنوا فيه، ووضع الصليب وترتيبه في مكانه مدهش، فالصليب واقف في نافذة مظلمة، ويديه موضوعتين في فتحات معمولة في الجدار، أما قدمه فموضوع في فتحه معمولة في الأرضية، غير أن الحفر التي تحتوي على الذراعين وعلى القدم واسعة جداً، وأوسع من أي معيار، ولا يلامس الصليب الجدار في أي مكان، بل هو محرراً، وبعيداً عن ملاسة الجدار في أي مكان وجانب، والمعجزة المحكية في الخارج حول الصليب، هي أنه معلق بالهواء دون أي رباط، ومع ذلك هو واقف بشكل ثابت، وكأنه مثبت بأقوى المسامير، أو أنه مبني في داخل الجدار، وهو طبعاً غير مبني بالجدار أبداً، لأن الفتحات الثلاث واسعة جداً، إلى حد أن انساناً يمكنه أن يضع يده فيهن، ومن ثم يدرك بالملاسة أنه لا يوجد هناك أية عملية ربط، وكذلك لا يوجد في الخلف أو عند رأس الصليب.

ولقد كان بإمكانني بالحقيقة البحث في هذا الأمر عن قرب أكثر مما فعلت، غير أنني خفت الرب، وليس لي الحق في أن أفعل مامنعت الآخرين أن يفعلوه، فلقد تسلقت هذا الجبل لإظهار الاحترام نحو هذا الصليب، وليس للبحث عما إذا كانت هناك معجزة أم لم تكن، أو لامتحان الرب، ولربما كان هذا الصليب جديراً أكثر بالاحترام، لو أنهم ضموا إليه قطعة من الصليب الحقيقي للمسيح، ومعلق في هذه البيعة

ناقوس، قرعناه قبل القداس وبعده، وقلت لرفاقي بأننا لن نسمع صوت ناقوس ثانية حتى نعود إلى العالم المسيحي، وكان هذا أمراً صحيحاً، ذلك أنني لم أسمع هنا صوت ناقوس خلال مدة أربعة أشهر، وذلك باستثناء هذا الناقوس، الذي نعتقد أنه قد وضع هنا من قبل القديسة حنة، التي وضعت الصليب هنا.

وعندما انتهينا من الكنيسة، خرجنا منها، ودخلنا إلى بيت الحافظ للآثار المقدسة، على أمل أن نجد شيئاً ننعش أنفسنا به، لكن البيت كان فارغاً وخاوياً، ولم يكن فيه شيئاً مثل البقسماط والماء البارد، كما أن الرجل لم يكن قادراً أن يتحدث إلينا، لأنه كان اغريقياً صرفاً، وكانت اللاتينية بالنسبة له لغة بربرية، وكانت الايطالية عربية، والألمانية تترية، وبناء عليه غادرنا دون أن ننعش أنفسنا، وطفنا حول قلة الجبل، حيث وجدنا بعض الأسوار القديمة، وهي من بقايا معبد فينوس، الذي من حيثما نظرت منه، سواء من عبر الجزيرة أو طولياً، كنت ترى البحر، لكن بسبب الحر الشديد، كان الهواء رطباً وغائماً، فلم نستطع رؤية الأرض المقدسة، كما لم نستطع رؤية جبال أرمينيا، أو كبدوكيه، أو سورية المجوفة، أو الجليل، وكل هؤلاء كان ينبغي أن نكون قادرين على رؤيتهم، لو أن الهواء كان صافياً، ودخلنا بعد هذا إلى الكنيسة وسلمنا على الصليب المقدس وقبلناه، وأسرعنا نازلين من الجبل إلى حيث وقفت دوابنا، وتوجهنا على ظهورهم إلى قرية الصليب المقدس، حيث وجدنا غداءنا —الذي تشوقنا إليه طويلاً— جاهزاً، وهو الذي أكلناه مع تقديم الشكر، ولم يكن بإمكاننا مغادرة المكان على الفور، لأن الحرارة كانت عالية جداً، وكانت الشمس محرقة مثل النار، ولذلك دخلنا إلى الكنيسة الاغريقية التي قامت على مقربة من حائتنا، حتى تتمكن من الصلاة فيها، ولكي نستريح في الظل قليلاً، وبينما نحن جلوس جاء رجل دين وقال لنا باللاتينية: «ما الذي تفعلونه في كنيسة

اغريقية؟ يوجد هنا على مقربة منكم كنيسة لاتينية تابعة لطقوسكم، فهناك ينبغي أن تصلوا وأن تريحوا أنفسكم»، وبناء عليه نهضنا، وذهبنا معه إلى الكنيسة اللاتينية، وهنا جلب من المحفوظات ذراع القديسة حنة أم العذراء المباركة، الذي صدوراً عن الاحترام له، كان محفوظاً بالفضة، كما أنه قدم إلينا مسباراً، كان أيضاً مغطى بالطريقة نفسها بالفضة، وقال بأن هذا كان واحداً من مسامير المسيح، وهي المسامير التي علق بها عندما كان على الصليب، وقد قبلنا هذه الآثار، ولمسناهم بمجوهراتنا، حسب الوصف الذي سلف وقدمناه.

وقد وجدت أن رجل الدين هذا، كان راهباً، الأمر الذي لم أكن قادراً على اكتشافه من ملابسه لأنه كان مرتدياً لعباءة من وبر الجمل، وكان رجلاً مسؤولاً عن الكنيستين، أي الاغريقية واللاتينية، وفي هذا المجال كان يقوم بالطقوس للكنيستين، ففي أيام الأحد، كان يؤدي القداس في الكنيسة اللاتينية، وينتهي وفق الطريقة الغربية بخبز فطير، وعندما كان ينتهي من هذا العمل، كان يعبر إلى الكنيسة الاغريقية، ويكمل القداس وفق الطريقة الشرقية بخبز مخمر، ولم يحظ هذا برضاى وأزعجني كثيراً، واعتقدت أن هذا الكاهن هرطيا من أسوأ الأنواع، ذلك أنه يقود الناس مضللاً لهم هنا وهناك، ذلك أن هذين الطقسين لا يمكن ممارستهما من قبل انسان واحد، هو الشخص نفسه، كما لا يجوز فعل ذلك في المدينة نفسها، لعدم توافقهما في عدد كبير من العقائد الهامة، وصحيح أنه في العصور القديمة أن الكنيسة الرومانية اعتادت أن تتساهل تجاه الطقوس الاغريقية، إنما حتى آنذاك لم يسمح لانسان واحد أن يكون في الوقت ذاته اغريقياً ولاتينياً، وتعاضم هذا الأمر الآن عندما تدين كنيستنا الاغريق وتعدهم منشقين وهرطقة، ويقوم الاغريق في قداساتهم بالنيل منا والحط ن شأننا، ويعلنون في كل يوم أحد إلى شعبهم بأن الكنيسة الرومانية محرومة كنسياً، وهم يكرهوننا ويكرهون

طقوسنا وعلى هذا الأساس تبلغ بهم الكراهية إلى حد الرغبة بموتنا جميعاً، فكيف يمكن لأي رجل مستقيم، وكاثوليكي جيد أن يكون في وقت واحد لاتينيا واغريقيا؟.

وما من واحد يتصرف هكذا، إلا لإرضاء شرهه أو حبه للسرور، ذلك أن مثل هؤلاء الناس يتقبلون كل ما هو فيه الرضا لأي من الطقسين والعقيدتين، وأن يرفض الأشياء التي هي صعبة ومزعجة لحملها سواء أكانت تابعة لهذا الجانب أو الطرف الآخر، وقام عدد كبير من الكهنة اللاتين بتحويل أنفسهم إلى العقيدة الاغريقية، حتى يمكنهم المغامرة في ميدان الزواج، ومع هذا تراهم في الوقت نفسه يرغبون بالتمتع بحرية الكهنة الموجودة في العقيدة اللاتينية، التي هي ليست عقيدتهم.

وهكذا قمنا بعد الظهر، عندما بدأ الحر يضعف، بامتطاء ظهور دوابنا، ومضيئنا نازلين نحو البحر حتى كنيسة القديس اللعازر، التي قامت على الشاطئ، في مواجهة غليوننا، وعلى بعد مسافة طويلة عن البحر، وهنا قمنا بإعادة دوابنا إلى أصحابهم، وكان هناك على الشاطئ سوق كبير، وقد اجتمع فيه حشد كبير من الناس من أجل غليوننا، الذي جلب منه ملاحونا سلعهم، وكانوا يتولون بيعهم إلى القبارصة، وكان ذلك موجوداً في كل مكان نزلوا به، وبعدما شاهدنا السوق، عدنا إلى غليوننا، إلى سادتنا ورفاقنا، الذين وجدناهم آسفين، وغاضبين بسبب أن القبطان لم يكن قد عاد بعد، وكانوا قد أمضوا نهاراً منهكاً جداً، وتحلق جميع الحجاج من حولنا ليسمعوا حول مارأيناه، وعندما سمعوا قصتنا، قالوا بأننا كنا محظوظين، وأنهم آسفين لأنهم لم يذهبوا معنا.

وفي اليوم السابع والعشرين، عندما وجدنا بأن القبطان تأخر بالعودة، قام بعض الحجاج، وكنت واحداً منهم، بالنزول بأنفسهم إلى الشاطئ لأمضاء النهار هناك، وبقي الشطر الأعظم من الحجاج على ظهر

الغليون، خوفاً من هواء قبرص، الذي هو مضر بشكل عام للألمان، مالم يكونوا أقوياء، وأصحاء في أجسادهم، وبناء عليه فإن النبلاء الذين خافوا على أنفسهم ولم يغامروا بها لم ينزلوا إلى قبرص، وعندما كنا على الشاطئ ذهبنا إلى المكان الذي يعمل فيه الملح، حيث أمكننا أن نرى من خلال الخرائب، أنه قد كانت هناك مدينة ذات حجم لم يكن صغيراً، وكان خلف المدينة مكان محاط بتلال، حيث يتكون هناك عندما يفيض البحر، بحيرة صغيرة، وعندما تتراجع مياه البحر بسبب الجزر، تتعرض المياه التي تبقى هناك إلى الجفاف بسبب حرارة الشمس، والذي يبقى عبارة عن أفضل أنواع الملح، وأعظمها بياضاً وثنناً، ويحمل هذا الملح إلى كثير من البلاد للبيع، وتتلقى ملكة قبرص كثيراً من المال من الذين يتجارون بالملح.

ورأيت في أثناء حجي الأول عدداً كبيراً من الرجال يعملون في فصل الملح عن الماء، وهو الملح الذي لم يكن قد جف بعد، وقد كان هناك كثيراً من الأكوام الطويلة من الملح قائمة هناك وكأنها تلال صغيرة، لكن الآن لم يكن هناك ولا انسان واحد، وكان حيث قامت من قبل أكوام الملح، مياه عميقة إلى حد ما، وعند حلول وقت العشاء عدنا إلى ظهر غليوننا، وكنا غاضبين جداً من القبطان، ووصلت في ذلك المساء، في قارب، المرأة التي خلفناها في رودس، وقد أشفقت على هذه المخلوقة المسكينة، بسبب المصاعب التي تعرضت لها، بسبب إبحار الغليون.

وفي اليوم الثامن والعشرين، جاء القبطان من نيقوسيا، قبل طلوع الشمس، مع بعض القبارصة الذين رغبوا برؤية الأماكن المقدسة في القدس، وكان بينهم امرأة تقية، من بلاط الملكة، أرادت أن تنهي حياتها في القدس في جوار الأماكن المقدسة، ورفعنا المرساتين، وأبحرنا ببطء شديد ونحن خارجين من الميناء، لأن الريح كانت ضعيفة، وازدادت عند الظهيرة قوة، لابل صارت قدرة، ودفعنا بسرعة وبقوة إلى الخلف

إلى الساحل الصخري لجزيرة قبرص، وعندما صرنا هناك ألقينا بالدليل، فوجدنا أن المجس كان قريباً من القعر، ولهذا خشية منا من أن نواجه أية صخرة أو Bitholassum أنزلنا الأشرعة، وأبعدنا السفينة من بين أيدي الريح، وألقينا بمرساتينا وانتظرنا ريحاً طيبة، وكان هذا التأخير مزعجاً جداً لنا، لأننا كنا نتحرق شوقاً لرؤية الأرض المقدسة، عارفين أن علينا عدم رؤية بلاد أخرى قبل أن نصل إلى تلك البلاد التي تشوقنا لها.

وكان تأخرنا مزعجاً جداً، فوق كل شيء إلى القبطان مع أعوانه، الذين خشوا من أن يكون أوغسطين الذي ذهب قبلنا مع حجاجه، قد حصل على الاذن بدخول الأرض المقدسة قبل وصولنا إلى هناك، بسبب لو أن ذلك حدث، لكننا مرغمين على المكوث في الميناء حتى ينهي أولئك حجهم، ويعودوا إلى ظهر البحر ثانية، فذلك سوف يعني الموت بالنسبة لنا، وفوق تحملنا، لأننا لو وجدناهم في ميناء الأرض المقدسة، لكننا مرغمين على العودة إلى قبرص مباشرة، وأن نتظر هناك عودتهم، وهبت بعد غياب الشمس ريح خفيفة، عهد إليها بالسفينة، وزحفنا قاطعين مسافة قصيرة في تلك الليلة.

وفي اليوم التاسع والعشرين، الذي كان يوم عيد الرسولين المقدسين: القديس بطرس، والقديس بولص، والذي كان أيضاً الأحد الخامس بعد الثلاثين، دفعت بنا ريح قذرة نحو الخلف من جديد، حتى وصلنا إلى ميناء ليماسول، الذي كنا قد اجتزناه يوم الأربعاء الماضي، ورسونا هناك، وهنا حمل البحارة الفؤوس، وذهبوا بالقارب إلى الشاطئ، حيث دغلة من الأشجار، منها قطعوا بعض الأخشاب من أجل نار المطبخ، من دون أن يتذكروا، أن ذلك اليوم كان يوم عيد الرسولين، ويوم أحد أيضاً، وعندما أصبح الوقت متأخراً، رفعنا المرساة، وأبحرنا مسرعين حيث ابتعدنا عن قبرص ودخلنا إلى البحر المفتوح، حيث لم يكن

بإمكاننا رؤية يابسة، لآمن الأرض وآمن الجزيرة، لأننا كنا بعيدين كثيراً.

وفي يوم الثلاثين، الذين هو يوم ذكرى القديس بولص، واليوم الأخير من حزيران، أبحرنا مسرعين، وتطلعنا بشوق عظيم لنرى المشهد البهيج للبلاد المجيدة التي كنا متشوقين كثيراً لها، حتى موسى، بعدما اجتاز خلال قفار الصحراء، واقترب من أرض الميعاد، قام لشدة تشوقه بالصعود إلى قمة جبل فسجه، حيث رأى من هناك الأرض المقدسة، وذلك حسبما جاء الخبر في سفر التثنية: ١ / ٣٤، وهكذا كنا نحن الذين قدمنا من بلادنا عبر البحر الكبير، حيث تسلقنا باستمرار إلى أعلى أجزاء السفينة، لتتمكن بأعيننا من ألقاء نظرة على البلاد التي كنا قاصدين إليها، وكل من يرى هذه البلاد من البحر، يعد نفسه رجلاً سعيداً، ولهذا رجونا ورشونا صغار البحارة الذين كانوا يتولون المراقبة من القمة الأساسية، أن يديموا النظر بكل عناية من حولهم، من جميع جهات البحر، وأن يندروننا بالصراخ، في اللحظة التي يرون فيها الأرض المقدسة، وقد نوينا أن نعطي هدية جيدة للذي سوف نسمع صوته أولاً يحمل إلينا البشائر السارة، وماكان مصدر هذا أي نوع من التفاخر، بل مجرد وصف صحيح لما حدث، وأعترف أنا شخصياً، أنني من جهتي في رحلتي حجي، كنت خلال الأيام، التي كنت متوقفاً فيها اقتراب رؤية الأرض المقدسة، لم أهتم لا بالأكل ولا بالشرب، أو النوم، وكانت ساعات الظلام المعدة لاستراحة الناس مزعجة جداً بالنسبة إليّ، وكان فراشي شوكة بالنسبة إليّ، وكان مخدعي جهنماً، ولم أعد قادراً لأعلى القراءة ولا على الكتابة، ولا على الحديث مع الناس مثلاً كنت من قبل، بل اقتصر سروري على الجلوس فوق قيدوم الغليون، على القرنين هناك، وأن أنظر من هناك بدون توقف عبر البحر الواسع، علني أتمكن بتعب عيني من اطفاء الحمى في عقلي، وكنت حتى ألحن الليل،

لانتزاعه مني وسائط الرؤية، أعني الضوء، وكنت خلال هذه الأيام كلها أجلس فوق القيدوم قبل الفجر، الذي كنت أرحب بأشعته ببهجة، ومن ثم كنت أنتظر أشعة الشمس، حيث كنت ألقى بتيقظ بناظري عبر وجه البحر، وأثبتهما نحو الشرق، الذي لم أفترض أنه تحت الماء، بسبب ارتفاع البحر، ولذلك أكن أنظر نحو الأعلى، بل أثبت نظري دونها تحريك على ذلك الجزء من السماء الذي بدا لي أنه متصل بالبحر، أو هو جزء من الأفق، وعندما كانت تشرق الشمس، اعتدت على أن أنظر بتشوق فيما إذا كنت أستطيع أن أرى أي عائق أو جسم غير شفاف بين الجسد المضيء للشمس وبين الجسد الصافي والواضح للماء.

وعلى هذا فإن أي قداس يعترض، لا يمكن أن يكون سوى الأرض المقدسة، التي أعرف أنها واقعة إلى الشرق منا، لأنه عندما كان الغليون يسبح فوق أعالي البحار، وكانت الشمس تشرق، لقد بدت لي وكأنها أشرقت من خلال الماء، وأن مامن شيء يمكن رؤيته بين الشمس وبين الماء، وكان الشيء نفسه يحدث عند غياب الشمس أيضاً، حيث كان يبدو لي أن الشمس قد غطست في الماء، ولكن عندما بات الغليون على بعد حوالي عشرين أو ثلاثين ميلاً ألمانيا من البلاد، بدت الشمس لي وكأنها قادمة من جبال تلك البلاد، ولذلك كان من الممكن رؤية الجبال في ضوء الفجر قبل الشمس، لأنهم قاموا فيما بين الشمس والبحر، ولكن ما أن ترتفع الشمس فوق الجبال، ويمضي على ذلك ساعتين أو ثلاث ساعات، حتى تصبح هذه الجبال غير مرئية، ولهذا اعتدت على الوقوف قرب القيدوم في أوقات الغسق المبكر، آملاً برؤية الأرض المقدسة قبل اشراق الشمس، واعتدت أيضاً على تحية الشمس المشرقة بسرور، لأنه من دون مساعدة الشمس لا يمكنني رؤية تلك البلاد، لكن عندما كنت أرى أن الشمس قد ارتفعت عالية فوق البحر، دون رؤية للبلاد أثناء ارتفاعها، كنت أنصرف حزينا، ومن ثم كنت أشغل نفسي

لبعض الوقت بمسائل أخرى، وكان هذا هو الحال أيضاً مع الحجاج الآخرين، لكن ليس الجميع، بل فقط الذين أحبوا الأرض المقدسة وتشوقوا إليها، Ach, mein Gott، كم هو عذب يمكن أن يكون حب الأرض السماوية للتقي، وباعث على الاستغراق بالتأمل، عندما يقوم بعض الحجاج المتجولين، من غير الأتقياء، والتعساء والمذنبين، بالشعور بالسروور العميق، وبالتشوق الحار إلى الأرض الدنيوية، ومثلما فعلت مريم المجدلية، وقامت وهي تتحرق بنار الحب، فانحنى بنفسها مراراً، ونظرت في الضريح، حيث كان محبوبها قد تمدد، مثل هذا يفعل الحاج المحب، حيث غالباً ما كان يقوم وهو في سفينة، ويحدق بثبات نحو الشرق، عله يرى البلاد التي فيها ضريح محبوبه، وهكذا اعتدنا أن نجلس اليوم بطوله، ننظر عبر البحر، محاولين فيما إذا كنا قادرين على رؤية شيء غير الماء، وكان بعضهم أحياناً، يتصور من خلال قوة التخيل، أنهم قد رأوا البلاد، وكانوا على ذلك يدعون الآخرين إليهم، ويطلبون منهم التطلع، وكانوا ينشغلون معهم بنقاش تقوي، حيث يعلن طرف بأنه قد رأى البلاد، وينكر الطرف الآخر ذلك، وكانوا في بعض الأحيان أثناء النقاش يقوم أحدهم بالتراهن مع آخر بأنه كان مصيباً، وكانا يحيلان القضية إلى نظر انسان آخر، كان جالساً على القمة الأساسية، وعندما كان يعطي قراره، كان أحدهما يعطي الآخر زجاجة من الخمرة المالفوسية، أو شيئاً ما آخر تراهننا عليه، وكنا بالوقت نفسه نبهر بتقدم، وكانت هناك ريح طيبة جداً، ولطيفة، ولقد بدا لنا بأن البحر المالح نفسه قد بدأ يتحول إلى عذب، وقد منحنا إبحار طيب، وأن هذا كان بسبب قربه من عذوبة تلك البلاد التي كانت تفيض بالعسل والحليب، وهكذا عبر ذلك اليوم مع الليل، ونتيجة لذلك وصل شهر حزيران إلى نهايته.

هنا انتهى الفصل الثالث

طريقة تقديم وصف الحج في الأرض المقدسة والقدس

أما الآن وقد جلبتني جولاتي، بفضل نعمة الرب، عبر البحر، إلى الأرض المقدسة، سوف أشرع في المستقبل بالحديث عن مسيرة حجنا يوماً فيوماً، وأن أبدأ — كما هو معتاد — كل يوم بالمساء المتقدم، وهكذا بعدما يزور الانسان بعض الأماكن المقدسة، يأتي وصفها بعد ذلك، ومنذ الآن سوف أقوم بوصف جميع الأماكن التي امتد إليها حجنا، والتي زرناها، ولن أمزج أوصافي وأدخل فيها وصف الأماكن التي لم يذهب إليها حجاجنا، ولن أصف جميع الأرض المقدسة، أو الأوضاع القديمة لمدينة القدس، وذلك باستثناء ما أجبر على ذكره من أماكن أنا لم أرها شخصياً، وعلى كل من أراد الاطلاع على أجمل الأوصاف القديمة للبلاد المقدسة، ليقم بقراءة كتاب الراهب بوتشارد — الذي كان من طائفة الرهبان المبشرين، والذي توجد نسخة منه في مكتبة الرهبان الدومنيكان — أو الرهبان المبشرين، في أولم، ومن هذا الكتاب، قام رفيقي الحاج، اللورد ذي المولد النييل، برنارد فـون بريتنباخ Braitenbach ، الذي كان عميد الكنيسة الكاثدرائية في مينز، بنسخ وصف الأرض المقدسة، حيث أقحم ذلك في كتاب يوميات رحلة حجه.

obeikandi.com

الفصل الرابع

ويحتوي على أعمال الحجاج في الأرض المقدسة خلال شهر تموز مع وصف للأماكن المقدسة في القدس وفيما حولها

كان شهر تموز شهر بهجة الحج، فهو الشهر الذي ظهرت في يومه الأول الأرض الأكثر تبجيلاً، ظهرت إلى الحجاج المذكورة أعمالهم في هذا الكتاب، فقد أبحرنا بسرعة وتقدم من بحر بامفيليا Pamphylia، إلى بحر سورية وفينيقيا، وبعدما دفعنا من هناك نحو الجنوب، وصلنا في تلك الليلة نفسها إلى بحر فلسطين المرغوب به، وما أن بدأ الفجر بالاضاءة، حتى أضاءت هناك أيضاً البلاد، التي هي أكثر نوراً من الشمس، وأعني بذلك الأرض المقدسة، التي هي بلاد كنعان، البلاد التي اسمها أعلى من كل اسم، فما أن رآها رجل المراقبة الذي كان جالساً فوق القمة الأساسية، حتى انفجر يبكي ويصرخ قائلاً: «سادي الحجاج، انهضوا، وتعالوا إلى السطح، وانظروا إلى البلاد التي تشوقتم إلى رؤيتها بأعينكم، ولدى سماع هذا الصراخ، اندفع الجميع من كل زاوية من زوايا الغليون، رجالاً ونساء، وشيوخاً وأطفالاً، ومرضى وأصحاء، وتسلقوا نحو الأعلى، عليهم يرون البلاد، التي من أجلها تركوا بلادهم، وعرضوا أنفسهم إلى كثير من المصاعب وإلى خطر الموت، وعلى كل حال بما أننا كنا مانزال على مسافة بعيدة، لم نكن قادرين على رؤية أي شيء باستثناء البحر، غير أن البحارة قد أعلنوا أنهم يستطيعون رؤية البلاد، لأنهم كانوا معتادين على البحر، ويمكنهم التمييز بين السفن واليابسة، حتى وإن كانوا مايزالون على مسافة بعيدة، وبدأنا نحن أنفسنا نرى القمم ورؤوس الجبال، منبعثة وكأنها خارجة من البحر.

وكان ملاحونا مايزالون يتشككون حول أي البلاد من الممكن أن تكون هي، فقد قال بعضهم بأنها كانت كبدوكية، وقال بعضهم الآخر بأنها كانت كليكية، وبعضهم قال بأنها سورية الفينيقية، وصرح الشطر الأكبر منهم بأن كبدوكية كانت على جهة اليسار منا، وأنا قد صرنا بعيدين عنها بعدما اجتزناها، وعلى هذا كنا في اتجاه أنطاكية، وأن البلاد التي ظهرت على جهة يسارنا كانت سورية الفينيقية، وأن الذي أمامنا، على بعد مسافة كبيرة، كانت فلسطين، أو فلسطين، المتصلة بالأرض المقدسة، وقد كانت بالفعل كذلك، وعندما لم يعد هناك من شك بأن الذي رأيناه كان الأرض المقدسة، وأن جبالها هي التي كانت أمام أعيننا، عندها أمر القبطان بأن على الناس جميعاً الهدوء، وأكد عن طريق صوت المنادي بأن هذه كانت هي الأرض المباركة، التي فيها جرى الحمل بيسوع المسيح ابن الرب، وفيها ولد، وعاش، وصلب، ومات، ودفن، وقام ثانية من ضريحه في اليوم الثالث، وذلك مانعلنه ونعتقده بثبات، وبناء عليه أخبرنا أنها تواجهنا، وأنه ينبغي علينا أن نقدم الشكر مباشرة لمخلصنا، وأن نغني ترنيمة نعبر بها عن سعادتنا بصوت مرتفع.

وبناء عليه قام الحاجان، اللذان كانا كاهنين، وراهبين، واللذان امتلكا صوتاً جيداً، فسارا على مجارة مقاعد التجذيف حتى موضع السارية، أي إلى المكان الذي جرت العادة على قراءة القداس فيه، وهناك شرعاً معاً يغنيان بصوت مرتفع ترنيمة أمبروز وأوغسطين (Te Deum laudamus) التي شارك فيها جميع رجال الدين الآخرين الذين كانوا بين الحضور، وغنوها كما تغنى في الكنائس، حيث غنى كل إنسان وفقاً للحن الذي يغنى في جوقة موطنه، وأنا لم أسمع قط مثل هذه الأغنية من حيث العذوبة والمتعة، لأنه كانت هناك أصوات كثيرة، وقد جعلها تعدد الأصوات المتنافرة كما لو كانت موسيقى عذبة ومتناسقة، لأن الجميع مثل بعضهم غنوا الكلمات نفسها، لكن الألحان

كانت مختلفة، ومع ذلك تألفت مع بعضها بشكل عذب، وكان شيئاً ممتعاً سماع مثل هذا العدد الكبير من الكهنة يغنون الأغنية نفسها مع بعضهم صدوراً عن السعادة في قلوبهم، وقد كان هناك عدد كبير من الرهبان اللاتين، والسكلافونيين، والايطاليين، واللومبارديين، والغاليين، والفرنجة، والألمان، والانكليز، والاييرلنديين، والهنگار، والسكوت، والداشيين، والبوهيميين، والاسبان، وكانت هناك أعداد كبيرة ممن تكلم اللغة نفسها، لكنهم جاءوا من أسقفيات مختلفة، وانتموا إلى طوائف دينية مختلفة.

ولقد غنى هؤلاء جميعاً أغنية Te Deum، التي شارك فيها حتى العلمانيون من الحجاج وطاقم الغليون مع بعضهم، وصرخوا عالياً لسرورهم بحظنا السعيد، ونفخ البواقون بصوت مرتفع، وصوتوا بآلات الـ Shawms وواحد منهم بآلات الـ Bogadellus والـ Jon- gleur، وقرعوا على الطبل وعلى الـ Sack but، في حين نفخ آخرون بالزمامير وموسيقى القرب، وفي الوقت نفسه طأطأ بعضهم وجوههم نحو سطح السفينة وصلوا وهم متوجهون نحو الأرض المقدسة، وبكى آخرون سروراً وهم يغنون، وهكذا غنى الجميع أغنية جديدة أمام عرش الرب، وغنت الأرض والبحر مع أصواتهم، وبدلاً لنا ونحن نغني أن غليوننا قد انحنى تحت أقدامنا وأبحر بسرعة أكبر، شاقاً الأمواج بحرية أعظم، وقد ملأت الريح الشراع تماماً، وتحركت المياه بوساطة الريح، فأرسلتنا بسرعة أعظم، وعندما فرغنا من أغاني شكرنا، صوت البواقون بالدعوة للغداء، وجعل كل انسان، وهو مسرور، نفسه مستعداً ليجلس إلى المائدة.

وحدث أن واحداً من الكهنة، وكان رجلاً ثقيلاً ومحترماً، ومتقدماً بالسنين، وكان ينام في مخدعه على يميني، كان مسرعاً نحو مخدعه، بعد الغناء، وعندما لمست قدمه الدرجة الأولى من السلم، التي كانت ناعمة

جداً بوساطة العمل الدائم عليها، انزلق، وسقط بشكل عنيف نحو الأسفل في داخل القمر، وتمدد هناك وكأنه ميت، وبناء عليه أسرعنا جميعاً لمساعدة أحمينا، وكان مهشم الرأس، مرتجف الأطراف، فحملناه إلى فراشه على أنه كان ميتاً، لكن بعد مضي عدة ساعات عاد إلى وعيه، وقد ربطت جراحه وعولج طيباً، وبعد مضي عدة أيام فيما بعد صار أحسن .

وبعد الغداء وقفنا على جوانب السفينة، وكان بإمكاننا رؤية الجبال فقط، التي بدت لنا جرداء وبضياء، ورأينا بعد الظهرية جبالا عالية نحو الشمال، كان بينها وبين أنفسنا، وعلى مقربة من البحر جبل الكرمل، في مقاطعة فينيقية، وعندما حددت به، تذكرت كيف أن النبي المقدس الإشع قد صلى على ذلك الجبل من أجل المطر، وذلك عندما لم تمطر لمدة ثلاث سنوات وستة أشهر، وكيف أنه وهو يصلي، ارتفعت غيمة صغيرة من هذا البحر، تشبه طبعة قدم انسان، هطل منها مطر عظيم، وذلك حسبما نقرأ في سفر الملوك الثالث — الاصحاح ١٨ .

وفكرت أيضاً، كيف أن الملك شاؤول بنى فوق بناء مقبب على ذلك الجبل قوس نصر وفق طرائق الشعوب نقش عليه أخبار انتصاراته، ورفع عاليًا إلى حد يمكن رؤيته من قبل الذين يرتحلون بكل من البحر والبر، وبذلك أغضب الرب كثيراً، وذلك حسبما يمكن قراءة ذلك في الاصحاح الخامس عشر من سفر الملوك الأول، وتساءلت أيضاً لماذا شبه العريس في الاصحاح السابع من أغنية سليمان رأس عروسه بهذا الجبل قائلاً: «رأسك عليك مثل الكرمل» (نشيد الانشاد ٧/٥)، ومن هذا الجبل وبسبب كثرة خيراته، أطلق على البلاد المقدسة كلها اسم الكرمل، كما جاء عند إرميا الاصحاح الثاني: ٧، قوله: «وأنتيت بكم إلى أرض الكرمل» (في النص العربي: إلى أرض بساتين لتأكلوا ثمرها).

ومن هذا الجبل حصل الرهبان الكرمليون على أصلهم، وفي العصور

القديمة امتلكوا ديراً كبيراً هناك، وتأسست هذه الطائفة من قبل واحد اسمه ألبرت، كان بطريك القدس، في العصر الذي استولى فيه المسيحيون اللاتين على القدس، وأمرهم ألبرت المتقدم الذكر بارتداء رداء كهنوتي ليكون ثوباً خارجياً، وأن يكون من الحرير مع عدة خطوط أفقية عريضة لونها رمادي، وقالوا بأنهم فعلوا هذا لأن النبي إلياس قد لبس ذلك، وهذا أمر، لا يمكن — على كل حال — البرهنة عليه لا من النصوص الشرعية المقدسة، ولا من أي مصدر موثوق، وقام بعد أمد قصير البابا هو نيروس الثالث، فغير هذا الرداء الكهنوتي المخطط إلى رداء أبيض وأكد وجود الطائفة ووافق عليها تحت اسم «طائفة العذراء المباركة مريم الكرملية»، وهم يقولون بأن سلطان مصر قد اعتنى بهذه الطائفة وأولاهها اهتمامه بمنحها احتراماً زائداً، ورعاية، مع مساعدات مالية، ومنافع أخرى، من أجل ذكرى النبي إلياس، الذي يقدره المسلمون كثيراً، غير أنه فعل ذلك طالما كانوا يرتدون ثوبهم المتقدم ذكره، لكن عندما غيروه طردهم من بلاده، ومن جميع ممالكه، وبناء عليه أرغموا على مغادرة جبل الكرمل، وعندما حدث ذلك انتشروا الآن في الخارج في جميع الأراضي المسيحية، ولولا أن الكرمليين لم يتخذوا الرداء الأبيض لكان بإمكانهم الإقامة في جبلهم حتى هذا اليوم بدون معيقات من قبل المسلمين، لأن الأردية البيضاء لها مكانة سامية بين المسلمين، حيث لا يجوز لأي مسيحي استخدامهم، ولهذا السبب عندما كان الرهبان المبشرين يرتدون الأزياء البيضاء، جرى طردهم من حقل الدم، الذي شروه من السلطان مقابل كثير من الذهب، وفي هذه الأيام، إذا ما أقدم الرهبان الفرنسيون على لبس الأردية البيضاء، لن يدعهم المسلمون يقفون في القدس.

ويوجد عند سفح جبل الكرمل، جدول قيشون، فهناك قتل النبي إلياس أنبياء بعل، وذلك حسبما ورد في الاصحاح الثامن عشر من سفر

الملك الثالث (الأول)، وعند سفحه أيضاً هناك مدن صور، وصيدا، وعكا أو بطوليس، وهي مدن عظيمة نقرأ عنها كثيراً في الكتابات المقدسة، وأخيراً تحولنا بأعيننا عن الشمال، ووجهناهن نحو الشرق، فكان أن رأينا اليهودية مع جبالها، وفوق كل شيء جبل مودين، الذين دفن المكابيون عليه، وقد بنى سمعان فوق قبورهم بناء كان عالياً لكي يشاهد عن بعد، وكان من حجارة مصقولة من الأمام ومن الخلف، وأقام هناك سبعة أهرامات، ووضع من حولهم أعمدة كبيرة، وكان منقوشاً على الأعمدة صور أسلحة لتكون ذكرى دائمة، وإلى جانب الأسلحة جرى نقش صور سفن حتى يمكن مشاهدتها من قبل الذين يبحرون في البحر، وذلك حسبما جاء مكتوباً في سفر المكابيين الأول — الاصحاح الثالث.

وأشرت لهذا الجبل وإلى الأماكن الأخرى التي أعرفها إلى موالى، عندما كنا مائتال في البحر، وكنا في الوقت نفسه نقرب من الأرض المقدسة، والدخول إلى ميناء يافا، والرسوفيه، حيث وجدنا أن غليون المعلم أوغسطين مع حجاجة لم يصل بعد، وقد سررنا لذلك سروراً عظيماً، حيث لو أن حجاجة نزلوا إلى اليابسة لجرى إهمالنا، وعندما كنا غير بعيدين كثيراً عن غليون المعلم أوغسطين، تحرنا ووجدنا القعر، وتركنا مرساتينا وأنزلناهما، ووضعنا سفيتتنا بعيداً عن صخور أندروميديا، التي تحرس ذلك الميناء، ولم نتجرأ على الاقتراب كثيراً من الشاطئ، خشية أن نثير غضب المسلمين، لأننا لم نكن قد تسلمنا جواز عبور وأمان منهم، ولكي يعرف المسلمون الذين كانوا يحرسون ميناء يافا وهم من فوق الأبراج، أننا قدمنا مسالين، أنزلنا عارضة الشارع الرئيسية، وطوينا شراعنا الرئيسي، ولم نظهر أية زينة، كما اعتدنا أن نفعل عندما كنا نحل في موانئ أخرى، ولم نرفع أية أعلام، كما لم نطلق أي مدفع، ولم ننزل أي قارب، ولم نزين غليوننا بأي شكل من الأشكال،

كما لم ننفع بأبواقنا، أو نفرنا، أو بمزاميرنا القرنيه، بل تصرفنا مثل قوم أدباء متواضعين ودافعين للجزية إلى السيد السلطان، حيث كنا بحاجة إلى جواز وأمان منه، وكنا مثل أسرى وعبيد لدى المغاربة والمسلمين، ورسونا على بعد من أبراج يافا ننتظر تكرمهم علينا.

وكان المعلم أوغسطين، قبطان الغليون الآخر، قد بعث رسولاً إلى رجال الأبراج في يافا، حتى يتفقوا معهم من أجل الحصول على جواز وأمان لغليونهم فقط، لكن عندما فهم المسلمون وأدركوا أن هناك غليون آخر كان قادماً إلى هناك مع حجاج، كانوا على غير استعداد للاصغاء للمعلم أوغسطين وطرده من عندهم، وأرغموه على العودة إلى ظهر غليونهم حتى يدخل الغليون الآخر، الأمر الذي كان معاكساً تماماً لما كان في تفكير القبطانين، لأن كل واحد منهما نوى أن يقود حجاجه حول الأماكن المقدسة لوحدهم، بسبب الشكاوى والمشاعر العدائية التي حملها كل واحد منهما تجاه الآخر، وعلى كل حال رغب المسلمون، وأعدوا أنفسهم للاصغاء إلى رغبات حجاجنا، أكثر من اهتمامهم بهذين الرجلين المتخاصمين، ذلك أن الحجاج في الغليونين كانوا أصحاب موقف واحد، ورغبوا في أن يؤخذوا جميعاً معاً لرؤية الأماكن المقدسة، وهكذا انتهى اليوم الأول من تموز، ونمنا في تلك الليلة على ظهر الغليون لأننا أرغمنا على فعل ذلك.

وفي اليوم الثاني من تموز الذي كان عيد زياره مريم العذراء المباركة، أنزل ربانة غليوننا قارباً إلى البحر، قبل اشراق الشمس، وبعث القبطان بعضاً من خدمه، ممن كان قادراً على القيام ببعض الأعمال، مثل التجذيف بالقارب إلى الشاطئ، والحصول على جواز المرور والأمان، وجرى فعل الشيء نفسه من قبل المعلم أوغسطين، أي القبطان الآخر، وكان لدى أوغسطين هذا عبد غليون من أهالي القدس، وكان مسلماً معمداً، وقد بعث به حتى يتدبر أعماله له، وهكذا ذهب خدم القبطانين

إلى الرملة، وأبلغوا عن وصول الحجاج إلى حاكم الرملة، وذهبوا بعد ذلك إلى القدس، وأوصلوا الأخبار إلى الأب المتولي لدير جبل صهيون، ورجوه أن يقوم من دون تأخير بالحصول مباشرة على جواز السفر والأمان من حكام القدس، والرملة وغزة، وأن يجلب الترجمان كالينوس Calenus مع بعض المماليك المسلمين، وأن يرسل حميراً، وسائقي حمير، وكل شيء محتاج لجلب الحجاج إلى هناك، بأقصى مايسطيع من سرعة، وأن يقدم هو شخصياً ويجلبهم إلى الشاطئ، وفي الوقت نفسه، وفيما هذه الأشياء تصنع، بقي الحجاج على ظهري سفينتيهما ينتظرون الوقت الذي سيتمكنون فيه من مغادرتهم.

وفي ذلك اليوم نفسه، وفي الساعة التي كان من المعتاد إقامة القداس فيها، دعوت الحجاج الألمان للاجتماع معاً، وألقيت فيهم موعظة حول حج مريم العذراء المباركة، الذي قامت به بعد زيارتها وذلك عندما ذهبت إلى المنطقة التالية من اليهودية (لوقا: ١٠/٣٩) واستخرجت من حجها التقوي جداً، أحكاماً لحجنا، ولقد أوصيتهم بها، وأطريت الحج إلى القدس، لكنني مدحت فوق كل شيء الزيارة إلى جبل سيناء، وقد رغبت باثارة بعضهم للقيام بذلك، خشية أن يكونوا خائفين، لأنني قد عزمت على الذهاب حاجاً إلى سيناء، لكنني لم أكن قد أخبرت أحداً بذلك، وكنت أخشى كثيراً أن لا يكون بين هذه المجموعة الكبيرة من الحجاج أحداً، يرغب بالذهاب إلى سيناء، مثلما حدث لي في حجي المتقدم، وهكذا انتهى هذا اليوم، ومجدداً أمضينا الليل على ظهر الغليون.

وفكرت في اليوم الثالث، بأن الوقت قد حان وبات مناسباً لي، حتى أخبر موالي عن نيتي بالقيام بالحج إلى جبل سيناء، وبناء عليه، دعوت موالي الأربعة على انفراد، بعيداً عن جميع العاملين، وقلت والدموع تنهمر من عيني، وبقلب حزين، وبهذوء: «انتبهوا واصغوا إليّ سادتي الكرماء، وأبنائي الأكثر محبة، وإخواني، ورفاقي، بأنني أعترف أنه

بلطفكم قد جلبت إلى هاهنا، وأنه بفضلكم قد حصلت على الإذن بالقدوم، ولقد جرى من قبلكم دفع جميع نفقاتي طوال هذا الوقت كله، وأنا شاكر جداً وبلا حدود مساعداتكم لي، ومع ذلك هناك أمر واحد أقلقني كثيراً، وجعلني منشغلاً وغير مستقر، ذلك أنني أملت عندما غادرنا بلادنا، أن يقوم واحد منكم على الأقل، إن لم تكونوا جميعاً، بالارتحال أبعد، حتى جبل سيناء إلى القديسة كاترين، وذلك بعدما تكونوا قد فرغتم من زيارة الأرض المقدسة، وأن أستطيع مع الذي سيراقتني بامتلاك الفرصة بالذهاب إلى زيارة هذه الأماكن المقدسة كثيراً، لكن ويا للأسف لقد خاب ظني فيما يتعلق بهذه القضية، علاوة على ماتقدم، أنا لم أتجرأ على سؤالكم منحي الإذن بترك جماعتكم، ذلك أنه ليس من واجبي فعل ذلك، لأنكم سوف تواجهون في طريق عودتكم مخاطر أعظم مما واجهتموه في قدومكم إلى هنا، وإذا ما تفضلتم عن طواعية منكم منحي الإذن، سوف ألتقى هذا الاحسان منكم وعده أعظم هدية مقبولة، وإذا رفضتم منحي ذلك، سوف أعود معكم عن طواعية حتى البندقية، وفي البندقية سوف أسقط على أقدامكم يا أصحاب السعادة، وأرجوكم منحي الوسائل للعودة إلى هنا، هذا ولسوف لن أعبر جبال الألب ثانية قبل أن أتسلق جبل الرب، وحورب، وسيناء، وأن أزور قبر العذراء القديسة كاترين، لأنني منذ زمن طويل مضى ربطت نفسي بعهد في أن أفعل هذا.

وعندما سمع موالي ما أنويه، ورأوا أنني كنت جاداً، أخذوا بعض الوقت لتقدير ذلك، وبعد مضي مدة ساعة استدعوني للعودة إليهم، ومنحوني إذناً، وقالوا: «وخشية أن تظن أنك لم تكن محبوباً من قبلنا كشئنا لنا، سوف نقدم لك برهاناً عن حبنا لك عندما نفرق ولسوف نقدم لك، ونغطي نفقاتك، وعلى كل حال، إذا ما أخفق هذا الحجج، أو تراجعت عما عزمنا عليه، سوف تبقى في جماعتنا، كما كنت من قبل،

ولسوف نعيدك إلى الوطن ثانية»، وعندما سمعت هذا شكرت موالي بكل الاحترام الصحيح والذي يستحقونه، وأعلنت أنني اعترافاً بجميلهم سوف أبقى إلى الأبد خادمتهم، ووعدتهم أيضاً أنني سوف أقوم بهذا الحج، وكأنني حرصت من قبلهم لأن أفعل ذلك، وأنني أرسلت من قبلهم، وفي الواقع كنت مسروراً لدى تسلمي الإذن منهم في أن أقوم بما أنويه، مثلما سررت لدى وجودي في أولم، وتسلمي الإذن بالذهاب إلى القدس.

وهكذا بعدما حصلت بالنسبة لهذه القضية على الذي طلبته، أخذت أتجول في الغليون على جميع الفرسان الذين أعرفهم، لأرى فيما إذا كان أياً منهم كان ذاهباً للحج إلى القديسة كاترين، وقد وجدت خمسة فرسان نبلاء متخفين، كانوا مخفين هذه النية داخل صدورهم، وبعد تناول طعام الغداء غادرت الغليون، وذهبت في القارب الصغير إلى غليون المعلم أوغسطين، وكأنني راغب بزيارة بعض معارفي هناك، وعندما صرت بينهم، عملت استقصاء سرياً، من خلال الرجل الذي كنت أعرفه بشكل جيد، حول الحج إلى جبل سيناء، ولقد أخبرني بوجود إثني عشر حاجاً على ظهر ذلك الغليون قد تعهدوا وأقسموا على انجاز ذلك الحج، وكان واحداً منهم، الذي هو الرئيس هو اللورد جون أوف سولمس Solms، لكنهم كانوا لا يودون أن يتتشر هذا في الخارج، بل أن يبقى ذلك سراً، لأن الحجاج الذين ينوون زيارة جبل سيناء، يحافظون دوماً على سرية نيتهم، وذلك بقدر ما يستطيعون، حتى لا يضحك أحد عليهم، إذا لم يتمكنوا من إنجاز رحلتهم إلى هناك.

وبذلت الآن جهداً عظيماً لأعرف مباشرة، فيما إذا كان هناك أي إنسان ذاهب إلى زيارة جبل سيناء، لأنني أعرف بالتجربة، أنني مالم أفعل ذلك، طالما نحن مائز على ظهر السفينة، سوف يكون من الصعب كثيراً أن أتوصل إلى معرفة الصدق حول ذلك، عندما نكون في

الأرض المقدسة، أوفي القدس، لأن الحجاج يكونون في الأرض المقدسة مشغولين كثيراً، ونادراً — إن لم يكن مطلقاً — ما يلتقون مع بعضهم في الوقت نفسه، كما يكونوا منشغلين بعقولهم، ولهذا لولا أنني تدبرت هذه القضية مع موالي عندما كنا مانزال على ظهر السفينة، لكنت أنا كلياً بحاجة إلى نفسي، وعندما عرفت كيف هي الأوضاع على ظهر غليون المعلم أوغسطين، عدت مسروراً إلى غليوننا، وكنت مبتهجاً لأنني وجدت مرافقين، لكن سروري سرعان ماتحول إلى أسف، لأنني ما أن غادرت القارب، وصرت على ظهر غليوننا، وفيما أنا واقف أتحدث إلى بعض الناس أمام القيدوم، سألني القبطان الدخول إلى قمرة الخاصة، حيث وجدت جالساً فيها معه مملوكاً مسلحاً، جاء في قارب من يافا، جالباً معه أخباراً، أخبر بها القبطان، وقد رغب القبطان في أن أسمعها، وقد قال المملوك بأن البدو العرب قد دمروا دير القديسة كاترين القائم عند سفح جبل سيناء، وأنهم قتلوا جميع الرهبان هناك، وبناء عليه، من غير الممكن القيام بالحج إلى جبل سيناء في هذا العام.

فضلاً عن هذا، جاء في ذلك اليوم بعض المسلمين من المنطقة، جالين لنا أرغفة من الخبز الجديد، وماء جديداً، وعنباً، باعوه لنا، وهم أيضاً أخبرونا بالاشاعات نفسها عن العربية، وعندما سمعت هذه الأخبار الشريرة، انزعجت كثيراً لهذه الانتكاسة، لكن بعدما فكرت بالقضية واستعرضتها تشجعت، لأنني شككت مباشرة، من خلال خبرتي، بأنها كانت مصنوعة من قبل القبطانين وأنها كانت كذباً نشره وعمهائهم بين الناس، من أجل أن يخاف الحجاج، ومن ثم يتخلون عن نياتهم بالقيام بالحج إلى جبل سيناء، لأن القبطانين يفقدان اثنتي عشرة دوقية مقابل كل حاج يذهب إلى جبل سيناء، وهذا بالطبع عظيم الأذى لشرههما، ولهذا اخترعا هذه الكذبة البارعة، واستعانوا بالمسلمين الكذبة، وبالمرتدين المماليك لدعمهما في زيفهما.

ولذلك أوليت كلامهما قليلاً من الاهتمام، وطمأنت رفاقي، لأنني عرفت زيف ما تحدث به القبطانين حول هذه القضية، ولهذا قررت بشكل حاسم، أنه حتى ولو كان ماقالاه صدقاً، أنا ذاهب على كل حال إلى جبل سيناء، لأنه حتى لو كان البدو العرب قادرين على هدم دير القديسة كاترين ونهب ضريحها وتشعيثه، إنهم لن يتمكنوا مطلقاً من هدم جبل الرب أو إزاحته من مكانه، وكذلك جبلي حورب وسيناء، الذين كنت شخصياً متشوقاً إلى رؤيتهم، أكثر من رؤية ضريح القديسة كاترين، ولهذا شغلت طوال ذلك اليوم نفسي في محاولة لإنهاء هذه القضية، وكنت خلال هذا الوقت هادئاً، لأنني عرفت أننا ما أن ننزل من الغليون، لن نجد الوقت للبحث فيها.

وبدأت في ذلك اليوم للمرة الأولى في تذوق فواكه الأرض المقدسة، وشرب مائها، وكان ذلك المملوك الكذاب المتقدم الذكر، أي الذي تولى نشر الأخبار في غليوننا، قد جلس في القلعة مع القبطان وآخرين، يشربون الخمر، على الرغم من تحريم شريعة محمد (صلى الله عليه وسلم) لذلك، وغدا سكرانا إلى حد أنه لم يعد قادراً على الخروج من الغليون والنزول إلى القارب الصغير، لفقدانه لوعيه، وهكذا بقي هذا الوحش اللعين على ظهر الغليون، وأمضى الليل معنا.

وفي اليوم الرابع، حدث عندما أشرقت الشمس، أن قامت الأسماك بالسباحة على وجه البحر، وأظهروا أنفسهم على الوجه أكثر من عاداتهم، ولست أدري ماهي الأحوال التي دفعتهم إلى هذا من خلال الهواء أو الماء، أو من خلال عناصر أخرى، ولقد رأينا هناك أسماكاً رائعة، حيث كان بعضها كبيراً، ومستديراً مثل مروحة الغريلة، وكان لبعضها رؤوس مثل رؤوس الكلاب مع أذنين طويلتين نحو الأسفل، ورأينا دلافين كثيرة في ذلك الصباح، وقد رأيناهم بوضوح أعظم من أي وقت مضى.

ورأينا بعد الغداء حشداً من المسلمين المسلحين جاءوا يمتطون الخيول والبغال، ونصبوا خياماً وأكواخاً أمامنا على الشاطئ، وحول أبراج يافا، وفوق الجبل، وعندما رأى القبطانان هذا، ذهبا نحوهم، مفترضين بأن سادة المدن وحكامها قد جاءوا، لكن هؤلاء كانوا الخدم فقط، قد أرسلوا سلفاً لإعداد المكان، ذلك أن السادة المغاربة كانوا سيصلون في الغد، وركض هؤلاء الرجال نحو الأمام ونحو الخلف طوال النهار، على الشاطئ، مقابل المكان الذي رسونا فيه، واشتبك أحدهم مع الآخر عن طريق التدريب، وركبوا بغلهم، وساقوها وكأنهم كانوا يتحاربون، ورأينا أيضاً الكهوف التي هي فوق شاطئ البحر على طرف الجبال، والتي كنا سنساق إليها، ورأينا المسلحين طوال اليوم يذهبون إليها باستمرار ويخرجون منها، وتساءلنا عما كانوا يفعلون في مساكننا المظلمة، ولم نستطع أن نخمن الذي كانوا يعملونه في هذه الكهوف، حتى اكتشفنا، مراغمة لأنوفنا، أنهم قد لوثوا تلك الأماكن بالغائط، كما سيتضح فيما بعد.

واجتمع هناك في اليوم الخامس حشد عظيم من الرجال المسلحين، حتى أن وجه الأرض تغطى بهم، وتساءل قبطانانا وجميع البحارة وعبيد الغليون، عن معنى جمع هذا الحشد الكبير من الناس، وقد انزعجوا لأنهم لم يروهم من قبل يأتون بمثل هذه القوة، وخشوا من أن يكون هناك شر ما قيد الإعداد لنا، لوجود الحكام الثلاثة الأقوياء هناك بأشخاصهم مع أتباعهم المسلحين، وهؤلاء هم: حاكم القدس، وحاكم غزة، وحاكم الرملة، وإليهم توجه القبطانان أخذين معها هدايا أملوا بوساطتها أن يكسبوا احسانهم، وقد حيوهم، وعرضا هداياهما، وتوسلا من أجل نزولنا، حيث طلب ذلك كل قبطان إلى حجاجه، وقد تسلموا هدايا القبطانين، ووعدوها بالتعامل معنا باخلاص.

وسأل القبطانان سادة المغاربة، عن السبب الذي دفعهم للقُدوم مع

مثل هذه القوة، وعن الحاجة التي توفرت هناك لجلب حجاج غير مسلحين إلى البلاد مع هذا العدد الكبير من الرجال المسلحين، وعلى هذا أجابوا بأن البدو العرب قد جاءوا إلى البلاد، خارجين من الصحراء بأعداد كبيرة، وقد نهبوا كل من واجهوه، ولم يوفر أحد إلا الذين كانوا أقوى منهم أنفسهم، وأنهم قادوا في هذا الوقت بالذات حشداً كبيراً إلى الجبال، ويعتقد كثيرون بأنهم قد حشدوا هذه الجموع مع بعضها بسبب الحجاج المسيحيين الذين كانوا قادمين، ولهذا السبب قدموا بالقوات التي استطاعوا جلبها، لكي يأخذونا إلى القدس بسلام.

وقال بعضهم الآخر بأن هناك سبب آخر إلى جانب هذا السبب، يعلل اجتماعهم مع بعضهم، وقد أخبرونا بأنه في ربيع هذا العام، كانت هناك عاصفة عنيفة في منطقة مدينة مكة، حيث يقوم معبد ضريح محمد (صلى الله عليه وسلم)، وفي أثناء تلك العاصفة، سقطت صاعقة من السماء أحرقت وطحنت ضريح محمد (صلى الله عليه وسلم) وحولته إلى طحين مع جسده (صلى الله عليه وسلم) (كذا)، وقد رأى أتباعه بما حدث شارة بأن شريعته غير المقدسة كثيراً قد انتهت، وخافوا من أن يتمكن المسيحيون من السيطرة عليهم والتحكم بهم، ولهذا قدموا مع قوات قوية خوفاً من أية محاولة يقوم بها الحجاج، وكلا السببين كان صحيحاً، لكن السبب الثاني حول تدمير جسد محمد (صلى الله عليه وسلم) لم يحدثونا به بشكل مكشوف، بل أخبرنا به بشكل سري واحداً من المماليك.

وعلى كل حال خشية من أن يفقد الذين يتبعون شريعة محمد (صلى الله عليه وسلم) إيمانهم، ويأسون ويتخلون عن الحج الذي يقومون به كل سنة إلى مكة، اخترع رجال الدين لديهم الزيف التالي: فقد قالوا بأن الله كان شديد الغضب عليهم هذا العام، وكان على وشك تدميرهم تدميراً كاملاً، لكن محمداً (صلى الله عليه وسلم) تدخل من أجلهم،

والتمس من الله تحويل غضبه عنهم، وأن تنزل الشرور به شخصياً، وأصغى الله إلى دعائه واستجاب وبعث صاعقة من السماء أخزقت جسد محمد (صلى الله عليه وسلم)، ونشروا هذا الزيف بين الناس، والحج الآن إلى مكة أكثر عدداً، والاقبال عليه أعظم مما كان من قبل. (*)

وفي الوقت نفسه، عندما كان قبطانينا يتحدثان مع السادة، رأينا حشداً جديداً قادماً إلى شاطئ البحر، ولم يكن في هذا الحشد خيول، بل حمير فقط، جمعت من قرى مختلفة من أجل استخداماتنا، وجاء مع هذا الحشد من الحمير عدة رجال معروفين من القدس، مثل الاثنين الكاليني Calini اللذان هما مترجمانا الأكبر والأصغر، والأب المحترم المسؤول عن دير جبل صهيون مع اثنين من رهبانه، وكان معهم بعض التجار المسيحيين De cinctura (الشرقيين الذين يرتدون ما يميزهم عن اليعاقبة وعن الطوائف الأخرى).

نزول الحجاج من الغليون ودخولهم إلى الأرض المقدسة

كانت رحلتنا التي تشوق إليها عقلنا وتطلع إليها، الآن على وشك الابتداء، فبعدما تحدث القبطانان مع الحكام، ونالا موافقتهم على وجوب احضارنا إلى الشاطئ من غليونينا، ومضى إلينا في القارب، الأب المبجل بولص، رئيس الكنيسة اللاتينية في الشرق، والمسؤول عن دير جبل صهيون مع راهبيه، وكذلك مع كالينوس الأكبر، ومسلم كان رئيس مشفى للحجاج في القدس، وقد جلسوا مع قبطاننا على القيدوم، وبعدما اجتمعنا كلنا، قام الأب المسؤول عن الدير، الذي كان رجلاً محترماً ومتعلماً، وله حية طويلة، قام بتوجيه التحية إلينا بلطف وبشكل

* — استخدم الرحالة أثناء حكيه لهذه الأقصوصة بعض العبارات النابية، فحذفتها، وتبرهن هذه الأقصوصة أن عقلية رجال الدين الكاثوليك بقيت كما هي مغرقة بالتعصب والجهل، حيث انعدم التمييز بين مكة والمدنية، وتغيب الحد الأدنى من الفهم للإسلام.

منمق باللغة اللاتينية، ورحب بنا، وحشنا على أن نكون أتقياء، وأن نتحلى بالصبر، وأن نكون نموذجيين في سلوكنا، ووعدنا أنه سوف يعطينا بالرملة الأحكام التي ينبغي أن نقيّد أنفسنا بها، أثناء إقامتنا بين المسلمين في الأرض المقدسة.

وحيانا بالطريقة نفسها كالينوس، ترجماننا، وكان ذلك باحترام، وحرّم علينا حمل أي نوع من الأسلحة — سواء أكان سيفاً أم قوساً — خارج السفينة، بل أن نذهب غير مسلّحين كما قدمنا حجاجاً، وبعدما قال هذا، ذهب الأب المسؤول عن الدير مع راهبيه وكالينوس إلى القارب، وطلبوا منا الاسراع والاستعداد للحاق بهم، وكان الوقت ساعة الغداء، ولدى دعوة الحجاج إلى الغداء، أكلنا جميعاً وشرينا بسرعة، حتى نتمكن من النزول بشكل أسرع إلى الأرض المقدسة، وفي أثناء الغداء، قدم جميع موظفي الغليون واحداً بعد الآخر، وانتقلوا من حاج إلى آخر، بكؤوس من الفضة، وطلبوا عطية العرفان بالجميل، وهو ماندعوه مال الشراب، وطالبوا بذلك بوقاحة، وإذا مارفض انسان منحهم، قالوا بأنهم لن يدعوه ينزل بالقارب إلى الشاطئ،

وثار اضطراب كبير على ظهر الغليون بسبب تسولهم الوقح والذي لم يعرف الحياء، وعندما انتهى هذا الاضطراب، ودفعنا عطيتنا بالعرفان بالجميل، أعددتنا أنفسنا لمغادرة المركب، وأخذنا معنا قارورتين صغيرتين من الخمرة، وأخفيناهما في حقيبة، خشية أن يراها المسلمون، لأنهم لا يسمعون بحمل الخمرة بشكل مكشوف، وإذا مارأوا خمرة يقومون بكسر القوارير إذا كانوا قادرين، وأخذنا بحقائبنا جنباً ولحماً مدخناً، وجراننا وملابس حجننا وأدواته، وخرجنا من القمرة إلى القيدوم، ومن هناك نزلنا في القارب، ومضينا فيه نحو الأرض المقدسة، ونحن نغني ببهجة عظيمة، وبصوت مرتفع In Gottes Nahmen fah ren wir الخ، حسبما ورد في ص ٩٧.

ولم يكن من الممكن سماع أغنيتنا هذه من قبل المسلمين على الشاطئ، لأنه قام بيننا وبين الشاطئ صخور أندروميديا، التي يضربها البحر بصوت مرتفع وحاد، كما أن أغنيتنا لم يكن بالامكان سماعها بسبب الضجيج والصخب الصادر عنها.

وعندما وصلنا إلى قرب هذه الصخور، وبينما نحن نمر من بينهم من خلال الأمواج التي تضربهم، أصبنا برذاذ الماء وتبللنا، ونجونا على كل حال من الاصطدام بالتتوءات الحادة، الأمر الذي كنا نخافه، ووصلنا إلى الشاطئ ونزلنا، وعندما وطئت أقدامنا الأرض المقدسة، ألقينا بأنفسنا أرضاً على وجوهنا وقبلنا الأرض المقدسة مع كثير من التقوى، وبمجرد ملامستنا للأرض المقدسة تلقينا غفراناً مطلقاً وتحليلاً من الذنوب، الأمر الذي قررت وضع علامة له في المحصلة مثل هذه (++) حيث جاء وضع الصليب الأول ليعني غفراناً لمدة سبع سنوات، لكن بوجود صليبين فهذا يعني غفراناً مطلقاً، يزيل كلا من الاستغفار والذنوب، ويقال أيضاً الصليب الأول قائم من أجل الغفران من الذنب، والثاني للغفران بعد التوبة.

وعندما فرغنا من صلاة شكرنا، صعدنا من قلب البحر، إلى الأرض المرتفعة، وذلك فوق صخور منزلقة، البحر مطوق بها هناك، وهي تشكل شاطئه، ووقف فوقنا الأب المسؤول عن دير جبل صهيون مع راهبيه ومع حكام البلاد، وشيوخ المسلمين والمغاربة، وكذلك مع كاتب، وقد اصطفوا على الجانبين، بحيث يحتاج الحجاج إلى المرور من وسطهم، ولم يكن بإمكان حاجين المرور معاً من بينهم، بل واحداً تلو الآخر، كما أنهم لم يسمحوا لنا بالمرور بشكل متواصل، بل ألقوا نظرة على كل انسان، ونظروا إليه عن قرب، وطلبوا اسمه وأم أبيه، وكان الكاتب يدون الاسمين معاً في وثائقه، وكنت أعلم كم يسبب اسمي «فيلكس» من مصاعب بالنسبة إلى لغتهم، فقد أرغمت في حجي الأول

وفي حجي هذا على تكرار اسمي عدة مرات، حتى آنذاك لم يكن بإمكانهم لفظه أو كتابته من دون وضع بعض علامات الادغام الأجنبية أمامه، وترداد مقاطعه وحروفه، بحيث أن لأقول «فيلكس»، بل كلمة أخرى في مكانها أنا لا أستطيع لفظها، وقمت فيما بعد بالبحث بدقة أكبر حول الصعوبة هذه المتعلقة باسمي، ذلك أنني صرت صديقاً لواحد من المسلمين هو كاليينوس الأصغر، الذي كان يسألني في بعض الأحيان باللغة الإيطالية أن أخبره باسمي، لكن عندما أخبرته لم يستطع بأي حال من الأحوال لفظه، بل قال كلمة قبيحة بدلاً عنه، وقد اندهشت تجاه ذلك، لأنني رأيت مدى براعته باللغة الإيطالية.

والآن بعد ماجرى تدوين اسم كل حاج مع اسم أبيه، كان هناك بعض المسلحين مرتبين للامساك به وجره إلى مدخل مقر مظلم ومنخفض تحت قوس متهدم، وقد رموه مثلما اعتاد الرجال على رمي الشاة في داخل اصطبل من أجل الحليب، ويوجد في هذا الكهف سبع سنوات مغفرة (+)، يحصل عليها الحاج إذا مادخل إلى الكهف بروح تقوية، وتعرف هذه الكهوف باسم زنانات القديس بطرس، ومن أجل الحصول على هذا الغفران، وغفرانات أخرى كثيرة، قام عدد كبير من الحجاج بالاعتراف أمامي، على ظهر الغليون، واعترف بعضهم هنا، ونحن وقوف على شاطئ البحر، وعندما دخلنا إلى هذه الكهوف، وجدنا كل موضع سنقيم فيه ملوث بشكل قبيح، وقذر بسبب القاذورات، ولم يكن هناك مكان يمكن الجلوس عليه، إلا فوق القاذورات، ولهذا وجد كل واحد منا نفسه مرغماً على تنظيف موضع يتمدد عليه بجسده، وأن يزيح القاذورات إلى وسط الغرفة بقدمه، ونتيجة لهذا قام في وسط مكان إقامتنا كومة كبيرة من القاذورات والنجاسات.

ورتبنا أنفسنا على محاذاة الجدران حول الغرفة كلها، مثلما فعلنا في

الغليون، ولقد تمددنا فوق أرض عارية ورطبة، ويا للهول، كم هو نزل تعيس، وكم هي ضيافة ضئيلة، وكم هو مقرر قذراً! ولولا أن الحاج كان تقياً، اعتاد على عقد حديث مع الرب، وكان يشكو بصبر تقوي، أو بالحري كان مندهشاً مستغرباً وهو يقول: «أيها الرب يسوع، بأي ضيافة غريبة استقبلت حجاجك، وضيوفك في أرضك المقدسة، الذين قدموا من وراء البحار، ومن خلف جبال الألب، ومن الأجزاء النائية من الأرض، حتى يمثلوا بأشخاصهم في بلاطك، لكي يبدو احترامهم لك، وليقدموا الولاء لك مثلما يفعل الفرسان مع ملكهم، يائسوع البالغ القداسة، أوم يكن من المتوجب عليك أن تمنح الذين تعبوا كثيراً من جراء الرحلة الطويلة جداً، وأدميت أقدامهم بعد الجولات البعيدة، فراشاً أفضل من الذي وجدوه بين القاذورات المقيتة للكفار؟ أوليس لديك فراش لنا سوى كومة النجاسات؟».

وعلى هذا كان الرب سيجيب: «من المؤكد أن العبد ليس أعظم من مولاه، ولا التلميذ أسمى من معلمه، ولا الرسول أعظم من الذي أرسله، وأنتم دعوتوني معلماً ورباً، وما قلتموه صحيحاً، لأنني بالفعل كذلك، وإذا كنت أنا قد عانيت بصبر من هذه الأشياء، ومن أشياء أسوأ من هذه، أولاً تسلحون أنفسكم أيضاً بصبر مماثل، فلقد كنت غريباً وحاجاً في هذه البلاد، وفي اليوم الذي نزلت فيه أولاً على الأرض من بحر المجالس العميقة للرب، ومن سفينة رحم العذراء، لم أنزل في غرفة، بل في معلف قذر، وفي نزل صاحب، وفي حانة تعيسة، فهناك استقبلت، ولم تمددني أُمي العذبة على فراش ناعم، بل مددني في معلف قاس بين الدواب، لأنه لم تتوفر لي غرفة في أي مكان من النزل، وخلال حياتي كلها لم يكن لدي بيت خاص بي في هذه البلاد، لأنني قدمت إلى الذين هم ملكي، والذين هم ملكي لم يستقبلوني، ذلك أن الذين سكنوا في بيتي وخادماتي عدّوني غريباً، ولقد كنت غريباً بأعينهم (أيوب: ١٩)،

وفي هذه البلاد للشعالب حفرهم، ولطيور الجو أعشاشهم، لكن ابن الانسان ليس لديه مكان يسند رأسه عليه، وغالباً ما أمضيت الليل في الصلاة، لكن ليس تحت مكان مسقوف بالحجارة، بل فوق الجبال وتحت السماء، لابل حتى في مدينة القدس الغنية والملكية لم يكن لدي فراش إلا مشنقة الصليب المخزية، وكذلك بعد الموت لم أمتلك ضريحاً خاصاً بي، بل ضريح انسان آخر، ولهذا السبب أرغم ابن الانسان على المعاناة، حتى يدخل في مجد ملكوته، وبناء عليه، حبيبي الحاج لاثخن إذا لم يكن لديك في هذه البلاد فراشاً ناعماً، وإذا ما تمددت فوق كومة قاذورات، وإذا كان نزلك بالوعة عامة، تذكر يا هذا أن ربك أقام الفقير من بين الرغام، ونهض بالمعدم من بين القاذورات، ليجلس مع الأمراء، وليشغل عرش المجد، فعلى هذا الاساس تقبل داوود وجعله ملك اسرائيل، ولقد جلس أيوب النبيل على القاذورات مريضاً ومصاباً بقروح مخيفة، وبصبره امتلك ضعف ما كان يمتلكه من قبل، لأن غريغوري أخبرنا في تعليقاته على سفر أيوب، أنه كان مدفوناً في القاذورات، لؤلؤة الرب، أي المعرفة بتفاهته، والرفض للفقير، وعلى هذا، ألتبحت أيها الحاج عن هذه اللؤلؤة، في أثناء جلوسك فوق القاذورات»، ولدى سماع هذه الكلمات، قدم الحاج التقي الشكر، لأنه عدّ جديراً بالمعاناة مثلما فعل ربه.

وعندما كنا في هذا المكان القذر، قدم إلينا بعض المسلمين، وكانوا أناساً فقراء، قد جمعوا بعض الأعشاب وبعض أغصان الأشجار، باعوهم لنا، وقد غطينا الأرض المبللة بهم وجعلناها فرشاً لنا، فضلاً عن هذا قدم تجار من الرملة ومن القدس، ودخلوا إلى أماكن إقامتنا، ومعهم سلع طيبة الرائحة، وعملوا سوقاً هناك، وقد جلبوا ماء ورد من دمشق في أوعية زجاجية، وكان ثميناً جداً، حيث باعوه إلى البنادقة كل قطعة بنس، وكان مع بعضهم بلسماً، ومع بعضهم الآخر مسكاً،

وجلب بعضهم صابونا، وبعضهم أحجاراً كريمة، وبعضهم شققاً من الموصلين الناصع البياض، وقلانس، وأشياء أخرى ثمينة، وأشياء رائحتها طيبة، فلقد جلبوا هذا كله إلينا، وفي الوقت نفسه كان كل من التجار ومن المسلمين قد دهنوا أنفسهم بالماهم العطرية، وبالعطور الخالصة، ولذلك انتشرت الروائح الطيبة من حولهم، فضلاً عن هذا قام التجار الذين لم يكن بإمكانهم تحمل روائح التبن والقذارة في مسكننا، باحراق البخور والاصماغ العربية، وكانت نتيجة ذلك أن هذا المكان ذي الرائحة المقرفة، أصبح مخزناً للروائح الطيبة، كما قام الذين لوثوه، طواعية من قبل أنفسهم بتنظيف المكان، ونقلوا قاذوراتهم ورموها بأقدامهم أثناء مشيهم، وفي وقت قصير من الزمن وبوساطة سيرهم المستمر تحول المكان الذي كان قبل قليل قذراً إلى مكان مريح تماماً ومبهجاً ومناسباً لبني البشر، وللإنسان الضعيف والمريض، فلو أنهم دخلوه لاستردوا قوتهم ثانية بشمهم للروائح الطيبة للمكان، الذي حتى الدواب سوف ترتعد لدى دخولها له.

وقد دخلنا إلى هذا المكان بضيق شديد وألم، لكن في غضون ساعة واحدة وجدنا الراحة والسرور فيه، وجاء في الوقت نفسه بعض المسلمين، كانوا قد طبخوا بيضاً في المقلاة بالزيت، وجلب بعضهم أرغفة من الخبز، وبعضهم ماء بارداً، وبعضهم فواكه، وبعضهم سلطة، وبعضهم معجنات ساخنة صنعت من البيض، وباعوا ذلك لنا، وقد اشترينا من هذه الأشياء وأكلنا، وأعدنا أنفسنا للراحة، لأن النهار انقضى تقريباً، وما أن تمدد كل إنسان منا، واضطجع في المكان الذي نوى أن ينام فيه تلك الليلة، حتى جاء إلينا مسلم شرس حامل للسلح، وبيديه عكاز، واستخرج من كل واحد من الحجاج بنساً بندقياً، وقمنا على كل حال من أجل أن نوفر على أنفسنا المشاكل، بدفع بنس واحد من أجل إقامتنا، وعندما حل الظلام استأجرنا اثنين من

المسلمين، ليتوليا حراستنا أثناء الليل عند فم كهفنا، لكي لا يدخل أحد إليه ويزعجنا، لأنه كان هناك حشد عظيم من الناس من كل نوع هناك، وهكذا أمضينا تلك الليلة، لكن ليس بدون خوف، وأعتقد أن الرجل المتقدم الذكر الذي استخرج المال منا، قد صار الآن مالك ذلك الكهف وصاحبه، وأن هذا قد شجعه لفرض ضريبة علينا بموجب حقه القانوني.

وفي اليوم السادس، الذي كان الأحد السادس بعد التثليث، وقبل أن تصبح الدنيا مضيئة تماماً جاء ذلك المبتز الشرس، الذي أغضبنا في المساء الماضي، وعاد وجلس بنفسه ومعه عكازه، عند باب الكهف، وما كان يسمح لأي إنسان بالمغادرة والخروج من الكهف للأغراض الضرورية من دون أن يدفع له بنساً، وقد دفعنا له جميعاً من دون رضى كبير، لكننا لم نكن غاضبين من الرجل المبتز وحده، بل من القبطانين، ومن الأب المسؤول عن دير جبل صهيون ومن الترجمان، الذين كانوا نائمين جميعاً في سرادق منصوب فوق الرابية، وتركونا نعاني من ابتزاز لم يسمع به من قبل في سجننا هنا، ذلك أنه كان من واجبهم مساعدتنا والدفاع عنا ضد أي شيء من هذا النوع.

وبعد مادفعنا البنس الذي فرض علينا، سمح لنا بمغادرة الكهف، ومع ذلك لم نجرؤ على الابتعاد عنه، لأننا كنا محاطين بمسلمين مسلحين من كل جانب، وقدم في الوقت نفسه التجار مع سلعهم، وطبخوا بأدواتهم، وعرضوا مصنوعاتهم للبيع، دون أن يعرفوا بأن ذلك اليوم كان يوم الرب، وكنت عازماً على قراءة الانجيل من أجل ذلك اليوم للحجاج في الكهف، وأن أضيف إليه قداساً، لكن كان هناك صراخاً عظيماً وصخباً صدر عن الطباخين وعن التجار، وعن حشد كبير اجتمع من المسلمين، ومن الشباب الذين كانوا يركضون إلى هنا وإلى هناك، ولذلك لم أستطع قراءة الكثير في ساعاتي من دون الكثير من العوائق،

ذلك أنهم عندما رأوني أقرأ من الكتاب، وقفوا من حولي يضحكون ويصرخون، وينظرون نحو الأحرف ويعجبون منهم، وبعد الغداء جاء إلينا في الكهف كالينوس الأصغر، أي الرجل الذي كان نائب مدير المشفى (الفندق)، وكان رجلاً مسلماً اسمه الفحل Elphahallo، وكان رجلاً أميناً، كما ستعلم مما سيلي، وقد عرفني بشكل جيد من حجي الأول، وكان بإمكانه التحدث بالاطالية، وبألمانية مشوهة، تعلمها من الحجاج الذين غالباً ما ارتحل معهم إلى دير القديسة كاترين، وقد سألت هذا الرجل عن حقيقة الأمر بالنسبة لجبل سيناء، وأخبرته بالذي سمعته على ظهر الغليون، فأجابني بأن كل شيء قاله ذلك المملوك كان كذباً، وأن الحج إلى القديسة كاترين سليم الآن بقدر ما هو ممكن، وصحيح أن البدو العرب قد أزعجوا في العام الفائت رهبان القديسة كاترين، لكن السلطان قد تمكن من تسوية القضية كلها.

ولدى سماعي لهذا سررت كثيراً، واقتدت الرجل إلى مسوالي، وقدمتهم له، وعلى الفور طلب الرجل منا القدوم معه، واقتادنا خارجين من الكهف، ومررنا جميعاً بوسط المخيم ومن خلال خيم المسلمين، وأرانا جميع أدواتهم، والخرائب العظيمة لمدينة يافا، ومررنا ببرجين قائمين في البحر ومهدمين، وبعدما رأينا كل شيء أعادنا إلى سجننا ثانية، فوجدنا الكهف في صخب عظيم بسبب الشباب من المسلمين، الذي كانوا يقومون بازعاج الحجاج بمختلف الطرق، وكانوا يسببون لهم إهانات كثيرة، تأخذ وقتاً طويلاً للحديث عنها، وكانوا ينشدون بكل دقة الفرصة المواتية لاغضاب الحاج، إذا كان ذلك ممكناً، دون اعطائه مسوغاً عظيماً لأن يكون غاضباً، وعندما يصبح غاضباً، يقومون هم أنفسهم باتخاذ غضبه سبباً للشكوى وطلب المال، وكانوا يتجولون حول الحجاج، وكل ما وجدوه سرقوه، أو نشلوه بشكل مكشوف وهربوا به.

وكان هناك رجلاً نبيلاً من كريت قد جلب معه قارورة كبيرة مليئة (بالخمرة) المالفوسية الثمينة، وعلق القارورة على الجدار إلى جانبه، ولدى رؤية ذلك، ركض رجل مسلح مسلم بين وسط الحجاج، وانتشل القارورة، ومضى يركض بها، وبعد بعض الوقت عاد وأطاح بالقارورة الفارغة في مقر إقامتنا، وتعرض شاب حاج حليق الذقن من بيكاردى لمضايقاتهم العظيمة، ومن حركاتهم القذرة، ولم يتمكن من إخفاء نفسه عنهم، مع أنه حاول كثيراً التخفي بين الحجاج الآخرين، ومع ذلك لم يحصل على السلامة، فقدم شكوى حول المسألة إلى الترجمان، الذي استخف بالأمر، وقال له بأنه إذا ما آذاه أي انسان، أو ضربه، أو جرحه، هو سيقوم بحمايته والانتقام له، لكن تجاه ذلك لا يمكنه فعل شيء لأن الشاب عمل مزحة، ولا يمكنه منعه من المزاح، ولدى سماع ذلك الحاج هذا، وخشية منه أن يوصم بالعار ويدنس شرفه، وبما أنه كان غير قادر على تحمل أن يكون أضحوكة يومياً من قبل المسلمين، ألغى حجه، وعاد إلى ظهر الغليون، وعاش مع البحارة حتى عاد الحجاج من الأماكن المقدسة، ولأن ذلك الشاب كان جميلاً جداً أن تنظر إليه، لهذا السبب ركز المسلمون عليه، ربما من أجل اغضابه، ذلك أنهم لم يقصدوا إلحاق أي أذى به.

واخترع هؤلاء الشباب من المسلمين آلاف الطرق، أثاروا بوساطتها بكل براعة الحجاج وأغضبوهم، من أجل أن أحدهم إذا ما نسي نفسه، ووجه ضربة، يمكنهم ابتزاز غرامة مالية منه، واستشهد أنا هنا بما ورد في الاصحاح الخامس من انجيل القديس متى قوله: «أنا فأقول لكم لا تقاوموا الشر» (متى: ٥/٣٨)، وبناء عليه كل من لا يمكنه اتباع هذه النصيحة، لا يمكنه الجواز بالأرض المقدسة بسلام، وهناك نص آخر مماثل في الاصحاح السادس في انجيل القديس لوقا قوله: «ومن أخذ الذي لك فلا تطالبه» (لوقا: ٦/٣٠)، وعلاوة على هذا على الانسان أن

يدوم تكرار قوله في الاصحاح الخامس من انجيل القديس متى والتمسك به حرفياً: «من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضاً» (متى: ٣٩/٥).

وعندما صار الوقت متأخراً، وأخذت الدنيا تشتد ظلاماً، جاء واحد ووقف عند فم الكهف واستدعاني بصوت مرتفع، قائلاً: «المعلم فيلكس، تعال»، ولقد خفت من هذا الاستدعاء وأجبت بأنني كنت أقوم براحتي، ولن أقدم، وبناء عليه شرع في التوسل إليّ، قائلاً بأن هناك حاجة كبيرة إليّ، وبناء عليه توجهت نحو الرجل، الذي كان واحداً من رجال القارب العائد لجليوننا، بعث به إليّ واحد كان متمدداً فوق ظهر الغليون، وهو في آلام الموت، وقد استدعاني لسماع اعترافه، وكنت على كل حال أكره العودة إلى ظهر الغليون، ومع ذلك ماكان لي اهمال روح واحد من الإخوان، وسرت نازلاً نحو البحر في الظلام، وركبت في القارب، وقمت برحلة عظيمة المخاطر، بين الصخور، إلى الغليون، الذي كان يبعد عن الشاطئ مثل المسافة التي تبعد فيها سفلنجن se-flingen عن أولم، وأخذت على الفور اعتراف الرجل المريض، ثم حملت فراشي من القمرة إلى السطح، ومددته فوق مقعد متصلب، كان منه بإمكانني رؤية الشاطئ، من أجل أنه إذا ما جرى اخراج الحجاج من الكهف، للشروع برحلتهم، يمكنني رؤية حركة الحشد، وكان بإمكانني رؤية أن الحجاج أخذوا يتحركون، ويغادرون المكان، بوساطة نقل المصابيح التي كانت مضاءة قرب خيام السادة المغاربة، لأنه جرى تعليق ستة مصابيح مشتعلة على عمود طويل أمام كل خيمة، وذلك تشريفاً لمحمد (صلى الله عليه وسلم) وصدوراً عن الاحترام للسادة الذين ناموا فيها، ومن أجل راحة الناس، وقد رأيت هذا من البحر، وشعرت بشفقة على موالي، وأتباعي الحجاج الذين كانوا متمددين في الكهف القذر والمظلم، من دون أية تسهيلات بالضوء من أي نوع، بينما

كان هؤلاء المسلمون الكلاب يتمتعون بكثير غير محدود من الضياء.

وقمت في اليوم السابع، قبل اشراق الشمس بالدخول إلى القارب، وأسرعت التجذيف نحو الشاطئ، ومررت خلال المياه الهائجة، واجتزت الصخور، لأنني افترضت أننا سوف ننطلق على الفور، غير أننا تأخرنا لأن القبطانين كانا مختلفين، وكان هذا الخلاف قد بدأ في البندقية، كما رأينا في ص ١٧٨، واستمر حتى وصولنا إلى هنا، ولهذا حاول كل واحد منهما إدخال حجاجه إلى الأرض المقدسة من دون الحجاج الذين كانوا مع القبطان الآخر، وقد أرادا تشكيل جماعتين، وفريقين منفصلين، ينبغي عدم التقائهما في وقت واحد، وفي المكان نفسه، غير أننا نحن الحجاج جميعاً رجونا في أن نؤخذ كلنا جميعاً، وأن يجري علينا العقد نفسه، وكانت هذه الخطة مقبولة كثيراً من قبل المسلمين، فقد كانوا لا يرغبون في اختيار افتراقنا عن بعضنا بعضاً، مع أن القبطانين حثا باستمرار على وجوب القيام بعملية الفصل، وعندما رأى الأب المسؤول عن دير جبل صهيون أن هذا النزاع بين القبطانين معيقاً لانجاز الحج، وأنه جعلنا موضع ريبة لدى المسلمين، وجعلهم عديمي الصبر، دعا إلى اجتماع أعيان الناس بين الحجاج مع بعض الرجال المحترمين والمحبين للسلام بين المسلمين، وبذل جهده لوضع حد للنزاع، والذي حدث هو أنه بعد عدد كبير من الخطابات والتشجيع لم يتوصلا إلى اتفاق، وبدا القبطانين بعد كثير من النقاش أنها معا أشد تصلباً في غضبهما وكراهية احدهما للآخر، وطوال ذلك اليوم جرى البحث في إقامة سلام بين القبطانين.

وفي الوقت نفسه، قام الحجاج الآخرون الذين لم يشاركوا في هذا النقاش، بالشد من عزائمهم، وكانوا جريئين بما فيه الكفاية للخروج من كهفهم والنزول نحو شاطئ البحر، وإلى المكان الذي وقفت فيه الحمير مع سائقهم، وتجولوا بين حشد المسلمين بدون خوف، واشتروا ماكانوا

يحتاجون إليه من المسلمين، وصنعوا صداقات معهم، وقمت أنا شخصياً مع بعض الرفاق بالسير على طول ساحل البحر إلى نبع ماء عذب، كان يتدفق من بين شعاب الهضاب، وشربنا هناك من ذلك الماء من دون أن ندفع، مع أننا لكثير من الأيام لم نشرب ماء إلا ماشريناه ودفعنا ثمنه.

وقامت تحت هذا النبع صخرة في البحر، كانت مرتفعة فوق الماء، وهي التي قيل بأن القديس بطرس الرسول قد اصطاد السمك من عليها، وأضاف البسطاء من الناس الذين لا يعرفون الكتابات المقدسة ولا الانجيل، بأن هذا كان هو المكان الذي دعا منه ربنا يسوع بطرس نفسه مع أخيه من البحر قائلًا: «هلم ورائي فأجعلكما صيادي الناس»، فهذا ماقرأه في الفقرة التاسعة عشرة من الاصحاح الرابع، ولقد كتب فرسان علمانيون في كتبهم حول حجهم، بأن هذا حدث هنا، لكن هذا ليس صحيحاً، لأن هذه الدعوة إلى الرسولين وقعت عند بحر الجليل، علماً بأننا لم نقرأ أبداً بأن ربنا يسوع قد جاء قط إلى يافا بالجسد، هذا ونقرأ في الاصحاح التاسع من أعمال الرسل، بأن القديس بطرس كان مرة هنا، ولذلك لا أنكر إمكانية قيامه بالصيد هنا، ووجدنا على شاطئ البحر أعداداً لا تحصى من أكوام أصداف المحار، من مختلف الأشكال، وقد التقطنا بعض الذي اعتقدنا أنه الأكثر جمالاً وغرابة.

وحدث في ذلك اليوم نفسه أن قام أحد الفرسان بشراء بعض الحجارة من واحد من المسلمين باعه إياهم في الكهف بخمسة دوقيات، ولقد اعتقد أنهم أحجار كريمة، لكن في أثناء عرضهم على رفاقه، اكتشف بأنهم لم يكونوا حجارة كريمة صحيحة، بل تقليد صنع من زجاج ملون، وبناء عليه حمل قطع الزجاج إلى التاجر لإعادتهم، رغباً باسترداد ذهبه، لكن ذلك التاجر الوضيع رفض ردّ الذهب، وكذلك استرداد قطع الزجاج، ولذلك أخبر الفارس القبطان عن عملية الغش

U# bM E "WK d « #U 6 rK *« + EUD I « vJ #U "Ác Y«b) «E

سمع الحاكم هذه الشكوى، أرسل على الفور مساعداً له مع عصا، إلى سجننا، حيث كان ذلك التاجر جالساً مع سلعه، فأخذ منه بالقوة الخمس دوقيات، اللائي ردهن إلى الحاج، ووجه إليه كثيراً من الضربات بعصاه، ورد إليه قطع زجاجه ثانية.

وهكذا مضى هذا اليوم مع ملل أقل من الأيام التي تقدمت عليه، وحدث أنه عندما كان الوقت ليلاً، قدم بعض السودان الشباب، من حملة الترسة للسادة المغاربة، وكانوا من ذوي السلوك السيء، وأشراراً، وقد أرادوا الدخول إلى الكهف لاختلاسنا وابتزازنا، لكن الحارسين اللذين استأجرناهما لم يسمحا لهم بالدخول، وقد تنازعوا وتشاجروا معهما لبعض الوقت أمام باب الكهف، وعندما رأوا أنهم لن يستطيعوا الدخول إلى الكهف، جلسوا أمام الباب، وأخذوا يغنون طوال الليل، وينهقون وينبحون، ويصرخون مثل الحيوانات، والكلاب، والخنازير، لأن جميع المشاركة امتلكوا أصواتاً خشنة جداً، ولا يمكنهم صنع أي لحن شجي، بل إن غناءهم مثل أصوات التيسة والعجول، وهكذا أمضينا تلك الليلة مع هذه المنغصات.

وفي اليوم الثامن سعى الأب المسؤول عن دير جبل صهيون جاهداً ومعه الحجاج والمسلمين من خيرة الأنواع لإقامة وئام بين قبطانينا، لكن من دون نجاح، وعندما رأى السادة المغاربة والحكام هذا، أعلنوا أنها مالم يصبحا على الفور صديقين، سوف يضعانها في الأغلال، ويرسلان بهما إلى غزة للسجن هناك حتى يتخذ سيدهم السلطان قراراً حول الذي ينبغي عمله معهما، وقالوا بأن الحجاج سوف يساقون عائدين إلى غليونيهما، من دون السماح لهم بزيارة الأماكن المقدسة، وسيزودهم بقبطانيين آخرين، ويرسلون بهم عائدين إلى بلادهم، وأرغم القبطانين بهذا التهديد على إنهاء خصامهما، وتصافحا وعملا سلاماً بينهما، وبعد

هذا الاتفاق الذي عقده مع السادة والحكام، من أجلنا جميعاً، جاء الفحل، أي كالينوس الأصغر، إلينا، وأخبرنا بوجوب جعل أنفسنا جاهزين للانطلاق، وهكذا تجهزنا بسرعة ووقفنا مثقلين بحقائبنا وقواريرنا ننتظر الإشارة، واصطف السادة المسلمون أمام كهفنا حتى يمكنهم تعدادنا للمرة الثانية، مثلما فعلوا عندما نزلنا من البحر، وبعدما جرى إرسال عدد كبير من الحجاج إلى الحمير، فجأة أصبحوا غاضبين، حول ما لم أعرفه، ودفعوا بناعائدين إلى كهفنا، مهددين لنا بالعصي، وفصلونا عنهم وقذفوا بنا إلى الكهف وكأننا حيوانات، وانقضوا على الحجاج الذين جرى تعدادهم، ونزلوا من التل وكانوا على وشك ركوب حميرهم، وضربوهم بالعصي، وأرغموهم على الركض والدخول إلى الكهف، وهكذا أمضينا ذلك النهار، ولم نكتشف السبب الذي دفع إلى اعادتنا هكذا.

وصف ميناء يافا وقدم هذه المدينة وقداستها

وقبل أن نغادر الميناء، من المناسب أن نرى متى أقيم، وفي أية أماكن من الكتابات المقدسة ورد ذكره، خاصة وأننا نحن الحجاج لن نعود إلى هنا ثانية، لأننا في طريق عودتنا أخذنا سفينة من ميناء الاسكندرية، ولم نر هذا الميناء ثانية.

ويافا هي أقدم ميناء، والمدينة الأقدم في مقاطعة فلسطين، وكانت المدينة الثامنة في العالم، التي بنيت قبل طوفان نوح، الأمر الذي تبرهن على صحته بالعثور هناك بعد الطوفان على مذابح للأرباب التي كانوا يعبدونها قبل الطوفان، ولهذه المدينة اسمين، حيث يقال لها يافا اشتقاقاً من اسم يافث بن نوح، الذي يقال بأنه سكن فيها لبعض الوقت، وأنه أعاد عمارتها بعد الطوفان، وسميت يوبا Joppa اشتقاقاً من اسم أيوب Jop الذي كان رجلاً بسيطاً ومقدساً، والذي من المفترض أنه سكن هناك، وعندما جرى تقسيم البلاد بين الأسباط الاثني عشر لاسرائيل،

وقع هذا المكان في حصّة سبط دان، وورد ذكر هذا المكان في سفر القديس إرميا، لدى ذكر «مسافات الأماكن»، حيث قال بأن يافا مدينة للفلسطينيين في ديار سبط دان، ذلك انه حتى هذا اليوم يمكن رؤية الصخور على الشاطئ، التي ربطت إليها العذراء الجنية أندروميذا، ابنة سيفيوس Cepheus ، بسبب جريمة أمها، فقد حكم عليها من قبل أمون، وبعد ربطها إلى الصخرة، قدمت إلى وحش البحر، وذلك بينما وقف والديها يكيان على الشاطئ، لكن فيرسوس Perseus، أبو النبلاء الاغريق، وابن يوف Jov، ودانس Danis (Danae) كان لديه حصانا مجنحاً وترس بالاس Pallas ، ونعل وسيف ميركري Mer-cury، وقد طار مخلقاً من فوق جبل يدوليوم Ydoliom، وبينما هو طائر مخلقاً في الهواء فوق فرسه المجنح رأى الفتاة مربوطة إلى صخرة، في ميناء يافا، ووحش البحر العظيم على وشك التهامها، وعندما رأى هذا طار على الفور إلى هناك، وعقد ميثاقاً مع والديها، أنه إذا ما أنقذها من الوحش، سوف تكون زوجته، وعندما وافق الوالدان على هذا، قتل الوحش الشنيع، وأطلق سراح الفتاة، واتخذها زوجة له، والآن عندما رأى فينوس Phyneus أخو سيفيوس ملك يافا هذا، ولأن أندروميذا كانت من قبل مخطوبة له، خطط ليأخذها منه بالقوة، لكن فيرسوس غلبه، وذهب إلى فارس، حيث تغلب على تلك البلاد، وأطلق عليها اسمه.

وقد تبرهن على أن سيفيوس كان ملك يافا من خلال بعض المذابح الغاية بالقدم، التي عثر عليها القدماء، ووجدوا اسمه منقوشاً عليها، وكانت عظام ذلك الوحش البحري الذي قتله فيرسوس ذات حجم كبير، وكانت معروضة على الشاطئ أمام المدينة، وقد رآها جميع الذين زاروا يافا، غير أنهم نقلوا من هناك إلى روما من قبل تيتوس وفسبسيان، وجرى تعليقهم في مكان عام للتعجب منهم، لأنهم كانوا بالفعل

جديرين بالتعجب، لأن طول كل ضلع من أضلاعه كان احدى وأربعين قدماً، ثم قام القديس سلفستر والقديسين الآخرين الذين كرسوا روما للمسيح فدمروا هذه العظام وجميع العجائب الأخرى، وذلك خشية أن يأتي الحجاج إلى هناك لرؤيتهم، وأيضاً خشية أن ينفق الحجاج الذين قدموا إلى روما من أجل تمجيد الرب ورساله، وقتهم ويضيعوه، ويبددوا الساعات التي يمكنهم تضيئتها في الصلاة، على رؤية مثل هذه الأشياء الغريبة.

وأعلن بعضهم أن تلك العظام كانت عظام الجنية العذراء أندروميذا، الأمر الذي يبدو مستحيلاً، لأن فيرسوس أخذ أندروميذا معه إلى فارس، وأمضى أيامه هناك، ولم نقرأ في أي مكان عن عودته إلى يافا، وقال يوسفوس بأنه قد رأى السلاسل، والأطواق البرونزية التي ربطت بهم أندروميذا، وأنهم كانوا مايزالون معلقين فوق الصخور، وغالباً ما أشار جيروم إلى أندروميذا هذه، وخاصة في المكان المتقدم الذكر، وفي حج باولا المقدسة، وذكرها بوكاتيوس Boccatus أيضاً في الكتاب الثاني عشر من مصنفه «أنساب الآلهة»، وذكرها بالفصل الخامس والعشرين، مثلما فعل يوسفوس أيضاً، علاوة على ذلك مراراً جرى الحديث عن هذا الميناء في الكتابات المقدسة الشرعية، ذلك أنه إلى هناك بعث حيرام ملك صور، خشب الأرز من لبنان عبر البحر، ومن هناك أخذ سليمان هذه الأخشاب وجلبها إلى القدس، من أجل بناء الهيكل، حسبما يمكن رؤية ذلك في سفر أخبار الأيام الثاني — الاصحاح الثاني ١٦، وفي عزرا: ٣/٧، فضلاً عن هذا بنى شعفاط أسطولاً في هذا الميناء، قاصداً الإبحار إلى جزيرة أوفير ophir، لإحضار الذهب من هناك، لكن السفن غرقت بقضاء من الرب، وذلك حسبما قرأنا في سفر الملوك الثالث، وإلى هذا الميناء هرب النبي يونان، وذلك حسبما قرأنا في الاصحاح الأول من سفر يونان، فهنا ذهب على ظهر

سفينة علّه يهرب إلى ترشيش، أي إلى أفريقيا إلى مدينة قرطاج، التي أخبرنا جيروم بأن اسمها كان ترشيش، وعندما صار خارج الصخور تحرك البحر وصار هائجاً، وبناء عليه صار الملاحون راغبين بالعودة إلى الميناء، لكنهم لم يستطيعوا فعل شيء حتى ألقوا بيونان في البحر، فابتعلته سمكة، وبعد مضي ثلاثة أيام تقيأت بيونان ولفظته على الشاطئ.

وأحرق يهوذا المكابي هذا الميناء مع جميع سفنه، بسبب إغراق اليهود، الذي فعله أهل يافا وتدبروه خيانة، وذلك حسبما قرأنا في الإصحاح الثاني عشر من سفر المكابيين الثاني، وجاء القديس بطرس الرسول إلى يافا عندما جرى طرده من اليهودية، وبشر هناك، وفيها أقام تابيثة من الموت، وذلك حسبما قرأنا في الإصحاحين التاسع والعاشر من أعمال الرسل، علاوة على هذا لقد أمضى أياماً كثيرة في يافا مع سمعان الصباغ الذي كان بيته على شاطئ البحر، ويرى بعضهم — وما يرونه يبدو معقولاً — بأن هذه القناطر والكهوف المقنطرة، التي حبسنا فيها، كانت فيما مضى مكان إقامة سمعان الذي كان القديس بطرس ضيفه، وكان هذا الميناء قد جرى تحصينه من قبل يوناثان وسمعان المكابيين، وذلك حسبما قرأنا في الإصحاح الرابع عشر من سفر المكابيين الأول، لكن الرومان دمروه مرتين، وقتلوا هناك كثيراً من اليهود حتى أن دمهم جرى إلى البحر، وغطى جميع أجزاء البحر القائمة بين الصخور، وأعاد الصليبيون فيما بعد بناء الميناء، وخاضوا معارك كثيرة عنده هناك، لكن أخيراً قام المسلمون بهدم كل من الميناء ومن المدينة، ولم يتركوا شيئاً دونها هدم إلا برجين لحراسة الجانب المتجه نحو البحر، وكل شيء ماعدا ذلك. هدموه بحفر الأساسات تحت الأسوار والجدران.

ولم أر في أي مكان مثل هذه الخرائب العظيمة هناك، وتساءلت عجباً كيف أمكنهم هدم مثل هذه الأسوار السميكة، وتركوا فقط عند المدخل الذي يجده الانسان عندما يأتي من البحر بناءين مقنطرين، واقفين هناك،

وقد قطعاً من الراية نفسها، وهما مغطيان بالتراب والخرائب، ولذلك هناك دوماً رطوبة في هذه الأقنية وهي تدلف بالمياه من الأعلى، والجدران مبللة، والأساسات موحلة، ويستخدم هذا المكان طوال العام من قبل المسلمين مكاناً للتغوط العام، وفي محل التغوط هذا يلقون بالحجاج المسيحيين، كما تقدم بنا القول، والذي يقلق الحجاج بشكل خاص، أي الذين يجسسون هناك، هو أنك عندما تدخل إلى الكهف تجد القوس محطماً، وهناك أحجار كبيرة معلقة تهدد بالسقوط على رؤوسهم، ذلك أنه بدفعة من اصبع سوف تتساقط كومة كبيرة من الحجارة، وأنه تحت هذه الخرائب الخطرة أجبر الحجاج على الدخول والخروج بشكل متواصل، وبالإضافة إلى هذا، من الصعب جداً، ومن الخطورة بمكان أن يتخذ الإنسان طريقاً في هذا الميناء من البحر، ولاعتقد بوجود ميناء آخر بهذا السوء في جميع اطار البحر، لأنه مامن سفينة كبيرة قدمت من أية جهة كانت، يمكنها دخول الميناء، بل عليها التوقف في الخارج، وأن تجد مكاناً ترسو به بعد قياس الأعماق، لأنه على بعد رمية سهم من البحر العميق هناك صخور ناتئة ومنزلة، وأماكن ضحلة وصخور منبعثة من الماء ومرتفعة فوقه، يهدر البحر بينها بشكل دائم، حتى عندما يكون هادئاً في الأماكن الأخرى، وتندفع المياه وتضرب الصخور بشدة عظيمة، يتطاير الرذاذ أثرها عالياً في الهواء، ويصنع ضجة عظيمة يمكن سماعها من مسافة بعيدة سواء أكان ذلك في البر أو في البحر.

والميناء محاط بهذه الصخور، وكأنه جرى صفهم بفن انساني من أجل حمايته، بحيث لا تستطيع حتى القوارب من المرور بينهم، إلا من خلال مكان واحد، وذلك بين صخرتين عاليتين، تجذب القوارب بينهما بعناية عظيمة، لأن المياه تتحرك هناك جيئة وذهاباً بسرعة مدهشة، وهي تندفع وتضرب نفسها ضد جانبي الصخور، ومالم يكن الربان أو قائد القارب حذراً، من الممكن أن تغلب المياه على القارب وتدفعه على الصخور،

وتحطمه إلى آلاف القطع، ولهذا على الذين يدخلون إلى هذا الميناء التجذيف خلال الأمواج المرتفعة بأقصى سرعة ممكنة لمجاذيفهم أن تعمل بها، وذلك خشية أن ينجرف القارب ويخرج من وسط القناة إلى هذا الجانب أو ذاك ويصطدم بالصخور، وعلى كل حال من غير الممكن لأي قائد قارب مهما كان بارعاً، أن ينجو من التبلل بالمياه المتساقطة، والتي تضرب الصخور بكل عنف من على الجانبين، وهذه هي صخور أندروميذا، كما رأيناها.

وفي اليوم التاسع، جاء قبل الفجر، إلى كهفنا مسلم معه مصباح، وأيقظنا لننطلق برحلتنا، ولذلك نهضنا مسرورين، وخرجنا من سجننا، مثلما يفعل الأسرى لدى خروجهم من مكان أسرههم، ووجد فيما بين الكهوف والبحر، باتجاه الشمال، طريق يمر نزولاً عبر الصخور، إلى المكان الذي وقفت فيه الحمير مع سائقيها، وكان هذا الطريق ضيقاً جداً، بحيث لا يستطيع الإنسان الذهاب نحو اليمين أو نحو اليسار، بل عليه السير في وسط هذا الممر فقط، ووقف قبطانانا مع بعض المسلمين عند هذا الطريق الضيق، يحملون مصابيح، من المشاعل والفوانيس، وقد سألوا كل حاج، واحداً بعد الآخر عن اسمه وعن اسم أبيه، وبحشوا عنه في الجدول الذي كتبوه عندما نزلوا من السفينة، وعندما كانوا يعثرون على اسم الحاج، كانوا يسمحون له بالنزول إلى الحمير، الذين وقفوا في حشد تحت، هناك قرب البحر، ولو أن عدد الحجاج كان أكثر أو أقل مما هو بالجدول، ولم يستطع القبطانان تقديم تفسير لذلك، كان لابد من رمينا ثانية في سجننا.

وهكذا ذهبنا ونزلنا إلى المكان الذي وقفت فيه الحمير، وهناك وقف السائقون بانتظارنا، وما أن كان الحاج ينزل إلى الأرض المستوية، حتى كان أقرب السائقين يمسكه، ويقوده إلى حميره، ولذلك كثيراً ما حدث أن كان هناك سائقين أو ثلاثة يتجاذبون حاجاً واحداً، يحره أحدهم بهذا

الاتجاه، وذاك بالاتجاه الآخر، لأنه عندما سمع أهل الريف في القرى المجاورة بأن حجاجاً قد جاءوا، جلبوا كثيراً من الحمير، وكان عددهم أكبر من عدد الحجاج الذين كانوا هناك، ولذلك حاول كل انسان أن يجلب حاجاً إلى حميره، لأن كل واحد من المسلمين جلب سبعة حمير أو ثمانية من نوع واحد، وكان لهذا يحدث أن لا يوجد أكثر من مائتي حاج، ويكون هناك ما يزيد على أربعمئة حمار، ولذلك تقاتل السائقون من أجل الحجاج، وتجاذبهم إلى هنا وهناك، لأن الذي لم يأت حاج، جاءت رحلته مقابل لاشيء، ولم أفهم هذا عندما قمت بحجي الأول، ففي اللحظة التي كنت قد نزلت بها، ركض نحوي وقتها مغربي أسود، وجذبني بعنف محاولاً جري نحو حشد من الحمير، كان من حوله هناك صخب مدهش، ولقد خشيت من أن يكون قد نوى سرقتي، فوقفت ثابتاً في مكاني، وبقوة كبيرة خلصت نفسي منه، وعادت بكل سرعة الصعود إلى المكان الذي وقف الحكام فيه مع مصاييحهم، وأخبرت الأب المسؤول عن دير جبل صهيون بما وقع لي، وعندما سمع هذا الأب ذلك مني قال: «انزل بسرعة، بسرعة، واذهب بارادتك مع الذي يقودك ويذهب بك، وعندما نزلت، قابلني مسلم، وصدف أنه أمسكني يمينه من يميني، وبدأ يسعى مسرعاً، لأنه في ذلك الوقت كان الجميع قد ركبوا حميرهم، وعندما ركض أرغمت على الركض جانبياً وبشكل مربك، لأنه — كما قلت — كان ممسكاً ليميني يمينه بشدة، ولقد ركض وهو ممسك بي فوق الصخور حيث ارتطمت بها عدة مرات، وأنا أركض جانبياً، ووقعت، وأخيراً وصل بي إلى حميره، وأعطاني حماراً صغيراً جيداً، كان كله أسود اللون، وأبدى نحوي كثيراً من اللطف والصداقة، خلال حجي الأول كله، ومع أن منظر وجهه كان قبيحاً، لقد كان كله لطف، واستجاب لجميع مطالبني مثل أحسن الخدم، وفعل ذلك قبل أن يعرف مكانتي، وكان عبداً لسيد مسلم أنا لم أعرفه، كان اسمه جلاله Galela ، وكان اسم عبده قصه Cassa ، وكان كل

من أراد أن يدعو هذا العبد، قد اعتاد على دعوته بهذين الاسمين معا: «جلاله قصه»، وكان سائق الحمار قصه قد أخبرني أنني كلما أردت دعوته، عليّ أن أنادي جلاله قصه، لأن الحاج يحتفظ بالسائق الذي يحصل عليه في يافا، خلال الرحلة كلها في الأرض المقدسة، ولا يحصل على حمار من أي واحد آخر، وكلما أراد الحاج أن يترك أي مكان، عليه أن يسعى بين حشد الحمير بحثاً عن سائقه، داعياً إياه بالاسم بصوت مرتفع.

وبناء عليه، عندما نزلت في حجي الثاني هذا من المكان الذي وقف فيه الحكام، رغبت بالحصول على سائق حماري الأول، وقبل أن أصل إلى قطيع الحمير، صرخت إلى جلاله قصه سائق حماري الأول، وعندما سمع السائقون الآخرون هذا، مامن واحد منهم حاول جذبي نحو حميره، لرؤيتهم أن لدي سائق أنا أعرفه، وفيما أنا أصرخ جلاله، قام سيد سائقي، الذي لم أكن أعرفه، والذي كان مسلماً مثل الملك بالمكانة، وكان جالساً على ظهر فرس، فقدم نحوي ولمسني بلطف بعصاه التي أمسكها بيده، مشيراً إليّ أن أحتفظ بهدوئي، وأن أقف على الجانب بلا حراك، وكان الجميع الآن يركضون إلى هنا وهناك، وكان كل حاج وسائق حمار في وضع فوضوي جداً، وكان كل واحد يسرع ليعمل صفقة جيدة لنفسه، ولهذا عندما وقفت بلا حراك، والحجاج الآخرون كل واحد منهم يسعى أو يجري جره نحو الحمير، صرت قلقاً، خشية أن يكون المسلم قد نسني، وحاولت أن أبتعد عنه، وعندما رأى هذا، قال لي شيئاً باللغة الكلدانية (كذا) لم أفهمه، لكنني قدرت وقتها أنه قال لي: «قف حيث أنت إلى جانبي، أنا جلاله، وعبدي قصه سوف يأتي بالحال إليّ، وسوف يزودك بدابة»، وبعد انتظار قدم قصه إلى سيده، وما أن رأني حتى تذكرني وعرفني، وتذكرته أنا وعرفته وركض ليقبلني حسب طرائق المسلمين، وحياني بسرور عارم وببهجة، واندش كثيرًا

لعودتي، وضحك وقال أشياء كثيرة لي، أنا لم أفهمها، وكنت قد جلبت معي من أولم ركابين معدنيين، قدمتهما له، وقد تقبلها بشكر عظيم، واقتادني إلى حيث وقفت حميره بين القطيع، وأعطاني أحسن دابة لديه، ودهش موالي مع الحجاج الآخرين لرؤيتهم المسلم وهو يعاملني بكثير من الصداقة، لأنهم كانوا يعانون من كثير من الازعاج من سائقي حميرهم، وذلك بالضرب من قبلهم، والإلقاء عن ظهور حميرهم والاستيلاء على مقتنياتهم، وقد تحررت من جميع هذه الاضطرابات، لأنه كما حدث في حجي الأول، خدمني هذا الرجل بأمانة، وأطاع أوامري، وكأني كنت أميراً، وغالباً ما بادل لي حميري حتى أحصل على حمار أفضل يرضيني، وعندما كان الحمار يصعد إحدى التلال، كان يدعمني، وكان يمسكني عندما كنا ننزل طريقاً منحدرًا، أو طريقاً وعراً، حتى لا أسقط، وكان يعطيني شراباً من قربته، ويشاركني في الكعك الذي كان معه، وكان يتسلق فوق الجدران الحجرية للحدائق، ويجلب لي التين والعنب وفواكه أخرى منهم، وقد أعطاني المهماز الذي استخدمه لحماره، هذا ولم يعط أي من سائقي الحمير الآخرين إلى أي من الحجاج مهاميز لحميرهم، وبسبب هذه الخدمات التي قدمها لي اعتاد النبلاء ورفاقي على الظن أنني أعطيته كثيراً من المال بالسر، لكن هذا لم يحدث، لأنني لم أعطه شيئاً مطلقاً زيادة على ما كان مفروضاً عليّ، وغالباً ما تصورت أنه افترض أنني كنت لورداً كبيراً، وكان هذا المعلن لخدمته لي بمثل هذه العناية، وفي الحقيقة كنت في خلال حجيّ محظوظاً إلى حد كبير، حيث لم أعامل بسوء من قبل أحد من المسلمين، أو البدو العرب، أو المدينيين، أو الممالك، والذين كانت لي علاقة بهم، ولا يمكنني إخباركم أنني تلقيت أية ضربات أو اهانات، مع أنني غالباً مارأيت الحجاج الآخرين يتعرضون للضرب وللإهانة، وكان لديّ دوماً في حجيّ دواب جيدة، وبقيت على الدوام قوياً وصحيحاً، ولرب الحمد.

انطلاق الحجاج من شاطئ البحر وهم على ظهور حميرهم

أما وقد فرغت من حكاية جولاتي عبر البحر، ينبغي أن أنتقل إلى مايتعلق بجولاتي على اليابسة، وهكذا — كما قلت من قبل — عندما جئنا إلى قطيع الحمير، وأخذ كل انسان، بعد طول انتظار دابة وتجهز بها، امتطينا هذه الحمير عند شاطئ البحر، ووقفنا ننتظر لبعض الوقت، حتى أصبح السادة المغاربة جاهزين، وكان هناك بعض الحجاج، الذين رفضوا صدوراً عن تقواهم، أن تكون لديهم حمير، وأرادوا السعي وراء جماعتنا، وسمح لهم المسلمون بفعل ذلك، وكانوا راضين شريطة أن يركضوا بقدر ما تستطيع حميرنا أن تقطع في يوم واحد، وأن يسيروا مع الجماعة، وأن لايتأخروا خلفها، لكن عندما سرنا أسرع لم يستطيعوا مسايرتنا، بسبب المسافة التي قطعناها، ولأن الطريق الذي سرنا عليه كان طريقاً رملياً، وهكذا كانوا مرغمين بالقوة على ركب الحمير.

هذا وليست صحيحة الحكاية التي غالباً ماسمعناها في بلادنا، من أن المسلمين أرغمونا على ركب الحمير إلى القدس، وأن نمر من خلال الأرض المقدسة، لأنهم كانوا يرون أننا غير جديرين بلمس الأرض بأقدامنا، فهم لم يعبأوا أمشي الحاج على قدميه، أو ركب حماراً، مادام العقد المبرم مع القباطنة محافظ عليه وعلى الذي يمشي على قدميه عدم التأخر، ومن ثم إرغامهم على انتظاره، والسبب الذي جعلونا نأخذ به حميراً، هو أن نبقي دوماً مع بعضنا، وأن نصل إلى القدس دون أن نصاب بالمرض، لأن الحجاج لو توجب عليهم السير على أقدامهم طوال الطريق من البحر إلى القدس، وأن يعبروا خلال الأرض المقدسة في مثل هذه الأنواء الحارة، وأن يمشوا فوق الطرقات التي هي رملية في السهول، ووعدة في الجبال، لو توجب عليهم هذا، فقلة منهم هي التي سوف تبقى حية، بسبب الحرارة، والعطش، والعمل في ظل مناخ غريب، وإذا ما أرغمنا على السير على أقدامنا، خلال الأرض المقدسة،

كيف لنا أن نهرب من البدو العرب، والفلاحين في القرى، أو الصمود في وجههم عندما يهاجمونا؟ وبناء عليه إنه لصالحنا جرى تزويدنا بالدواب، وليس لضررنا كما قيل من قبل الجهلة.

وعندما بات الجميع جاهزين، ومضى القبطانان والحكام على ظهور خيولهم، وابتعدوا عن شاطئ البحر، تبعناهم، ونحن على ظهور حميرنا، وسار خدم السادة المغاربة، وهم على ظهور مطاياهم خلف الحجاج، ورافقنا سائقوا حميرنا، وسرنا نحن جميعاً وفق هذا النظام مسرعين جداً بعيداً عن البحر، وكان هناك حشد عظيم اجتمع معاً من المسيحيين ومن المسلمين، وأدركنا ظهورنا إلى شاطئ البحر، الممتد من الشمال إلى الجنوب، وكان ميناء يافا، بوضعه قائماً في وسطه، لأنه قام باتجاه الجنوب منه بينى وغزة، وقام على الجانب الشمالي قيسارية فلسطين، وعكا، وصور، وبירות، وطرابلس، وقد خلفنا هؤلاء جميعاً وراءنا على شاطئ البحر، وسرنا على طريقنا نحو الشرق، خلال أرض فلسطين، التي لم تكن كلها منبسطة، بل تشكلت من هضاب منخفضة من مختلف الأشكال، وهذه أرض كانت من الممكن أن تكون خصبة وجيدة، لو توفر شعب يزرعها ويسكن بها، لأنه في الواقع الجزء الأكبر من الأرض المقدسة هو صحراء.

وعندما صرنا على مسافة نصف ميل عن البحر، وصلنا إلى مدينة غاث، التي كانت فيما مضى مدينة المقاتلين الأشداء جداً من العمالقة، وفيها ولد جالوت الغاثي، وتقول الأساطير أيضاً بأن القديس كريستوفر قد ولد هناك أيضاً، وإلى ملك غاث كان داوود قد هرب من وجه شاول، وحدثنا الإخباريون عن هذه المدينة، أنه بفضل طبيعة المكان، ولد فيها رجال قساة وشجعان، ولهذا حتى في العصور المتأخرة استولى الصليبيون عليها بعد سفك كثير من الدماء، وخاضوا معارك شديدة مع المسلمين المدافعين عنها، حتى أخيراً، بعد مذبحه عظيمة بين

المسلمين والصليبيين فقدوها للمرة الثانية، وعندما استولى عليها المسلمون هدموها وسووها بالأرض، ولهذا هي الآن قائمة حالها حال يافا.

وكانت الشمس في الوقت نفسه قد أخذت بالاشراق، وقد اجتزنا خلال أرض جميلة، مليئة بالأسوار والجدران المهدمة، ولقد دهشنا تجاه الخرائب التي رأيناها، عندما اجتزنا إلى جانب مدينة اسمها أرسوف، التي كانت قد بنيت من قبل سليمان، وذلك تبعاً لما قاله جيروم في كتابه «عن مسافات الأماكن»، وكان البدو العرب في ذلك الحين منتشرين فوق وخلال كثير من أجزاء الأرض المقدسة، ولقد قدموا ثلاث مرات لمواجهتنا، لكنهم عندما رأوا أننا كنا محميين بشكل جيد بمدافعنا مسلحين، لم يتعرضوا لنا بأي عنف لا بالحجارة ولا بالفولاذ، بل التحقوا بشكل سري بحشدنا إلى طرف الحجاج، وحاولوا سرقة كتابات، وملابس وما شابه ذلك، لأنهم عرفوا أننا كنا غير مسلحين، ولهذا ركضوا من حولنا وانتشلوا كل ماسقط من الحجاج، أو ما لم يجرسوه بشكل دقيق، ولولا أننا سافرنا مع هذه القوة العظيمة، لكانوا انقضوا علينا، وضربونا بالحجارة، والعصي، والهرات، كما حدث مراراً للحجاج بين يافا والرملة، وعندما لا يكون بداءة عرب في المنطقة، كان الفلاحون يحتشدون مع بعضهم، ويهاجمون الحجاج وهم على طريقهم، ويلحقون بهم أضراراً كثيرة، ولهذا كانت الرحلة من يافا إلى الرملة خطيرة كثيراً، بسبب هذه الكمائن والإهانات الصادرة عن المسلمين.

وفيما نحن على طريقنا رأينا مدينة الرملة، فوق رابية منخفضة في منطقة فائقة الجمال، وعندما بتنا على مسافة فرلنغ (ثمان ميل) منها، أرغمنا على التراجع من على ظهور حميرنا والسير على الأقدام، وأن يحمل كل واحد منا حقائبه على كتفيه، وبناء على ذلك أعطينا حميرنا إلى السائقين، وأسرعنا نحو البلدة ونحن في ضيق عظيم، لأن الحرارة كانت

عالية جداً، وثار الغبار هناك، وكان هناك حشد كبير من الناس مع كثير من أعمال الازعاج، وكان المسلمون لا يقبلون بدخول المسيحيين إلى مدنها وبلداتهم، وهم راكبين للدواب، ما لم يكن قدومهم في الظلام، لكن في وضوح النهار كان هذا مرفوضاً، ولقد عدّوا مدينة الرملة ذات مكانة عالية فوق جميع المدن الأخرى، لأن القاضي Thadi ، أي أسقفهم، يسكن فيها، لذلك تراهم متمسكين في أن لا يدخلها مسيحي إلا على قدميه، وعندما دخلنا إلى المدينة، وجدنا على مسافة قصيرة من بابها بيتاً له باب منخفض وضيق، وقف أمامه الحاكم، وتولى تعدادنا واحداً واحداً، وذلك مثلما فعلوا عندما غادرنا البحر، وطلب منا الدخول من خلال الباب الصغير، هذا ولقد كان في داخله ساحة واسعة وجميلة، مع كثير من القاعات، والغرف المقيمة من مختلف الأنواع، وبركة مليئة بماء جيد وصحي.

وكان هذا البيت قد شري منذ وقت طويل مضى من قبل فيليب صاحب بيرغندي، ذي الذكرى المباركة من أجل الاستخدام من قبل الحجاج، وعهد به من قبله، إلى رهبان دير جبل صهيون، ولهذا أطلق عليه اسم مضافة الحجاج، وقد تركه رهبان دير جبل صهيون إلى واحد من المسيحيين الشرقيين سكن فيه، ولقد سمعت أنه قبل شراء هذا البيت من أجل إيواء الحجاج، كانوا قد اعتادوا على الإقامة مجبرين في نزل عام في المدينة قرب السوق، في وضع تعيس وكريه، حيث أسيئت معاملتهم كثيراً، لأن مسلمي الرملة ومغاربته يحملون كراهية خاصة نحو المسيحيين وسيئون معاملتهم كثيراً، كما سأخبركم، وقمنا هنا بتوزيع أنفسنا على مختلف القاعات، وجلسنا كل جماعة لحالها، وامتلك موالى وجميع أتباعهم مأوى واسعاً، اشترينا له حصراً لتغطية الأرض، حتى لانكون مرغمين، على الجلوس، أو الاستلقاء، أو النوم، أو الأكل، فوق أرض عارية، لأنه لم يكن هناك سوى قاعة مقيمة مع جدران

وأرض مبلطة، من دون أي أثاث مهما كان نوعه، باستثناء ما جلبناه وأدخلناه إلى هناك بأنفسنا.

هذا وكانت الساعة عندما دخلنا إلى المدينة هي حوالي التاسعة صباحاً، وبناء عليه أعدّ الأب المسؤول عن دير جبل صهيون، وأقام مذبحاً في الحديقة الداخلية للبيت، حيث كان بيتا القبطانين، وكان ذلك مقابل جذع نخلة عظيمة، كانت قائمة هناك، محملة بالتمور، وبعد هذا دعا جميع الحجاج إلى الدخول إلى تلك الحديقة، وفعل ذلك بعدما أغلق الأبواب، حتى لا يتمكن المسلمون من مقاطعتنا، وقام واحد من الرهبان بعمل قداس، وبعد القداس قدّم الأب المسؤول موعظة طقوسية جميلة، باللاتينية، لأنه كان ايطالياً، ولا يعرف الألمانية، وبما أنه لم يكن لديه، أومعه أحد فصيح مجيد للغة الألمانية، يمكنه أن يترجم موعظته لنا نحن الألمان، طلب مني أن أقف إلى جانبه، وأن أترجم موعظته إلى الحجاج الألمان، وفعلت هذا راضياً، ووقفت إلى جانبه، وعندما كان يتفوه جملة باللاتينية كنت آخذها من فمه وأعيدّها باللغة الألمانية الرائجة، فضلاً عن هذا قدم إلى الحجاج بعض الوصايا في موعظته تتضمن أحكاماً وطرائق رؤية الأماكن المقدسة التي عليهم مراعاتها أثناء إقامتهم بين المسلمين والكفار في الأرض المقدسة، خشية أن يتعرضوا للمخاطر من خلال الجهل.

وكانت أول الأحكام والنصائح: أنه إذا كان هناك حاج قد قدم من دون الحصول على إذن واضح من البابا، وبذلك صار عرضة لقرار البابا بالحرمان الكنسي وتحت طائلته، على مثل هؤلاء الأشخاص تقديم أنفسهم له بعد القداس، وهو سيقوم بتحليلهم من ذنبهم بفضل السلطة الرسولية الممنوحة له، فالبابا كان يتخذ قراراً اجرائياً ضد كل واحد يذهب لأداء الحج في الأراضي المقدسة من دون الحصول على إذن منه، كما مرّ معنا في ص ٩٥، المتقدمة، وسبب هذا الحرمان الكنسي، هو أنه

بعدها جرى طرد الصليبيين من الأرض المقدسة، بقي بعض المسيحيين، حتى من أتباع الكنيسة اللاتينية هناك، وتحلفوا فيها، وتعايشوا بأنفسهم مع المسلمين، وأدوا إيمان الولاء لهم، وحدث أيضاً أن بعض الذين تركوا تلك البلاد، عادوا إلى هنا ثانية إلى الذين بقيوا هناك وصاروا رعايا لهم، وأبحروا بعد ذلك إلى البلاد المسيحية، وجلبوا منها مصنوعات حديدية، وأسلحة، كان المسلمون بحاجة إليها، وعندما رأى البابا هذا، قام بإصدار قرار حرمان كنسي بحق جميع الذين بقيوا في الأرض المقدسة مع المسلمين، أو الذين تعاونوا معهم واتفقوا، كما قام أيضاً بحرمان الذين حملوا الأسلحة والأشياء الأخرى المحتاجة إليهم، علاوة على ذلك حرم الأرض نفسها، وبناء عليه صار كل من يدخل إليها من دون إذن آثماً مرتدّاً، على أساس أنه لا يمكنه العيش هناك من دون التعاون مع المسلمين والمهرطقة، هذا وجرى استثناء أعضاء من الطوائف الدينية من الذين زاروا الأرض المقدسة من الحرمان، وكذلك كل واحد له صديق واقع بالأسر بين المسلمين، فهذا يمكنه دخول البلاد من دون الحصول على إذن من البابا، وأن يعقد صفقة مع المسلمين من أجل الحصول على حرية صديقة، وقد قرأت هذه الشروط والقرارات في كتاب قديم كتب من قبل أحد الحجاج الذين زاروا الأرض المقدسة منذ مائة وخمسين سنة مضت، ولم يمنح الرئيس الأعلى للدومنيكان إذناً لأي راهب لم يحصل أولاً على إذن من البابا.

وكانت النصيحة الثانية: وجوب عدم تجول أي حاج لوحده حول الأماكن المقدسة من دون دليل مسلم، لأن ذلك يعدّ خطراً وغير آمن، ولم أقم أنا الراهب فيلكس فابري بالتقيد تقيداً مطلقاً بهذه النصيحة كما سيتضح فيما بعد.

وكانت النصيحة الثالثة: على الحاج أن يكون حذراً ولا يخطو فوق قبور المسلمين، لأنهم يغضبون غضباً عظيماً عندما يرون هذا يفعل،

ويرجمون بالحجارة كل واحد يدوس فوقهم، لأنهم يعتقدون أن الخطو فوقهم يعذب الميت ويزعجه.

وكانت النصيحة الرابعة: أنه إذا ماتعرض حاج لضربة من مسلم، عليه عدم الرد بضربه، حتى وإن كان مظلوماً، بل عليه أن يشكو الذي ضربه إلى المسؤول عن الدير أو إلى الترجمان كاليونس اللذان سيقصان له إذا استطاعا، وإذا لم يستطيعا، وكان الفاعل شاب وقح أحياناً، وعنيد، وقتها على الحاج أن يتحملها صابراً من أجل مجد الرب، ومن أجل الحصول على ثواب أعظم.

وكانت النصيحة الخامسة: على الحجاج أن يحذروا من قطع شظايا من الضريح المقدس، ومن الأبنية في الأماكن الأخرى، ومن تشويه الحجارة المنحوتة هناك، لأن هذا محرم تحت طائلة الحرمان الكنسي، ولسوف يقال المزيد حول هذه المسألة في الورقة ٢١٧ ظ.

والنصيحة السادسة: يتوجب على الحجاج من أصل نبيل عدم تشويه الجدران برسم رنوكهم وشعاراتهم عليها، أو بكتابة أسمائهم، أو بتثبيت أوراق على الجدران عليها مرسومة رنوكهم، أو بالخربشة على الأعمدة أو الألواح الرخامية، أو حفر حفرة فيهم بأدوات معدنية لعمل علامات تدل على زيارتهم لهم، لأن مثل هذا التصرف يغضب المسلمين كثيراً، ويعتقدون أن الذين يفعلون مثل هذه الأفعال حمقى.

والنصيحة السابعة: هي على الحجاج السير إلى زيارة الأماكن المقدسة بطريقة نظامية، من دون فوضى أو عدم اتفاق، وينبغي أن لا يقوم انسان بإبعاد آخر وأخذ مكانه، لأن هذا يولد كثيراً من الفوضى التي تقع عند تلك الأماكن، وبذلك تتعطل التقوى ويعاقب التعب المخلص.

أما الشرط الثامن والنصيحة: هي أنه يتوجب على الحجاج عدم الضحك وهم يسرون مع بعضهم في أرجاء القدس لرؤية الأماكن

المقدسة، بل عليهم أن يكونوا جديين وأتقياء، من أجل الأماكن المقدسة، وليقدموا مثلاً للمسلمين، وأيضاً حتى لا يعتقدون ويشكّون أننا نضحك عليهم، الأمر الذي يغضبهم إلى أبعد الحدود، ذلك أنهم دوماً يتشككون حول الضحك والرهج بين الحجاج.

والوصية التاسعة: هي على الحجاج أن يكونوا متيقظين فوق كل شيء تجاه المزاح أو الضحك على الأطفال المسلمين أو الرجال الذين يقابلونهم، لأنه مهما كان القصد من ذلك، فإن كثيراً من السوء ينشأ من ذلك، وعلى هذا مهما صدر عن الصبي وكان مضحكاً، على الحاج أن يبعد نفسه وينأى بها، وأن يبقى جاداً، وبذلك يبقى بأمان.

وأما الوصية العاشرة: فعلى الحجاج عدم التحديق بأي من النساء اللاتي يواجهن، لأن جميع المسلمين غيورين إلى أبعد الحدود، وهكذا يمكن للحاج أن يجلب المخاطر على نفسه من خلال الجهل، حيث يغضب عليه واحداً من الأزواج الغيورين.

والوصية الحادية عشرة: إنه إذا حاولت أمة امرأة الإيذاء إلى حاج أو دعوته بالشارات لدخول بيت ما، عليه عدم فعل ذلك بأي حال من الأحوال، لأن المرأة تفعل ذلك من باب التآمر، بإثارة من بعض الرجال وتحريض، من أجل أنه عندما يدخل المسيحي تتم سرقة، وربما قتله، فالذين لا يكونون حذرين جداً في هذه الأمور قد يجنون مخاطر عظيمة.

والوصية الثانية عشرة: على الحاج أن يكون متيقظاً فلا يعطي إلى أي مسلم خمرة عندما يسأله ويطلب منه شرباً، سواء أكان ذلك على طرف الطريق، أو في أي مكان آخر، لأنه بعد شربه لجرعة واحدة يصبح مجنوناً، وأول رجل يقاتله هو الحاج الذي أعطاه الشراب.

والوصية الثالثة عشرة: على الحاج الحفاظ على الحمار الذي تسلمه أولاً من سائقه، وعليه عدم تغييره أو مبادلته بحمار آخر، إلا بموافقة

السائق، وإلا فسينجم عن ذلك اضطراب.

والوصية الرابعة عشرة: على الحجاج من أصل نبيل عدم الافصاح عن نبالتهم أمام المسلمين، لأن هذا عملاً غير حكيم، ولا يجوز فعل ذلك لأسباب كثيرة.

والوصية الخامسة عشرة: ينبغي أن لا يضع أي حاج على رأسه عمامة بيضاء، أو يلف قطعة قماش أبيض أو منديل حول رأسه في حضور المسلمين، لأنهم يعدون أنفسهم وحدهم يمتلكون امتياز فعل ذلك، وهي علامة يتميزون بها عن الأمم الأخرى، كما أنهم لا يتحملون رؤية مسيحيين يرتدون أردية بيضاء، مع أن ذلك معاكسا لعقيدتهم الواردة في القرآن، حيث غالباً ما أطلق على المسيحيين اسم «ذوي الأردية البيضاء» (كذا) وكلما جاء ذكرهم فيه قيل هم «اللابسين للبياض»، وذلك حسبما قرأنا في ترجمة القرآن التي عملها نيقولاكوسا Cusa ، ذلك أن المسلمين يتصرفون على عكس تعاليم محمد (صلى الله عليه وسلم)، وقد بنوا ثانية كثيراً من العادات التي اعتادوا على استخدامها في أيام الوثنية، مثل مايتعلق بقضية الألبسة، ذلك أن يرتدون ملابس خنثوية لا يتميز الرجال فيها عن النساء، مثلما نقرأ أن الملكة سميراميس قد لبست في الماضي القديم، عندما زحفت ضد البكتريين Bactrians ، وهي في الوسط بين رجالها المسلحين، وقد لبست ذلك حتى لايعرفها أحد فيما إذا كانت امرأة أو رجل، وهذه العادة ماتزال متبناه في الشرق، ومثل هذا كان من طرائق الكفار أن يلفوا رؤوسهم بالأقمشة، مثلما نقرأ بأن ذلك قد فعله دايونيسوس Dionysus ابن سملي Semele ، الذي كان مدمنا على الشراب والرفاهية، حيث كان كلما أصيب بصداع بعد السكر، اعتاد على ربط رأسه ولفه بعمامة، ومن ذلك نال اسم Mitrophoros ، وقلد محمد (ﷺ) دوما شارب الخمرة ذلك، بأن لف رأسه بعمامة، لكن بعدما حرم

الخمرة... (١) تبنى عمامة للرأس لها شكل الكرة، وترك ذلك عادة لأتباعه، ذلك أنهم يسيرون في هذه الأيام وهم يلبسون هذه الكرات من القماش على رؤوسهم، وكأنها تيجان، ولا يسمحون لنا بأردية رأس بيضاء.

والوصية السادسة عشرة: لا يجوز لأي حاج حمل خناجر أو أي شيء آخر معلقاً من حوله، خشية أن تسلب منه، كما لا يجوز له حمل أي نوع من أنواع السلاح.

والوصية السابعة عشرة: إذا ما أقام حاج صداقة مع أي مسلم، عليه أن يكون حذراً في عدم الوثوق به كثيراً، لأن المسلمين خونة، وعليه أن يكون متنبهاً بشكل خاص فلا يضع يده على لحيته مزاحاً، أو لمس عمامته، لأن هذا الشيء يعدّ إهانة بينهم، ويتم تناسي جميع المزاح، ويعدّ ذلك تهديداً، ويتحول إلى غضب، وبشأن هذه الحقيقة، كان لي أنا الراهب فيلكس فابري تجربة.

والوصية الثامنة عشرة: يتوجب على كل حاج أن يحرس بعناية مقتنياته، وأن لا يدعهم ملقى بهم من حوله في أي مكان فيه مسلمين، وإذا حدث هذا فإن هذه المقتنيات سوف تختفي، مهما كانت.

والوصية التاسعة عشرة: إذا كان لدى أي حاج قارورة من الخمرة، ورغب أن يشرب منها، عليه إخفاء القارورة والشرب منها بشكل سري إذا كان المسلمون حضوراً، وعليه أن يسأل رفيقه بالوقوف أمامه، أو أن يغطيه بردائه، وبذلك يمكنه أن يشرب دون أن يرى، ولأن شرب الخمرة محرم عليهم، فإنهم يحسدونا عندما يروننا نشرب منها، ولهذا يقومون — إن استطاعوا — بإزعاج الذين يشربون.

(١) أورد الرحالة هنا بعض العبارات النابية فأسقطتها، وواضح عدم استناد روايته إلى أي

توثيق.

والوصية العشرين: يتوجب على كل مسيحي عدم التعامل مالياً مع المسلمين، إلا في الشؤون التي يعرف أنه لن يخدع بها، لأنهم يبدلون جهدهم لغشنا، ويعتقدون أنهم يخدمون الرب بخداعنا وغشنا (كذا) وفوق كل شيء، على الحاج أن يكون حذراً من اليهود الألمان، وأن يحترس منهم، ذلك أن هدفهم الوحيد في الحياة هو خداعنا وسرقة أموالنا، وعليه أيضاً أن يكون حذراً من المسيحيين الشرقيين لدى تعامله معهم، لأنهم ليس لديهم ضمائر، وأدنى من اليهود ومن المسلمين، ويقومون بخداع الحاج إذا استطاعوا.

والوصية الحادية والعشرين: عندما يعقد الحاج مواعيد مع مسلمين، عليهم عدم الاختلاف معهم، ولا الإقسام لديهم، وأن لا يكونوا غاضبين معهم، لأنهم يعرفون هذه الأشياء مضادة للديانة المسيحية، وعندما يرون أي شيء من هذا النوع يصرخون على الفور: «أنت مسيحي سيء»، ذلك أنهم جميعاً يمكنهم قول هذا بسهولة بالاطيالية أو بالألمانية، وكلما أظهر أي حاج أي سوء، يلقون باسم «مسيحي» بين أسنانهم، وكأنهم مقبلون على الاستشهاد بالنص الذي قاله القديس أوغسطين حول العقيدة المسيحية، حيث تساءل: «كيف لا يمكنه أن يقول عنك مسيحي، الذي لا يتصرف مثل مسيحي؟ فالمسيحية اسم يعني تطبيق العدالة، والجودة، والأمانة، وطول المعاناة، والفضيلة، والحكمة، والتفرد، واللفظ، والبراءة، والتقوى»، ولذلك على الحاج أن يتبه لنفسه حتى لا يجلب العار على مثل هذا الاسم النبيل مضافاً إلى اسمه الشخصي.

والنصيحة الثانية والعشرين: على الحاج الانتباه إلى عدم الدخول إلى المساجد، أي أماكن العبادة لدى المسلمين والاعتكاف، ذلك أنه لو وجد هناك، لن ينجو مطلقاً من دون أن يتعرض للأذى، هذا إذا نجا بحياته، ولقد جرى بحث هذا الموضوع بشكل مطول في الورقة ٢٦١ وفي

الصفحات التالية.

والنصيحة الثالثة والعشرين: على الحاج أن يكون حذراً بشكل خاص من الضحك للاستهزاء من مسلم يصلي ويقوم بالسجود المطلوب في عقيدته، لأن المسلمين لا يمكنهم تحمل هذا مطلقاً، لأنهم هم أنفسهم يتمنعون من الاستهزاء بنا والضحك علينا عندما نكون في صلاتنا.

والنصيحة الرابعة والعشرين: إذا ما أبقى حاج مدة أطول مما رغب في الرملة، أو في أي مكان آخر، عليه تحمل ذلك صابراً، وأن لا يظن أن ذلك غلطة الأب المسؤول، بل غلطة المسلمين، الذين يفعلون ما يرضيهم في هذه المسائل، وليس ما هو موافق لنا.

والنصيحة الخامسة والعشرين: ينبغي على الحاج أن لا يتذمروا من دفع المال لانقاذ أنفسهم من المنقصات الكثيرة التي تلحق بهم، إنما عندما يتوجب دفع المال، عليهم أن يدفعوا دون مناقشة وعلى الفور، هذا ولا يحتاج أي واحد لدفع مال إلى سائق حماره، لأن هذا كله قد دفع من قبل القبطان، ما لم يقدم أي واحد، صدوراً عن كرم منه بإعطاء سائقه بنساً لشراء علف لحماره، مع أن ذلك ليس متوجباً عليه فعلة.

والنصيحة السادسة والعشرين: على الحاج دفع شيء ما إلى الحافظ لدار الضيافة التي نقف بها، من أجل ترميم البيت، والحيلولة دون خرابه.

والنصيحة السابعة والعشرين، وهي النصيحة الأخيرة: على الحاج إظهار الاحترام نحو الدير الفقير العائد لرهبان جبل صهيون في القدس، فبمساعدة هذا الدير يجري توجيه الحاج وإرشادهم في داخل الأرض المقدسة وخارجها، وينبغي بمساعدتهم رعاية هذا الدير ومساعدة الرهبان الذين فيه، والذين يسكنون بين المسلمين، لتقديم الراحة للحجاج، وهم على استعداد لخدمة الحاج، وفقاً لقدراتهم،

وسائلهم، إلى حد الارتواء بأنفسهم تحت أقدامهم، إذا كان ذلك ضروريا، وإذا لم تتم معاملة أي حاج وفقاً لرغباته وحاجاته، عليه عدم لوم الرهبان بسبب ذلك، لأنهم إذا ما أرغموا على اشباع كل حاج بالخبز والخمرة، سيكون الوضع أنه بعد مغادرة الحجاج سوف يجدون أنفسهم بلا ما يمكنهم من العيش، وهم — على كل حال — على استعداد لرعاية مرضى الحجاج بكل ما يمكن والسهر عليهم وإنعاشهم، ومعاملتهم بالاحسان أثناء مرضهم.

وقمت قراءة هذه النصائح للحجاج بصوت مرتفع، في كل من اللاتينية والألمانية، والآن بما أن القداس قد طال أكثر من اللازم، صار المسلمون الذين أبقوا معزولين في الساحة الخارجية بلا صبر، وضربوا على الباب بالحجارة، وكأنهم يريدون تحطيمه، وصعد آخرون فوق سطح البيت وتطلعوا على الساحة، حيث كنا، وهم يضحكون ويصرخون، وقمنا نحن الذين أزعجنا هذا، بالنظر بدورنا إلى هؤلاء الشباب بملامح جادة غاضبة، وأشرنا إليهم بالنزول، وعندما رأوا أننا كنا جادين، أوقفوا صخبهم، وابتعدوا واحداً تلو الآخر، وأكملنا القداس كله بسلام، وكان الوقت وقتها حوالي الظهر، ولذلك فتحنا الباب، وخرجنا إلى ساحتنا، التي وجدناها مليئة بالمسلمين، واليهود، والهرطقة، والمسيحيين الشرقيين، مع أشياء متنوعة للبيع، وبشكل خاص الأطعمة، فهناك وجدنا فرايج مطبوخة وطيوراً، وحلياً مطهواً، ومعجنات مصنوعة من الدقيق، ورزاً مطبوخاً بالحليب، وأرغفة رائعة من الخبز، وبيضاً، وعناقيد من أحلى العنب، ورمائاً، وتفاحاً، وبرتقالاً، وبطيخاً، وليموناً، وتينا من كل من الحجم الصغير والكبير، وحلويات من اللوز والعسل، وتين جاف، وبعض المربيات بالسكر، واللوز، والتمر، والماء البارد، وجلب أحد الناس قوارير مصنوعة من الجلد مليئة بشراب مصنوع يستخدمه السادة العظام من المسلمين عوضاً عن

النبيذ، وبناء عليه شربنا الأظعمة التي راقت لنا وأكلناها في المكان الذي نمنا فيه.

وبعد الغداء في ذلك اليوم، قام كالينوس الأصغر، الذي اسمه الفحل، بقيادتنا للقيام بجولة في أرجاء مدينة الرملة، وأخذنا إلى شوارع التجار، وهناك رأينا كثيراً من المصنوعات الثمينة، ومسجداً عظيماً، وذهبنا إلى حمام ساخن، استحجم فيه كثير من الحجاج برفقة المسلمين، وهذا الحمام الساخن، مثله مثل جميع حمامات المسلمين، قد بني بشكل رائع، وبطريقة بارعة، وهو قائم بين أربعة أبراج، وتأتيه الحرارة من الأسفل، وتمر عابرة على طول البلاط المعمول من رخام مصقول جميل من ألوان متعددة، ولسوف نجد كثيراً حول الحمامات الساخنة العائدة للمسلمين، وفيما إذا كان أمراً قانونياً بالنسبة للمسيحيين الاستحمام برفقة المسلمين، ومسائل أخرى، متعلقة بهذا الموضوع في القسم الثاني، وهكذا بعدما رأينا المدينة رجعنا إلى موضعنا، وعندما صار الوقت متأخراً، أخرجنا جميع التجار، وأغلقتنا باب البيت، وأعددتنا أنفسنا للنوم.

وفي اليوم العاشر، الذي كان يوم عيد «الأخوة السبعة»، استيقظنا باكراً جداً في الصباح من أجل القداس، وكان ذلك قبل شروق الشمس، وقبل استيقاظ المسلمين والتجار، وأقمنا مذبحاً في ساحتنا، وأقام واحد من الرهبان القداس، وبعد القداس أخبرنا بأن علينا إعداد أنفسنا لزيارة كنيسة القديس جرجس في اللد، وهذه الكنيسة قائمة فوق المكان الذي استشهد فيه ذلك القديس.

ولم يستطيعوا في حجي المتقدم أخذنا إلى هناك، لأن البدو العرب كانوا قد نصبوا كميناً في الوادي، وكانوا ينتظروننا حتى نقدم، فيسلبوننا، وعندما بتنا جاهزين، غادرنا المدينة، مثلما دخلناها، ووجدنا خارج المدينة حمرنا مع سائقيهم، وهنا ركض كل انسان بين قطع

الحمير يصرخ بصوت مرتفع لسائقه، وكنت أصبح «جلاله قصه، جلاله قصه»، وصاح آخرون بأسماء أخرى تبعاً لتعدد أسماء سائقيهم، وهكذا امتطينا حميرنا، وانطلقنا مسرعين نحو اللد، التي تبعد نحو ميلين إيطاليين عن الرملة، ووصلنا إلى ديوسبولس، التي تعرف أيضاً باسم اللد، أو الليدا، والتي كانت فيما مضى من أيام مدينة كبيرة، لكنها تعرضت للدمار على أيدي المسلمين، وهي الآن مجرد قرية صغيرة، وذهبنا إلى المكان الذي فيه استشهد القديس جرجس مع انفعالات مختلفة، وقبلنا المكان بتقوى عظيمة، ولمسناه بمجوهراتنا، وتلقينا هنا سبع سنوات غفران (+)، ورأينا هنا بحزن عميق خرائب كنيسة جميلة جداً، كانت عالية وواسعة، وهناك جانب من السدة مايزال باقياً، لكن الأقواس والسقف كانوا قد سقطوا هناك، وفي السدة موضع استشهاد القديس جرجس، وهناك مصباحان مشتعلان بشكل دائم، حيث يجري تزويدهما بالوقود من قبل المسيحيين الأرثوذكس الذين يقيمون في القرية، وكان الجزء المتبقي من الكنيسة قد فصل من عند السدة بجدار، وأقاموا في ذلك المكان مسجداً جميلاً تشريفاً لمحمد (صلى الله عليه وسلم)، وقد زينوه ببرج مرتفع، وقام الباب في مواجهتنا، ولذلك كان بإمكاننا أن نرى مافي صحن المسجد، ومافي المسجد نفسه، وكان يشبه اللجنة لنظافته ولجماله.

وكان القديس بطرس قد شفى في هذه المدينة عيناس، وقام بالوعظ والتبشير هنا أيضاً، حسبما نقرأ في الاصحاح التاسع من أعمال الرسل، وفي الأيام التي كانت فيها البلاد بأيدي الصليبيين، كانت هذه مقر كرسي أسقف، وهنا كانت تقام صلوات ربانية كثيرة، وإلى جانب هذه المدينة رأينا جبل مودين، الذي كانت عليه مدينة عائدة للرجال الشجعان من المكابيين، وهناك أيضاً جرى دفن متاتياس (كذا) وأولاده، وكنت قد أتيت على ذكر قبورهم في ص ٣٢٢، ويبدو أن هذه المدينة،

كانت هي اللد، التابعة لسبط نفتالي.

وعندما فرغنا من اللد، رجعنا إلى الرملة من أجل الغداء، وأكلنا هناك، وبعد الغداء وقفنا مستعدين من أجل الانطلاق، لكن لا القبطانين، ولا الترجمان، ولا الحكام ظهروا بيننا، ذلك أنهم كانوا طوال ذلك اليوم قد جلسوا في قاعة مغلقة عليهم، يتداولون مع بعضهم في اجتماع سري، ويتجادل أحدهم مع الآخر، ذلك أنهم كانوا خائفين، فضلاً عن هذا لقد سمعنا بأن البدو العرب، كانوا قد نشروا أنفسهم حول الطرقات التي تؤدي إلى القدس، ومعنى هذا أنه لم يكن بإمكاننا الوصول إلى القدس من دون إبعادهم، فالرب قد قضى بوقوع هذا الوباء وبنزوله على هذه الأرض وعلى جميع البلدان التي من حولها، لأن الأعراب قوم عراة، وتعساء وأشقياء وأناس جوالون، وهم وحدهم لديهم القدرة على العيش في الصحراء، التي هي غير قابلة للسكن من قبل الآخرين جميعاً، وهم يهاجمون، ويستبيحون، ويغلبون جميع الناس سواء، حتى الملك نفسه، الذي هو السلطان الأعظم لمصر، وعن هؤلاء الأعراب سوف أتحدث بشكل مطول كثيراً، فيما يلي في مكان آخر.

وهكذا حدث أنه في الوقت الذي كان فيه قبطانينا والسادة المغاربة يتشارون فيما بينهم، وقفنا هناك في الساحة المكشوفة في صخب شديد، لأن الساحة كانت مليئة بالتجار، وكانت هناك فوضى كبيرة واضطراب عظيم، لأن المسيئين من المسلمين من الشباب والشيخوخ، قد اجتمعوا هناك مع بعضهم، لمضايقتنا، وقد وقفوا أمامنا، وكانوا ينظرون إلينا ويصغون إلى كلامنا.

وفعلوا هذا بشكل خاص إلى الذين لاحظوا أنهم كانوا انفعاليين، أو إلى الذين ضحكوا استهزاء نحو الأعيههم، ولسوف يكون من الصعب بالنسبة لي اخباركم عن جميع الألاعيب المزعجة التي مارسها هؤلاء الشباب من المسلمين، فمن بين أشياء وقعت قيام واحد من الشباب

المزعجين باجلاس نفسه عند قدمي حاج نبيل، الذي كان رجلاً جاداً ومحترماً، ونظر من حوله ليرى فيما إذا كان يمكنه إيجاد أي انسان يساعده في لعبته، والتفت أخيراً نحو الرجل الذي جلس عند قدميه، وأمسك قدمه وشدها، وفكر الفارس أولاً أنها كانت نوعاً من المزاح المزعج، فسحب قدمه وأرجعها وكأنه لم يهتم به، لكن الفتى وقد وجد نفسه قد عومل بازدراء، أمسك بالقدم الأخرى وشدها، محاولاً قلبه على قفاه، إنما في أثناء شده لرجل الفارس بقوة، أصبح هذا الأخير غاضباً، وقام بالقدم التي كان قد شدها أولاً، فرفس المسلم بعنف كبير في معدته، جعل بها الفتى يترك قدمه التي كان يشدها، ويسقط على الأرض، رأسه على عقبيه، ويتدحرج مثل كرة في وسط الساحة المبلطة، ثم إنه نهض وهو عظيم الاضطراب، وغادر المكان، وكنا خائفين كثيراً تجاه ما حدث، وخشيناً من أن يثير الناس لمهاجمتنا، لكن مامن أذى نتج عن ذلك.

وقدم إلى الساحة فتى آخر من العابثين، ووقف أمام وجه واحد من الحجاج، وكان يقوم ببعض حركات لوي أصابعه بمقاصد سيئه، الأمر الذي لم يستطع الحاج تحمله، فضرب يدي العابث بشدة بيديه، وكسر اصبع الداعر التي لعب أثناء لويه لأصابعه، وعندما رأى واحد من المسلمين المسلحين هذا، صار شديد الغضب، واندفع لمهاجمة الحاج، ولولا أنه أخفى نفسه لألقي به في السجن، لأن ذلك الرجل المسلح وقف مع أتباعه لوقت طويل هناك ينتظر، آملاً بأمساك ذلك الحاج في بقعة مناسبة، لكن ذلك الحاج لم يتحرك من مكان اختفائه.

وينبغي أن أحدثكم عن أمر آخر وقع لنا، فقد قام حاج نبيل بالتصرف كما كان يجري منذ زمن طويل، فرسم رنكه ورنوك أتباعه على جدار، كان بديعاً جداً وجميلاً، وماأن أنهى عمله هذا، الذي استغرق منه عدة ساعات طوال، حتى ركض واحد من المسلمين ويده مليئة

بالقاذورات، فلوث الصورة بشكل مهين، ومضى في طريقه وهو يضحك، ولدى فعله هذا أصبح النبلاء على درجة عظيمة من الغضب، ولعنوا ذلك الشاب، لكن مامن واحد منهم تجرأ على أن يضع يده عليه، مع أنه لو فعل مثل هذا في بلادنا لجرى تمزيقه إلى قطع، ولقد تحملنا كثيراً من المنغصات المماثلة بطبيعتها في تلك المدينة، ومع ذلك لقد عوملنا بشكل أفضل مما حدث وعوملنا به في حجي الأول، لأنهم في ذلك الحين، اعتقلوا قبطاننا، بعدما أحضروه من يافا، وألقوه بالسجن أمام أعيننا، وتركوه مغلولاً هناك، قائلين بأنه لا يمتلك السلطة لطلب حجاج إلى البلاد، وأنا قدمنا إلى هناك من دون جواز، ولذلك يتوجب علينا دفع جزية مضاعفة، وإذا لم نفعل ذلك، فسوف لن نشاهد القدس، بل تتوجب عودتنا إلى غليوننا، وعلينا أيضاً لتسرعنا بالدخول إلى البلاد، دفع مال سيكون قدره وفقاً لقرار السادة المغاربة، وبقينا بالرملة لمدة أربعة أيام في هذا التأخير، الذي لم يكن بإمكاننا تفسيره بسوى أننا على وشك الإعادة إلى غليوننا، وأنا لن نشاهد الضريح المقدس لربنا، ولكم كان الأسف والاضطراب الذي شعرنا به في قلوبنا عظيماً، وأخيراً جرى اقتيادنا إلى البقاع المشوذة، وهكذا انتهى الموضوع، ودعوني أعود الآن إلى سياق روايتي.

وعند حلول المساء، جاء واحد من خدم القبطانين، وقال ينبغي أن نغادر مباشرة، ولهذا حملنا حقائبنا، وخرجنا من غرفنا، وجلسنا على مقربة من باب دار ضيافتنا، ننتظر حلول الوقت لانطلاقنا، وبعد مضي ساعة من الوقت، جاء إلى هناك واحد أخبرنا بأن بعض المسلحين من المماليك قد وصلوا للتو إلى هنا من القاهرة، ونظراً لقدمهم لن يتمكن قادتنا من مغادرة المكان هذه الليلة، ولهذا علينا العودة بهدوء إلى غرفنا، وعندما سمعنا هذا عدنا إلى غرفنا بمشاعر سيئة، وهنا عندما أردنا أن نجلس كما فعلنا من قبل، وجدنا أن جميع الحصر التي اعتدنا أن نجلس

عليها ونتمدد قد ذهب ذلك أن المسلم الذي شربناهم منه مقابل مبلغ كبير من المال قد أخذهم، لذلك أرسلنا خلفه وطلبنا منه إعادة حصرتنا، لكنه رفض ذلك رفضاً مطلقاً، ما لم ندفع له من جديد، قائلاً بأنه باعنا إياهم فقط للاستخدام حتى نغادر دار الضيافة، وبما أننا غادرنا غرفتنا فارغة، انتهى شرط تأجيرنا لهم، لأنه لم يكن متوقعاً عودتنا إلى الدار، وجرى نقاش عنيف مع هذا المسلم، الذي كان غاضباً جداً، وغالباً ما بصق علينا أثناء خصامنا معه، وبناء عليه أقمنا في غرفتنا من دون حصرتنا، لأننا لم نرغب في تشجيع جشعه باعطائه بنساً واحداً، فهو كان على استعداد لإعطائنا إياهم مقابل بنسات قليلة، غير أننا طلبنا منه المغادرة، وعندما جاء الليل، بقي بعضنا في الغرفة، ونام هناك على الأرض العارية، وذهب بعضهم وصعد إلى السقف المقبب للبيت، حيث نام المقدم كالينوس وبعض المسلمين، وهناك أعدنا أنفسنا للنوم فوق البلاط في الهواء الطلق، وقد بنيت البيوت في الشرق مع شرفات على سطح البيوت، لذلك عندما تغيب الشمس يصعد الناس إلى هناك للتمتع بالبرودة، وهناك يعملون، ويأكلون، ويضعون فرشهم وينامون، لكن عندما تكون الشمس مشرقة يعيشون في الأسفل تحت القناطر، وفي الظل.

وهكذا تمددنا على سطح البيت، لكن من المؤكد أننا لم نحصل على الراحة التي طلبناها، بسبب صراخ المسلمين الذين اسمهم السقائين Soquis الذين صرخوا وغنوا وفق طرائقهم حتى حدود منتصف الليل، ومثل هذا الذين وقفوا على الأبراج (المآذن) وصرخوا هناك، وبأيديهم مصابيح مضاءة، وأبراجهم هذه طويلة ومستديرة، يقف عليها رجال الدين المسلمين، ويقومون بالعمل الذي يؤديه الناقوس، وعملهم عمل ديني تماماً، وسوف أتناول هذا الموضوع المتعلق بواجباتهم وشعائهم بتوسع كبير في الورقة ٩٤ من القسم الثاني، وكانت هذه

الليلة احدى ليالي أعيادهم، ولذلك صرخوا أكثر مما هو معتاد، وهكذا أمضينا تلك الليلة.

وفي اليوم الحادي عشر، الذي كان يوم عيد بروكوبيوس المعترف، استيقظت قبل اشراق الشمس، وأدبت صلواتي فوق قنطرة أعلى من التي نمت فوقها، حيث جلست على السطح المحدب لأعلى الغرف، الذي منه كان يمكنني رؤية النائمين من حولي، وعندما أضاءت الدنيا، استيقظ المسلمون وطووا فرشهم، وأعدوا ملابسهم، ثم حنوا ركبهم تعبدًا، وصلوا بشكل جاد تمامًا، وقرأوا صلواتهم بنغمة مثل الزئير، وأيديهم متشابكة، ثم كانوا يقفون، وقد سجدوا مراراً حيث لامسوا الأرض برؤوسهم وكانوا يمكثون وقتاً قليلاً في سجودهم، ثم كانوا يقومون ثانية، وينظرون نحو الأعلى إلى السماء، وقد صلوا جميعاً في وقت واحد، وبطريقة واحدة، وكأنهم رهبان طائفة واحدة، وعندما كانوا يفرغون من صلواتهم، كانوا يذهبون — كما اعتادوا — إلى أعمالهم، وأقيمت هذه الصلاة ذلك الصباح في الرملة، ومثل ذلك أقيمت في أماكن أخرى، واستيقظ الآن حجاجنا بعد اشراق الشمس، وبدأوا على الفور بالحديث والضحك أحدهم مع الآخر، دون أن يقدموا الصلاة على ذلك.

ولذلك جلست هناك وقارنت بين مقام به الفريق الأول وبين مقام به الفريق الثاني، وأصبحت حزينا، ومنزعجاً في قلبي، برؤيتي أولئك الضالين والأناس الضائعين تماماً يقومون بأداء صلواتهم بجدية ومهابة، مع أنهم يثيرون غضب الرب ضد أنفسهم، لدى عدم تقديرهم القديسين والملائكة وجميع الحشد السماوي، وهذا مايفعلونه بأدعيتهم التجديفية، بينما نحن المسيحيين أكثر الناس تعاسة، وأعظمهم نكراناً، الذين أنقذنا بدم المسيح الثمين جداً، نقدم صلواتنا ونؤديها بخفة وبهجة، وبفتور لايمكن وصفه في جميع الأوقات، وبتفكير تائه،

وبإرهاق، ونفعل ذلك إلى الرب الحقيقي والحي، الذي منه نأمل بإيمان ثابت بأننا سوف نتلقى النعمة والمجد، أيها السيد الرب، أية نعمة سوف تمنحنا إياها مقابل صلواتنا القصيرة والخالية من التقوى؟ وهل ياترى جرى تأدية صلواتنا الفاترة جداً مع أية درجة من الإيمان الصحيح، ثم ماذا يمكنني أن أقول؟ إنني أخشى أن عدداً كبيراً من المسيحيين يمضون اليوم كله دون أدنى عبادة للرب، أو دون أية صلاة له، الأمر الذي لا يمكن حدوثه بين المسلمين، أو الأتراك، أو البرابرة، أو اليهود، أو البداة العرب، لأن جميع هؤلاء الكفار لديهم توجه ثابت وطريقة معلومة للصلاة، لا يفارقونها في أي حال من الأحوال ما لم يرغموا بالقوة على فعل ذلك، ومن أجل رواية كاملة عن صلواتهم وصيامهم انظر الورقة ٩٤ من القسم الثاني، مع أن مقارنتي المتقدمة بينهم وبيننا أنفسنا، أعطتني الفرصة للحديث عنهم في هذا المكان.

وعندما أشرقت الشمس، ولم نر اعدادات لانطلاقنا، عدنا إلى غرفنا، واشترينا طعاماً وأكلنا هناك، وبينما نحن جلوس هناك جاء إلينا مسلم فقير وتعييس، يحمل برتقالاً وعنباً في سلة لبيع لنا، وجلس على الأرض ومعه سلته إلى جانبي، وأخذنا بعضاً من فواكهه، وأعطيناه خبزاً مع الذي بقي من لحمنا، فأكل ذلك مثل انسان جائع، وقد وضع على رأسه قبعة حمراء مع اللفة العائدة للمسلمين، والآن وقد بدا لي انساناً بسيطاً جيداً، أخذت قبعته من على رأسه، وبينما أنا أنظر إليها تظاهرت بأنني مصاب بالاقياء، وأنني أعاني من الدوار، وقمت بصرف رأسي وإبعاده عن القبعة التي أمسكتها بيدي، وكأنني أريد أن أتقيأ لكراهيتي لديانة المسلمين، وبصقت على قطعة القماش التي كانت ملفوفة حول القبعة، راغباً في أن أرى ما الذي سيقوله أو يفعله تجاه ذلك، وقام هذا المسلم — على كل حال — بالنظر من حوله في جميع زوايا الغرفة، وعندما لم ير من يخاف منه، انتزع قبعته، وجمع بصاقه في فمه، وبصق على اللفة

الاسلامية الموجودة عليها، ولعن العمامة، وعمل شارة الصليب بوضع سبابته اليمنى فوق اليسرى، وقبل علامة الصليب هذه التي عملها فوق يده مع كثير من الدموع، وقال أشياء كثيرة لنا لم نستطع فهمها، والذي فهمناه تماماً بأنه كان مسيحياً، وأنه أرغم على التخلي عن عقيدته، وأنه لم يكن مسلماً عربياً، بل كان مملوكاً مسكيناً، وبعد ماتغدينا بقينا في غرفتنا بهدوء، وفي الظل، وسمعنا الآن بأن أحدهم كان يعمل على الجدار الأول من جدران غرفتنا بأداة معدنية، من الخارج، وكأنه يريد أن يخرق الجدار ويمر منه، ولم نهتم بذلك، ولم نتوجس منه أي خطر، وأخيراً فتحت ثغرة بالجدار بانتزاع حجرة واحدة منه، وكان على الطرف الآخر من الجدار نساء مسلمات فتحن الثغرة حتى يتمكن من رؤية الحجاج من خلالها.

وعندما نظرن إلينا، ابتسم لهن بعض الفرسان، وقالوا بالإشارات والاياءات ما لم يستطيعوا قوله بالكلمات، لكن واحداً من رهبان الفرنسيين رأى هذه الثغرة، وكان الأب المسؤول قد بعث به ليقوم بجولة على غرف الحجج، فعندما رأى ذلك قام على الفور فجلب ملاطاً وقام ببناء الثغرة، وأقسم بالرب، بأن المسلمين لو شاهدوا ذلك لتولوا تعذيب الحجاج جميعاً تعذيباً مرعباً للغاية، لأنهم غيورين بشكل مخيف، ويجتمعون كلهم مع بعضهم من دون مناقشة للانتقام من أي اعتداء على شرفهم، وفي الحقيقة بدت النساء المسلمات أنهن شهوانيات كثيراً، لأنه عندما كان بعض الفرسان الشباب يمشون وينظرون من حولهم وهم على سطوح البيت، رأوا ثلاث نساء واقفات في بيت آخر، وقد عملن إشارات لهم للنزول إليهن، ولست أدري أفعلن ذلك صدوراً عن شهوة، أو — وهو ما أعتقد — صدوراً عن نية تأمرية وشريرة، وعلى كل حال كان الخطر هو نفسه، ذلك أن القانون هو: إذا ماعثر على مسيحي يتسامر مع امرأة مسلمة، كان يعطى الخيار، إما بالتخلي عن

إيمانه، أو مواجهة الموت، وليس هناك خيار وسط بين هذين الخيارين.

وفي الوقت نفسه مرت ساعة تلو ساعة، ونحن وقوف بدون حركة هناك ننتظر بتشوق إلى الانطلاق، لأن المزاح والاهانات الصادرة عن الشباب ازدادت سوءاً كل ساعة، ورأينا أن المزيد من التأخير سيكون خطيراً علينا، لأن حاجاً بعد حاج خرجوا عن طورهم وفقدوا صبرهم بسبب الاهانات التي تلقوها، وضرب أحدهم طفلاً سيئاً، ضربة خفيفة، لأنه كان يرمي حجارة عليه، ولذلك بكى هذا الصبي، ولدى سماع صوت بكائه ركض المسلمون مع بعضهم مثلما يركض الخنازير مع بعضهم للدفاع عن رفيق نخر إليهم، ولم يستطع الحاج الذي ضرب الصبي الحصول على السلام، حتى أسكت الصبي الباكي بالمال، وفي الحقيقة كان الأطفال الأشرار في الرملة أسوأ من أطفال أي مكان آخر أقام فيه الحجاج، فهناك لم يكن مسموحاً أن يرد الانسان الضربة بالضربة، ولهذا خشية منا أن نقع في المخاطر خفنا، فذهبنا إلى القبطانين، ورجوناها بحرارة أن يقودانا إلى خارج ذلك الأتون المحرق، وقد وعدانا بالانطلاق في غضون ساعة من الزمان.

فيمايلي:

وصف موجز لمدينة الرملة

راما أو الرملة مدينة واقعة بين فلسطين واليهودية، على حدود منطقة فلسطين، ومنطقة اليهودية، وذلك في حصة سبط يهوذا، وهي قائمة فوق رابية، ولهذا السبب حملت اسم راما الذي معناه المرتفع، ولهذا ليس هذا الموقع فقط بل كثيراً من المدن الأخرى في الأرض المقدسة، ممن بني فوق أماكن مرتفعة، أطلق عليه اسم راما، وهناك، على كل حال، في كثير منها فوارق في نهاية الكلمة، وهكذا لدينا من راما: راماثا، وراماثيرم، وراماسي، وراموث، ورامولا، وأرماثا، والرملة هذه التي أنا

بصدد الحديث عنها، غالباً ماورد ذكرها في الكتابات المقدسة، وفيها هنا ولد صموئيل المقدس، وهي حتى الآن مدينة مكتظة السكان، وأكبر من القدس، وفيها سبل العيش ميسرة لكثير من التجار، لكنها ليست جيدة الدفاعات بأسوار من حولها، مثل مدن اسلامية كثيرة أخرى، ذلك أنها بلا أسوار، وهناك كثير من المساجد فيها ومن حولها، وهي قائمة في وسط مكان بديع جداً، وخصب، وكل شيء هناك رخيص تماماً، وحلو، وفائق الجودة، إلا الناس، الذين هم أكثر الناس شروراً في تفكيرهم، ويحملون كراهية خاصة نحو المسيحيين، ويسكن هناك عدد كبير من السودان الأشرار، والمغاربة، مع أناس آخرين من دون فهم، ولقد ورد ذكر هذه المدينة في سفر الملوك الثالث (الأول) - الاصحاح ١٥، وفي الاصحاح الثاني من انجيل القديس متى.

مغادرة الحجاج للرملة إلى المنطقة التلية لليهودية

عندما جاء المساء في يوم عيد القديس بروكوبيوس، أعددنا أنفسنا لرحلتنا، وخرجنا من دار الضيافة وفق النظام نفسه الذي دخلنا به، ونحن نحمل أطواقاً مكتوبة حول أعناقنا، ولدى مرورنا من خلال البلد، ركض الناس مع بعضهم من جميع الأطراف، وكانت الشوارع مليئة بالناس من الجنسين معاً، الذين وقفوا هناك راغبين برؤيتنا، وكان هناك حشد كبير، وقد ثار هناك غبار كثيف من الأرض، إلى حد أنه بات من الصعب على الانسان أن يرى رفيقه الذي على جانبه، وإذا مارآه من المؤكد أنه كان من الصعب التعرف عليه وتمييزه، فلقد كان الغبار كثيفاً إلى أبعد الحدود، وتغطت قبعتي السوداء بالغبار، حتى أنها لم تعد بادية سوداء، بل رمادية، ومامن انسان كان بإمكانه فتح عينيه أوفمه إذا ما احتاج، ولقد تحملنا هذا خلال المنطقة كلها، إلا في الأجزاء الصخرية، وعندما ارتحلنا في الليل.

وتوفر في الأزقة الضيقة خطر الاختناق بسبب كثافة الغبار، وفي أثناء

هذا الضيق الشديد حدث أن دفعت على جدار مسكن هناك، وكان ذلك قرب النوافذ، ولأن الحشد تحرك ببطء شديد وتركني محصوراً هناك، نظرت من خلال النافذة إلى المسكن، ويا للعجب، وقفت في الداخل امرأة مع أطفال صغار، عملوا علامة الصليب بأصابعهم، وقبلوهم، وبذلك جعلوني أعرف أنهم أتباع الذي صلب، ولقد اعتقدت أنهم بكوا، وإنه بالحقيقة مزعج جداً، أن يكون شعب تلك البلاد، التي فيها صلب ربنا، إذا أرادوا أن يكونوا أتباع الصليب، لا يتجرأون على لبس شارة الصليب بشكل مكشوف، لأن الصليب المجيد مكروه في تلك البلاد، وملفوظ، والشيء نفسه الذي وقع للصليب المقدس، وقع للأنبياء: ذلك أنهم بلا احترام، حتى في وطنهم (لوقا ٢٩/٤)، ومثل هذا فإن الصليب المقدس لا يتمتع بالاحترام، ولا بالقبول حتى في وطنه، لكن الحجاج من الأجزاء النائية من العالم يحملون بشكل معلن، علامة الصليب، لأن نقد الصليب قد انتزع من بينهم وأبعد.

وعندما تحرك الحشد نحو الأمام، أرغمت على الابتعاد عن ذلك المكان، ووصلنا إلى خارج المدينة، وهناك وجدنا حميرنا مع سائقيهم في الحقل، وعلى مقربة منهم عساكر المسلمين، الذين كانوا سيتولون مرافقتنا وحمايتنا على طريقنا، وامتطينا دوابنا، وانطلقنا مسرعين جداً نحو الجبال، ووصلنا إلى حقل يوشع قرب مدينة بيت شمش، حيث جرى فيها قتل خمسين ألف إنسان، لأنهم نظروا إلى تابوه الرب، عندما وقف هناك، وذلك حسبما نقرأ في سفر صموئيل الأول — الاصحاح الرابع، الخ.

ونصب الأعراب في هذا الحقل نفسه خيامهم، وكان هناك حوالي الثلاثمائة منهم، ولدى رؤيتنا للخيام ارتعبنا نحن ومرافقينا كثيراً، ولدى اقترابنا من الخيام، لم نشاهد أحداً فيهن إلا نساء على درجة عالية من التعاسة، وأطفال صغار سود عراة، وقلة من الشيوخ، لأن بقية الرجال

جميعاً كانوا يتجولون في المنطقة ينهبون ويسلبون، وهكذا مررنا من خلال معسكرهم، ولم يكن هناك من انسان رفع يده ضدنا، وحدث أننا عندما كنا على وشك دخول المنطقة التالية من خلال أحد الوديان، رأينا عند مدخل الوادي جمهوراً من الناس مع جمال وحمير وخيول، كانوا قد استعدوا للانقضاض علينا، وبالمقابل قام مرافقونا بالانتظام والاصطفاف لمقاومتهم، وكانوا مضطربين وقد امتلأوا رعباً، ذلك أنهم رأوا أن أولئك الناس كانوا لصوصاً من الأعراب، وأنها لا يمكننا تجاوزهم من دون ضراب، ثم إنه لم يكن بإمكاننا الانحراف لا إلى اليمين ولا إلى اليسار، لأن طريقنا كان يمر مباشرة من وسطهم، من خلال واد ضيق.

وعندما اقتربنا منهم، وجدناهم قد وقفوا يحرسون المدخل إلى الوادي من الجانب الأول إلى الجانب الآخر، وكانوا ممسكين لهذا المدخل ضدنا، وكانوا مشهرين لخناجرهم، ورافعين لسيوفهم، وكانت رماحهم مركونة جاهزة وقسيهم مفوقة، ولا أذكر أنني رأيت أناساً قط مثلهم: لقد كانوا عراة، ولونهم أسود، أحرقتهم حرارة الشمس، وكانوا يرتدون قطع قماش لاتساوي شيئاً حول أوساطهم، وترستهم معلقة من رقابهم، وكانوا حادين، ومتوحشين، ومن المرعب النظر إليهم، وعندما نظرنا إليهم وقارناهم بمغاربتنا ومسلمينا، الذين عددناهم حتى الآن أنهم ليسوا بشراً، عددنا هؤلاء الآخرين أناساً متحضرين وأتقياء، مثلهم مثلنا أنفسنا، وعندما رأى مرافقونا ما الذي أراد الأعراب أن يفعلوه انقضوا عليهم بعنف، وطردهم بقوة السلاح، وفتحوا الطريق لنا، ودعونا للاندفاع بسرعة والمتابعة دون توقف، وهكذا أسرعنا مارين من خلال الفراغ الذي ترك لنا مفتوحاً، وكان أي حاج وقع بين هؤلاء الأعراب، كانوا إما يمسكونه إما من رداءه، أو من مخلاته، وكانوا يشدون ذلك حتى يتخلى عن أي منهما، ويدع الشيء يذهب، أو كان

يشد من فوق ظهر حماره، أو كان ينقذ من قبل واحد من جماعتنا، ولهذا سقط كثير منهم من على ظهور حميرهم، ولولا أنهم أنقذوا لتولى الأعراب سلبهم، وكان هناك صراخ وعويل من على الطرفين، واندفع الناس أحدهم ضد الآخر بشكل مدهش، وكأنهم أرادوا أن ينقض أحدهم على الآخر، ويسدد الضربات له.

وفي أثناء هذا الاضطراب، وبينما هو مستمر، مررنا من خلال الوادي، ووصلنا إلى التلال، وعندما رأى أعداؤنا هذا، تناولوا الحجارة من وسط الطريق، وشرعوا يرمون بها خلف مرافقينا، لكن عندما رأوا أنهم لن يستطيعوا تحصيل شيء منا بالقوة، ركضوا خلفنا، وبذل ومسكنه توسلوا إلينا حتى نعطيهـم شيئاً ما، لكنهم لم يحصلوا على شيء كثير، وهكذا ابتعدنا عنهم، وليس هناك من شك، أنهم لو كانوا أقوى منا، لسلبونا جميعاً، دون تنفيذ لأماننا الذي حصلنا عليه من السلطان، ولقد نجونا دون أن يصاب أي حاج بأذى، باستثناء، بعض الذين أصيبوا بالحجارة، وقد فقد بعضهم جعبهم في أثناء الصراع، وبعضهم قبعاتهم، ولم يجرح أحد، لأن الشرقيين فيهم الفضيلة التالية وهي أنهم لا يحبون سفك الدماء.

وهكذا تابعنا سيرنا في هذا الوادي الظليل، ومشينا عبر طريق في منتهى الوعورة، مع جبال صخرية عالية على طرفينا، وبعد صعود وتسلق طويل، وصلنا إلى برج، كانت هناك مياه قربه قد جمعت في بركة، ونوينا الانتظار هناك حتى الفجر لليوم المقبل، لأن الليل كان مظلماً، وذلك إلى جانب أن الوادي كان ملقياً بظلاله، وهكذا تـرجلنا من على ظهور حميرنا، لكن مالبث فجأة أن حل خوف بين صفوف مرافقينا، وباتوا يخشون أن يقوم هؤلاء الأعراب بالانقضاض علينا، في أثناء نومنا، فوقتها لن يكون بإمكانهم الدفاع عنا في ذلك الممر الضيق والوعر، وبناء عليه دعونا لمعاودة ركوب حميرنا، وأن نتابع سيرنا

صعوداً في الجبال، وهكذا غادرنا البرج الذي قام عند سفح الجبال،
وتسلقنا فوق ممر منحدر وخطير حتى وصلنا إلى حقل، فكروا ثانية
بالاستراحة فيه، لكن كنا نحن ودوابنا عطاش، ولم يكن هناك ماء،
لذلك تابعنا سيرنا في الغسق، حيث لم يكن هناك لاشمس ولاقمر
لعوننا، وسرنا ودليلنا فقط ضوء قبة السماء، وأشعة النجوم الضعيفة،
ولم يكن بإمكاننا رؤية الممر، لكن كل انسان تبع سائقه، وعندما وصلنا
إلى القمة، نزلنا إلى الطرف الآخر من الجبل، وسرنا إلى أن وصلنا إلى
قرية صغيرة، حيث كان هناك نبع ماء جيد وبارد، وهناك في حقل مليء
بالحجارة تخلينا عن حميرنا وأعطيناهم إلى سائقيهم، وأجلسنا أنفسنا على
الأرض، وتحلق حراسنا مع خيولهم، وسائقونا مع حميرهم، جميعاً من
حول الحجاج، وبذلك أحاطوا بنا من كل جانب، وأشعلنا مصابيحاً،
وأحضرنا جعبنا الخاصة بالطعام الذي شربناه في الرملة، وجلب
السائقون ماء لنا، قمنا بشراؤه منهم، وأحضر القرويون أرغفة من الخبز،
وفواكه وماء، فاشترينا منهم ما رغبتنا به، وهكذا تعشنا.

وكان هذا المكان الذي عسكرنا فيه، وعراً مليئاً بالحجارة مثل
الأماكن الموجودة في الألب، والقائمة فيما بين أولم وويزنستيج Weis-
sensteig، واختفى تحت الحجارة عقارب، الأمر الذي لم نعرفه، حتى
أرانا الضوء إياهم، وعندما رأنا المسملون خائفين، أخبرونا أن بإمكاننا
النوم من دون خوف، لأن العقارب بالحقل لاتلدغ مثل العقارب في
البيوت، ولهذا شعرنا بالراحة، ولم يتحرك واحد منا من مكانه، وفيما
نحن جالسين هكذا نريح أنفسنا، أشرق القمر أمام وجوهنا، وشعرنا
لدى اشراقه بسرور عظيم، لأن الذين لايمكنهم النوم يبتهجون أمام أي
شيء يطرد الظلام، ويبعد الظلال، ولم يزر النوم أعيننا، كما لم يتمكن
النعاس من اغلاق جفوننا، كما أن جباهنا لم ترغب بالراحة، مع أنه كان
من الطبيعي لإرهاقنا بعد متاعبنا أن يجلب إلينا النوم، ولقد كنا مرهقين

ومتعبين، لكن النوم تخلى عنا، لأن كيائنا كله قد حلّ في قوى مداركنا ومشاعرنا، وابتغت نفوسنا شيئاً واحداً فقط هو التحديق والنظر بإخلاص من حولنا، وعلى هذا بدت روحنا وقد استقرت في عينينا، واهتمت بشيء واحد فقط هو الشعور بالمشهد، وتغلبت انفعالاتنا على النوم، وكان ذلك لدى قراءتنا للاصحاح الثاني والأربعين من الالهيات قوله: «طرد التفكير النوم منهم»، لأننا كنا نتطلع إلى الغد برغبة حارة جداً، عارفين بأننا وقتها ينبغي أن نرى مدينة القدس الجليلية، التي قال عنها طوبيا المقدس وهو واقف على مسافة عظيمة عنها: «سوف أكون سعيداً لو أن أيا من سلالاتي بقي لينظر إلى الضريح في القدس»، وقال كاتب آخر: «من أجل صهيون لن أهذا، ومن أجل القدس لن أرتاح» (إشعيا: ١/٦٢)، فمن هو الذي لا يرغب في رؤية المدينة المختارة، التي نقرأ عنها في الاصحاح السادس من السفر الثاني لأخبار الأيام: «اخترت القدس ليكون اسمي فيها» (أخبار الأيام الثاني: ٦/٦)، لأن هذه هي المدينة التي يكون فيها الحمد وقطع العهد للرب، حسبما جاء في المزمور الخامس والستين: «لك ينبغي التسييح يارب في صهيون ولك يوفى النذر»، وردد الحجاج المشوقين القول: «من سيمنحني أن تمر هذه الليلة وتنقضي وأن تأتي الشمس بسرعة حتى يمكنني رؤية القدس، التي هي بهجة الأرض كلها، ومدينة الملك العظيم، والرب الأكثر علواً؟ أه، لو أن أحداً أصغى في تلك الليلة إلى صلواتنا وحنينا إلى اشراق الشمس ولقدوم النهار، لا حترق في داخله، كما تحرقنا شوقاً لرؤية القدس، فلقد تمددنا على صخور قاسية، مثلما فعل يعقوب في الاصحاح الثامن والعشرين من سفر التكوين، وكانت العقارب رفاقنا في تلك الليلة، مثلما كانت فراخ النعام رفاق أيوب (أيوب: ٣/٢٩)، وفي الحقيقة، إنه بسبب كثرة حشود العقارب، من اللائق أن يطلق على هذا المكان اسم تلة العقارب، مثلما ورد ذكر ذلك في الاصحاح الخامس عشر من سفر يشوع، لكن قساوة الصخور ولدغ العقارب كانت لطيفة، وجعلت

حلوة، بالحلالة الفائقة للقدس نفسها، المتربعة على قمم تلك الجبال، والناشرة لحلاوتها، جاعلة إياهم يقطرون حلاوة، ويفيضون بالعسل والحليب، علاوة على ذلك، طردت ذكريات ماجرى صنيعه فوق هذه الجبال المقدسة، جميع السموم منا، وجعلت قساوتهم نعومة بالنسبة لنا.

فعلى هذه الجبال سكن المكابيون بعد تدنيس الهيكل يأكلون الأعشاب بدلاً عن الطعام، بين الحيوانات المتوحشة (مكابيون: ٢/ ٥/ ٢٧)، وابنة يافث، عندما كانت على وشك أن تموت بسبب نذر أبيها، طلبت منه ليس أكثر ممايلي، هو أن تترك لوحدها لمدة شهرين قبل موتها، لكي تصعد إلى جبال بني اسرائيل وتنزل منها مع رفقتها، وأن تندب عذريتها، ذلك أنها اعتقدت أنها سوف تتحمل آلام الموت بسهولة أعظم، لو أنه سمح لها بتسلق هذه الجبال المقدسة قبل أن تموت (القضاة: ١١/ ٣٧)، وموسى أيضاً، الذي كان صديقاً للرب، طلب أن تكون جائزته، هو أن يسمح له برؤية هذه الجبال من حيث وقف في مناطق ماوراء الأردن (العدد: ٣٤) والعذراء مريم المباركة، جعلت هذه الجبال بحجها، جبلاً مقدسة بشكل خاص، وقد تقدسوا بذلك، وعن ذلك نقرأ نحن الحجاج في الاصحاح الأول من انجيل القديس لوقا: «مريم... ذهبت بسرعة إلى الجبال» (لوقا: ١/ ٣٩)، وعلى هذه الجبال اعتاد مولانا المسيح على إمضاء الليل في الصلاة، وبذلك منحهم القداسة، وخدمت هذه الجبال في القديم البطارقة، فكانت بالنسبة لهم بمثابة سور ضد الكفار، ولهذا جاء مكتوباً في الاصحاح السابع من سفر يودث: «لايعتمد بنو اسرائيل في الدفاع عن أنفسهم على قسيهم، ولاعلى الرماح، بل على الجبال التي تحميهم، وعلى التلال التي تقف أمامهم، فهذه تتولى الدفاع عنهم»، ولهذا لم يرغب الكفار بالقتال معهم على الجبال، بل قالوا: «دعونا ننهزم من اسرائيل، لأن أربابهم أرباب التلال»، وذلك حسبما نقرأ في سفر الملوك الأول: ٢٠/ ٢٣، وكان

عذباً أن نقيم مؤقتاً فوق هذه الجبال، وأعتقد أنه حولنا وحول حجاج المسيح الآخرين، صنعت نبوءة حزقيال منذ زمن طويل مضى حيث فيها وعد هذه الجبال بقوله: «يا جبال إسرائيل اسمعي كلمة السيد الرب... أنا جالب عليكم سيفاً وأبيد مرتفعاتكم» (حزقيال: ٢/٦-٤)، وفي الاصحاح الخامس والستين من إشعيا قوله: «بل أخرج من يعقوب نسلًا، ومن يهوذا وارثاً لجبالي» (إشعيا: ٩/٦٥)، هذا وتتألف هذه الجبال مع بعضها من صخور عظيمة، وشعاب عالية، ذات صخور قاسية جداً، ومع ذلك بدوا ناعمين بالنسبة لنا، فقد جاء بالزمور قوله: «صخورك مرضية لعبيدك»، ومثل ذلك صنع أيوب (أيوب: ٥/٢٣) عهداً مع صخور ذلك المكان، وسكن في مكان الصخور (أيوب: ٨)، وكان ذلك بسبب أن الرب عمل حدود الأرض المقدسة من حجارة مرضية. (إشعيا: ٣٦/١٢).

ولقد احتضنا الصخرة نفسها، كما فعل أيوب (٨/٢٤)، لابل أكثر من هذا، لقد عرفت بعض الحجاج الذين أحبوا الأرض المقدسة، كانوا يداومون ليلاً ونهاراً على الانحناء بأنفسهم نحو الأرض، ويقبلونها أجمل القبل، وكانوا على استعداد لعبادة الحجارة نفسها، على أنها آثار مقدسة، وهذه الحجارة قد اختارها المسيح لمساعدته في عمل خلاصنا، ذلك أن الحمل به جرى في كهف حجري، وولد تحت الصخرة والحجر، ومدد فوق حجر عندما ولد، ووعظ وهو واقف على حجر، وصلى ثلاث مرات في كهف في صخرة حجرية، وكان قد جلد إلى جانب عمود من حجارة، ووقف على حجرة لتسلم تاجه، ووقف على حجرة أمام بيلا يطس قاضيه، وجرى صلبه فوق حجر، ومسح بالدهون فوق حجر، ودفن في حجر، وصعد إلى السماء من على حجر، وباختصار، لقد أكمل بواسطة حجارة جميع أسرار خلاصنا، ولهذا كان أن تصدعت الصخور الحجرية أثناء آلامه، فلماذا بعد هذا لا يستريح المسيحيون بسرور فوق

هذه الصخور المقدسة، أكثر من استراحتهم فوق أنعم فراش؟ ومن الذي لن يجد الصخور والحجارة حلوة، التي لمست بقدمي الرب يسوع، والعدراء مريم، والبطارقة، والأنبياء، والرسل، والقديسين الذين يفوقون العدد؟.

وأوقفنا في اليوم الثاني عشر قبل شروق الشمس، وامتطينا حميرنا، ومضينا مسافرين عبر الجبال المقدسة، وبعدما تسلقنا عدة تلال، ونزلنا إلى عدد من الوديان، هاهو النهار المنتظر قد بدأ بالظهور، وصارت قبة السماء أكثر بياضاً في الشرق، ولمع القمر من هناك، وبدت الشمس تظهر فوق قمم الجبال، ونشرت أشعتها فوق الأرض، ومع ذلك كنا مانزال بعيدين عن القدس، وارتحلنا عبر ممرات وعرة، ورأينا فقط أرضاً قاسية وصخرية، ولهذا شرع بعض الفرسان الذين صدموا لدى رؤيتهم وعورة الأرض يقولون لي: «ما الذي أخبرنا به كهنتنا؟ وما الذي وعظ به وعاظنا؟ فلقد قالوا بأن هذه البلاد أفضل البلدان جميعاً، لكن انظروا كم هو وعر الطريق، وكم هي جرداء الجبال، فلماذا اختار الرب يسوع السكن في هذه البلاد، التي هي غير مفلوحة، ومحرقة بأشعة الشمس؟».

وفي الوقت الذي كانوا يتكلمون هكذا، بدأ حاجان بالخصام بشكل حاد، حتى بات من الصعب فصلهما عن بعضهما، ولو طال هذا الخصام أكثر، لو صلا إلى الضرب، فقد تشاجرا بشكل حاد جداً، وكانا معا علمانيين خالصين، أولهما بليد جداً، والآخر بارع، فالبليد تشكى بمرارة ضد الأرض المقدسة، ووقف البارع ضده، وقال بأنها أفضل البلدان، وعلى كل حال، قلت لنفسي بشكل سري في قلبي: «هل ياترى هذه هي الأرض التي قيل بأنها تتدفق بالعسل والحليب، وأنا لا أرى أمامي حقلاً ينتج خبزاً، ولا كرماً لينتج خمرأ، ولا مروجاً خضراء، ولا حدائق، عجباً إنها كلها وعرة، أحرقتها الشمس، وجرداء»، وبينما كنت أردد في قرارة

نفسى هذا الكلام بشكل سري، لم يمض طويل وقت حتى جاء الجواب إليها، وهو: إن أسباب هذا الجذب، والجفاف، والوعورة، نتيجة لللعنة التي أنزلها الله عليها، بسبب خرق وصاياه، وهكذا نقرأ في سفر التثنية: ٢٣/٢٨ «وتكون سهاؤك التي فوق رأسك نحاساً والأرض التي تحتك حديداً»، فضلاً عن هذا إن تدمرنا وخيبتنا مع الأرض المقدسة، قد جرى الحديث عنها منذ عدة آلاف سنين مضت وذلك حسبما نقرأ في سفر التثنية: الاصحاح ٢٩: «فيقول الجيل الأخير بنوكم الذين يقومون بعدكم، والأجنبي الذي يأتي من أرض بعيدة، حين يرون ضربات تلك الأرض وأمراضها الذي يمرضها بها الرب كبريت وملح، كل أرضها حريق لا تزرع ولا تنبت ولا يطلع فيها عشب ما، كإنقلاب سدوم وعمورة وأدمة وصبويم التي قلبها الرب بغضبه وسخطه، ويقول جميع الأمم لماذا فعل الرب هكذا بهذه الأرض. لماذا هو هذا الغضب العظيم. فيقولون لأنهم تركوا عهد الرب إله آبائهم الذي قطعهم معهم» (٢٢-٢٥).

وواضح من هذا أن الأرض في الوضع الذي هددت فيه في الكتابات المقدسة، لم تكن دوماً هكذا، كما يمكننا رؤية ذلك بأعيننا، لأننا رأينا خلال هذه الجبال المهجورة، أسواراً غاية بالقدم، بنيت من حجارة عظيمة، حيث من المعتقد أنها قد بنيت من قبل بني اسرائيل، وقد حصلوا على الزيت، والقمح، وكل حاجيات الحياة من أعلى هذه الجبال وأكثرها حجارة، حتى في هذه الأيام، وعلى الرغم من كفر وشرور السكان في هذه البلاد، جميع حاجيات الحياة تنمو هناك بكميات وافرة، لأننا رأينا على منحدرات الجبال بين الأسوار القديمة، كروماً، وزيتوناً، وقمحاً، وشعيراً، ونباتاتاً أخرى نامية هناك، علاوة على ذلك، حتى وان كانت البلاد محررة من اللعنة المتقدم ذكرها، لابد أنها ستبقى قاسية وجرداء، لأنه لا يوجد من يفلحها، سوى عدد ضئيل، وهم رجال سوء،

وكفار، وكل من ينظر عن قرب ويدقق في الكتابات المقدسة، سوف يحاجج بأن هذه البلاد فائقة الخصوبة، وليست قاحلة، وقرر — على كل حال — القديس جيروم بأي منطق ينبغي أن نفهم بأن هذه البلاد تفيض بالحليب والعسل، فقد جاء ذلك في رسالته إلى داردانوس Dar-danus حيث بين أننا ينبغي أن نقدر أن هذه الأماديح الفائقة يتوجب فهمها على أنها تشير إلى مملكة السماء.

ودخلنا في الوقت نفسه إلى واد واسع نسبياً، فيه حقول مزروعة، وكان مطوقاً من كل جانب بهضاب مرتفعة، ومزينة بأشجار الزيتون، وكان على جانبنا الأيسر جبال أفرام، التي يشكل جبل شيلوه الجزء الأمامي منها، ويبدو أن قمة هذا الجبل هي الأعلى بين قمم جبال تلك البلاد، وقام فيما مضى على جبل شيلوه هذا مدينة جليلة، حيث أقام تابوه الرب هناك لمدة طويلة، ذلك أنه جلب إلى هناك من قبل يشوع من الجلجال، وهنا حملت حنه بصموئيل، استجابة لصلاتها، وهنا أيضاً فرض الكاهنان الشيران حفني وفينحاس مكوساً ثقيلة على الشعب، وذلك حسبما ورد مكتوباً في الاصحاح الثاني من سفر صموئيل الأول، وهنا سمع النبي صموئيل للمرة الأولى الرب يتكلم إليه، وسقط عالي، الكاهن الأعلى من على كرسيه، وذلك كما ورد مدوناً في الاصحاحين الثالث والرابع من سفر صموئيل الأول، وهنا اعتاد بنو اسرائيل جميعاً على القدوم لعبادة الرب، وكان ذلك قبل بناء هيكل القدس، وحدث أنه بسبب ذنوب الكهنة، جرى الاستيلاء على تابوه الرب، وقتل الكهنة، وتهديم شيلوه، وإزالتها تماماً، ولذلك عندما تنبأ إرميا بخراب القدس قال: «سوف أجعل هذا البيت كشيلوه» (إرميا: ٢٦/٦)، ومن أجل هذه الكلمات جرى اعتقال إرميا، وإلقائه بالسجن، بسبب أن شيلوه جرى تدميرها، وفي شيلوه دفن النبي صموئيل، ولذلك أطلق عليها اسم «مكان صموئيل المقدس»، حتى هذا اليوم، ولربما قد جلب جسده إلى

هنا من الرامة حيث كان دفن (صموئيل الأول: ١/٢٥) هذا وجاءنا خبر من عند جيروم في كتابه «Confutation of vigilantius» أنه في أيام الامبراطور أركاديوس Arcadius، جرى نقل عظام صموئيل المبارك من اليهودية إلى تراقيا، في وعاء ذهبي وهو ملفوف بالحرير، واجتمع حشد كبير من الناس لمشاهدة عملية النقل، فقد تقاطر الناس من فلسطين إلى العراق، وجرى استقبال هذه الآثار بسرور عظيم، وكأن الاستقبال لصموئيل نفسه حياً، وغنى الناس بصوت واحد الشكر للمسيح.

وكان فيما مضى عند سفح هذا الجبل مدينة جبعه، حيث جرى قتل زوجة اللاوي التي هي من بيت لحم، من خلال زنى أهل جبعه، وانتقاماً لذلك تمّ قتل آلاف كثيرة بالسيف، ودُمّر سبط بنيامين كله تقريباً (القضاة: ١٩)، وصعدنا فوق طريق وعر خارج الوادي، وكان ذلك فوق الراية نحو شيلوه لأن الوادي كان ضيقاً جداً، لم يستوعبنا، ولم نكن بعيدين من شيلوه، بل فوق الأرض المرتفعة إلى جانبها، ومع هذا لم يرغب أدلاؤنا بأخذنا إلى هناك، لأنهم كانوا مسرعين يريدون الوصول إلى القدس، بأقصى مايمكن من سرعة، خشية أن يعانون، فيما بعد، أثناء النهار من حرارة الشمس، وفيما مضى من أيام، كان الحجاج يقادون دوماً إلى شيلوه، وبعد صعودهم إلى هناك، كانوا من ذلك المكان يرون مدينة القدس ويتهجون، ولذلك كان اسم هذا المكان «بهجة الحجاج» (جبل البهجة)، وعندما كنا أثناء سيرنا على جانب شيلوه، رأينا خرائب كثيرة لأسوار قديمة وكنائس، مابرحت قائمة على حافة الراية حتى هذا اليوم، وتطلعنا بأعيننا نحو الشرق، فرأينا الجبل المقدس، والجبل المجيد، الذي هو جبل الزيتون، وكنيسة الصعود على قمته، ومع ذلك لم نستطع رؤية المدينة المقدسة، مع أنها كانت إلينا أقرب من جبل الزيتون، وعندما رأينا ذلك الجبل الأكثر قداسة قفزنا من على

ظهور حميرنا، وصلينا نحو الجبل بتقوى وسرور، لأن مشهد هذه الأماكن المقدسة عن بعد يبهج النفوس بشكل رائع للناس الأتقياء.

وخلفنا بعد هذا شيلوه وراءنا، وفيما نحن على طريقنا وصلنا إلى قلعة، هي قلعة عمواس المقدسة، وهي التي تبعد عن القدس حوالي ستين غلوة، وذلك حسبما ذكر القديس لوقا في الاصحاح الأخير من انجيله، وتساوي هذه المسافة سبعة أميال ايطالية، وميلاً ألمانيا واحداً ونصف الميل، ذلك أن ثلاث غلوات تساوي سبعة آلاف وخمسمائة خطوة، وترجلنا قرب هذه القلعة من على ظهور حميرنا، ومضينا من خلال سور حجري جاف إلى المكان الذي كان يقوم فيه النزل الذي استقبل الرب يسوع، وحوارييه: لوقا وكليوباس، وكان ذلك في يوم قيامة ربنا، عندما ذهب على شكل حاج، فالزماء بالبقاء معهما، وقد عرفاه عندما كسر الخبز.

وقبلنا هذا المكان بتقوى عارمة، وتلقينا مغفرة(+)، واعلموا أيها الحاجاج، أنه هنا توجد أول خطوات الرب يسوع، وأماكن سيره، التي ستجدونها جديرة بالتقيل، ومن أجل التهذئة والسكينة جرى إعداد هذا المكان بشكل مناسب من قبل القدرة الربانية، حيث أن الحاج التعيس، الذي هذه التعب وهو مسرع نحو القدس سوف يتقابل مع ذلك الحاج الرائع، أي ربنا، وهو قادم من هناك، وهو الذي إليه قيل: «أأنت وحدك غريب وحاج في القدس»؟، ومن أجل انعاشه ينبغي أن يرى أولاً وقبل كل شيء الخطوات الأكثر قداسة وسعادة التي عملها جسد الرب بعد تمجيده، فبعد أن ينتعش برويتهم ويطمئن يمكن أن يكون قادراً في القدس على اتباع خطواته المقدسة في آلامه البغيضة، وذلك حسبما طلب بطرس منا أن نفعل، في الاصحاح الثاني من رسالته الأولى، حيث قال: «المسيح أيضاً تألم لأجلنا تاركاً لنا مثلاً لكي نتبعوا خطواته»، وفي هذا المكان جعل قلبي حواريه يتحرقان في داخلهما، وقام

بكسر الخبز وأعطاه لهما، الأمر الذي قال عنه بعض الحكماء، بأن ذلك كان القربان الذي احتفل به هناك للمرة الأخيرة، وعاد سريعاً إلى القدس، وفي الحقيقة يقول بعضهم بأن هذين الحواريين كانا قد غادرا القدس وافترقا عن الحواريين الآخرين، ونويا على عدم العودة ثانية، غير أنه جعلها هناك يعودان ثانية، وهكذا عادا في الساعة نفسها إلى القدس.

وكانت عمواس في أيام المسيح بلدة جميلة وغنية، وقد تعرضت للدمار، عندما جرى تدمير القدس نفسها، وقد أعيدت عمارتها فيما بعد من قبل ماركوس كورنيليوس، وأطلق عليها اسم نيقوبولس، وقد قام يوليوس أفريكانوس بسفارة من أجل إعادة عمارتها، وذلك حسبما قرأنا في «كتاب الرجال المشهورين» لجيرونم، وقد دمرها المسلمون الآن دماراً كلياً، ولاسيما كنيسة نزل المسيح، التي من الممكن التعرف إلى خرائبها من خلال أساساتها، وما يزال قائماً فيها حتى الآن خرائب بيوت مقنطرة عالية، وقليل من الناس هم الذين يسكنون هناك.

وبعدما رأينا هذا المكان المقدس، تابعنا السير على طريقنا، ورأينا خرائب العديد من البيع والكنائس على التلال، وذلك أثناء سيرنا فوق المنطقة الجبلية، ثم نزلنا من المنطقة المرتفعة إلى واد وقع عبر طريقنا، وهو ممتد من الشمال إلى الجنوب، وكان علينا نحن القادمين من الغرب والمتجهين نحو الشرق، عبوره، وكان هذا وادي Elah، أو وادي البطم، حيث غلب داوود هناك جالوت وقتله بحجرة اختارها من أرض الجدول، وقطع رأسه وجلبه إلى القدس (صموئيل الأول: ١٧) ووقفنا في وسط هذا الوادي، وتفحصنا وضع الأرض، وهو واد خصب، ويوجد فيه في هذه الأيام كثيراً من أشجار البطم، وهذه أشجار جميلة، تنمو بشكل رئيسي في سورية، ومنها يخرج صمغ، وأشجار البطم على نوعين، أي ذكر واثني، وعلى هذا يحملون نوعين من الشار، حيث

تحمل الأشجار المذكرة ثماراً حمراء بحجم حبات العدس الصغيرة، وغالباً ما رأيت كثيراً من هذا النوع من الأشجار، وتحمل الأشجار المؤنثة ثماراً ألوانها باهتة بحجم الفول، ويستخرج من هذه الثمار زيتاً جيداً، وطيب الطعم.

كيف رأى الحجاج القدس المدينة المقدسة وكيف دخلوا إلى القدس تلك المدينة الأعظم حلاوة

كان السبب الرئيسي وراء رحلاتنا هو مدينة القدس الأكثر حلاوة، التي انتشر شذاها فعم آفاق العالم، فجعل المؤمنين يسعون إلى هناك من كل جانب، وهكذا تسلقنا وادي البطم، وقطعناه، وتوقفنا عن الذهاب نحو الشرق، وصعدنا حواف رابية باتجاه الجنوب، ووصلنا إلى حدائق أشجار مثمرة، وخضراوات، وتين، وكان ذلك أثناء سيرنا بين جدران من الحجارة الجافة، وألقينا بأعيننا نحو اليمين، وباللهول، لمعت مثل ضوء البرق، المدينة المذكورة دوماً، والتي ستذكر دوماً، إنها مدينة القدس المقدسة، قد أشرقت أنوارها، وكان الجزء الذي رأيناه منها هو المتصل بجبل صهيون، ورأينا جبل صهيون المقدس نفسه، مع جميع أبنيته وخرائبه، وقبل كل شيء رأينا قلعة صهيون، وهي محصنة بأسوار على درجة عالية من القوة، وبأبراج، وبدت الأسوار العالية القوية والأبراج العائدة للقلعة بوضوح وكأنها تحيط بالمدينة كلها، والحجاج، أو الغرباء، الذين لم يروا القدس من قبل لم يكن بإمكانهم إلا أن يظنوا أن أسوار قلعة صهيون تلك كانت هي أسوار القدس، الأمر الذي لم يكن كذلك، وعندما رأينا بأعيننا المدينة المقدسة التي تشوقنا إليها طويلاً، ترجلنا على الفور من على ظهور حميرنا، وتوجهنا بوجوهنا نحو الأرض، ووجهنا التحية أولاً إلى ملكها، الذي هو المولى الرب، وكان ذلك برسم علامة الصليب، ثم خاطبناها بهذه الكلمات، أو بكلمات مثل هذه:

«مرحباً يا قدس، وحييت يا مدينة الملك العظيم، مجد الأرض كلها وتاجها، بهجة نفوس المؤمنين وسرورهم، يا قدس، يا قدس، انهضي، ارفعي عينيك، وانظري من حولك، وأبصري جميع هؤلاء الحجاج، أولادك الذين قدموا معاً من أقصى أجزاء الدنيا، والذين ما برحوا يقدمون في حشود، عليهم يرون سناء بريقك، ومجد الرب قائم فوقك»، وذلك كما قال النبي إشعيا—الاصحاح: ٤٠، ومثلما مدحك طوبيا بهذه الكلمات: «سوف تشعين مجداً مع ضياء، وكل طرف من أطراف الدنيا سوف يتعبدك، وكل الأمم سوف تأتي من بعيد، جالبة الهدايا، وسوف تعبد ربك» (طوبيا: ١٣).

ومثل هذا فعل القديس برنارد في الاصحاح الخامس من قداسه لفرسان الداوية حيث قدم التحية لمدينة القدس الأعظم مجدداً بهذه الكلمات فقال: «حييت أيتها المدينة المقدسة، التي قدسك الأعظم علواً، وجعلك مثل خيمة عهد له، حتى يمكن فيك ومن خلالك انقاذ جيل عظيم، حييت يا مدينة الملك العظيم، الذي منذ البداية المغرقة بالقدم، وهو يطلب أن يجعل العالم مسروراً، حييت ياسيدة الأمم، أيتها الأولى بين البلدان، ياموطن البطارقة، وياأم الأنبياء والرسل، وياينبوع الايمان، ويا مجد شعب المسيح، الرب الذي عانى دوماً وتعرض لأن يهاجم منذ البداية، من أجل أن تكوني للرجال الشجعان وسيلة لظهور شجاعتهم، ولربح خلاصهم كاملاً، حييت أيتها المدينة الرئيسية في أرض الميعاد، والتي فاضت في الزمن القديم بالحليب والعسل، فقط للذين سكنوا فيها، والتي تعطي الآن إلى العالم كله وسائل الخلاص، وخبز الحياة، أيتها الجيدة، أنت الأفضل في البلاد، فأنت التي تلقيت في صدرك الخصب جداً، الحبة المقدسة من التابوه، قلب الأب، وأنجبت وقدمت حصاداً لا مثيل له من الشهداء من تلك البذرة السماوية، وثمره صحيحة من تربتك الخصبة، في جميع أنواع الشعوب المؤمنة الأخرى، ستين ومائة

ضعف، في جميع أنحاء الأرض، ولهذا فإن جميع الذين شاهدوك، امتلأوا
بوافر من حلاوتك، وشبعوا بثناء عظيم بذكرى فيضك العظيم،
وتدفقوا ببهجتك، تراهم يتحدثون عن عظمة مجدك إلى الذين لم يروك،
وينشرون ذلك حتى أقصى أجزاء الأرض، ويصفون الروائع التي فيك،
وكثيراً من الأشياء الرائعة قد قيلت عنك يامدينة الرب، وعلى الفور
سوف نتذوق نحن الذين قدمنا من الغرب، البهجة الموجودة فيك
والتي تتدفق منك، وعندما رأيناك ذابت أرواحنا وتبددت في فيض
بهجتك وإشراقك».

وعندما فرغنا من صلواتنا، امتطينا ظهور حميرنا، وعيوننا قد امتلأت
بالدموع، ووجوهنا بالبشر والسرور، وشرع الكهنة والرهبان الذين
كانوا بيننا يغنون *te deum Laudamus* لكن بصوت منخفض
وخافت، حتى لانغضب حرسنا، الذين قد يثير غناء نشوتنا غضبهم إذا
ما غنينا بصوت مرتفع وواضح، وعليه غنينا بصوت مرتفع فقط في
قرارة نفوسنا، لأن النشوة التي شعرنا بها بداخلنا كانت عميقة وعظيمة،
وقد تجاوزت كل الكلمات التي يمكن التعبير بها، ولم تتبع هذه النشوة
من الآلام بل من العقل، وليس من حضور هدف مرغوب، بل من
شيء يستحق الحب لأنه ثمين: ولم يكن السرور هو الذي يقود إلى
الجواز بل إلى الجدية، التي لا تحرك الإنسان للضحك بل للتنهد، والتي
لا تهز الجسد، بل تحني الأطراف، ولا توسع فتحة الفم للضحك بل
بالحري تجعل الوجه مربداً، يبكي كله، وكله دموع، ولا تقود إلى الكلام
بل إلى الصمت، ولا تدفع الإنسان نحو الأمام بين الناس، بل بالحري إلى
الانزواء هادئاً، ولا تجعل الإنسان يصرخ بصوت مرتفع، بل بالحري
تجعله يصلي بداخله بأغاني المزامير.

وبهذا الوضع الصامت والسرور الداخلي وصلنا إلى آخر الحقول،
حيث وقف ربشاقى وشم الرب، وهو حامل ضد الذين وقفوا على

أسوار القدس (الملوك الثاني: ١٨/١٧. إشعيا: ٣٦) وفي هذا الحقل وإلى جانب القلعة التي بناها السلطان، ترجلنا من على ظهور حميرنا، وأعطيناهم إلى سائقيهم، وأخذنا جعبنا، ومشينا إثنين، إثنين نحو باب التجار، أو باب السمك ونحن نصلي بصمت، وأيدينا موضوعة فوق صدورنا، وقام بعض الحجاج، صدوراً عن التقوى، بخلع أحذيتهم ورميها جانباً، ومشى بعضهم بأقدام عارية، ذلك أننا كنا في الأرض المقدسة، وكنا بذلك نمجد الخطوات الرائعة لربنا، وللعذراء مريم المباركة ولقديسي العهد القديم والعهد الجديد.

وعندما وصلنا إلى الباب الذي اسمه باب داوود، وباب التجار، أو باب السمك عبرنا خلاله برؤوس مطأطة، لأننا بهذا العبور وعلى هذا الشكل حصلنا على غفران دائم (++)، ومضينا من الباب وسرنا خلال الشارع الطويل، ووصلنا إلى كنيسة مغلقة عظيمة، وعندما كنا جميعاً واقفين في الساحة، اعتلى واحد من رهبان دير جبل صهيون مكاناً عالياً، وخاطبنا قائلاً بأن هذه كانت أكثر الكنائس قداسة، وهي متعبدة من قبل العالم أجمع، ففيها راقد أعظم الكنوز قيمة بالنسبة إلى جميع المسيحيين، وهو ضريح ربنا، وعندما سمعنا هذا ألقينا بأنفسنا نحو الأسفل في الساحة، أمام باب الكنيسة، وصلينا وقبلنا الأرض نفسها مراراً كثيرة، ومن المؤكد أنه بدا إلى الحجاج، وهم متمددون على الأرض أن الفضيلة كانت تصدر من الأرض نفسها، وبذلك ازدادت مشاعرهم أكثر واندفعوا للمزيد من الصلوات.

أيها المولى الرب، كم هو عذب يمكن أن يكون تقبيل فمك، ذلك أننا، ولم نستطع تقبيل قدميك، وفقط قدرنا أن نقبل مكان خطواتك، فشعرنا بعذوبة ألانت قلوبنا، آه يا أخي لو كنت معي في تلك الساحة، أثناء تلك الساعة، لرأيت دموعاً كثيرة منهجرة، ولسمعت تنهدات قليلة مريرة، ونحيباً شجياً، وانفعالات عميقة، وحزناً حقيقياً، وبكاء صادراً

من داخل الصدر، وصمماً كله سلام وسرور، فلوملكت قلباً من حجر لذاب، ولانفجرت بفيض من الدموع مع الحجاج الذين كانوا ينتحبون، فلقد رأيت هناك بعض الحجاج وقد تمددوا على الأرض بلا حراك ولا قدرة، تخلت عنهم قواهم، وكأنهم قد نسوا أنفسهم بسبب انفعالاتهم التقوية الفائقة، ورأيت آخرين يتنقلون من زاوية إلى زاوية، ومن هنا إلى هناك، وهم يضربون صدورهم، وكأنهم قد دفعوا بروح شريرة، وجثا بعضهم على الأرض بركب عارية، وصلوا بدموع، ورفعوا أذرعهم وشبكوها على شكل صليب، وكان بعضهم يرتجف ويهتز بتنهيدات عنيفة إلى حد أنه لم يكن بإمكانهم تمالك أنفسهم والوقوف على أرجلهم، ولذلك أرغموا على الجلوس، وقد أمسكوا رؤوسهم بأيديهم، حتى يمكنهم تحمل تنهياتهم الكثيفة، وتمدد بعضهم على طولهم على الأرض لمدة طويلة بلا حراك، حتى بدوا كأنهم أموات، وكان أكثر من الجميع وفوقهم كلهم مرافقونا، وأخواتنا النساء من الحجاج حيث صرخن وكأنهن في آلام المخاض، ورفعن أصواتهن عالياً وبكين، وفقد بعض الحجاج، لشدة وجدهم وانفعالات تقواهم، السيطرة على أنفسهم، ونسوا كيف عليهم أن يتصرفوا، وصدوراً عن شدة حرصهم لإرضاء الرب قاموا بحركات صبيانية وغريبة.

وكان بالحقيقة ممتعاً أن تنظر إلى التصرفات المخلصة جداً، وفي الوقت نفسه، المتنوعة للحجاج، وهم يصلون في الأماكن المقدسة، وهي الأماكن التي تمتلك قوة مدهشة في جعل الإنسان يبكي، والناس يتنهدون، مع أنهم في مكان آخر من غير الممكن إثارتهم بأي كلام، أو نصيحة، أو نص من الكتابات المقدسة، أو بأي صورة، أو نقش، أو مثل، أو وعد، أو تهديد أو ازدهار، أو انتكاسة، ومع هذا، إنه كقاعدة، لانجد جميع الذين يزورون الأماكن المقدسة، لا يفعلون إلى هذا الحد، بل يتحركون فقط نحو اظهار للتعبد والتقوى بشكل غير اعتيادي، فلقد

رأيت بعضهم — وبودي أنني لم أرهم — كانت مشاعرهم قد تحركت هنا باتجاه معاكس لتصرفات الثقة والمؤمنين الجيدين، فلقد رأيت خلال أعمال التعبد والتقوى المتقدمة الوصف التي صدرت عن الحجاج، بعض الحجاج البليدين، والذين لانفع بهم، لابل هم بالحري بهائم متوحشة، ليست فيهم روح الرب، فهؤلاء وقفوا يتسمون بسخرية نحو الصلوات، والدموع، والتمدد على الأرض، وضرب الصدور، وما شابه ذلك، ممافعله البقية، والذي هو حتى أكثر إدانة وخبثاً هو أن هؤلاء الرجال المتوحشين، والمحرومين من رؤية كل أنواع التقوى، والفارغين من أية مشاعر دينية، والممثلين بكل النجاسات، أنهم كانوا ينظرون إلى الأناس الأتقياء على أنهم حمقى، ومرائين، ومنافقين، وغشاشين، ومرضى بعقولهم، ولهذا كانوا يعاملونهم بازدراء، ويتأبون من التحادث معهم، ويستخفون بهم، ويسمونهم مجانين، ومرائين، ومنافقين.

آه كم هو غير نافع وملعون الحج بالنسبة لمثل هؤلاء الناس، الذين يضحكون في مثل هذه الأماكن المقدسة، ويستخفون بالرجال المقدسين وسيئون النظرة إلى تصرفاتهم، فمثل هؤلاء الناس أسوأ من المسلمين، أو من اليهود، مع أن هؤلاء لم يستخفوا قط بأي مسيحي أخذ نفسه بالتقوى، ذلك أننا عندما قدمنا إلى هذه الساحة المقدسة، ركض عدد كبير من الصبيان المسلمين هناك، ليضحكوا علينا، لكنهم عندما رأوا عمق إخلاص الحجاج وتقواهم، ذهبوا بعيداً، وبقي بعضهم وبكوا معنا، وتلقينا في هذه الساحة غفرانات مطلقة (++) .

ونفضنا — بعدما أكملنا صلواتنا وأنهيناها — من على الأرض، وصعدنا نحو باب الكنيسة، حيث نظرنا من خلال الفتحات، التي يمر الطعام من خلالها بالعادة إلى الأوصياء على الضريح المقدس، المقفول عليهم هناك، ورأينا قائماً في وسط الكنيسة، بيعة الضريح الأعظم قداسة العائد لربنا، والطريق الصاعد نحو جبل أكر (الجمجمة)، وانتشنا من

جديد بالمشاعر التقوية، وهناك علامة مرسومة على الأرضية الرخامية، تشير إلى المكان المقدس، الذي وقع فيه الرب يسوع، عندما كان حاملاً للصليب، حيث كان على مقربة من صخرة الجمجمة، ووقتها سقط على الأرض تحت الصليب لأنه كان منهكاً، ولقد قبلنا تلك البقعة الفاتكة القداسة عدة مرات، وبللنا لطاخة الدم التي كانت عليها بدموع كثيرة، وكانت هذه ثاني آثار أقدام للرب يسوع رأيناها، ويجب ألا يخطر على بالنا، أو أن نظن أن هذه ليست بدون معاني خفية، أي أن نلتقي أولاً مع خطوات المسيح في المجد، وثانياً مع جسده عندما جلد، وعندما كان يحمل الصليب، فهنا يمكننا أن نتعلم بهذا، أن علينا ألا نشد شيئاً ما سوى المجد السماوي، الذي لا يمكن لإنسان الحصول عليه إلا بحمل صليبه.

وعندما فرغنا من صلواتنا هذه، اقتادنا الكاليني خارج الساحة أو الباحة، العائدة للضريح المقدس، وعبرنا الطريق المواجه الساحة، ومن هناك صعدنا إلى مشفى القديس يوحنا، الذي هو بناء مقنطر واسع، مهمل ومهدم، والموجود هو جزء فقط من المشفى القديم، ومكان يشبه قاعات طعام كبيرة لدير واسع، حيث عاش عدد كبير من الرهبان، وهنا رتب الحجاج أنفسهم وفقاً لجماعاتهم، واتخذ السادة السوابيون، أي موالي مكاناً في آخر البيت، حيث كان هناك ما يشبه القاعة منفصلة عن البقية، وذلك في مكان مغلق جميل ومحترم، وذهب مولاي جون، كونت أوف سولم وجماعته، مع كالينوس الأصغر، إلى بيته، وأقاموا هناك، ولم نؤخذ في حجي الأول إلى المشفى، بل إلى بيت ميلو الكبير، عند سفح جبل صهيون، وهناك أقمنا، كما أننا لم نشاهد المشفى مطلقاً أثناء ذلك الوقت، ولم نعرف بوجود أية آثار باقية من مشفى القديس يوحنا، وعندما تدبر الحجاج إقامتهم هناك، تولى خدمتنا مسلمون، ويهود، ومسيحيون شرقيون، حيث جلبوا لنا خبزاً، وماء، وطعاماً مطبوخاً،

وفواكه، وذلك حسبما أخبرتكم من قبل، ولقد اشترينا منهم طعاماً وأكلناه.

وأرسل الآن الأب المسؤول عن دير جبل صهيون اثنين من الرهبان إلى المشفى، وأمرهما بجلب جميع الأشخاص من الطوائف المقدسة إلى جبل صهيون، لأن العادة جرت بأن يسكن جميع الأشخاص التابعين للطوائف الدينية، مع الرهبان الفرنسيين على جبل صهيون، وذهبت أنا بين هؤلاء القوم مع اثنين من رهبان طائفتي، أي طائفة الرهبان المبشرين، كان أولهما قد جاء من منطقة جزيرة فرنسا، وجاء الآخر من نابل في منطقة صقلية، وخرجنا من المشفى، وجرى اقتيادنا إلى دير الفرنسيين فوق جبل صهيون، وجرت تحتنا من قبلهم بلطف واستقبلنا استقبلاً حسناً، وقد أعطونا ثلاث قلايات لنا أنفسنا، وهكذا أكلنا، وشربنا، ونمنا، وعبدنا الرب بمصاحبتهم، وقد بقيت في تلك القلاية لأيام كثيرة، بعدما ذهب الحجاج جميعاً، وتمتعت بهدوء كامل، وبمعاملة رائعة صدرت عن لطف الآباء الفرنسيين ورهبان جبل صهيون.

زيارتنا للأماكن المقدسة على جبل صهيون ووصفهم

وفي اليوم الثالث عشر، الذي كان الأحد السابع بعد الثلاثين، وعيد العذراء القديسة مريم، أرسل الأب المسؤول بعضاً من رهبانه إلى مشفى القديس يوحنا، ودعا الحجاج إلى الاحتفال بقديس على جبل صهيون، وجاءوا جميعاً مع هؤلاء الرهبان إلى كنيسة صهيون، للانتظار هناك حلول وقت القيام بقديس رفيع، لأن الشمس أشرقت الآن مبكراً، ومع ذلك لم يكن هو قد استيقظ عندما صعد الحجاج إلى هناك، ولكي يظهروا احترامهم للوردات الحجاج، قام الرهبان بتزيين السدة، والكنيسة، والمذابح بشكل جميل، وغطوهم بمعلقات ثمينة، وأنا لم أشاهد في أي مكان آخر معلقات ثمينة أكثر من هذه المعلقة في هذا

المكان، ذلك أنها كانت مطرزة من قبل النساء، عليها رسوم تعرض حياة المسيح وموته، وفي الحقيقة جاء عدد كبير من سادة المسلمين، والأتراك والمماليك من جهات بعيدة، وطلبوا مشاهدة هذه المعلقات، أو الزرابي، وبعدها احتفى الأعيان، والحكام، والقادة في القدس بضيوف الشرف هؤلاء، اقتادوهم إلى جبل صهيون وتوجهوا بالرجاء إلى الرهبان هناك بأن يعرضوا عليهم هذه المصنوعات ويعلقوها لهم.

وصنعت هذه المعلقات لصالح الكنيسة بناء على أوامر فيليب، دوق بيرغندي، الذي قدم منحاً كثيرة أضفها على ذلك الدير، ووقف المذبح العالي وهو مكتظ بأوعية قرايين مذهبة، وبمذاخر، وكان فوق المذبح صورة، حوت رسم القديس فرانسيس، وإلى جانبه قد وقف شفيعنا المقدس، القديس دومينيك، وقد رسمت بشكل جليل تماماً، والكنيسة ليست واسعة، لأنها كانت شطراً فقط من كنيسة جبل صهيون، وفي العصور القديمة، عندما كان الصليبيون يتولون الحكم في البلاد، كانت هناك كنيسة عظيمة في تلك البقعة، قام المسلمون بتدميرها حتى النتوء أو البيعة الملاصقة لسدة الكنيسة على جهة اليمين، وهذا الجزء هو الآن الكنيسة والسدة للرهبان، وما تزال خرائب السدة القديمة والكنيسة مرئية بوضوح حتى الآن، كما سنوضح ذلك فيما يلي:

وعندما أشرقت الشمس، وحل وقت الاحتفال بالقداس، ضرب الحافظ لغرفة المقدسات على لوح خشبي، لأنه لم تكن لديهم نواقيس من أي نوع، كما أنهم لم يفكروا بالحصول عليهم من خلال المسلمين، بل عبروا عن حلول موعد العبادات الدينية بالضرب على ألواح خشبية، كما نحن نفعل في يوم الجمعة الحزينة، وبعدها اجتمعنا كلنا في الكنيسة رتلوا تراتيل الأول والثاني، وبعد الثلاثي صعد الأب المسؤول مع مرافقيه إلى دكة القداس العالي، وكانوا يرتدون ثياباً ثمينة، وبدأ قائد جوقة المرتلين يغني بصوت مرتفع إحدى أغنيات صهيون: «Spintus

domini replevitاً وساعده جميع الكهنة والقارئ للكتاب من الحجاج، وهكذا غنينا قداس الروح القدس بمهابة بهيجة، وكان هذا القداس موائماً للمكان، لأن الروح القدس أرسلت إلى هناك، ونزلت على الرسل، وكانت بشكل مرئي، كما أن التوقيت كان موائماً، لأن اليوم كان هو يوم الأحد السابع بعد التثليث، الذي فيه ورد ذكر الأرغفة السبعة، التي تعني العطايا السبع للروح القدس.

وبعد القداس احتفلنا نحن الكهنة بطقوس القربان على أربعة مذابح، جرى إعدادها لنا، وأعطيت مكاناً في الاحتفال تحت في الأسفل في الرواق المغلق في بيعة القديس توما الرسول، القائمة في المكان الذي فيه قال الرب لتوما: «هات اصبعك إلى هنا» (يوحنا: ٢٠/٢٧)، وذلك حسبما ورد في الاصحاح العشرين من انجيل القديس يوحنا، وبعد الفراغ من الانجيل في طقوس القداس العالي، استدار الأب المسؤول بنفسه نحو الناس، ووعظهم بموعظة جميلة باللاتينية، مدح فيها الأماكن المقدسة وأثنى على زيارتها التعبدية، وتمت ترجمة هذه الموعظة إلى الألمانية من قبل الأب المبجل بولص غوغلنغر Guglinger، وذلك لصالح الرجال العلمانيين، وكانت الأبواب مغلقة في أثناء القداس، وقد وقف في الخارج عدد كبير من المسلمين والتجار، وصدف في أثناء القداس أن جرى فتح الباب للسماح لأحدهم بالخروج، وعندما رأى المسلمون ذلك اندفعوا بشدة نحو المدخل، ودخلوا إلى الكنيسة، ووقفوا إلى جانب المذبح، وهم ينظرون باستغراب نحو طقوسنا، ومع ذلك لم يظهروا سوء أدب أو سلوكاً، ولم يتعد الأمر الوقوف هناك والاندھاش، وعلى كل حال أوقف الكهنة القداس حتى أخرجوا بوساطة الرهبان، الذين لم يستخدموا القوة أو قاموا بجرحهم، أو تخاصموا معهم، بل أخرجوهم بهدوء، ورجوهم بالذهاب، واثّر ذلك تمّ إكمال قداسنا.

فيما يلي:

المسيرة إلى الأماكن المقدسة في جبل صهيون وأولاهما مكان العشاء الأخير

بعد القداس، أعدّ الرهبان الفرنسي سكان العدة من أجل مسيرة مهيبّة، فقد ارتدوا ملابسهم المقدسة، ومضوا وهم يحملون معهم صليبا، وأعلاما، وحاملات شموع، ومذاخر، ومباخر، وماء مقدسا، ولدى سيرنا معهم جميعا في المسيرة، كان قائد الجوقة رجلا صاحب صوت قوي، وقد بدأ يغني بشيء من النشوة ترتيلة من أغاني صهيون:

pange lingua gloriosi corporis mysterium ومع هذا الغناء سرنا، وكنا نحن الكهنة في الطليعة، وتبعنا بقية الحجاج، وبقينا هكذا حتى وصلنا إلى السدة ومنها إلى المذبح العالي، الذي من المعتقد أنه قد بني فوق المكان المقدس الذي أكل فيه الرب يسوع العشاء الأخير مع حواريه، حيث حول الخبز والنبذ إلى جسده ودمه، وأعطاهما إلى حواريه للأكل والشرب، وحيث رسمهم كهنة حتى يتولوا أعمال القداسات، ومضينا إلى هذا المكان الفائق القداسة واحداً تلو الآخر، وانحنينا بأنفسنا نحو الأرض، وقبلنا الموضع تحت المذبح المفرغ من الأسفل، وتلقينا غفرانات مطلقة (++)، وانتبهوا يا خيرة الأحبة، أيها الإخوة الحجاج، هنا البيت، وهنا العلية العليا، وهنا المنضدة حيث أعطيت لكم الأعطية الفائقة القداسة بالخبز من السماء، وخبز الملائكة، الذي وحده لديه القدرة لاشعال الرغبة فينا، وأن يزرع فينا التواضع، وأن يجلب الندم، وأن يعطي الايمان، وأن يبعث الأمل، وأن يمنحنا الدفء حتى نحب، وأن ينهض بنا إلى التبجيل، وأن نذيب التفكير، وأن يسبب أحلى المشاعر، فهذا المكان جدير بأعلى تقدير — تقدير فوق جميع الأماكن المقدسة الأخرى — ذلك أن جميع الأماكن التي أخذنا

إليها، وكانت على اتصال بالرب، وجدناها كلها جديرة بالاحترام، من ذلك الناصرة مثلاً، التي تلقت حلول الرب في جسد مثل أجسادنا، وبيت لحم التي شهدت ولادته، والجمجمة التي أعطته الصلب. هذه الأماكن حقاً تستحق الاحترام، لكن هذا المكان يستحق احتراماً أكثر منها جميعاً، وهو فوقها كلها، ففي هذا الموضع جرى العشاء الرباني الأعظم انقذاً، فهنا أعطى نفسه ليكون طعاماً، وجسده ليكون لحماً، ودمه ليكون شراباً، حتى يمكن أن يصبح طعاماً سماوياً وأرضياً مع بعضهما، لأنه قال: «إن الذي يأكل جسدي ويشرب دمي يحل بي وأنا أحل به».

وإلى جانب هذه الأسرار التي تستعصي على الوصف، أدرج هنا أضحيان وقرايين نموذجية، وختم الشريعة، وشرع قداساتاً جديدة، وهنا جعل يوحنا يتمدد فوق صدره، كما أكد هنا بأنه عرف بأن يهوذا الذي سيخونه، وأخبر هنا مقدما بطرس بسقوطه، وتنبأ هنا كيف أن حواريه سوف يتخلون عنه ويفرون، وهنا وعظ بقداس طويل وعظيم الخلاوة، وودع حواريه الوداع الأخير، تاركاً السلام معهم.

وهكذا بعدما فعلنا كل ماعلينا أن نفعله في ذلك المكان المقدس بشكل صحيح، حيث غنينا تراتيل، وقرأنا ما هو معد للقراءة «في مسيرات الحجاج في الأرض المقدسة» رجعنا إلى حيث كنا ونحن نقدم الحمد والشكر، وهذه المسيرات هي كتيبات صغيرة، فيها محدد جميع القصائد، والمجاميع، وعبارات الترانيم، والتراتيل، والمزامير، أي كل ما ينبغي أن يقال أو يغنى في جميع الأماكن المقدسة، وخلال مسيرة أعمال الحج كلها فيما وراء البحار، وحصلت على واحد من هذه الكتيبات لنفسي، واستخدمته في الأماكن المقدسة.

غسل الأقدام الذي عمل هناك

وسرنا من ذلك المكان على شكل رتل قليلاً نحو الجزء الأيمن من

السدة، ونحن نغني تراتيل محددة من أجل يوم العشاء الأخير، ووصلنا إلى المكان المقدس، حيث غسل الرب يسوع أقدام حواربيه بعد العشاء، ويوجد هنا مذبح جميل، حيث حنينا أنفسنا نحو الأرض، وقبلنا الأرض، وتلقينا غفرانات (++)، وأرجوكم أيها الأحبة الحجاج، ألا تتركوا هذا المكان، من دون تأملات متقدمة، ليست أقل من تأملات أي مكان آخر، وانظروا وتفكروا بأهمية الذي صنع هنا وبمعانيه وآثاره، فابن الرب القدير بسبب ربوبيته الدائمة، والقدير بجمال عقل الأب، ابن الرب الذي أرسى قواعد العالم، وجعله جميلاً لينظر إليه، والذي إليه تقدم السموات والنجوم في مساراتها، الولاء، والذي هو كما قال أيوب هز الأرض وأخرجها من مكانها، وجعل بذلك الأعمدة ترتجف، هو انحنى نحو الأسفل، وحط من مكانة جلالته السماوية، ففي هذا المكان غسل يديه أقدام حواربيه القذرة، والملوثة، والموحلة، مع أن هؤلاء كانوا من سوية متدنية: صيادين للسماك، ومذنين، وخونة، وفعل ذلك حتى يقدم لنا أفضل مثال وأصححه في التواضع.

المكان الذي أنزلت فيه الروح القدس على الحواريين

في يوم عيد الحصاد

بدأ بعد هذا قائد الجوقة المقدسة يغني أمتع أغنية بين أغاني صهيون وهي: Veni, creator, pinitus الخ، ولدى غنائه لهذه الأغنية خرجنا من الكنيسة ودخلنا إلى الدير الموجود فوق الرواق المغلق، لأن السدة والكنيسة قد بنيتا فوق سطح غرف أخرى، ولذلك حتى يصل الانسان إلى الكنيسة، عليه أن يصعد على الدرج من كل جانب، وعندما يخرج الانسان من الكنيسة، يمكنه أن يسير على سطح قوس الرواق أو المعبر المسقوف، حول جهات ثلاث للساحة، لأن للرواق ثلاثة أطراف فقط، فالطرف الرابع هو جدار الكنيسة، وهكذا مررنا خلال الكنيسة، ونزلنا من جهة الشرق إلى جهة الغرب، ففي النهاية الغربية للكنيسة

خرجنا منها من باب موجود على الجهة الجنوبية، ومشينا على الجانب الأول للرواق، ثم عطفنا أنفسنا نحو الشمال، فوصلنا إلى رأس السدة، حيث صعدنا فوق بعض الأدراج إلى عليّة أبوابها مغلقة بالحجارة، لأسباب سوف أذكرها على ورقة ٢٩٠ ظ.

وهذه العلية موجودة عند رأس السدة، ولأن السدة ليس لها نوافذ تطل نحو الشرق، لوجود هذه العلية بالطريق، هي مضاعة من جهة الجنوب فقط، وذهبنا برتل صاعدين فوق الأدراج المتقدمة الذكر، وانحنينا بأنفسنا نصلي أمام الباب الموصد، فهناك تلقينا غفرانات مطلقة(++)، وغنينا ترتيلة كنا قد بدأنا بها بلحن عذب، تردد صداها فوق جبل صهيون كله ومدينة القدس، لأن المكان لم يكن مغلقاً، وقد وقفنا فوق مكان مرتفع، في الهواء الطلق، وغنينا بسرور فائض، متذكرين أنه في هذا المكان أمطرت السماء بحضور رب سيناء، وبحضور رب إسرائيل وجرى ارسال مطر النعمة ذاك وإنزاله على ميراث المسيح، لأن الروح القدس نزلت على الحواريين بصوت مندفع، وغيرت عقولهم الشهوانية إلى محبة له، وهكذا، في الوقت الذي ظهرت فيه ألسنة اللهب دنيوية ظاهرة، اشتعلت قلوبهم في الداخل باللهب، بسبب أنهم عندما تلقوا الرب بالشكل المرئي للنار، كانت قلوبهم تشتعل بعذوبة بالحب، لأن المسيح، عندما كان على وشك الصعود نحو الأعلى، طلب من حواربيه عدم مغادرة القدس، وأن عليهم الانتظار هناك وعد الأب، ولهذا قدموا إلى هذه العلية وأقاموا فيها وهي مغلقة عليهم، وذلك بسبب الهياج بين اليهود، وجلسوا هناك معزولين، وميتمين، وجاهلين وغير عارفين، ومرعوبين، وممتلئين خوفاً، لكن عندما نزلت الروح القدس عليهم، جلبت إليهم أعظم المواساة عذوبة، وانصبت في عقولهم الحكمة الأوضح، فأعطتهم الشجاعة الأمتن، وهكذا بالمشاورة بالنفس، وبالثبات في النعمة، تسلموا الحكم على العالم.

ولسوف أصف هذا المكان بشكل أوفى، عندما أصل إلى الحديث عن
ضريح داوود.

المكان الذي قام فيه القديس توما

وهو مرتاب بلمس جروح الرب

ثم إننا غادرنا هذا المكان، ونزلنا على الأدراج التي كانت قريبة إلى
الرواق، وأتيننا إلى بيعة القديس توما، حيث نال هذا الرسول نفسه من
خلال شكوكه الفائقة المنافع، شرف لمس الندوب المتألقة لجسد المسيح،
وعندما سرنا في رتل إلى ذلك المكان غنينا الترنيمة المبهجة:

((Exultet coelum laudibus resaltet terra gaudiis.)) ومجدداً

انحنينا بأنفسنا نحو الأرض في هذا المكان، وتلقينا غفرانات
مطلقة(++)، وتركز في هذا المكان تأملنا على النعمة الخاصة، التي
وصلت إلى القديس توما الرسول، لأن جميع الذين قرأنا عنهم، أنهم
كان لهم علاقة بجنب المسيح — ومنهم القديس توما، الذي وضع يده
في جنبه، بناء على طلبه — تلقوا علامة خاصة على النعمة، فلوجينيوس
العسكري غير المؤمن والمتوحش، الذي — بناء على أوامر بيلاطوس
— وقف إلى جانب الصليب، وقام بإدخال رمحه في جنب المخلص،
وطعن القلب الأعظم قداسة للمسيح، كان ضعيف النظر، وصدف أن
عينيه لامسهما الدم الذي جرى على الرمح، وبذلك صار يرى بوضوح،
وتلقى النور في كل من جسده وعقله، وتحمل استشهاداً مشهوداً، ورأى
القديس يوحنا الانجيلي جانبه وشاهد الماء والدم يخرج منه، فأمن وصار
شاهداً لأعظم الأسرار سمواً، ورأى القديس توما جانبه ولمسه، وبذلك
صار أكثر المؤمنين ثباتاً وذلك بشكل مكشوف، وسمع قولاً هو فائق
الطمأننة لنا، حيث قال له ربنا: «لأنك رأيتني ياتوما آمنت، طوبى للذين
آمنوا ولم يروا» (يوحنا: ٢٠/٢٩).

والحواريون الآخرون، الذين أراهم الرب يديه، ورأوا جنبه، تفتحت أعينهم، وبذلك أمكنهم فهم الكتابات المقدسة، وقد امتلأوا ببهجة عصية على الوصف، وعندما كان القديس برنارد يصلي أمام تمثال المصلوب، بدا له أنه رأى المصلوب وقد فك نفسه من الصليب، وانحنى عليه وهو يصلي، وتلقاه وهو مستغرق بصلاته بين ذراعيه، ووضع فمه على جنب المصلوب، ورضع من هناك صحة العقيدة حلواً كالعسل، وانفعل القديس فرانسيس أيضاً بعمق لدى تفكيره حول جراح المسيح، فكان أن أجزى بشكل إعجازي، ورأى على جسده أنه يحمل علامات الرب يسوع، وشربت القديسة كاترين السيناوية من جنبه الأعظم قداسة، فغدت ثملة بأحلى جرعة للقداسة، ذلك أن تلك العذراء التي كانت قرينة للمسيح، كانت مرة ترعى امرأة مريضة، تعاني من قرحة مخيفة وقذرة جداً في صدرها، التي صدر عنها رائحة لا تحتمل، لذلك لم يبق أحد معها، وفي أحد الأيام عندما نزع الفتاة المقدسة الضماد من على القرحة من أجل تنظيفها وغسلها، صدرت رائحة مخيفة لا تحتمل، حركت معدتها وجعلتها تشعر أنها مريضة تريد أن تتقيأ، وعندما شعرت الفتاة المقدسة بهذا، باتت غاضبة مع جسدها، وحلفت يميناً قائلة: «بحق حياة الأكثر علواً، القرين الأكثر حلاوة لروحي، سوف تضع في معدتك ذلك الشيء الذي تقززت منه»، وقامت على الفور بجمع غسالة القرحة والدم الخارج من ذلك الجرح القذر بوعاء، وذهبت إلى مكان منعزل وابتلعت الجميع، وعندما فعلت ذلك توقفت تقززها، وليس فقط أنها لم تعد تشعر بالغثيان، بل تمتعت بسرور لا يوصف.

وفي الليلة التالية ظهر لها الرب يسوع، وأراها جروحه الخمسة، التي أصيب بها وهو على الصليب وقال: «لأنك البارحة تغلبت على المشاعر الطبيعية لجسدك، بسبب حرارة حبك لي، وابتلعت الشراب المقرف،

أقول لك: بما أنك بهذا العمل ذهبت أبعد من طبيعتك، لذلك سوف أعطيك شراباً فوق الطبيعة البشرية التي اعتدت على تلقيها، ثم إنه وضع يده اليمنى فوق رقبة الفتاة، وسحبها نحو جراح جنبه وقال: «اشربي جرعتي، اشربي جرعة من جانبي، بها سوف تمتلئ روحك بحلاوة سوف تتدفق بشكل مدهش حتى إلى جسدك»، وقامت هي، وقد رأت نفسها قد وضعت إلى جانب فم نبع الحياة، فوضعت فمها الطبيعي، لابل أكثر: فمها الروحي، على ذلك الجرح الأعظم قداسة، وشربت، ليس لمدة قصيرة، لقد شربت بتشوق، وبكميات كبيرة من ذلك الشراب الاعجازي والعصي على الوصف، وأخيراً أبعدت نفسها عن النبع، وهي ممتلئة، ومع ذلك عطشى، وبدأت منذ ذلك الحين حياة جديدة، وكبرت بالنعمة، وذلك حسبما سنقرأ في حكايتها، في الفصل الرابع من القسم الثاني.

وانظر كم هي عظيمة فضائل جرح المسيح، وسانا الرمح، الذي طعن به جنب المسيح محفوظ في نورمبورغ Nuremburg حيث أنني رأيته وحملته بيدي، وله فضائل عظيمة إلى حد أن آلافاً كثيرة من الناس تتدفق على هناك، في كل سنة، في يوم الجمعة الأول، بعد اليوم الثامن من عيد الفصح، لرؤية قطعة الحديد، وعبادتها، وهي القطعة التي شقت جنبه المقدس، وعلى هذا اقتربوا أيها الأحبة الحجاج، والمسوا بقلوبكم جراحه، مثل القديس توما، وصلوا للرسول المقدس حتى يقبلكم للتعايش معه، ويقوم في هذه البيعة مذبج جميل، غالباً ماقرأت فيه ساعاتي الشرعية، عندما كنت أعيش في القدس.

المكان الذي اقتاد إليه ربنا حواريه حتى يتمكن من التحادث معهم على انفراد وقال: قوموا دعونا نذهب من هنا

بعدما أنهينا قداس المسيرة في هذه البيعة، تحلقنا حول الممر الأسفل للرواق، وذلك حول ثلاثة جوانب منه، وانتقلنا إلى بيعة أخرى، مقدسة

كثيراً، ومظلمة جداً، وهي مخفية تحت الكنيسة نفسها، ومن المعتقد أن هذه البيعة هي المكان المنعزل، الذي إليه اقتاد الرب يسوع حواريه، عندما قال: «قوموا، دعونا نذهب من هنا»، وذلك حسبما نقرأ في الاصحاح الرابع عشر من انجيل يوحنا، ولقد حدثنا الحكماء المتعلمين من أمثال القديس توماس (الأكويني Aquinas)، وألبرتوس ماغنوس، وهوغو، ودي ليرا، أنه بعد العشاء، وبعدما اغتسل الحواريون، وبعدما تلقوا القربان، أخذ الرب يتحدث إليهم، وهم جلوس في المكان الذي تعشوا فيه، وأخبرهم بشكل مكشوف أنه سيتعرض للخيانة، وأنه بعد وقت قصير لن يرويه بعد ذلك، وعندها أصبح الرسل مرعوبين، واضطربوا لدى سماعهم لكلماته، وتوجهوا بأبصارهم بشكل مستمر نحو باب عليّة العشاء الأخير، خشية وتوجساً من أن الناس سوف يأتون ويأخذون معلمهم من بينهم، ولذلك أولوا قليلاً من الاهتمام لكلماته، ولأنه رغب في أن يتابع الحديث إليهم بشدة أكبر، من أجل أن يصغوا إليه بعناية أكبر، وأن يكونوا أقل خوفاً، قال لهم: «قوموا، دعونا نذهب من هنا»، وبناء عليه نزلوا من غرفة العلية، إلى الغرفة القائمة تحتها، حيث أنهى قداسه، وصلاته الأكثر تقوى، التي هي موجودة في الاصحاح السابع عشر، وفي الاصحاحين اللذين يليانه من انجيل القديس يوحنا، ونحن نعتقد أن هذه الصلاة هي التي قدمها المسيح في هذا المكان، ولذلك صعدنا إلى المذبح، وتوصلنا إلى ربنا يسوع أن يجعلنا نلتحق به في صلاته هذه الفائقة التقوى، التي قدمها هناك، ولقد تلقينا غفراناً (+).

ويوجد في هذه القاعة المقدسة جزء من العمود الذي جلد المسيح عنده، حيث هو مربوط إلى الجدار بقضبان حديدية، ومع ذلك من الممكن لمسه بالأصابع، ويوجد إلى جانبه فرش للضيوف، نمت عليها أثناء حجي الأول، وهناك أيضاً قلاية لراهب من طائفة السسترشيان،

وللراهب جون الذي يمنح الناس شارة الفروسية في الضريح المقدس، والذي يشغل أيضاً وظيفة متعهد المؤن للرهبان، وصعدنا من ذلك المكان على درج حجري إلى الكنيسة، وبذلك أنهينا مسيرتنا، فهذه هي الأماكن المقدسة التي موجودة في أفنية الدير، وفي الخارج هناك كثيراً من المزيد من الأماكن المقدسة، كما سنرى فيما يلي.

الغداء الذي قدمه رهبان جبل صهيون إلى الحجاج

بعدما أنهينا مسيرتنا التي استغرقت حتى حوالي منتصف النهار، وعندما كان الحجاج على وشك النزول إلى المشفى، قدم الأب المسؤول والراهب يوحنا الخازن، ووجهها الدعوة إلى جميع الحجاج إلى الغداء، وقد نصبوا مناظيد، وألواحاً طويلة من أجلنا في حديقة الدير، لأن عددنا كان كبيراً، وكان المكان ضيقاً، ومدوا فوق السطح قطعة قماش غطت طول السطح كله، لتكون بمثابة مظلة من حرارة الشمس، وكان الموضوع الذي طرزت به هذه القطعة هو نزول الروح القدس، وهكذا جلسنا إلى المائدة باستثناء بعض النبلاء الذين، قرروا القيام بخدمة الموائد، وذلك صدوراً عن التواضع، وحينما كنا جميعاً جالسين، وكنا نأكل بطريقة نظامية، جاء رجل كان مرتدياً للملابس وضيعة، أنا لم أره من قبل بين صفوف الحجاج، وقد وقف في وسطنا ونحن نتناول الطعام، ووعظنا بلغة لاتينية كانت غنية وفصيحة وجميلة الأداء، إلى حد أننا توجهنا جميعاً بأبصارنا إليه، حتى الذين لم يفهموه كانوا مندهشين تجاه تدفقه ولغته الممتعة، وكان موضوع قداسة في ميدان تمجيد الأماكن المقدسة، وفي اطراء الحج ومدحه، وبعدما أنهى هذا الواعظ كلامه، أخذ مكانه اللورد جون، بارون سيجيرن، الذي كان رجلاً حكيماً وفصيحاً، وكان واحداً ممن تولوا خدمة المائدة، وقد ألقى —بناءً على إلحاح الأب المسؤول— كلمة بالألمانية، شكر بها، باسمه، السادة الحجاج من اللوردات لجلوسهم إلى مائدة الرهبان الفقراء،

ورجاءهم أن يكونوا راضيين بطعامهم وشرابهم، وإذا ما أراد أي واحد منهم أن يسدد للرهبان ويعوضهم على لطفهم، وأن يظهر شفقة على فقرهم، يمكنه التحادث حول هذا الموضوع مع الراهب يوحنا البروسي، خازن الدير، الذي سوف يجدونه واقفاً في الرواق، لأن الأب المسؤول لن يسمح مطلقاً بجمع أية تبرعات على المائدة، كما أنه لم يرغب باعلامهم أن الراهب يوحنا سوف يتسلم مالاً باسم الرهبان، بل ان النبلاء فعلوا ذلك صدوراً عن رغبتهم، وعندما انتهى الغداء، وتغدينا جميعاً بشكل جيد، ذهبنا إلى الراهب يوحنا، وقدمنا مساعدات لها قيمتها إلى الدير، فبعضهم دفع ست دوقيات، وبعضهم خمس، وبعضهم أربع، وبعضهم ثلاث، وبعضهم دوقيتان، وأصغر مبلغ دفع من قبل أي انسان كان هو دوقية واحدة.

زيارة إلى الأماكن المقدسة على جبل صهيون

من دون أحواز الدير

وعندما فرغنا من جميع الذي وصفناه، ذهبنا نحن الحجاج إلى الأب المسؤول ورجوناه أن يتفضل فيعين واحداً من الرهبان لأن يكون دليلنا إلى الأماكن المقدسة المتبقية فوق جبل صهيون، وذلك خارج الدير، ولبي طلبنا الأب المسؤول، ودهش تجاه غيرة الحجاج الكبيرة، فبعد المتاعب التي عانوا منها، مابرحوا يرغبون في تحمل المزيد من الجهود، وفي الحقيقة مامن أحد عليه أن يفكر أن زيارة الأماكن المقدسة مهمة سهلة، فقد كانت هناك حرارة هائلة صادرة عن الشمس، والسير من مكان إلى مكان، والجلثو على الركب، والتمدد على الأرض، وفوق كل شيء، كانت هناك الضغوط التي يضعها كل انسان على نفسه في نضاله بكل طاقاته بأن يرقى بنفسه إلى التقوى السليمة، وتفهم واستيعاب كل مارآه في الأماكن المقدسة، ولأن يحقق صلاة خاشعة، وتأملاً عميقاً، وهذا كله لايمكن القيام به من دون بذل جهود كبيرة، ذلك أنه حتى

يقوم بهم الانسان بشكل لائق، عليه أن يكون مرتاحاً، وليس هائماً على وجهه، ذلك أنه تناضل خلف العوائق العقلية، وأنت تتنقل جسدياً من مكان إلى مكان، عمل مرهق إلى أبعد الحدود، فبعض حجاجنا لم يستطيعوا القيام بذلك، ونزلوا إلى المشفى للراحة، ولذلك أقل من نصفهم هم الذين تابعوا واستمروا في عمل الحجاج.

وكان الأب المسؤول قد أعطانا عدداً من الرهبان بمثابة أدلاء لنا، معهم انطلقنا في طريقنا من حديقة الرهبان الداخلية، حيث كنا قد تناولنا طعام الغداء، وعندما خرجنا من الحديقة إلى الرواق، وصلنا أمام قاعة الطعام والمطبخ، إلى بركة ماء عميقة، كانت أبرد من أي ماء آخر في القدس، ويحكى بأن الماء قد نضح من هذه البركة من قبل حواربي المسيح، من أجل العشاء الرباني، أي من أجل مزج الخمرة أثناء أداء القداس، ومن أجل غسل أيديهم وأقدامهم، ومن أجل الاستخدامات الأخرى أثناء العشاء، وصدوراً عن الاحترام للحقائق المتقدم ذكرها نضحنا بعضاً من هذا الماء وشربناه بتقوى، وصرت من ذلك الوقت غالباً ماأشرب منه كميات كبيرة، أثناء شدة الحرارة وقسوتها، ولم يلحقني ضرر من ذلك، وأعتقد أن هذا واحداً من آبار الخلاص الذين ورد الحديث عنهم في الاصحاح الثاني عشر من سفر اشعيا، وهو قوله: «فتستقون مياهاً بفرح من ينابيع الخلاص»، وقال في فقرة تالية: «صوتي واهتفي ياساكنة صهيون».

ومضينا من هذا النبع من خلال الممر المسقوف إلى باب الدير، الذي أخذ بنا إلى طريق عام، وهذا الباب صغير ومنخفض، ومدخل ضيق منحدر، لايمكن لانسان أن يعبره من دون أن يطأطئ رأسه، ويحني ظهره، والباب حديدي قوي، وهو عندما يغلق يشد بسلاسل وبمزاليج حديدية، لأنه يخشى أثناء غضب المسلمين خلال الاضطرابات المفاجئة من اقتحام الدير ونهبه، وهو ما فعلوه في احدى المرات، ومن الممكن

رؤية آثار ذلك في المهجع قرب الحديقة والمكتبة، حيث كان هناك فيما مضى قلايات جميلة بنيت بسقوف مقنطرة، فقد قاموا بتدميرها وبتهييط قناطرها، ولم يسمحوا لهم حتى هذا اليوم بإعادة عمارتها كما كانت من قبل، ذلك أنه من السهل جداً إثارتهم وتحريكهم لمهاجمة المسيحيين، وأن يثوروا بغضب ضدهم، ولهذا يغلق الرهبان على أنفسهم بشدة، خشية من أن يثور المسلمون ويكون هناك هياج فيتمكنوا من إلحاق بعض الأضرار بهم، ومثل هذا قام المسيحيون الشرقيون بحماية بيوتهم وإغلاقها بأبواب حديدية، وذلك للأسباب نفسها.

موضع اعتكاف العذراء مريم المباركة

وخرجنا من الدير من خلال ذلك الباب، برفقة الرهبان، إنما من دون أبهة، مسيرة مهيبة، وبدون غناء، وكان أول مكان قدمنا إليه درج حجري، صعدنا عليه إلى الكنيسة في الأعلى، وتمددنا على هذا الدرج بأنفسنا، في دعاء وتعبد للقربان المقدس والأماكن المقدسة في الداخل هناك، ثم نهضنا ومضنا إلى الزاوية الخارجية للكنيسة، حيث يوجد الموضع الذي كان فيه معتكف العذراء، مريم، ولذلك انحنينا بأنفسنا في ذلك المكان نحو الأرض، وصلينا، وتلقينا غفرانات (+)، وهناك خطر ببالنا وفكرنا كيف أن مريم العذراء المباركة، قد اعتادت في هذا المكان وفي أماكن أخرى على تقديم صلواتها المتواصلة والمتقبلة كثيراً للتشفع لدى الرب من أجلنا، وفي الحقيقة سوف تظل تقدمهم حتى نهاية الزمان، الأمر الذي هناك حاجة مستمرة لأن تفعله، لأنه مثلما هناك حاجة لأشعة الشمس على الأرض حتى تجعلها خصبة، هناك مثل ذلك حاجة لصلوات مريم من أجلنا نحن الأشقياء المذنبين، وحول هذا قال القديس برنارد: «إذا ما أبعدت الشمس التي تضيء الدنيا، أين يمكن أن يكون هناك نهار؟ وأبعد مريم — نجم البحر — مالذي سوف يبقى في المسكونة، غير احتضان الجميع للاكتئاب، والظلام الدامس، وظلال

الموت»؟.

موضع دفن داوود وسليمان والملوك الآخرين ليهوذا والقدس

وغادرنا الآن موضع اعتكاف العذراء المباركة، الذي هو موجود —كما قلت— عند زاوية تلك الكنيسة، وذلك حيث يتصل جدار الكنيسة القادم من الشرق بالجدار القادم من الجنوب، وصعدنا من تلك الزاوية وسرنا على طول الجدار الذي يقود نحو الشرق، وصرنا فوق جدار آخر منخفض، يقود من جدار الكنيسة إلى فناء مربع الشكل هو ساحة صغيرة، وتسلقنا في هذه الساحة فوق الجدار، وعندما صرنا فوق، وجدنا باباً صغيراً في جدار الكنيسة، وهو محاط بالحديد، ومغلق بعناية فائقة، وعلى هذا لم يكن بإمكاننا المرور من خلاله، لابل حتى وإن استطعنا أن نمر من خلاله، من المؤكد أننا لن نتجرأ على فعل ذلك، لأن الموضع مسجد اسلامي، وهذا مكان عظيم القداسة مبجل من قبل جميع المسيحيين واليهود، والمسلمين كذلك، لأن فيه موضع دفن الأنبياء، والأنبياء القديسين، مثل داوود، وسليمان، ورحبعام، وأبيا Abia، وآسا Asa، ويورام Joram، والبقية، الذين وردت أسماؤهم في سفر أنساب يسوع المسيح، في الاصحاح الأول من انجيل القديس متى، وغالباً ما ورد ذكر هذا الموضع في أسفار الملوك وأخبار الأيام، كلما جرى استخدام عبارة: «وقد دفن في ضريح آبائه في مدينة داوود»، ودفن هؤلاء الملوك في هذا المكان وسط احتفال عظيم جداً، وحدثنا يوسفوس، في الكتاب السابع من التاريخ القديم —الفصل السادس عشر— وكذلك مصنف كتاب «Scholastica Historia»، عن وفاة داوود، أنه عندما مات، وضع ابنه سليمان جسد والده في تابوت ثمين جداً، لم يصنع من الحجر أو من الخشب، بل عمله صاغة الذهب، من الذهب المحلى بالأحجار الكريمة، ودفن إلى جانبه كنز لا يمكن تقدير قيمته من الذهب والفضة، وعندما توفي سليمان، دفنه ابنه رحبعام، ومعه كنز

عظيم إلى جانب تابوت داوود، وكان سليمان قد بنى مكان الضريح وفق فن حسابي بحيث لا يستطيع انسان الوصول إلى هذين التابوتين.

وبعد مضي ألف وثلاثمائة سنة على وفاة سليمان، وفي أثناء وقوع القدس تحت حصار أنطيوخوس ابن ديمتريوس، كان هيركانوس الكاهن الأعلى للمدينة المقدسة، وقد وجد نفسه غير قادر على تحمل استمرار الحصار مدة أطول، أو دفع العدو، وصدده، وعد أنطيوخوس بالمال إذا ما انصرف، ولم يجد وقتها ما يكفي من مال في خزانة الهيكل، ولم يكن لدى سكان القدس الفقراء المال، فمضى —لذلك— هذا الكاهن الأعلى، وصعد إلى جبل صهيون، وفتح هذا المكان الذي تحدثت عنه، وأخذ من هناك ثلاثة آلاف قنطار من الذهب، وبهذا المبلغ أقام السلام مع أنطيوخوس.

وثانية بعد مرور سنوات كثيرة، وجد هيرود نفسه بحاجة إلى المال، وسمع بأن هيركانوس قد وجد مالا هناك، فجاء بشكل سري إلى ذلك المكان، وفعل ذلك أثناء الليل ومعه أصدقائه المعتمدين، فلم يجد هناك نقوداً مضروبة، بل استخرج بعض الكؤوس الذهبية والفضية، ودفعه هذا إلى الحفر أعماق، حتى وصل إلى جرتي حفظ جسدي داوود وسليمان وإلى تابوتيتهما، وفي أثناء الحفر احترق اثنان من خدمه وتحولا إلى رماد، وكان ذلك بوساطة اللهب الذي اندفع من الأجزاء الداخلية للمكان، وعندما رأى الملك هذا، هرب مع الآخرين، ولكي يصلح ماعمله ويكفر عما اقترفه، بنى ضريحاً عظيماً جداً من الحجر الأبيض.

وفيما مضى، عدّ رهبان دير جبل صهيون هذا المكان بين ممتلكات ديرهم، وهو في الحقيقة جزء من كنيسة جبل صهيون، لأنه موجود بين الجدران نفسها، عند رأس السدة، وقد انتزع السلطان هذا المكان من الرهبان للسبب التالي: فقد توسل اليهود مراراً إلى السلطان لكي يعطيهم هذا المكان، حتى يتخذوا منه مكاناً للزيارة وللاعتكاف،

وما برحوا يترجونه حتى هذا اليوم، ورفض المسيحيون باستمرار الاستجابة لهم، وأخيراً سأل السلطان عن أسباب قداسة ذلك المكان، وعندما أخبروه بأن داوود وملوك القدس الآخرين من سلالة مدفونين هناك قال: «نحن المسلمون أيضاً نعدّ داوود مقدساً، مثلما يفعل المسيحيون واليهود ونحن نؤمن بالتوراة كما يفعلون، ولذلك لن يمتلك لا اليهود ولا النصارى هذا المكان، بل سنتخذنه نحن لأنفسنا»، وبناء عليه قدم إلى القدس، وأغلق الباب الذي كان الانسان يدخل عبره إلى تلك البيعة من داخل الدير، وألغى البيعة، وأزال مذابح المسيح، وحطم التماثيل المنحوتة، وطمس الصور، وجعل المكان مناسباً لعبادة (١) (إله) محمد (صلى الله عليه وسلم)، وعمل باباً في الخارج، يمكن للمسلمين الدخول منه عندما يرغبون.

ولأن المكان الذي كان فوق البيعة، أي فوق سقفها المقنطر، كان ملكاً للمسيحيين والرهبان، وكان يوجد فيه بيعة باهظة النفقات، كان قد أسسها هناك ملك فرنسا، أسسها في المكان الذي تحدثنا عنه وقلنا بأن الروح القدس نزلت هناك على الحواريين في يوم عيد الحصاد، لذلك أمر السلطان أيضاً بهدم هذه البيعة أيضاً، وبإزالة القناطر، وباغلاق بابها، حتى لا يتمكن المسيحيون من السير فوق السقف المقنطر العائد للمسجد، وهكذا فقد الرهبان هذين المكانين المقدسين الثمينين، وجاء ذلك من خلال تشوق اليهود لامتلاك المكان المنخفض، الذي توسلوا من أجله إلى السلطان، وما زالوا يتوسلون له حتى هذا اليوم، ووعدوه يعطوه آلاف قناطر كثيرة من الفضة مقابل ذلك، هذا وهم لا يفعلون هذا لمجرد احترامهم لقبور الملوك القديسين، ولالقداسة المكان، بل انهم يأملون بشق طريقهم إلى توابيت الملوك، والعثور على الكنوز، لأنهم يعتقدون بأن هذه الكنوز مخزونة هناك، وأنه من المقدر أن تكون لهم،

١ - استخدم الرحالة عبارة نابية جداً، أبدلتها بما بين الحاصرتين.

ولذلك غالباً ماتجدهم ذاهبين إلى هناك، ويقومون بالصلاة في أثناء الليل، ويبارسون أحياناً هناك أعمال السحر وفنونه.

وتشوقت كثيراً لرؤية القسم الداخلي من ذلك المكان، ولم يخب أمني، حيث كان المسلم الحافظ للمسجد يحاول في أحد الأيام فتح الباب، وقد أغلقه بسرعة، وعطل القفل بالمفتاح، ولذلك لم يحرك المفتاح المزلاج الحديدي، ولذلك غادر تاركاً المسجد مفتوحاً، وقد بقي مفتوحاً طوال المدة التي بقيت فيها بالقدس، ودخلت إلى المسجد أكثر من عشر مرات ونظرت إلى مافيه، مع أنني كنت دوماً أدخل وأخرج وأنا خائف أرتجف، لأنه لو رأي أي مسلم هناك، لسبب ذلك لي أذى عظيماً، هذا إذا نجوت من خطر الموت، وهذه البيعة بيعة طويلة، ولها سقف مقنطر، ولها نافذتين على جهتها اليسرى، وفيها ضريح من الرخام في جانبها الشمالي، والأرضية المبلطة مغطاة بحصر، ومعلق فيه مصباحين، ولا يوجد فيه مذبح، ولا رسوم، ولا أعمال محفورة ومنحوتة، بل جدران عارية مطلية باللون الأبيض، فهكذا جميع مساجد المسلمين فارغة وخاوية.

وأثارت الحكاية المتقدمة شكاً في عقلي، حول لماذا سمح هؤلاء الملوك القديسين بدفن كنوز معهم، لأن هذه ممارسات كافرة ولا عقلانية، ثم كيف كان سليمان قادراً على إخفاء هذه التوابيت بفن لا يستطيع انسان حياله العثور عليهم؟ وجواباً للسؤال الأول أقول، بأننا ينبغي أن نؤمن بشكل يقيني بأن هؤلاء الرجال لم يفعلوا شيئاً صدوراً عن أوهام عبثية، أو حباً بالثروات الدنيوية، أو اقترافاً لآثام التفاخر، بل إنهم دفعوا من قبل الروح القدس، من أجل أنه عندما يحين الوقت، يمكن أن تكون الكنوز نافعة لاستخدام الناس بشكل عام، ولأن تدار وتستخدم من قبل الشراة المقيمة لليهود، أما بالنسبة للسؤال الثاني، لا بد من أن أقر بأن يوسفوس أخبرنا بأن سليمان أخفى هذه القبور بفنون سحرية، لكن

مؤلف كتاب « Historia scholastica » قد دفع هذه التهمة عنه، وأعلن أنه أخفاهم ببراعة أصيلة.

وبشأن قبر داوود، انظر مقالته القديس بطرس الرسول، في الاصحاح الثاني من أعماله: «أيها الرجال الإخوة يسوع أن يقال لكم جهاراً عن رئيس الآباء داوود إنه مات ودفن وقبره عندنا حتى هذا اليوم»، (أعمال: ٢/ ٢٩)، ويبرهن هذا، أن هذا المكان كان معروفاً تماماً في أيام الرسل، واعتقد جيروم بأن داوود قد قام مع ربنا، وأسس حجته على مقالته القديس بطرس، بأن قبر داوود كان مرئياً بوضوح، مع أنه لم يتجرأ على القول بأن داوود كان ما يزال موجوداً فيه. ولقد تحدثنا بما فيه الكفاية عن هذه القضايا وما ياتلها في هذا المكان، ثم قرأنا صلواتنا بتعب ذلك أن جميع علامات صلوات مسيرة الأرض المقدسة جديرة بالقراءة هناك، وتلقينا غفرانات(+).

خيمة عهد داوود حيث المكان الذي وعظ فيه الرب يسوع وحيث أصغت العذراء المباركة

وبسرعة تركنا تلك الساحة الصغيرة، ودخلنا إلى السدة القديمة لكنيسة جبل صهيون، التي كانت مهدمة بشكل كلي، باستثناء الجزء الشرقي منها، حيث ما يزال قسم من الجدار قائماً مع قنطرة مهدمة معلقة فوقه، والمكان الذي بنيت فوقه هذه السدة، هو واحد من الأماكن الجديرة بالنظر إليها باحترام من قبل كل من يؤمن بالكتاب المقدس، ويقدم اليهود احتراماً خاصاً لهذا المكان، لأنهم يعتقدون — كما نحن نعتقد — بأنه قام هنا مكان اعتكاف داوود أو خيمة عهده، التي إليها جلب مع جميع بني اسرائيل تابوه الرب بصحبة الأغاني والآلات الموسيقية، والسرور العظيم، حسبما قرأنا في الاصحاح السادس من السفر الثاني لصموئيل، وفي هذا المكان كذلك تسلم الوعد بأن المسيح ينبغي أن يلد من سلالته، حسبما ورد مكتوباً في الاصحاح السابع من

السفر الثاني لصموئيل، وظل هذا المكان حتى بعد بناء الهيكل، يتردد الناس عليه بكثرة ويحبونه، ولذلك غالباً ما اعتاد الرب يسوع على الوعظ فيه هناك.

وتخليداً لذكرى ذلك أقيمت حجرتان مقابل بعضهما في وسط الأرضية المبلطة، والحجرة الأولى قائمة في المكان الذي وقف فيه ربنا ووعظ، ووضعت الثانية فوق المكان الذي اعتادت العذراء المباركة أن تصغي فيه لوعظ ابنها، ولقد قبلنا هذه الأماكن مع الحجرتين، وانحنينا بأنفسنا نحو الأرض، وتلقينا غفرانات (+)، ووقفنا في هذا المكان لبعض الوقت، وبكينا على الخرائب، ونظرنا بأسف من حولنا نحو الحجارة المبعثرة العائدة للمعبد، فقد قام هنا فيما مضى كنيسة عظيمة جداً، لم يبق منها شيئاً سوى الجزء الذي اتصل فيما مضى بتلك الكنيسة العظيمة على جهة الطرف اليمين، وهذا الجزء هو في هذه الأيام سدة وكنيسة الرهبان، حسبما قلت من قبل، وما يزال رأس السدة موجوداً أيضاً، مع النافذة الشرقية، ومعها نصف قنطرتها المهدمة والتي هي مهددة بالسقوط، ويوجد فوق داخل هذه الكنيسة طريق للصعود فوق بعض الدرجات، وذلك من المكان الذي أنزلت إليه الروح القدس، إلى قمة قطعة تلك القنطرة المهدمة، وصعدت فوق تلك الدرجات ووجدت فوق القنطرة المهدمة، أرضية معمولة من الرخام المصقول من مختلف الألوان، وبناء عليه إنني أفترض أنه كان هنا فيما مضى كنيسة أخرى فوق بالأعلى، على ظهر الكنيسة والسدة، وبناء عليه لا بد أن كنيسة جبل صهيون قد امتلكت ثلاثة طوابق مكرسة، أي ان تقول: قبو تحت الأرض، ثم الكنيسة التي بنيت فوق الأرض، وقاعة عليا أخرى كانت مزينة، فوق الكنيسة، وفي السدة القديمة ما يزال المذبح العالي موجوداً، لكنه مهدم.

وذهبنا بعد ذلك نحو الطرف اليساري من السدة القديمة، حتى

نتمكن من الذهاب لزيارة أماكن مقدسة أخرى، ووجدنا هناك بعض المسيحيين الشرقيين جالسين إلى جانب حجرة مربعة، جزء منها مرتفع فوق أساس السدة القديمة، وجزء ما يزال متصلاً بالجدار القديم، وعلى تلك الحجرة كان هؤلاء الشرقيين يمارسون أعمال الكهانة بوساطة أربعة أحجار صغار، وكأنهن حبات النرد، وفي الحقيقة افترضت بالبداية أنهم كانوا يلعبون بالنرد، وتعجبت من جلوسهم هناك في مكان عام، حيث لا يوجد بيت للسكن، ذلك أنني لم أعرف بأن هذه الحجرة وحدها قد استخدمت من أجل كهاناتهم الواهمة، وكانوا يلتقطون أربعة أحجار صغار من الأرض، ويقوم الذي يريد رميها بهزها في داخل يده، مثلما يهز لاعب النرد، أحجار النرد في يده قبل أن يلقي بها، ثم يقوم بالقائهن فوق الحجرة المربعة، وبوساطة الشكل الذي ترسمه هذه الأحجار إثر سقوطها، يتنبؤون بالذي يودون معرفته، من ذلك على سبيل المثال، إذا شكل سقوط الأحجار خطاً مستقيماً، فهم يعتقدون بأن المسألة سوف تسير وفق الطريق الأول، لكن إذا سقطوا وفق خط متعرج، ستسير المسألة وفق طريق آخر، وإذا ما شكلت مربعاً، أو صليباً، ستسير وفق طريق آخر، وإذا كان دائرة، أيضاً وفق طريق آخر، وهكذا دواليك بالنسبة للأشكال الأخرى.

وشكل الصليب هو الشكل الرئيسي في هذه اللعبة، والأقرب إليه هو الشكل الذي يؤدي إليه ويقدر الحظ الأعظم به، وتقدر بقية الأشكال بمدى مشابهتها له، ووقفنا وضحكنا على حماقات هؤلاء الناس، لكنهم كانوا جادين تماماً، ركزوا انتباههم على كهانتهم، وكذلك تطلعاتهم نحو المستقبل.

ورأيت في بعض الأحيان أساقفة وكهنة من الكنيسة الشرقية، من ذوي الجدية والاحترام، رأيتهم جالسين هناك يلعبون ويتكهنون، وهم لا يلعبون من أجل الربح، بل لمجرد أوهام الكهانة، الأمر الذي امتلأ به

الشرقيون، والحجرة كانت في ذاتها خشنة وغير مصقولة، غير أنها غدت مصقولة جداً من جهة وجهها بسبب ممارسة الكهانة المستمرة عليها، لذلك بدت وكأنها تتعرض للصقل والتلميع بشكل متواصل.

مكان المطبخ الذي فيه جرى شواء خروف الفصح مع تسخين الماء من أجل العشاء الرباني

وبعدما رأينا هذه الأشياء، انصرفنا من المكان الذي فيه الحجرة، وجئنا إلى المكان الذي افترض الناس أنه فيه قام المطبخ، حيث أعدّ الحواريون في داخله شؤون احتفال عيد الفصح، بشواء خروف الفصح، وبتقطيع الخس البري، وبتسخين الماء من أجل غسل الأقدام، وتنظيف الأوعية والصحون واشعال نار من أجل احراق بقايا خروف الفصح، من جلد وعظام، وأجزاء أخرى، لا يمكن أكلها، وهذا المكان ليس خلواً من القداسة، أو تغذية، لأن الطباخين في ذلك المطبخ كانوا رجالاً مقدسين، والطعام الذي طهي هناك كان طعاماً مقدساً، ولقد علمنا من خلال الاصحاح الثاني والعشرين من انجيل القديس لوقا بأن بطرس ويوحنا، أكثر حواربي المسيح محبة وقداسة، كانا الطباخين اللذان جهزا عشاء الفصح في هذا المطبخ.

علاوة على ذلك، كان خروف الفصح الذي شوي هناك مقدساً، ذلك أنه نموذج ذلك الحمل الحقيقي الذي تألم على الصليب، وكذلك كان الماء مقدساً، أي الذي جرى تسخينه هناك، واستخدامه من قبل الرب يسوع لغسل أقدام حواربيه، ومع أن الانجيليين لم يقولوا شيئاً حول تسخين الماء، من المرجح — كما هو لائق — أن الغسل لم يكن إلا بماء ساخن، لأن الماء الساخن يزيل الأوساخ أكثر من الماء البارد، وينعش الأقدام والأرجل ويقويها، ويرى استخدام الماء الساخن ويعبر عن التقوى والمحبة التي توفرت عند الذي استخدمه، لأنه ليس برهاناً

كبيراً على الصداقة استخدام الماء البارد، في غسل قدمي الانسان، مثلما ليس دليلاً على وجود العاطفة الكبيرة تقديم ماء ساخن أو دافئ للشرب، فالانسان الذي يقدم كأساً من الماء البارد لن يخسر أجره أبداً، وذلك حسبما جاء في الاصحاح العاشر من إنجيل القديس متى، هذا ومثلما الماء البارد مرغوب به من قبل الانسان العطشان ليشربه، مثلما هذا، الماء الساخن مبهج بالنسبة للانسان المتعب لغسل قدميه به معا.

ولا يمكننا أن نفترض أن المسيح قد ترك أية علامات عن الحب الكامل، حيث أنه في أثناء العشاء لم يعط حواريه كأساً من الماء البارد، مع أن هذه علامة على الحب، ولها ثوابها، وذلك حسبما قلنا للتو، بل أعطاهم ماعبر عن حب أكثر وفرة، وهو كأس امتلأ بخمرة مزجت باعتدال بماء بارد، وكذلك عندما غسل أقدامهم، لم يفعل ذلك بماء بارد، مع أن ذلك كان يعبر عن حبه، لكنه غسلهم بماء ساخن، وهو علامة على حب أكثر وفرة، وبالمناسبة لم يكن الماء ماء ساخن صرفاً، بل ماء كان يحتوي على حشائش عطرية مع جذور قوية الرائحة، مزجت بعطور منعشة، مع مياه مقطرة، لظهار عاطفته الكاملة.

ونحن نعرف بأن المسيح وجه اللوم إلى الفريسيين، لعدم إعطائه ماء لغسل قدميه، ومدح المجدلية لأنها غسلت قدميه بالعطور والدموع الدافئة، هذا ولقد أحب المسيح حواريه، أكثر مما أحببت المجدلية المسيح، لذلك كان لابد له من غسل أقدامهم بماء جيد، دافئ بشكل مرغوب، وممزوج بعطور ثمينة منعشة.

وهكذا وقفنا فوق المكان الذي كان فيه المطبخ المقدس، والذي مايزال قائماً فيه حتى الآن جدار قديم ومرتفع، توجد فيه قناة متجهة نحو الأعلى، وكأنه قصد منها رفع الدخان من النار، وجثونا هنا على ركبنا، وقرأنا الصلوات المناسبة، وتلقينا غفرانات (+).

مكان دفن القديس اسطفان بعد العثور على جسده

وغادرنا المطبخ المتقدم الذكر، وتابعنا سيرنا حتى وصلنا إلى المكان الذي دفن فيه القديس اسطفان للمرة الثانية، وذلك مع الآخرين الذين عثر عليهم في حقل جالبار Galabar (كذا) الذي لاأفترض أنه كان بعيداً عن عناتا، التي هي قرية قائمة فوق المكان الذي رجم فيه القديس اسطفان، وذلك على جهة اليسار، وكان هذا حقل جماعيل، الذي سحب جسد القديس اسطفان من تحت الحجارة، وأخذه إلى حقله، حيث دفن فيه هو نفسه، وابنه أبيبوس Abybos ، ونيقوديموس فيما بعد، ومع مرور الأيام نسي أمرهم، وحدث فيما بعد، أنه كانت هناك مجاعة قاسية، بسبب الجفاف، لأنها لم تمطر على الأرض لأشهر كثيرة، ولقد كشف إلى رجل مقدس اسمه لوكيوس Lucius بأن الرب لن يكون محسناً إلى البلاد، مادامت هذه الآثار متروكة من دون تشریف، وعندما كشف له الحقل الذي رقدوا فيه بشكل اعجازي، وبعدما رآه، أخبر بذلك القديس يوحنا، أسقف القدس، الذي جاء إلى ذلك الحقل في مسيرة مهيبة، وعندما حفروا هناك، وجدوا جسد القديس أسطفان وأجساد الرجال الآخرين الذين دفنوا معه، فحملوهم إلى كنيسة جبل صهيون المقدسة، ودفنوه هناك للمرة الثانية مع كل التشریف، وسقط في الساعة نفسها كثير من المطر، وأعطت الأرض ثمارها كما كان الوضع من قبل، وحدثت بعد ذلك معجزات كثيرة في تلك البقعة.

وحدث فيما بعد أن واحداً من نبلاء القسطنطينية، وكان رجلاً تقياً يعتقد بالقديس اسطفان، قدم إلى هاهنا عبر البحر مع زوجته جوليانا Joliana، واتخذ لنفسه بيتاً على جبل صهيون، مات فيه بعد مضي سبع سنوات، وعملت زوجته تابوتا له على غرار تابوت القديس اسطفان، ووضعتة إلى جانب جسد القديس اسطفان، وبعد مضي بعض الوقت بعد ذلك رغبت جوليانا بالعودة إلى القسطنطينية، فسألت

أسقف القدس أن يعيد إليها جسد زوجها، ودخل الأسقف إلى مزار القديس أسطفان وأخرج لها تابوتين، وطلب منها أن تأخذ منهما تابوت زوجها، غير أنها أخذت تابوت القديس اسطفان ظانة أنه تابوت زوجها، واكتشفت وهي على طريق سفرها عبر البحر، من خلال عدد من المعجزات، أن التابوت الذي كان معها كان تابوت القديس اسطفان، وهكذا جرى نقل هذا التابوت إلى مدينة القسطنطينية، وفي آخر الأمر تم نقله من القسطنطينية إلى روما، حيث هو راقد الآن مع القديس لورانس.

ويقوم الآن في المكان المتقدم الذكر مذبح في الهواء الطلق، أقامه الرهبان هناك، وفي يوم عيده يقيمون قداساً هناك، وقرأنا في هذا المكان، ماوجهتنا كتب المسيرة أن نقرأه، وتلقينا غفرانات (+).

ثم إننا غادرنا ذلك المكان، وتابعنا سيرنا، وعبرنا الشارع إلى بيت مرثا، الذي كان بيتاً لابأس باتساعه، وهو قائم في مواجهة كنيسة جبل صهيون، ويقطن في ذلك البيت بعض النسوة الايطاليات من طائفة السسترشيان، اللائي يتبعن طقوسنا، ويعرفن باسم مرثاوات الرهبان، بسبب أنهن يخدمن الرهبان محبة في الرب، وذلك بالغسل، والخياطة والغزل لصالحهم، وهن يتعبدن في كنيسة الرهبان، وهن نساء متقدمات بالسن، وعظيمات الجدية، ومحترمات، يعشن في ظل قاعدة الحكم الثالث للقديس فرانسيس بصبر كبير، وتحمل عظيم، وقبل أقل من سنة من وجودي في القدس، اقتحم بعض الأعراب الباب في الليل، واندفعوا بهياج إلى داخل بيت هؤلاء السيدات، ثم هربوا بعدما حملوا معهم كل ماوصلت إليه أيديهم، ونهبوا البيت كله، وعندما كنت أعيش هناك غسلوا لي قميصي ووشاح الكتف، وعملوا أعمال إحسان أخرى لي، وتعيش السيدة التي جاءت من بلاط ملكة قبرص، والتي أتيت على ذكرها من قبل، هناك معهن.

وذهبنا من هذا البيت باتجاه الشرق، ثم انحرفنا جانباً نحو الجهة اليمنى، إلى خارج الطريق الذي يقود إلى وادي شعفاط، ووصلنا إلى بيت محمي بشكل جيد، ومغلق بأحكام مثله في ذلك مثل جميع بيوت المسيحيين، وعندما قرعنا على الباب، قدم إلينا رجال سود، قد أحرقتهم الشمس، وكانوا طوال القامة، وكان على وجوههم ندوب مع آثار احتراق، وهؤلاء فتحوا الباب لنا، وكان هذا دير الهنود، فيه عاش الرهبان والنساء مع بعضهم، وهم يعيشون في ظل نظام دقيق، وإنه لغريب أن ترى انحطاط ملابسهم، وعندما دخلنا إلى هناك، اقتادونا من خلال ممر إلى قاعة سيئة الإضاءة، يوجد فيها طريق مظلم نازل من خلال صدع في صخرة، ونزلنا نحو الأسفل، حاملين مصابيح معنا، ووصلنا إلى كهف قدر موجود تحت الأرض، مغطى من قبل الصخرة، وفي الحقيقة الكهف كله هو تجويف في الصخرة، ووجدنا هناك مكاناً للصلاة، ووفقاً لخبر قديم جداً، كان هذا المكان هو الذي تاب فيه داوود من ذنبه المتعلق بوفاة أوريا، وقرأنا لذلك هناك الاصحاح الثاني عشر من سفر صموئيل الثاني، الذي جاءنا فيه الخبر بأن داوود ذهب إلى مكان منعزل، حيث صام، وصلى، وبكى، وجلد نفسه بالأسواط وبالعصي، ونظم هناك سبعة مزامير توبة، غالباً ماقرأهم، وغناهم مع نحيب محزن، هذا ولم يكن هذا الكهف العائد لداوود في ذلك الحين خارج القصر الملكي، بل في داخله، لأن القصر كان واسعاً وعريضاً، وسقطنا في هذا الكهف على وجوهنا، ورجونا الرب أن يرحمنا، وتلقينا غفرانات(+).

المكان الذي فيه حاول اليهود اختطاف جسد العذراء المباركة

من الحواريين عندما كانوا حاملين له إلى الضريح

وعندما تلقينا غفراناتنا، صعدنا ثانية، وغادرنا ذلك البيت، ونزلنا نحو الوادي، وأبقينا وجوهنا متجهة نحو جبل الزيتون، أي باتجاه

الشرق، حيث كانت مدينة القدس موجودة على يسارنا، وكنيسة جبل صهيون على يميننا، وهكذا وصلنا إلى المكان الذي تأمر فيه اليهود على اقتراف الجريمة التالية: فبعد وفاة العذراء مريم الأعظم قداسة، وعندما كان جسدها محمولاً من قبل الحواريين وهم نازلين به من جبل صهيون من أجل دفنه في وادي شعفاظ، وبعدما ساروا مسافة مع الغناء والسرور، فجأة، اليهود الذين عرفوا سبب هذه المسيرة، خرجوا من المدينة مع قوة مسلحة، وقد امتلأوا غضباً صدوراً عن الكراهية العمياء القديمة التي حملوها نحو العذراء المجيدة، وانقضوا على الذين كانوا مرافقين للجنازة، وسائرين إلى جانب النعش، وأجبروهم على التوقف، وكان مقصدهم الاستيلاء على الجثمان المقدس، ورميه وكأنه جسد مدنس، وارغام الحواريين على الفرار، وهكذا وقفوا على مقربة منه وصرخوا بصوت مرتفع *thema Kesesa*، وكان معنى ذلك «عاهرة مدنسة»، وتقدم أحدهم، وصعد بجرأة وأمسك التابوت بكلتا يديه، محاولاً رميه إلى الأرض مع الجسد المقدس الذي فيه، لكن ما أن لمس النعش بيديه، حتى ذبلت يده مع الذراعين، وجفتا، وباتتا معلقتان من دون حراك مثل عصاتين، ومع حدوث هذه المعجزة أصيب الرجل التعيس بندم عظيم، بينما وقف بقية الحشد المهاجم مرعوبين، وقد امتلأوا خوفاً واضطراباً، ورجاهم الرجل المعطل أن يرفعوا له ذراعيه اللتان تعلقتا بدون حراك، ووضعهما فوق الجسد المقدس، فكان أن شفي على الفور، وأصبح مسيحياً، وعاد البقية مخذولين إلى المدينة، وتركوا الحواريين يحملون الجسد المقدس، إلى موضع الدفن في جيسماني، وهكذا قرأنا في هذا المكان الـ *Salve Regina*، وبعدما تلقينا غفرانات، مضينا في طريقنا نتابع سيرنا.

المكان الذي أخفى بطرس فيه نفسه بعد انكاره الثالث

ونزلنا بعد هذا من المكان المتقدم الذكر نحو الوادي، ووصلنا إلى

صخرة واقفة عالية، فتحت هذه الصخرة، جلس القديس بطرس يبكي وينتحب، ويستغفر، وكان ذلك بعد مغادرته لبيت كيفاس، بعد إنكاره الثالث لربه، ونال هناك غفراناً لذنبه واعفاء من العقوبة، وتلونا هنا الصلوات المعينة، وتلقينا هناك غفرانات مطلقة(++)، وهنا حدث في يوم قيامة الرب يسوع، أنه ظهر إلى القديس بطرس وواساه، وقام فيما مضى على هذه البقعة كنيسة عظيمة وجميلة، لكنها مهدمة الآن تماماً، إلى حد أنه لم تبق منها أية آثار، حتى الصخرة التي جلس القديس بطرس تحتها يبكي، والتي كانت مخوفة على شكل كهف واسع، أخذت تصغر يوماً، وهي الآن مجرد حجرة صغيرة، لأن الحجاج كسروا قطعاً منها، وحملوها معهم، وإلى جانب هذه الحجرة تتدفق مياه مجلوبة إلى مدينة القدس من جبال حبرون في مجرى مائي، وفق طريقة مدهشة، سوف أتكلم عنها مطولاً في الورقة ٢٤٩، وقائم هناك أيضاً بركة عميقة، من الممكن سحب الماء منها، وأعتقد أنه عندما كانت هنا كنيسة، كانت هذه البركة العميقة قبو تلك الكنيسة.

المكان الذي قام فيه بيت عناس القاضي الأول للرب يسوع

وبعدما رأينا هذا المكان، مضيئاً نسير على دربنا، حيث أدرنا ظهورنا إلى الوادي، وتسقلنا ثانية الراية التي كنا قد نزلنا منها، إنما ليس عبر الطريق نفسه، لكن انحرفنا جانباً باتجاه المدينة المقدسة، وكان ذلك بين بيوت مهدمة، ووصلنا إلى بيت كان بابه محكم الاغلاق وبقوة، وقد قرعنا عليه، وسمح لنا بالدخول، وعندما أصبحنا بالداخل أتينا إلى كنيسة جميلة، مكرسة على شرف الملائكة المقدسين، ولذلك عرفت باسم كنيسة الملائكة المقدسين، وكان من حول هذه الكنيسة قلايات وقاعات، فيها سكن رهبان أرمن، مع مسيحيين شرقيين، ورجال سود محترمين، وكان هذا المكان في أيام آلام ربنا بيت عناس (حنان) الذي إليه جلب الرب يسوع أولاً من الحديقة التي اعتقل فيها، وجرى ذكر هذا البيت

وجلب الرب يسوع إليه بشكل متميز وواضح في الاصحاح الثامن عشر من انجيل القديس يوحنا، حيث نقرأ فيه كيف قام عناس (حنان) الكاهن الأعلى فاستجوبه بازدراء، وسأله عن عقيدته وعن تلاميذه، وكيف قام واحد من الخدم بلطم يسوع لطمة بالغة القسوة على وجهه، ولهذا —تبعاً لبعضهم— سقطت أسنانه من فمه، وتغطى وجهه بالدم، ولدى تلقي الرب يسوع هذه اللطمة لم يقل شيئاً، ولم يفعل شيئاً قاسياً، كما أنه لم يقم بمعاقة الذي لطمه بأي شكل من الأشكال، وحول هذا قال القديس أوغسطين: «إننا إذا ماتفكرنا حول الذي تلقى الضربة منه، ألا يتوجب علينا أن نفترض أن النار كانت ينبغي أن تنزل من السماء وتحرقه، هذا الذي وجه الضربة إليه، أو أن تفتح الأرض وتبتلعه، أو أن يجرى انتزاعه وأخذه ليتعذب من قبل الشياطين، أو أن يتعرض لعقوبة من هذا القبيل، إن لم يكن أكثر؟ ولم يأمر الذي صنع العالم من قبله بأي من هذه الأشياء مع أنه امتلك القدرة على تنفيذها، ذلك أنه آثر أن يعلمنا الصبر، فبالصبر يمكن قهر العالم».

وهذا يمكن أن ندرك فساد وزيف الذين قالوا بأن الرب يسوع ، عاقبه على الفور، وضرب فوق البقعة نفسها قائلاً له: «هنا سوف تظل واقفاً، وتكون شاهداً على براءتي حتى يوم الحساب الأخير، ووقتها سوف يتم انقاذك»، وقالوا بأنه منذ تلك الساعة فصاعداً، هو واقف —لهذا السبب— هناك، وهو حي، لكنه لا يأكل ولا يشرب، ولا ينام، بل يتطلع نحو الأمام بتشوق عظيم إلى نهاية الحياة، حتى يمكن تحريره، وكان دوماً يسأل القادمين من الحجاج، الذين يأتون إلى هناك، عما إذا ما كانت النساء مازلن يحملن بالأولاد الذكور، لأنهم يقولون أنه مع اقتراب نهاية الدنيا تتوقف النساء عن الحمل بالأولاد الذكور، وهكذا هو واقف هناك، يتلقى أسئلة ويجاب عليها، وهذه الحكايات عابثة وآثمة، لأنها ضد الكتابات المقدسة، وضد الانجيل، ومعاكسة للإيمان

وللصدق، وقد اخترعت من قبل حمقى، ومشردين تستروا تحت رداء التقوى وهم يتجولون في أرجاء البلاد، ويخترعون مثل هذه الأكاذيب، ويجذبون بذلك القوم التافهين ويضللوهم، لابل في بعض الأحيان يضللون حتى الناس الذين يبدو أنهم عقلاء، وأكثر تنبها من أن يتبنوا كلامهم ويصدقوه ويعطوهم المال مقابل كذبهم.

والصدق يرغمني على الاعتراف بأن هذا قد وقع لي شخصياً، ففي السنة التي كنت أستعد فيها من أجل حجي الأول إلى الأرض المقدسة، قدم إلى أولم إثنان من المشردين من فلاندرز، حيث أعلنوا أنها قدما للتو من القدس، ومن جبل سيناء، ورويا عدداً من الحكايات العجيبة، وهما جالسين بين الناس البسطاء في دار الضيافة، وقد تحلق عدد كبير حولهما من الرجال والنساء لسماع حكاياتهما، وكان هناك أرملة محترمة اسمها السيدة آنا فون كنغسك Kingseik، سحرها حديثهما إلى حد أنها أخذتهما إلى بيتها، وعاملتهما بكرم زائد، حتى تمتلك ما يكفي من وقت للتحادث معهما، ووجهت إليّ في أحد الأيام الدعوة إلى بيتها لمقابلتهما، حتى أستمع لما كانا يقولانه، لأنها كانت تعرف أنني كنت على وشك الشروع برحلتني إلى الأماكن المقدسة، وشرعا بحكايتهما الكاذبة، وكان من الواضح وبطبيعة الحال أنني لم أصدق شيئاً مما أخبراني به، ولا أريد أن أكرر الكذب الذي أخبراني به، وقد نصحاني بعدم السفر بحراً، بل أن أذهب على قدمي من خلال هنغاريا، ودالماتيا إلى القسطنطينية، حيث سيعطيني امبراطور القسطنطينية خمسين دوقية، لأنه كان متعهداً بأن يدفع ذلك المبلغ إلى كل حاج ذاهب إلى الأرض المقدسة، وعندما قلت في جواب لهذا الاقتراح بأن هذا الامبراطور لم يكن مسيحياً بل كان تركيا، قام أحدهما على الفور فتصدى لحجتي بكذبة جديدة، حيث أعلن بأن ملك القدس (كذا) صار مسيحياً، وأن المدينة قد تحولت إلى المسيحية، وأن هذا الملك لن يسمح لأي إنسان بأن يرسم فارساً في

الضريح المقدس، ما لم يتصارع معه ويبرهن على قوته.

وقد أعلننا أن بيعة الضريح المقدس لربنا قد سترت كلها بالذهب الأصفر، وأن مصابيحها معلقة بحوامل ذهبية، وأنه يوجد فوق البيعة الصغيرة العائدة لضريح المسيح هناك مصباح واحد يحترق باستمرار من دون اشعال حيث يتلقى النار والزيت من السماء، وأن القدس كلها قد بنيت بحجارة ثمينة، وأخرج أحدهما قطعة حجر غير مصقولة، قال بأنه وجدها في الطريق في القدس، وقال بأنه على غير استعداد لبيعها مقابل عشرين دوقية، وقال لو أن انسانا عرف الحجارة الكريمة وميزها لكان بإمكانه أن يجدها بأعداد كبيرة هناك بين الأحجار العادية لذلك المكان.

علاوة على ذلك، قام واحد منهما فكشف عن كتفه الأيمن بحضوري، وأراني ندبة حمراء مستديرة عليه، وهي لها شكل ما يعرض على هامش (الكتاب)، وأخبرنا أن راعي دير القديسة كاترين على جبل سيناء لديه دولاب ذهبي، كان يضعه فوق فحم يحترق، وعندما يصبح حامياً، يرفعه بملقط ويدمغ به الحاج الذي يكون متعرياً لتلقيه على كتفه الأيمن، كما أنهما لم يخافا من تكرار الحكاية الزائفة المتقدم ذكرها حول الذي لطم يسوع، بل زادا بأنهما تحدثا معه، وأنه لم يكن مسموحاً لجميع الحجاج برؤيته، وقد أخبراني بهذا وبأكاذيب أخرى كثيرة مع أنهما لم يريا القدس.

وعندما كنت —الآن— في بيت عناس (حنان)، سألت مازحاً دليلنا، وكان واحداً من الرهبان الفرنسيين أين وقف الرجل الذي لطم الرب يسوع؟ فافتادني الراهب إلى خارج الكنيسة، وأشار إلى شجرة زيتون كانت نامية إلى جانبها، قائلاً: «انتبه، هذا هو الرجل، ذلك أنهم يقولون بأن أظافره قد نمت في داخل الأرض، وتعلقت لحيته على الطرف، مشيراً إلى جذور الشجرة وأغصانها، ويحترم سكان الدير، لابل في الحقيقة جميع المسيحيين الشرقيين هذه الشجرة، ويذكرون أنه كتب في

كتبهم القديمة جداً، بأن الرب يسوع وقف مربوطاً إلى تلك الشجرة، بينما أكل الموظفون وشربوا، لأن عناس كان مسروراً إلى أبعد الحدود، بسبب إلقاء القبض على الرب يسوع، وأعطى لذلك طعاماً وشراباً إلى الذين اعتقلوه، وبناء عليه قبلنا جذع الشجرة التي كانت قديمة جداً، وهكذا، ثم إننا عدنا إلى الكنيسة، وتلونا صلواتنا المذكورة في المسيرة، وتلقينا غفرانات مطلقة(++).

بيت كيفاس الكاهن الأعلى الذي سخر فيه

من الرب يسوع المسيح

عندما غادرنا بيت عناس —الكاهن الأعلى، بادرنا مسرعين نحو بيت كيفاس، وكنا نشعر بالحزن والخشوع، ونحن نسير حيث سار الرب يسوع، وعندما وصلنا إلى البيت وجدناه مغلقاً، وعندما قرعنا على الباب فتح لنا، فدخلنا إلى الكنيسة، وتلونا صلواتنا المحددة في المسيرة، وتلقينا غفرانات مطلقة(++)، واسم هذه الكنيسة، كنيسة القديس المخلص، وهي قائمة فوق المكان الذي قام عليه بيت كيفاس، حيث يعرف كل مسيحي ماالذي عاناه يسوع في داخله وتحمله، وهناك بحثوا عن شاهد زور يشهد ضده، فلم يجدوا أحداً، وهناك أنكر بطرس ثلاث مرات أنه يعرف الرجل، وهناك ربط الرب يسوع، وغطيت عيناه، وبصق عليه، ولطم، وضرب بكفوف اليد طوال الليل كله تقريباً، وبقي هناك مسجوناً لمدة ثلاث ساعات، وبناء عليه بقينا هناك مدة طويلة نتفكر حول هذه الأشياء، ونحن نصلي، وامتلاً المكان بدموعنا، وآهاتنا وتنهلاتنا.

ثم إننا بعدما قمنا من صلواتنا ونهضنا، اقتادنا كهنة هذه الكنيسة حول الأماكن المقدسة في الداخل، وجئنا أولاً إلى المذبح العالي في السدة، الذي جردوه من أغطيته المعلقة حتى نتمكن من رؤية الحجرة

التي شكلت لوح المذبح، وكانت هذه حجرة كبيرة، وسميكة، وواسعة، وهي قطعة من الحجرة التي دحرجوها من على فم ضريح الرب، ولذلك قرأنا الاصحاح السادس عشر من انجيل القديس مرقس، وقد كانت فيها مضى حجرة كبيرة جداً، لأنه بعد مضي سنوات كثيرة، قطع المؤمنون هذه الحجرة إلى قسمين، وتركوا القسم الأول قرب الضريح المقدس، في حين جلبوا القسم الآخر إلى هاهنا، إلى هذه الكنيسة، وقرروا جعلها لوحاً، أو منضدة، للمذبح، ولقد قبلنا هذه الحجرة المقدسة، ونظرنا إليها عن قرب، وفي الوقت نفسه راقبنا كهنة الكنيسة بدقة، حتى لا يقوم واحد معاً باقتطاع شظية من الحجرة، بآلة حديدية، لأنهم يجلبون هذه الحجرة تبجيلاً عظيماً، وفي الحقيقة لولا وجود هذه الحجرة لباعوا المكان منذ السنة الماضية، لأنهم كانوا رهباناً أرمن في غاية الفقر، ولشدة عوزهم كانوا سيبيعون المكان إلى الرهبان الفرنسيين، لأنهم كانوا غير قادرين على إبقاء الكنيسة والدير وترميمهما، وقد أرادوا بيع المكان شريطة أن يأخذوا هذه الحجرة معهم، لأنهم كانوا يأبون ولا يوافقون مطلقاً على بيع الحجرة معه.

وحدث في هذه السنة، أن جاء إلى القدس رجل أرمني غني جداً، تولى إعادة بناء الكنيسة المهتمة والدير، وقدم يد المساعدة إلى هؤلاء الرجال الفقراء، وفي اثناء حجتي الأول، وصل إلى يدي قطعة كبيرة الحجم من هذه الحجرة، فقد اشتراها فارس بدوقيتين من كاهن أرمني، كان قد دخل إلى الكنيسة مع الفارس خلسة، خشية أن يراه الأرمن الآخرون، واقتطع شظية من الحجرة، وقد مات هذا الفارس نفسه في البحر، وقد ورثت هذه الشظية منه، وأحضرتها معي إلى أולם.

وتركنا بعد هذا المذبح، وفي مقابل المذبح، على الجهة اليمنى من الكنيسة، هناك مررنا من خلال باب صغير إلى قلاية ضيقة ومظلمة، وهي مقامة بوساطة جدران سميكة، وقادرة على استيعاب رجل واحد

وهو واقف، ولذلك دخلنا إليها واحداً تلو الآخر، وكانت هذه القلاية هي الزنزانة التي كان يودع فيها الرجال الذين حوكموا، أو الذين يتوجب جلبهم إلى أمام القاضي، أو احضارهم للاعدام، فهناك يسجنون حتى يحين الوقت لاحضارهم إلى المحكمة، وبناء عليه سجن الرب يسوع هناك، بعد محاكمته، ووقف هناك لمدة ثلاث ساعات، ويده مربوطان خلف ظهره، وعينه أيضاً مربوطتان، وكان وجهه مبسوقاً عليه، وقد غطته الالهات، وكان يعاني من البرد، وهنا انحنينا بأنفسنا نحو الأرض، وصلينا بخشوع، وقدمنا الشكر إلى مخلصنا، وخرجنا بعد هذا من الكنيسة إلى الساحة، أو الباحة في الخارج، حيث كانت هناك نار، وقف حولها بطرس مع الخدم عندما أنكر الرب، وعندما استدار الرب، وألقى نظرة عليه، فضلاً عن هذا، لقد رأينا المكان الذي وقف عليه الديك، الذي لدى صياحه عاد بطرس إلى نفسه، وقد نظرنا بخشوع نحو هذه الأماكن جميعها.

الزاوية التي وقفت عندها العذراء المباركة وهي تنظر

نحو بيت كيفاس عندما كان ربنا يحاكم هناك

وخرجنا بعد هذا من ذلك البيت، وأخذنا طريقنا إلى زاوية البيت، التي منها يمكن للإنسان أن ينظر بشكل مباشر نحو باب بيت كيفاس، وعليه إذا ما وقف إنسان على الجانب الأقصى من الزاوية، إنه إذا مامد رأسه، أو احدى عينيه، إذا ما اختار ذلك، يمكنه أن يرى باب بيت كيفاس، وهو نفسه لا يمكن رؤيته من قبل أحد من الناس، لا يعرف بوقوفه خلف الجدار، وينظر باحثاً متقصياً حول الزاوية، ففي هذا المكان — حسبما يقولون — وقفت العذراء المباركة، متخفية طوال ذلك الوقت، وهي تراقب الباب الذي من خلاله اقتيد المسيح مغلولاً، راغبة في أن ترى إلى أين سيأخذونه في النهاية.

آه، مع أي آية آلام ودموع، لابد أن العذراء المباركة قد وقفت تنتظر هناك! وماذا تظنون، كانت العذراء ستجيب، لو أن أحداً سألها لماذا هي واقفة هناك، أو من الذي كانت تنتظره هناك؟ لقد كانت العذراء ستجيبه: اطلاق سراح ابنها من أيدي اليهود، وهل كان لديها جواب آخر؟ وكانت ستضيف: «إنني أعرف أن ابني بارع وفصيح، وأنه لو أحضر أمام قاضي عام لربح البراءة، ولأطلق سراحه، ومع ذلك هو على العموم، لطيف، ولا يؤذي، وصامت، مثل حمل أمام الذي يجز صوفه، وهو لن يفتح فمه بالدفاع عن نفسه، فضلاً عن ذلك، هو عذب، ومحبوب، ولدي أمل كبير، أنهم سوف يرحمونه، وأنه سوف يعاد إلي، ولهذا وقفت هنا، وأنا مليئة بالقلق، حتى أرى النهاية، وإلى أين سيقاد، فإن كان إلى الحياة، فأنا سأعيش معه، وإن كان إلى الموت، فلسوف أتقدم وأموت معه».

ويقول الناس الأتقياء، بأن بطرس، بعدما أنكر ربه، وخرج من ذلك البيت وهو يتأوه ويتنهد، جاء إلى هذه الزاوية، ومن خلال الخجل والحزن لم يستطع ان يتكلم مع العذراء، كما لم تستطع العذراء أن تكلمه، ولهذا ركض إلى الكهف الذي تحدث عنه من قبل، ولقد قبلنا هذه الزاوية، وتلقينا غفرانات(+).